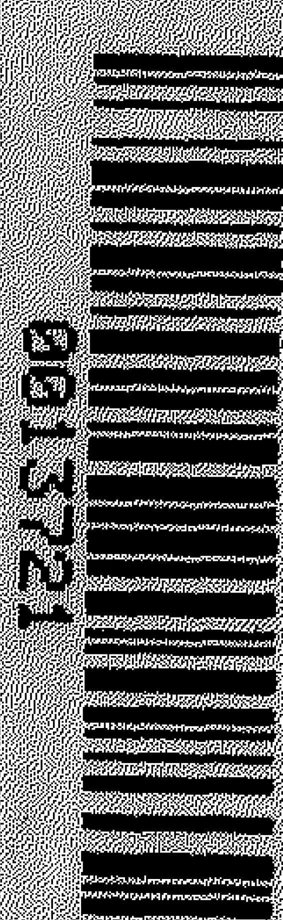
دار الثقافة

رجال الكتاب المقدس

الجزء الثالث



القس الياس مقار

رجال الكتاب المقدس

المجلد الثالث

بقلم
القس الياس مقار



طبعة ثانية

صدر عن دار الثقافة –ص.ب ١٢٩٨ – القاهرة

١٠ / ٣٠١ ك٣ ط٢ (ا) / ٥ – ١٠ / ٨٣ – ٨٨
رقم الايداع بدار الكتب : ٥١٢٢ / ٨٨
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة

تمهيد

هذا هو الجزء الثالث من الدراسة الشاملة لرجال الكتاب المقدس .

قدم لنا المؤلف فى الجزئين الأول والثانى دراسة لثمانين شخصية من آدم حتى ملاخى .

وفى هذا الجزء يتابع دراسة أربعين شخصية أخرى من العهد الجديد بادئاً بيوسف النجار حتى بيلاطس .

ونحن نشكر الله لأجل هذه الدراسات القيمة التى قدمها لنا المؤلف قبل أن ينتقل إلى المجد .

فأنت تحس وأنت تقرأ هذا الكتاب أن المؤلف وإن مات يتكلم بعد .

دار الثقافة

في هذا الكتاب

٨١
يوسف النجار

« يا يوسف ابن دا.د لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك . لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس » (مت ١ : ٢٠)

على مسرح التاريخ المسيحى ، وفى الصفحة الأولى من الإنجيل ، يظهر هذا الرجل ، وتتناثر أضواؤه على صفحات العهد الجديد كالنور الخاطف الذى لا يلبث أن يختفى ، وكأنما هذا هو حظه من الحياة ، ونصيبه من الدنيا ، . . . ولعل مشكلته الكبرى أنه ظهر إلى جانب العذراء العظيمة ، التى حجب نورها نوره ، وشخصيتها شخصيته ، رغم أنها انتسبت إليه ، وعاشت معه — على قدر ما هو ثابت من الكتاب المقدس — إثنى عشر عاماً على الأقل ، . . . على الرغم مما تحلى به كلاهما من عظمة وجمال وجلال ، وعلى الرغم من تفوق العذراء الباهر ، حيث أضحت كوكباً لامعاً فى كل أجيال التاريخ ، فإن كليهما كان لابد أن يتوارى نورهما مجتمعين معاً ، مهما بلغ من الروعة والبهاء ، أمام شمس البر يسوع المسيح ! ! . . ومن

الواضح أن يوسف النجار كان يستحيل أن يظهر فى لمعانه الحقيقى ، إلى جانب مريم العذراء ، أو يسوع المسيح ، .. ومع ذلك فإن المدقق فى قصته يكتشف أنه أمام إنسان كان من أعظم الناس على الأرض ، وأنه وإن كان قد عاش فقيراً حقاً ، يكاد يبلغ حظه من المادة حد العدم ، لكن هذا الرجل الفقير كان من أنبل النفوس وأشرفها ، وهو واحد من أولئك الذين يستطيعون أن يعلموا الغير أن النبل لا يقاس أبداً بالمتاع أو يوزن بالذهب ، . لقد جاء هذا الرجل إلى دنيانا فقيراً على أقسى ما يكون الفقر ، رغم أنه سليل الملوك ، فى عالم لا يثبت على حال إذ قد يسقط الملك ويرفع الصعلوك ، . . ومع ذلك فعندما لعب دوره كما يسجله الإنجيل ، لعبه بنبل لا يعرفه سوى الشرفاء بين بنى الإنسان ، . ويكفى أنه صمد أمام تجربة لم تحدث قط لغيره من البشر ، تجربة الثقة فى صدق كلام العذراء رغم أن هذا الكلام لم يحدث مثيله مطلقاً ولن يخطر مرة أخرى على الذهن البشرى ، وإن كنا لا نعلم كم هى الفترة التى عاشها فى الصراع النفسى ، إلا أننا نعلم أنه اجتاز ، وهو مرفوع الرأس والنفس ، عاصفة من أقسى العواصف التى اجتاحت قلوب الناس ، .. وعندما اتخذ هذا الرجل قراره بضم العذراء إليه ، كان ، وهو يدرى أو لا يدرى يصنع القرار الذى صعد به سلم الخالدين فى كل الأجيال والعصور ، . . كان مجد الرجل فى كلمة واحدة ، أنه ارتبط بالمسيح ، ومن العجب أنه يظهر أول الأمر ، كما لو أن المسيح انتسب إليه ، وفى الحقيقة أن مجده الأبدى ، كان فى انتسابه هو إلى المسيح ، ومن هنا سجلت قصته التى رسمها الرسامون ، ورواها القصاصون ، ووعظ بها الوعاظ ، والتى ستبقى على الدوام لا يمل الناس سماعها ، طالما كانت هناك قصة تروى أو تعاد ، ولذا يصح أن نتابع هذه القصة فيما يلى :

يوسف من هو :

من الواضح أن رواية الإنجيل تبين أن يوسف النجار يرجع فى أجداده إلى داود الملك ، وإلى سبط يهوذا ، وإن هذا الرجل الفقير كان من سلالة الملك العظيم المشهور ، ولا يتسع المجال هنا لذلك السيل من الدراسات التى أجهد الشراح والمفسرون فيها أنفسهم حول الرواية حسبما جاءت فى إنجيل متى ، والأخرى فى انجيل لوقا ، . . وإن كانت أرجح الدراسات تبين أن متى وهو يكتب إلى اليهود ، عاد بنسب المسيح إلى يوسف إذ حسب ابنه بالتبنى ، والذى دون فى السجلات منسوباً إليه ، وإن كان فى الوقت نفسه يؤكد أن العذراء حبل فيها من الروح القدس ، . . هذا فى الوقت الذى كان يكتب فيه لوقا إلى الأمم الذين لا يعنيهم ارتباط يوسف بالمسيح ، ومن ثم تحول إلى نسب العذراء نفسها ، وعلى هذا الأساس فالراجح عند ثقاة المفسرين . أن يعقوب كان أباً ليوسف ، . . فى الوقت الذى كان فيه هالى أبا لمريم العذراء ومن ثم جاءت العبارة فى إنجيل لوقا ، « وهو على ما كان يظن ابن يوسف ، . . ومن الواضح أن يوسف جاء من سلسلة سليمان الملك ابن داود ، وجاءت العذراء من سلسلة ناثان بن داود ، . وكلا البشيرين يؤكد ميلاد المسيح العذراوى ، . . على أن الصراع الأقسى والأشد كان حول من هم اخوة المسيح الذين جاء ذكرهم فى الإنجيل ، ومن الغريب أن الدراسة المتسعة المدققة ، لا تراه صراعاً بين الكنائس التقليدية والبروتستانتية ، فقد وجدت الآراء المتفرقة على الجانبين دون تقيد بالتقليد أو البروتستانتية ، فهناك الرأى القائل إن هؤلاء الاخوة هم أبناء يوسف من زواج سابق وأنهم فى مفهوم الناس أو حسب القانون ، اخوة غير أشقاء للمسيح ، وكان من أقدم الآخذين بهذه الآراء أوريجانوس ويوسابيوس وغريغورى النسى ، وكيرلس الإسكندرى ، وأبيفانيس ، وأمبروز ، ويستند هذا الرأى إلى أن

يوسف لا يسمع عنه بعد قصة المسيح فى الهيكل ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، مما يشجع على الاعتقاد أنه كان كبير السن ، وقد مات ، ولم يكن هناك من يهتم بالعذراء بعد المسيح ، سوى يوحنا الحبيب الذى ضمها إلى خاصته بوصية من السيد ، . . وقد وجد من اعتقد أنهم أبناء العمومة للمسيح وعلى وجه الخصوص من يعتقدون أن مريم ويوسف كانا أكثر قرابة لا بمجرد عودة كل منهما إلى سليمان أو ناثان ، إذ يتصور بعض المفسرين بأن هناك قرابة الولى بين هالى ويعقوب ، وإن أحدهما مات قبل الآخر ، وترك أرملته فى كفالة الثانى ، وإن كان من الصعب تصور هذا الأمر ، لأن العذراء فى هذه الحالة تصبح أختاً ليوسف ، ولا يمكن أن تكون إمرأة له ، إلا إذا كانت الولاية أبعد من ذلك بين الأجداد ، وهنا تصبح القرابة ، التى لا يقوم عليها دليل ثابت من هذا القبيل ، وهناك من اتجه إلى أنهم أبناء خالته مستندين إلى القول : « وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية » ونشأ التفكير أن زوجة كلوبا هى أخت العذراء ، وأن أبناء كلوبا هم أخوة المسيح ، وإن كان الرد على ذلك أنه يستبعد أن تسمى اختان باسم واحد ، وأن الأصح أن المذكور هنا أربع نساء هن : العذراء وأختها ، ومريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية ، . . وقد وجد بين المعترضين على الأخذ بفكرة زواج يوسف السابق ، أنه لو صح أنهم أخوة من إمرأة سابقة لما أجهد متى نفسه وهو يكتب إلى اليهود لإثبات أحقية المسيح كملك ، لأن أبناء يوسف السابقين ، فى مفهوم الشرع اليهودى كان البكر فيهم أولى بالملك والعرش ! ! . . على أن من الغريب على الجانب الآخر أن ترتليانوس وهلفاديوس كانا من القدامى الذين لايجدون غضاضة فى قدسية الزواج ، واعتبارهم أشقاء ليسوع المسيح ، ومع أن لانج من رجال اللاهوت البروتستانت يميل إلى أنهم أبناء كلوبا إلا أن جمهرة اللاهوتيين

أمثال هردر ونودر وواينر ومار وويزلر وروس واستاير وهم ألمان، وألفورد وفرار من الإنجليز، لا يأخذون برأيه، ويميلون إلى أنهم أخوة المسيح الأشقاء حسب الجسد، . . وقد آثرنا هذا العرض، دون رغبة فى الدخول إلى حلبة الصراع الذى يتجاوز نطاق تحليل الشخصية التى نحن بصددها، وإنما ذكرناه ليكون القارىء على بينة من وجهات النظر المختلفة التى ما تزال تطوف إلى اليوم فى الذهن أو الفكر المسيحى، . . وإن كان يهمنا فى الوقت عينه أن نؤكد أن المسيح عند اليهود كان معتبراً ابن يوسف . وأن مريم العذراء كانت تعتبر فى مفهوم الجميع منسوبة إلى يوسف : « لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك » . . وأنها بهذا المعنى انتقلت معه إلى بيت لحم، وذهبت معه هاربة إلى مصر، وعادت لتعيش معه فى الناصرة وهى القائلة ليسوع وهو صبى فى الثانية عشرة فى هيكل الله : « هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين » . . « ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما » (لو ٢ : ٤٨ و ٥١) .

ومن الواضح أن الرجل كان فقيراً جداً، وربما كان من أفقر الناس فى مدينة الناصرة، ومن الصعب علينا تصور المسكن الذى كان يسكنه فى الناصرة، إذا ذكرنا أن المسيح عندما خرج من الناصرة، وتنقل بين كفر ناحوم وأورشليم وغيرهما من المدن، خلف لنا العبارة القاسية على النفس : « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه »، ويبدو أن يوسف النجار كان كذلك . ومن المعتقد أن فقره العميق كان ظاهراً فى التقدمة التى قدمتها مريم بعد ميلاد المسيح . فقد كانت تقدمة الفقراء : « زوج يمام أو فرخى حمام » . . ومن المتصور أيضاً أن تقدمة الذهب التى قدمها المجوس أعانته فى رحلة الهروب إلى مصر ! ! . . كانت حرفة الرجل التجارة حسب العادة المتمكنة عند اليهود بضرورة تعليم أولادهم حرفة ما يواجهون بها الحياة، فقراء كانوا أم أغنياء، ومن البادى أن

كسب الرجل من النجارة كان ضئيلا جداً ، ومع ذلك استمر عليها وعلمها ليسوع المسيح، . وهنا تبدو أمامنا دورة الزمن المحزنة ، فيصبح الوريث لعرش داود نجاراً فقيراً ، . . ويصبح أكثر منه ذاك « الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس » ، (فى ٢ : ٦ و ٧) ابهتى أيتها السموات والأرض لأنه عندما بدأ رحلته على الأرض كان على الصبى يسوع أن يكون « صبى نجار » فى دكان صغيرة حقيرة فى مدينة الناصرة ! ! . .

أليس من الواجب أن نقف هنا قليلا ، لا لنتعجب من عمق الفقر الذى بدأت به هذه العائلة المباركة التى غيرت مسار التاريخ البشرى ، بل لنتعلم أن موازين الله ومقاييسه ، تختلف تمام الاختلاف عن موازين الناس ومقاييسهم فليس هناك أمام الله فقير أو غنى فى الأرض ، إذ كلنا فقير أمامه وتجاهه ، وكلنا يدخل الدنيا عرياناً ليعود أيضاً منها عريانا بين يديه . ولم يختر الله إنساناً يحمله رسالة فى الأرض لمجرد أنه غنى أو ولد فى بيت عظيم وفى فمه ملعقة من ذهب ، بل كانت سياسته الثابتة على العكس من ذلك : « فانظروا دعوتكم أيها الأخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ليس كثيرون أقوياء ليس كثيرون شرفاء بل اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء ، واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء ، واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود ، لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه . ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذى صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء . حتى كما هو مكتوب من افتخر فليفتخر بالرب » . . . (١ كو ١ : ٢٦ – ٣١)

وألا يحق لنا أن نفتخر هنا بيسوع المسيح « صبى » يوسف النجار الذى بدأ التجسد من المزود وبيت النجار الفقير الصغير فى مدينة الناصرة ! ! . . إن أعظم عظماء العالم هم الذين وصلوا إلى نقطة التجرد مما كانوا يحملون من

متاع الدنيا قبل أن يبلغوا رحلة الخلود مع الله ، . . لقد تجرد موسى من خزائن مصر قبل أن يبدأ رسالته العظيمة ، . . « وألبس شاول داود ثيابه وجعل خوذة من نحاس على رأسه وألبسه درعاً . فتقلد داود بسيفه فوق ثيابه وعزم أن يمشي لأنه لم يكن قد جرب . فقال داود لشاول لا أقدر أن أمشي بهذه لأنى لم أجربها . ونزعها داود عنه ، وأخذ عصاه بيده وانتخب له خمسة حجارة ملس من الوادى وجعلها فى كتف الرعاة الذى له أى فى الجراب ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطيني » (١صم ١٧ : ٣٨ — ٤٠) . ولم يعرف داود البطولة والانتصار إلا بعد أن تجرد من لباس العالم وسلاحه ! ! . . . لقد بدأ المسيح رحلة الخلاص فى الأرض ، من دكان يوسف النجار الناصرى ! ! . .

إن أهم ما فى حيـــاة الإنسان أمام الله ، ليس الظاهر أو الخارج عنه ، بل الداخل العميق فيه ، فإذا كان الفقر قد أنشب أظافره فى جلد يوسف ، فإنه لم يستطع أن يخدش روحه ونفسه . لقد كان الرجل الفقير باراً ، والكلمة « بار » (Dikaios) استخدمها يوسيفوس المؤرخ اليهودى بمعنى « مطيع لوصية الله » « مستقيم » « انسان أخلاق » . . ولك أن تتصور يوسف بعد ذلك فهو رجل فقير ، ولكنه يخاف الله ويطيع وصاياه ، وهو لا يعرف سوى الخط المستقيم يسلك فيه دون أدنى تذبذب أو تردد ، وهو لا يعرف إلتواء القصد أو السبيل ، إنسان أخلاق ، .. أو فى لغة أخرى هو الانسان الجنتلمان » و« الجنتلمان » ترجمت إلى العربية بمعنى الماجد أو الفاضل أو النبيل أو الآدمى أو الرقيق أو الدمث الأخلاق أو اللطيف أو اللين الجانب أو الحسن المعشر ، .. ومن العجيب إن كاتباً انجليزياً اسمه سرتوماس سميث عرف « الجنتلمان » فى بعض كتاباته بأنه : « كل من يدرس فى الجامعة ويملك الاطلاع الواسع ، وعنده ما يغنيه عن العمل ، وله جلال المظهر وبهاء الهيئة » . . ولو أننا

طبقنا هذه الصورة على أعظم جنتلمان ظهر فى الأرض ، لرأيناها لا تنطبق على يسوع المسيح ، الذى لم يدرس فى جامعة ، والذى لم يأنف أن يكون نجاراً يعيش فى بيت نجار ومطيعاً له ، . . غير أن انجليزياً آخر اسمه سر فيليب سدنى كان أقرب إلى الدقة وأدنى إلى الصواب فى تعريف الجنتلمان بأنه : « المرتفع التفكير ، السمح القلب والمشاعر » . . ومن العجيب أن هذا التعريف ، هو أصدق صورة لتصرف يوسف تجاه أعظم تجربة وقفت فى طريقه فترة من الزمن ، وكشفت عن فكره وخلقه ومشاعره وأسلوبه فى التصرف ! ! . .

يوسف والسر العظيم :

وجد يوسف نفسه ذات يوم أمام السر الذى انحنى الرسول أمامه وهو يقول : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تى ٣ : ١٦) وهو السر المكتوم منذ الدهور فى يسوع المسيح ، وهو كانسان يهودى مؤمن لا يستطيع أن يقبل الخيالات الوثنية . والتى زعمت أن هرقل ابن الآلهه . أو ما قالوه للاسكندر الأكبر من أنه من عنصر إلهى ، وأنه ليس ابن أبيه . بل هو ابن الآلهه ، وقيل إنه آمن بهذه الحقيقة ، وإنه جرح ذات مرة . وكان يتعجب أنه ينزف دماً . كما ينزف غيره من بنى البشر . نعم كان هناك الإيمان بالمسيا ، الذى يحلم به جميع اليهود ، وكانت تتمنى كل عذراء يهودية . أن يأتى المسيح منها لتطوبها الأجيال كلها ، . . . ولكن العذراء لم يكن يخطر ببالها أن هذا الميلاد ، سيكون فريداً فى ذاته ، خارقاً للعادة . بعيداً عن زرع البشر ، . . وعندما جاءها الملاك ، كان السؤال البدهى لها : « كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا » (لو ١ : ٣٤) . . . كان من السهل التصور أن المسيا سيجىء . ويكون أعظم الأنبياء ، ولكنه سيكون واحداً من بنى الإنسان يأتى بالصورة التى يأتى بها غيره من الناس ، مهما سمت عظمته ومهما بدا متميزاً عن الآخرين ! ! . . أما أن يأتى على وجه فريد بالصورة

التى جاء بها يسوع المسيح ، فهو ما يتجاوز الفكر أو الخيال البشرى ، أجل لقد سبق إشعياء فتحدث عن ميلاد المسيح من عذراء واستعمل لفظه « علمه » وأقرب ترجمة لها « صبية » أو « بكر » وكلا المعنيين لا ينصرفان إطلاقاً إلى إمرأة متزوجة ، وقد قابلها متى بالكلمة اليونانية « بارثينوس » (Parthenos) والتى تعنى عذراء ، . . ولكن هذه كلها كان من الصعب على مريم نفسها ، والملاك يخبرها بالقصة ، أن تعى فحواها العجيب ، غير أنه وهو يؤكد لها الحقيقة : أن « الذى حبل به فيها هو من الروح القدس » ، أضاف إليها قصة لا يمكن أن ترقى فى إعجازها إلى مستوى هذه القصة ، ولكنها كانت على أى حال معجزة أخرى هى حبل أليصابات بيوحنا المعمدان ، المعجزة التى لم يستطع أبوه زكريا أن يصدقها ، فأبكم طوال مدة الحمل حتى يتعلم أن يصدق القدرة الإلهية على كل شىء ! ! . . ومن المتصور أن العذراء ذهبت إلى أليصابات ، وهى : « حبلى بابن فى شيخوختها وهـذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً » (لو ١ : ٣٦) . . وبقيت هناك ثلاثة شهور ؛ لتعود على الراجح بعد مولد المعمدان بعد أن سمعت نبوة أمه عن المسيح العتيد ، ولم يكن على ظهر الأرض من يستطيع أن يفهم العذراء خير فهم ، سوى أليصابات . كان السيف يدخل إلى قلبها لحظة بعد أخرى ، إذ كيف يصدقها الناس ، وكيف يقتنعون بروايتها ، وهى سر عظيم لم يحدث فى التاريخ البشرى سوى هذه المرة الواحدة ! ! . .

وهنا لنتحول إلى يوسف ، وهو يسمع أو يرى هذه الرواية ؛ ليدخل فى أقسى صراع يدخله بشرى بين العقل والقلب ، كم ساعة ، كم يوم ، كم شهر ، وهو نهب العاصفة التى هبت عليه ، أو الدوامة التى تمزق نفسه تمزيقاً ! ! إن الكلمة يشهرها فى القول : « فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها » (مت ١ : ١٧) وهى الكلمة اليونانية « ديجماتيزيا »

(Deigmatisia) لم ترد فى الإنجيل سوى فى موضعين ، هنا وفى قول الرسول عن المسيح : « إذ جرد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (كو ٢ : ١٥) ويعتقد البعض أن العذراء بطبعها ، وقد كانت قليلة الكلام عميقة الرؤيا ، لم تتحدث إليه ، إذ رأت أن الحديث لا يمكن أن يروى أو يفهم . واعتقد آخرون ، وهو الأرجح ، أنها حدثته ، وبخاصة أن هناك شاهداً عن بعد ، وهو زكريا وأليصابات ، ويمكن أن يشهدا بصدق الرواية وصحتها ، . . ولكن القصة مع ذلك ستبقى أسمى من الخيال ، وأعلى من كل مفهوم يواجهه الذهن البشرى . . . إن قلبه يصدق كل حرف وكل كلمة من العذراء الطهور التى عاشت كالزهرة البيضاء النادرة الجمال أمام الناصرة والأجيال كلها ، وهو يعلم أنها لا يمكن أن تكذب ، هى تقول الصدق، وتعيشه مهما كلفها من أعباء وتبعات ، . . لكن عقله يتمزق ، . . فإذا كانت العذراء نفسها تقول : « كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا »! . فماذا يمكن أن يقول الرجل الذى لم ير الرؤيا ولم يسمع صوت الملاك ! ! ؟ . والصعوبة تبلغ أقصاها فى أن الرجل رغم فقره العميق ، كان على استعداد أن يعيش « باراً » شريفاً أمام الله والناس إلى حد الموت ، وهو لا يقبل أى مهادنة أو تردد فى طاعة صوت الله وشريعته ، مهما كان هذا على حساب عواطفه وقلبه ، . . إن الخطبة عند اليهودى كان لها أبعاد أكثر امتداداً من مفهوم الخطبة فى وقتنا الحاضر ، إذ أن عهد الخطبة ، هو أشبه بالزواج الذى ينتظر الممارسة الفعلية فى يوم القران . ومنذ أن يدخل الخطيبان فى عهد الخطبة ، يصبحان أمام الله والناس زوجين ، أجلا تنفيذ الزواج إلى أن يتم الاحتفال به ، ولهذا فإن أية مخالفة لهذا العهد ، تحكمه قواعد الحياة الزوجية سواء بسواء ، . . وقد امتلأ يوسف بالرهبة والفزع والخوف ، . . ولم يكن خوفه مجرد مشاعر تجاه الناس ، بل هى أولا وقبل كل شىء تجاه الله ، . .

فالفتاة التى تخون عهد الزوجية كانت تعامل فى الشريعة اليهودية بدون أدنى رحمة أو تساهل . . إلى حد الموت رجماً ! ! . . وهو إذ يخاف الله لا يستطيع التراجع عن الوصول إلى هذا الحد ، متى ثبت أن واقعة الخيانة قد تمت ، . . هكذا تقول الشريعة ، . . وهكذا يواجه بعقله الظاهرة التى تبدو أمام عينيه يوماً بعد يوم ، . . ولكن قلبه مع ذلك يرفض التسليم ، وهو يريد ما استطاع إلى ذلك سبيلا أن يكذب عينيه ! ! . .

كانت المشكلة أمامه قاسية ، تبدو كالطريق المسدود ، والذى لا منفذ منه ، ومن المتصور أنه قضى أياماً وليالى لا يعرف كيف يجد السبيل إلى حل الموضوع ، ومن المعتقد أنه صلى صلوات حارة إلى الله ، ليرشده إلى الطريق الإلهى الصالح ! ! . . لقد كان أمامه سبيلان للتخلص من العذراء ، السبيل الأول هو السبيل العلنى والذى يتخلص فيه منها كلية ، مع ما فيه من تشهير رهيب بمركزها وسمعتها ، فيعطيها كتاب طلاق ، . . والسبيل الآخر ، هو السبيل السرى ، إذ يخليها من الرابطة الزوجية سراً أمام اثنين من الشهود ، وهو لا يتهمها فى هذه الحالة بنفس التهمة التى يمكن أن تكون فى الإخلاء العلنى ، . . بل هو إخلاء مبنى على الكراهية ، وإن كانت الثمرة التى لابد أن تأتى ، تحسب فى هذه الحالة منه ، وتنسب إليه ! ! . . لكن الرجل البار كان فى نفس الوقت الرجل « الجنتلمان » الرجل الذى قام فكره المرتفع على السماحة والرقة والحنان ، . . الرجل الذى كان أول من ظهر على مسرح الإنجيل ليربط الرحمة بالعدل ، والشدة بالمحبة ، والذى علمنا أن الصرامة لا يمكن أن تكون فى وضعها الدينى الصحيح ، إلا متحلية باللطف ، وأن الإنسان الذى فى الغضب لا يتعلم أن يذكر الرحمة ، يخشى أنه لم يتعرف التعرف الصحيح على الله الذى فى الغضب يذكر الرحمة ، « فهوذا لطف الله وصرامته » ! ! . . (رو ١١ : ٢٢) .

وكان من أهم ما اكتشفه الرجل أن الحياة مفعمة بالأسرار التى تعلو على كل فهم، وأن الحكم الظاهر ، قد يكون أبعد الأحكام عن الحقيقة . وما أكثر ما يحكم الناس على شيء وهم يظنونه « الخطية » دون أدنى شبهة أو ريب ، وإذا بهم يجلدون أنفسهم أمام « المسيح » وهم لا يدرون ، ولقد سار التاريخ البشرى ، فى آلاف من الصور هذا المسار ، فحكم على القديسين كما يحكم على الهراطقة ، ونعت الأبطال بأخس الأوصاف ، وهم فى أسمى صور الحياة والبطولة أمام الله والناس ، . . وما أكثر ما يقع الناس تحت ظلم الآخرين وهم لا يدرون ؟ ! . . دخل المدرس على تلاميذه لأول مرة فى الفصل ، وطلب من واحد من التلاميذ أن يقرأ ، ووقف التلميذ ليقرأ ، وقد أمسك الكتاب بيده اليسرى ، وطلب منه المدرس أن يمسكه بيده اليمنى ، ولم يفعل الصبى ، وظنه الأستاذ يسخر منه دون مبالاة ، . . فقال له بزجر أن يمسك الكتاب باليد اليمنى ، ورفع التلميذ ذراعه اليمنى لتكشف عن يد مقطوعة ، . . ما أن رآها أستاذه حتى ذهب إليه ليركع أمامه بدموع ، وبكل ما فى لغة البشر من اعتذار طلب إليه أن يسامحه على ما فعل ، . حقاً ما أكثر ما تمتلىء سجون الأرض من الأبرياء ! ! . .

لم تذهب صلوات الرجل عبثا ، كما أن العذراء كانت ولا شك تصلى حتى يفتح الله عينى خطيبها ليعرف الحقيقة المذهلة التى تقبلتها هى فى روح الطاعة والخضوع ، رغم ما تكلفها من ألم وعنت وقسوة ومشقة. وجاء الملاك إلى الرجل ، وكشف له الحقيقة فى حلم ، . . ونحن لا نعلم هل هو الملاك جبرائيل الذى جاء إلى مريم ، أم ملاك آخر ، . . . على أى حال إنه ملاك الرب الذى يرسله الله إلينا فى أعماق حيرتنا وضيقنا والطريق المسدود أمامنا ، ليحول القلق إلى راحة ، والخوف إلى أمن والشك إلى يقين ، والحزن العميق إلى الفرح الطاغى ! ! . .

يوسف والخدمة المقدسة :

لم يكن يوسف يعلم وهو يستيقظ من نومه أن الله أعده لخدمة ، يمكن أن يحسده عليها العظماء فى كل أجيال التاريخ ، إذ أنه كان الشخص الثانى التالى للعذراء فى إيواء المسيح ورعايته وحمايته وهو يشق طريقه على الأرض إلى هضبة الجلجثة لخلاص العالم . كان يوسف يعلم أنه من نسل داود ، وأن الأيام قد دارت به وببيته العظيم حتى وصل إلى ما وصل إليه من ضيق وضنك وفاقة ، . . لكنه أدرك أن مجده الدابر ، عاد ليتألق بمجد لم يعرفه داود وجميع من جاءوا من نسله من ملوك وأبطال ، . . إذ هو مجد المسيا فى هـذا الصبى الذى كان عليه أن ينسبه إليه ، ويعطيه اسم يسوع : « وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم » (مت١ : ٢١) . . كان هو حاضن « المسيا » ومربيه . وقد فاز بيته الفقير بهذا الشرف الرفيع الذى لم يمنح لأصحاب القصور فى الأرض ! ! . .

ونحن لا نعلم كم من السنوات عاشها يوسف مع المسيح ، . . . إذ لا نسمع عنه بعد الاثنى عشر عاماً الأولى من حياة السيد ، لقد أوحى إليه بالذهاب إلى مصر مع الصبى ومريم أمه ، هرباً من سيف هيرودس ، وبقى فى بلادنا حتى عاد إلى فلسطين بعد موت هيرودس ، ونحن نعلم أن المسيح أخذ حرفة النجارة عنه ، وبدون أدنى شك كان الصبى يسوع خاضعاً له ولمريم أمه فى كل شىء . . وما من شك بأنه كان مساعداً مجيداً فى النجارة وسائر أمور البيت على نحو يعجز التصور البشرى عن إدراكه ، وقد شاطر يوسف الصبى يسوع الحياة فى بيت واحد ، ، بما فى هذه المشاطرة من أروع الامتيازات وأدق المسئوليات ! ! . .

وارتبط اسم يسوع بالرجل فى السجلات الرومانية ، وفى الحياة البيتية ، وفى الخدمات الخاصة والعامة ، وفيما نعلم أو لا نعلم من شركة إنسان وضعته العناية ليكون بمثابة « الأب» الأرضى ، .. لمن ولد فريداً بين الناس ، ولا يعرف إلا أباه السماوى وهو القائل ليوسف وأمه وهو فى الثانية عشرة من عمره : « لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبى » (لو ٢ : ٤٩) ... ! ! ..

٨٢
سمعان الشيخ

« الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ ، ٣٠)

لا نكاد نعرف على وجه التحقيق الكثير عن سمعان الشيخ ، غير ما جاء فى إنجيل لوقا ، . . وإن كانت هناك بعض التقاليد المختلفة التى لا ينهض دليل ثابت عليها ، ولعل مرجع هذا أن الإسم « سمعان » من الأسماء التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ، فهو فى نظر البعض سمعان الذى وبخ أرخيلاوس الذى ملك بعد موت هيرودس الكبير ، الذى تزوج أرملة أخيه ، . . وفى نظر آخرين هو سمعان بن هليل ، وأبو غمالائيل ، والذى كان رئيساً للسنهدريم فى عام ١٣ م ، ولم يرد اسمه على غير العادة فى كتاب المشنا الذى يدون فيه أسماء جميع رؤساء السنهدريم ، وقد عللوا ذلك بسبب إيمانه بالمسيح وحبه للمسيحية ، ولما كان هذا من المستبعد لإنسان حمل المسيح طفلا على يديه ، وطلب أن تنطلق نفسه بسلام ، وهو رجل شيخ ، ومعنى ذلك أنه

إن كان قد عاش بعد المسيح ، فلا يمكن أن يكون قد عاش لمدى طويل يتجاوز حياة المسيح كلها على الأرض ، حتى ولو قيل إن الرجل عاش مائة وثلاثة عشر عاماً ، فإذا أضيف إلى ذلك الرواية الأخرى التى تقول إنه عاش إلى سن متأخرة ، لأنه كان يقرأ وهو شيخ نبوة إشعياء عن العذراء التى تحبل وتلد ابناً ، ونهض فى نفسه السؤال والحيرة ، ولكن كيف يمكن أن يكون هذا ؟ وسمع صوتاً داخلياً عميقاً ، يقول له إنه لن يموت حتى يبصر الأمر أمام عينيه ، وأنه عاش لذلك يترقبه ، حتى أبصر المسيح بين يدى أمه فى هيكل الله ! ! .. على أنه مهما تختلف روايات التقليد ، فإن الحق الذى لامراء فيه ، والذى يكشف لنا عن شخصية الرجل قد جاء فى الأصحاح الثانى من انجيل لوقا ، ونستطيع إذا تابعنا الوحى ، أن نراه فيما يلى :

سمعان وحياته :

يحلو للبعض أن يطلق على سمعان الشيخ لقب « مراقب الصبح » ، ولعلهم يرونه بهذا المعنى الانسان الذى يقول مرنم المزمور المائة والثلاثين : « انتظرتك يارب انتظرت نفسى وبكلامه رجوت. نفسى تنتظر الرب أكثر من المراقبين الصبح ، أكثر من المراقبين الصبح . ليرج إسرائيل الرب لأن عند الرب الرحمة وعنده فدى كثير وهو يفدى إسرائيل من كل أثامه » (مز ١٣٠ : ٥ — ٨) .

كان الليل قد بلغ بالعالم أقصاه ، وكان الناس جميعاً يتطلعون إلى السماء ، إلى كوكب الصبح المنير ، إلى شمس البر التى تشرق والشفاء فى أجنحتها ، وكان الشرق والغرب فى تطلع بعيد عميق إلى ما وراء الظلام الضارب على كرة الأرض ، ومع أن القانون الرومانى قطع شوطاً بعيداً فى مد العالم بعصارة الفكر الحضارى . الذى أخذت عنه سائر القوانين بعد ذلك ،

ومع أن الفلسفة اليونانية مدت شعابها فى فكر الإنسان ، ، وقبيل الميلاد كان هناك الكثيرون من الكتاب وقادة الفكر ، إذ ولد ديودوريوس المؤرخ اليونانى ، واسترابو المؤلف الجغرافى العظيم والذى عاش بين عامى ٥٤ ق.م – ٢٤ م ، وأوفيد بين عامى ٥٧ ق.م – ١٨ م ، وسينكا الفيلسوف الذى عاش حتى عام ٦٥ م ، وفرجيل الشاعر الذى مات قبل الميلاد بأربعة عشر عاماً ، وأوفيد الذى مات قبل الميلاد وبثلاث سنوات ، . . ولكن هؤلاء جميعاً على قدر ما أعطوا للناس من أنوار كانوا أشبه بالنجوم التائهة فى قلب الظلام ، . . . وحتى لدانتى الليجيرى وقد كان من أشد المعجبين بفرجيل ، والذى وصفه فى الكوميديا الإلهية بأروع الأوصاف وأعظمها ، إذ كان يراه واحداً من أعظم أساتذة الشعر ومعلميه ، . . وقد قاده فرجيل فى زيارته للجحيم ، ولكنه بعد أن أنهى رحلته هناك ، وقف فرجيل على أعتاب الظلمة الخارجية دون أن يتقدم خطوة واحدة نحو السماء ، وهو يهز رأسه بملء الأسى ، لعدم تمكنه من الدخول ، إذ كان وثنياً لا يعرف فداء يسوع المسيح. وهو ما لابد منه لدخول السماء ، . .

ومن البديهى أنه فى قلب هذا الظلام تمكنت الخرافة فى الأرض ، وعشش الفساد فى كل مكان ، وقيل إن « زرادشت » الفارسى كان يعلم أتباعه ، أنه إن لم تنجدنا السماء بمنقذ ، فلن يكون هناك رجاء قط عند بنى الإنسان ، ومن هنا كان ترقب المجوس للنجم العجيب الذى تبعوه إلى بيت لحم ، . .

فإذا عدنا إلى سمعان الشيخ ، وإلى الأيام التى عاشها فيها فى أورشليم ، فإننا نرى إنساناً ينتصب على المرصد فى أعماق الليل ، وكأنما ليرقب شروق الشمس ، وقد أحدق به الظلام من كل جانب ، فبلاده ليست مستعبدة للرومان فحسب ، ولكنها أكثر استعباداً للخطية ، ومن المؤسف أن كبرياء

اليهود ، وهم فى عمق ذلهم واستعبادهم ، تجعلهم يتوهمون أنهم أحرار ، وعلى حد قولهم للمسيح فيما بعد : « إننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط » (يو ٨ : ٣٣) . . . ويأتيهم الجواب : « الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية » (يو ٨ : ٣٤) . . . وقد ظهرت عبوديتهم للخطية فى كل جانب من جوانب حياتهم ! ! . . فإذا كان الدين عندهم مجرد طقوس وفرائض وقشور ، إلى الدرجة التى وصل معها قادتهم ، باسم الدين ، إلى أحط الدركات ، وتحول بيت الله إلى مغارة لصوص ، فكم يكون الشعب إذاً ؟ وكم تضيق نفوس الأتقياء وتتعذب ، يوماً بعد يوم ، وهم يرون الأوضاع بنفس الصورة التى رآها لوط فى وسط سدوم ، وهو يعذب نفسه البارة ، بأعمالهم الأثيمة ؟ ! . . كان سمعان الشيخ رجلا باراً تقياً. وما من شك فى أن نفسه كانت تئن أنين الأبرار القديسين ، وهم يرون الشرور والمباذل والمفاسد فى كل مكان ! . . .

ومع أننا لا نعلم ماذا كان يعمل سمعان الشيخ ، وماذا كانت رسالته أو خدمته فى مدينة أورشليم ، إلا أنه كان ولا شك واحداً من أولئك الذين يكافحون ضد تيار الشر والفساد فى أمته ، ولكنه كان يدرك تماماً أن التيار الجارف الذى يكتسح أمامه كل شيء ، لا يمكن لصبى صغير أن يقيم السد لمواجهته ، . كما أن الظلمة الضارية العميقة لا تصلح معها شمعة صغيرة لتنير سائر الأرجاء فى عمق الليل البهيم ! ! . . ولعل الرجل قد صرخ مرات متعددة لله بما يشبه صلاة إرميا عندما قال : « وإن تكن آثامنا تشهد علينا يارب فاعمل لأجل اسمك . لأن معاصينا كثرت . إليك أخطأنا . يا رجاء إسرائيل مخلصه فى زمان الضيق لماذا تكون كغريب فى الأرض وكمسافر يميل ليبيت ؟ لماذا تكون كإنسان قد تحير كجبار لا يستطيع أن يخلص ؟ وأنت فى وسطنا يارب وقد دعينا باسمك . لا تتركنا » (إر ١٤ : ٧ — ٩) . . كان الرجل يعلم

تمام العلم أنه لا خلاص لأمته وشعبه بدون المسيح ! ! . . وقد أوحى إليه روح الله ، أنه على مقربة من النور ، وأنه لن يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب ! ! . .

سمعان وأغنيته :

تتغنى الكنيسة المسيحية منذ القديم بالأغنية أو الصلاة التى فاض بها قلب سمعان وهو يحمل الطفل يسوع بين ذراعيه ، وقد أطلق على الأغنية فى اللاتينية (Nune Dimittis) وقد أخذ هـذا الإسم من مطلعها « الآن تطلق عبدك بسلام يا سيد » وهى أغنية شيخ جليل ، حمل بين ذراعيه أسمى أمل للحياة البشرية ، وكان موقناً من أن التاريخ كله سيتغير — للأمم ولليهود على حد سواء — : « الذى أعددته قدام وجه جميع الشعوب . نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل » (لو ٢ : ٣١ و ٣٢) . . . ومع أن الرجل لم يعش ليرى كل هذا ، . . لكنه نام مستريحاً على وسادة من يقين الاعلان الإلهى ، . . وقد أثبت الزمن صدقه ، إذ لا شبهة فى الفكر — سواء عنـد المؤمنين أو غير المؤمنين — أن المسيح يسوع غير مجرى التاريخ ، وقلب حياة البشر رأساً على عقب ، أو بالحرى أعاد وضع البشر المقلوب للأمم ولليهود على حد سواء ، . . ويكفى أن تلال بيت لحم من الوجهة الجغرافية — كما قال أحدهم — لم تكن إلا تلالا متواضعة ربض عليها الرعاة فى ليلة من الليالى القديمة ، ولكنها ببشارة المسيح ارتفعت لتصبح تلالا دهرية هى أشهر التلال فى العالم ، . . بل يكفى أنه فصل التاريخ كله وشطره إلى ما قبل الميلاد وما بعد الميلاد ، . . أجل ! حمل سمعان الصبى العجيب بين ذراعيه ، وهو قد لا يدرى أن هذا الصغير المحمول وهو الحامل كل الأشياء بكلمة قدرته ! !

على أن سمعان ركز فى المسيح على الخلاص ، فهل كان يدرى عمق التعبير وجلاله ومجده وعظمته ؟ يقول الكسندر هوايت بهذا الصدد : « يمكننى أن أخمن المعنى الحقيقى الذى كان يراود ذهن سمعان فى الهيكل فى ذلك اليوم ، وهو يرى بعينيه ما كان ينتظره من خلاص الله . . . لأن الخلاص فى ذلك اليوم ، وإلى هذا اليوم له معان متعددة فى أذهان الناس ، فالخلاص له أعلى المعانى السماوية عند إنسان ، وأعلى المعانى الأرضية عند آخر ، . . فالخلاص فى الهيكل فى ذلك اليوم لواحد هو الخلاص من قيصر ، . . وهو لآخر خلاص نفسه . . . لواحد هو الخلاص من جابى الضريبة ، ولغيره من القلب الشرير بين جنبيه . ومع ما فى أغنية سمعان من جلال ومجد ، . . فأننا إلى اليوم لا نعرف يقيناً ماذا كان الشيخ العجوز والقديس والقارىء لكلمة الله يعنى بكلمة خلاص التى فاه بها . . . ولكن السؤال مع ذلك يتجه إلينا !! .. ما هو خلاصنا .. خلاصى وخلاصك !! . . عندما تتكلم أو تسمع أو تقرأ أو تغنى عن الخلاص ، ماذا تعنى بالضبط ؟ ! ؟ إنه إذا كان له معنى دقيق حقيقى فهو كما كان يقول واحد من العلماء لتلاميذه : « إن الشىء الأول الذى ستمتحن به فى اليوم الأخير هو : ما هو نوع الخلاص الذى كنت تسعى وراءه ! ! ؟ أى خلاص كنت تدرسه وتعلمه وتعظ به وتبحث عنه بنفسك عندما كنت تعيش على الأرض ؟ وكم ستكون سعيداً أمام الناس والملائكة إذا كنت مثل الرجل القديم : « وهذا الرجل كان باراً وتقياً ينتظر تعزية إسرائيل والروح القدس كان عليه . . . لأنى عينى قد أبصرتا خلاصك . . . وكان يوسف ومريم يتعجبان مما قيل فيه ! ! . . (لو ٢ : ٢٥و ٣٠ و٣٣) .

إن السؤال عن الخلاص ، كما قيل هو أهم سؤال يرتبط بالمسيحية ، وهو الذى يفرقها عن غيرها من الأديان والمعتقدات ، وهو السؤال الذى لا يجوز لقارىء

من قراء هذا الكتاب التجاوز عنه أو تجنب طرحه بعمق أمام ذهنه وقلبه ، لا سيما وأنه هو اسم يسوع بالذات الذى هو « خلاص الله » أو كما قال الملاك ليوسف : « وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، (مت١ : ٢١) أو كما يقول سمعان وهو يشير إلى الخلاص كعطية الله العظمى التى أعدها فى المسيح يسوع : « الذى أعددته قدام وجه جميع الشعوب» ... تعود أحد العاملين فى جيش الخلاص أن يسأل أحد الخدام كلما التقى به فى القطار : « هل أنت مخلص » . . وحار الرجل ماذا يقول له ، وأخيراً سأل الأسقف مول قائلا : لو وجه إليك هذا السؤال فماذا يكون ردك !! ؟ . . . وابتسم الأسقف وكان عالماً من علماء الكتاب وقديساً عظيما — وقال : « أقول له ماذا تقصد بكلمة الخلاص أهى «Sotheis» «سوسيس» أو «Sozomenos» « سوزومينس » أو «Sesosmenos» سيزومينس » .. إن الكلمة الأولى تشير إلى الخلاص باعتباره قد تم دفعة واحدة فى لحظة التجديد ، فرفع الدين الإلهى بأكمله . ونلنا المصالحة مع الله ، إذ حمل المسيح الكل على الصليب ، والكلمة « الثانية » تشير إلى الخلاص فى المستقبل عندما ندخل إلى المجد السماوى ، ولا نتعرض بعد ذلك لتجربة أو خطية ، أما الكلمة الثالثة فتشير إلى عملية المسيح المطهرة لحياتنا يوماً بعد يوم ، وفى كل الحالات يتم بعمل المسيح لنا وفينا . والخلاص بهذا المعنى ماض وحاضر ومستقبل ، فعندما يؤمن المرء بالمسيح يرفع عنه الصك أو دين الخطية ، ويمحى بالتمام ، وهو فى صليب المسيح يبدو كأنما لم يرتكب خطية على الاطلاق ، وذلك لأن المسيح قد قضى الدين كله ، وقد دان الله الخطية فى الصليب ، وهو لا يمكن أن يدين الخطية الواحدة مرتين ، وكما ورثنا الخطية عن آدم ، نرث الخلاص فى المسيح ، . . على أن الخطية ليست مجرد دين يرفع ، ، بل هى مرض نعالج منه ، وأوساخ يحاول العالم والشيطان أن يطرحها علينا فى سيرنا فى

الحياة ، ومن ثم قال السيد المسيح : « الذى قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله » .. (يو ١٣ : ١٠) ومع هذه الطهارة فإن واجبه أن يغسل ما علق برجليه من تراب الأرض وأوساخها المتعددة ، والخلاص بهذا المعنى عملية لا نقوم نحن بها ، بل يقوم بها المسيح بالروح القدس فينا ، فهو الذى يبكتنا على الخطية ، وهو الذى يدفعنا للتخلص منها ، وهو الذى يغسلنا بدمه ، وهو الذى يحررنا بشفاعته المستمرة ، . . . ومن ثم فهى عملية المسيح الدائمة فينا طالما نحن على الأرض !! .. وهى عملية حاضرة مستمرة ، . . ولن تنتهى هذه العملية طالما هناك رمق فى الحياة ، وتجارب تحيط بنا ، وتعثر وسقوط وقيام يلاحقنا ، . ونحن نتطلع إلى لأمام يوماً وراء يوم ونحن نقول : « فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا » . . (رو ١٣ : ١١) فإذا نظرنا إلى الخلاص بهذا المفهوم أمكن أن ندخل أى خلاص أو إنقاذ زمنى فى ظروف الحياة ومتاعبها وتغيراتها ومدى ما فيها من نجاح أو تعب أو ضيق أو فشل أو انتصار ، فى نطاق عمل نعم الله : « لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس معلمة إيانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح الذى بذل نفسه لأجلنا لكى يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً فى أعمال حسنة » . . (تيطس ٢ : ١١–١٤) . هذا هو الخلاص الذى أعده لجميع الشعوب ، ونطق به سمعان الشيخ فى هيكل الله بالروح القدس وهو يحمل بين ذراعيه الصبى يسوع المسيح ! !

وإذا بلغ سمعان هذا الأمل الذى عاش ينتظره سنوات طويلة لشعبه وللعالم ، كان كمن يصعد إلى القمة فى جبل الحياة وليس له من مطمع أعلى وأسمى ، ومن ثم أضحى الموت كالنوم الهادىء للعامل المتعب الذى يهجع

فى آخر الليل إلى سريره ليستريح . وقد درج اليهود على أن يودعوا الراحل من الدنيا بالعبارة التى قالها الله لابراهيم : « وأما أنت فتمضى إلى أبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة » (تك ١٥ : ١٥) . كما أنهم تعودوا أن يودعوا بعضهم بعضاً بالقول : « أمضوا بسلام » ، .. قال سمعان : « والآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك » (لو٢ : ٢٩و ٣٠) فهل أحس أنه الطائر السجين فى القفص يرفرف بجناحيه ، وهو يرى اليد الكريمة توشك أن تفتح الباب ، مستعداً للانطلاق إلى سماء الله المرتفعة العظيمة ، . . أم أنه كان أشبه بالسفينة المربوطة إلى الشاطىء ، وإذا بالربان العظيم يفك رباطها لتنطلق بعيداً إلى بحر الله اللانهائى ! ! .. على أى حال ، إن الرجل وهو سبيله إلى الخلود ، لم يتلفظ بلفظ الموت ، بل تحدث بلغة الانطلاق والانعتاق من أسر الحياة ، إلى مدينة الله العظيمة الخالدة ، .. قال فيكتور هوجو : لقد كتبت أفكارى فى الشعر والنثر والتاريخ والفلسفة والدراما والرومانسية والتقاليد والأغانى ، ولكنى مع ذلك بأشعر أنى لم أعبر عن واحد فى الألف مما فى . . وعندما أذهب إلى القبر سأنهى عملى اليومى . . . لكن يوماً آخر سيبدأ فى الصباح التالى ! ! .. وذكر واعظ مشهور قصة ذلك الضابط الهندى العجوز الذى كان يفتن الناس بقدرته الخطابية ، وكان يلعب بأفكارهم ومشاعرهم ، وإذ يرتفع بهم إلى أعلى مراقى الخيال ، كان يتوقف فجأة ، ثم يقول : « إنى أتوقع أن أرى شيئاً أعظم كثيراً مما حدثتكم عنه » ... ويصمت قليلا — ولعله يلاحظ التردد والشك على وجوه المستمعين وإذا به يقول : أنا أعنى الخمس الدقائق الأولى بعد وفاتى ! ! .. ومع أننا لا نعرف ما آل إليه فيكتور هوجو أو الضابط الهندى ، .. إلا أننا على يقين من أن الإنسان الذى يحمل المسيح بين ذراعيه ، ويصف نفسه بصدق وأمانة أنه عبد الله ، سيضىء فى الأبدية كضياء الجلد وكالكواكب إلى أبد الدهور ..

سمعان والحديث مع العذراء مريم :

بعد أن أنهى سمعان أغنيته ، تحول إلى العذراء وتحدث عن المسيح بالنسبة لإسرائيل وبالنسبة لها ، فقال : « ها إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى إسرائيل ولعلامة تقاوم . وأنت أيضاً يجوز فى نفسك سيف . لتعلن أفكار من قلوب كثيرة » (لو ٢ : ٣٤ و ٣٥) ... ويتفق هذا القول مع ما جاء فى إشعياء عن السيد : « قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم . ويكون مقدساً وحجر صدمة وصخرة عثرة لبنى إسرائيل وفخاً وشركاً لسكان أورشليم . فيعثر بها كثيرون ويسقطوا فينكسرون ويعلقون فيلقطون صرّ الشهادة اختم الشريعة بتلاميذى » (اش ٨ : ١٣ — ١٦) وهو عين ما قاله السيد للشعب : « فنظر إليهم وقال إذاً ما هو هذا المكتوب الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . كل من يسقط على ذلك الحجر يترضض . ومن سقط هو عليه يسحقه » (لو ٢٠ : ١٧ و ١٨) . . . ولعل ما قاله الكسندر هوايت هنا ، من أصدق وأدق ما يمكن أن يقال : « كان المسيح هكذا لإسرائيل ، وما يزال إلى اليوم » . . هناك مدارس ومذاهب فكرية فى تفسير الكتاب ، وهناك مدارس ومذاهب فلسفية ، وهى تذهب جميعاً إلى أن النبوة التى تنبأ بها سمعان ما تزال باقية إلى اليوم ، إنهم ينهضون ويقومون ويسقطون على أساس قبولهم أو رفضهم لعمانوئيل ، ولكن السؤال الذى يرفعه الكتاب أمامنا ، ليس عن مدارس الفكر أو النظم اللاهوتية أو الفلسفية بل عن نفوسنا ! ! .. هذا الذى ولد من مريم ، وهو ابن الله ، هل هو حجر صدمة ! ! ؟ أو هو حجر الأساس فى صهيون بالنسبة لى ! ! ؟ أهو رافعى لخلاصى الأبدى ، ولمجده الدائم ، فوق جميع سقطاتى لأثبت فى بره كمن يقف على صخرة ! ! ؟ .. قد يسقط سمعان وقد أسقط أنا ، لكن السيد يرفعنى بيده : « والقادر أن يحفظكم غير عاثرين ويوقفكم أمام مجده بلا عيب فى الابتهاج ، الإله الحكيم الوحيد مخلصنا له

المجد والعظمة والقدرة والسلطان الآن وإلى كل الدهور . آمين» (يهوذا ٢٤و٢٥)

عندما أراد بطرس ماكينزى الواعظ الانجليزى الميثودستى أن يعبر عن هذا كله بصدق وطرافة . وكان يعظ عن : « وهم يترنمون كترنيمة جديدة » (رؤ ١٤ : ٣) ... قال حين أصل إلى السماء أريد أن أرى داود مع قيثارته مجتمعاً مع بولس وبطرس وسائر القديسين ليترنموا ، ثم أطلب ترنيمة ٧٤٩ من كتاب ترانيم الميثودست : « إلهى — انى حين أضل الطريق » ولكن شخصاً يأتى الى ليقول : « هذا لا ينفع هنا فى السماء ... أنت فى السماء يا بطرس وهنا لا يوجد ضلال فى الطريق » .. وأرد عليه قائلا : أنت على حق يا أخى دعنا نرنم ترنيمة ٦٥١ : « وان هبت العراصف على رأسى . . وكل أصدقائى وأحبائى تركونى » .. وإذا بقديس آخر يصيح : « لا توجد هنا عواصف » .. فأحاول أن أرنم ترنيمة أخرى رقم ٥٣٦ : « إلى عالم الآثام أرسلت » .. فاسمع آخر ينادى بطرس بطرس ! ستخرجك من السماء إن لم تترك هذه الترانيم ... فأسال : وماذا أرنم !!؟ .. فيقولون : « ترنيمة جديدة ، ترنيمة موسى والحمل » ...

كان سمعان يؤمن بوجود مكان آخر ينطلق إليه ، وهو المكان الذى لا يستطيع الوصف البشرى أن يحيط به ، المكان الذى عندما أراد أحدهم أن يصفه قال : « أى مكان يمكن أن تكون السماء !! . إن قصور التويلرى فى فرنسا ، ووندسور فى انجلترا ، والهمبرا فى أسبانيا ، والشونبرن فى النمسا ، والبيت الأبيض فى الولايات المتحدة ، ليست إلا سجوناً بالمقارنة به » .. إن البيت الذى نحن فيه ، وهو الجسد ، يتصدع ، والنوافذ تتزعزع ، والسقف يتهاوى ، إلى أن ننطلق ، ونتحرر من كل صفات الجسد والروح ، ونلبس شبابنا الخالد أمام الله !! ... كان سمعان ، ونحن ، أشبه بحبة الحنطة التى تتفتت بالشيخوخة والموت ، إلى أن تبزغ فى فجر الأبدية شجرة وارفة فى بستان الله العظيم !! ... ومن ثم كان فرحه عظيما بالأمل المفرد الذى يراه

فى الصبى العظيم بين يديه ، والانطلاق الموعود به بعد هذه الرؤيا العليا المجيدة !! ..

فإذا رجعنا مرة أخرى إلى العذراء المتعجبة من كلام سمعان ، فلعله من الواجب أن نعلم أنه وهو يقول لها : « وأنت أيضاً يجوز فى نفسك سيف» كان يتحدث عن الألم الرهيب الذى كان لابد أن تجتازه نفسها ، فى علاقتها بابنها العظيم وقد أشرنا إلى ذلك ، ونحن نحلل شخصيتها المتميزة فى نساء الكتاب المقدس ، ... وقلنا هناك إن الأصل اليونانى لكلمة « سيف » لا تعنى ذلك النوع الصغير القصير من السيوف ، بل ذلك النوع الحاد الطويل المرهف ، وقد جاز فى قلبها من يوم تبشير الملاك لها ، حتى وقفت تحت الصليب فى يوم الصلب العظيم !! .. وقد رسم هولمان هانت بخياله البارع هذه الحقيقة إذ صورها وهى تجمع الذهب الذى أعطاه إياه المجوس ، وقد استغرقتها أفكارها وآمالها وأحلامها وأمانيها عن ولدها وعرشه ومجده وصولجانه ، ولكن شيئاً ما جعلها تلتفت نحو الجدار القريب ، وإذا بها تجد شعاعات الغروب تنعكس عليه صليباً مخيفاً مفزعاً ، وقد روعها أن تبصر ابنها معلقاً عليه ، فارتاعت وفزعت ، وحاولت أن تطرد الفكر من خيالها ، ولكن كلمات الشيخ المدوية عادت مرة أخرى ترن فى أذنيها : « وأنت يجوز فى نفسك سيف » ... وفى الحقيقة إن طريق المسيح لا يمكن أن تعطى الإكليل لإنسان لم يخرج إليه خارج المحلة حاملا عاره ، إذ لا إكليل بدون ألم ، ولا تاج بدون صليب !! .. على أى حال كان سمعان الشيخ على موعد مع النور الذى بهر عينيه ، وأشاع ابتسامة الهدوء والرضا التى ملأت محياه ، ولعله عاد من الهيكل ، ونام ليالى — قلت أو كثرت — حتى جاءوه ذات صباح ليروا وجهاً هادئاً مبتسما بعد أن أجابه الله إلى طلبته العظيمة ، وأمنيته الغالية : « الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك» (لو ٢ : ٢٩) ... !! ..

٨٣
زكريا الكاهن

« وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا » (لو ١ : ١٣)

كان عدد الكهنة فى أيام المسيح ، كما يقولون ، عشرين ألف كاهن ، ويظهر بالعودة إلى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر أخبار الأيام الأول أن داود قد قسمهم فى خدمة الهيكل إلى أربع وعشرين فرقة ، وكانت فرقة أبيا التى ينتمى إليها زكريا الكاهن ، الفرقة الثامنة ، ... وكانت كل فرقة تأخذ خدمتها ، أسبوعاً كاملا من صباح السبت إلى صباح السبت التالى ، على مدار السنة ، وكانت الفرقة توزع نفسها خلال هذا الأسبوع ، على مختلف أعمال الهيكل ، وتلقى القرعة على من يدخل إلى القدس ليقدم البخور هناك ، وكانت العادة أن الكاهن — على هذا الأساس — لا يكاد يدخل القدس سوى مرة واحدة ، فى حياته على الأغلب ، ... وإذ وقعت القرعة على زكريا فى ذلك اليوم البعيد ، رأى الرؤيا التى غيرت تاريخه وحياته ، ومن عجب

أن تكون هذه الرؤيا فى هيكل الله ، .. وكما كانت الرؤيا لأشعياء فى الهيكل لها تأثيرها العجيب ، فإن رؤيا زكريا كان لها التأثير العظيم الذى أدخله فى سجل الخالدين ، وما أكثر ما يرتبط بيت الله فى حياة الناس برؤيا الحياة والمصير ، فيهب الواحد منهم ليقول ما قاله يعقوب قديماً : « ما أرهب هذا المكان ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء (تك ٢٨ : ١٧) !! .. والآن فلنعبر إلى قصة الرجل ، ونأخذ منها الكثير من عبر الحياة فيما يلى من صور وأوضاع !! ..

زكريا من هو :

ربما لا نستطيع أن نفهم زكريا تماماً إلا إذا ذكرنا عصره ، والعودة إلى تاريخ تلك الأيام قبيل ظهور المسيح ، أشبه باجتياز الليل العميق الذى ينتظر ظهور الفجر ، .. كانت طبقة الكهنة كما رأيناها فى أيام ملاخى تزداد سوءاً قرناً بعد قرن ، .. وأين الكاهن فى وضعه الصحيح ، بما انتهى إليه الكهنة فى أيام المسيح ، ؟! ... لم تكن الخدمة الدينية عندهم سوى صور شكلية مظهرية تغطى الحقيقة البشعة ، واذا أنت تغورت إلى الأعماق والداخل ، فإنك لن تجد ديناً أو عبادة أو جماعات تصلى إلى الله ، بل ستكتشف أبشع اكتشاف يمكن أن تصل إليه فى حياتك . . . إذ ترى أنك فى أعماق الكهف أو مغاور الجبال ، تجد نفسك فى مغارة لصوص ، إنه شىء تعس أبشع من أن يذكر . .. ولكنها كانت الحقيقة فى أيام المسيح ، وما تزال تظهر هنا وهناك فى فترات متلاحقة متعاقبة من التاريخ ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفترات على ما فيها من قسوة وظلام ، تكون قبيل الفجر الذى يبعثه الله لينير الحياة ... هكذا كانت فى أيام زكريا الكاهن ، إلى أن يأتى ابنه العظيم بين المولودين من النساء ، ويندد بهذا الفساد صارخا به فى البرية بصوته المرعب ، ليفزع الجميع ، ولكنه ينادى بالحق الإلهى ، دون خوف أو وجل !! ... فى هذا

التاريخ لا يمكن أن يترك الله نفسه بلا شاهد، بل يرسل فى أعماق الليل البهيم نجوما لامعة تسطع فى الظلام ، وتتلألأ فى الدجى ، ... وكان لزكريا ومعنى الاسم « الله ذكر » وزوجته أليصابات ، بيت صغير - على ربى الجبال العالية فى يهوذا أنا لا أعلم حظهما من الحياة المادية ، وعلى أى مستوى كانت معيشتهما من وفرة المادة أو قلتها ، .. فذلك شىء قد مر به كتاب الله دون أن يشير إليه ، إلا أنه كشف لنا عن بيت وادع هانىء عظيم ، .. لقد حرم هذا البيت مما كان يعتبره اليهودى أعظم بركة ، إذ لم يكن للزوجين أولاد ، مما قد يثير التساؤل أو الألم ، أهو غضب من الله عليهما أن يحرمهما من الذرية ، التى بها يمتد اسمهما بعد رحيلهما من هذه الدنيا ، أو ليؤنس وحدتهما عندما يصبحان شيخين عجوزين يقعدان عن الحركة والحيوية ، تلاحقهما ضعفات الشيخوخة وأمراضها وأوصابها ، ... على أى حال لم يكن هذان الزوجان هما أول من يتعرض لهذه المحنة ، فقد تعرض لها الكثيرون قبلهما من خيرة الناس ، وعلى رأسهم ابراهيم أبو المؤمنين عندما كانت سارة عاقراً إلى وقت الشيخوخة ، .. وعندما كانت راحيل عاقراً ، وأختها الكبرى تلد ، .. وعندما كانت حنة مرة النفس ، لأنها لا تنجب وضرتها تكيد لها وتضاعف من إحساسها بالحرمان ... وما أكثر اللواتى أخفين نفوسهن عن عيون الناس كما أخفت إليصابات نفسها فى الشيخوخة قبيل مجىء المعمدان ! ! ... على أى حال إن هذه المحنة التى لم تغير من حياة الشونمية العظيمة ، وكانت مثالا رائعاً رغم حرمانها الكبير ، لم تفعل ذلك أيضاً ، فى حياة زكريا وأليصابات. إن علاقة هذين الزوجين بالله ، ستبقى فى الحرمان أوفى العطاء ، على حد سواء ، علاقة البنوة لإله عظيم مجيد طيب ، .. فإذا كان اسم زكريا معناه « الله ذكر » فإن الرجل كان يعلم يقيناً أن الله ذكره بالإحسان والمراحم قبل وبعد مجىء المعمدان ، وأنه يرفل على الدوام فى خيرات الله وبركاته الروحية والزمنية..

وأن الاتكال على الله سيقوده إلى بركات متعددة ، لعلها كانت واضحة أمام عينيه ، ومن أخصها بركة الحياة الزوجية الممتلئة بدفء الحنان والحب والرقة ، والقصة الكتابية ترينا اثنين سارا من مطلع الحياة حتى الشيخوخة كأجمل ما تكون العلاقة بين زوجين دون تأفف أو تذمر أو شكوى ، حتى ولو حرما من الأولاد ، وضحكاتهم التي تملأ البيت سعادة ، وتسد فراغ السكون الموحش ، كما يظهر في بيوت كثيرة ليس بها صغار يجرون هنا أو يلعبون هناك ، أو يضجون في اللعب والضحك والبكاء كما يفعل عادة الأولاد في كل بيت ! ! .. وفي الحقيقة إن أسعد إنسان هو الذي يحب الله لا لأنه يغنم أو يأخذ من هذا الحب ما يشتهي من عطايا أو بركات ، بل لأنه يرى في مجرد العلاقة بالله ، كل عطية وبركة وموهبة تامة في الحياة ، فيحب الله لذاته ، قبل أو بعد أن يأخذ ما يشتهي من الله .. وكان زكريا من هذا الصنف من الناس ، كان هو وزوجه بارين أمام الله ، والمقصود بالبر هنا ــ في أقرب تعريف « البراءة » ، والبراءة بالنسبة للمتهم ، عدم ثبوت الشكوى عليه ، وبالنسبة للطفل ، التصرف الخالي من الاحساس بالذنب ، وكانت براءة زكريا بهذا المعنى المزدوج ، فهو بريء من أي تهمة أو شكوى لأن الذبيحة التي يقدمها لله ، والتي ترمز إلى المسيح ، أعطته هذه البراءة الكاملة ، . وهو بريء بالاكتساب ، وليس بالاصالة ، هو بريء بالنيابة وليس بالخلو من الاثم والعيب ، .. وهذا ما تفعله ذبيحة المسيح لكل واحد منا لأننا كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا » (إشعياء ٥٣ : ٦) وبهذا المعنى القضائي كان زكريا باراً أو بريئاً ، .. على أنه كان في براءة الطفل بالمعنى الأدبي ، البراءة التي تفعل الشيء دون أن يكون قصدها الشر أو الخبث أو الحقد أو الضغينة أو الفساد أو ما أشبه ، .. ونحن عندما ننظر إلى شخص طيب وادع جميل : كثيراً ما نقول : إن له براءة الأطفال ،

وهكذا كان زكريا فى حياته مع الله ، وكما كان باراً أمام الله، فإنه كان« بلالوم» أمام الناس ، .. كان هذا الكاهن غير ملوم ، كان على الصورة التى يطلبها الله من الأسقف أو الشيخ ، أن يكون « بلا لوم » ليست عليه شكاية صحيحة من أحد ، .. وقد يختلف الناس معه فى هذا أو ذاك من أمور الحياة : وقد لا يسيرون كما يسير ، ولكنهم مع ذلك يشهدون له بالحياة المستقيمة الصحيحة غير الملومة !! .. ومثل هذه الحياة لابد أن تضع نصب عينيها وتحرص على السلوك السليم : « سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم » (لو١ : ٦) ... وربما يقصد بالوصايا ، الجانب الأدبى ؛ والأحكام الفرائض أو الجانب الطقسى ، .. لم يتوان زكريا وأليصابات عن السلوك فى الشريعة بشقيها الأدبى والطقسى كأفضل ما يفعل الإنسان بخوف الله وبكل أمانة !! ..

زكريا وصلاته :

جاء الملاك جبرائيل إلى زكريا ليقول : « لأن طلبتك قد سمعت » (لو ١ : ١٣) .. وهى حقيقة يجدر أن نتوقف إزاءها قليلا ، لكى تؤكد أن أعظم الأحداث فى العالم ، جاءت نتيجة الصلاة . ولم تأت بسبب ذكاء الإنسان أو جهده أو جبروته أو كفاحه أو ما أشبه مما يظن الناس أنه يوجه أو يغير مسار القصة البشرية على الأرض !! .. وفى عظة عن الصلاة قال بللى صاندى : « صلى ابراهيم من أجل ابن فأعطاه الله نسلا مثل الرمل على شاطىء البحر ، وصلى لأجل سدوم فسمع الله وأنقذ لوطاً ، وصلى يعقوب لأجل لقاء طيب مع أخيه عيسو ، وصلى موسى ليغفر الله للشعب . وصلى جدعون للتغلب على المديانيين ، وصلى إيليا فنزلت نار الله استجابة للصلاة ، وصلى يشوع فاكتشف عخان . وصلت حنة فولدت صموئيل ، وصلى حزقيا فمات مائة وخمسة وثمانون ألفاً من جنود سنحاريب ، وصلى دانيال

فكم الله أفواه الأسود وما كان شيء من هذا ليحدث بغير الصلاة !! .. صلى لوثر فجاء الاصلاح ، وصلى نوكس فاهتزت اسكتلندا ، وصلى برنارد فخضع الجنود ، وصلى ويسلي فاتجهت ملايين نحو الله ، وصلى هويتفيلد فتجدد الألوف ، وصلى فني فحدثت النهضة العارمة ، وصلى تايلور فقامت ارسالية الصين الداخلية ، وصلى مولر فجمع سبعة ملايين دولار لإطعام آلاف الجياع واليتامى ... أجل إن الناس تصلي ، والله دائماً يسمع !! ...» ..

ولا شبهة في أن هناك ثلاث إجابات للصلاة . . نعم أو لا أو انتظر ... وقد يكون من السهل أن نفهم إجابة الصلاة « بنعم » ولكن « لا » قد تكون الإجابة المناسبة ، أو قد يكون الجواب : « انتظر » حيث يقف المرء على محطة الانتظار إلى أن يصل قطار الله محملا بالاستجابة !! ... كانت البارجة الحربية تقف في عرض المحيط الأطلنطي على بعد مئات الأميال من شاطىء الولايات المتحدة ، وتسلم أحد البحارة برقية جاءت باللاسلكي تقول : « دونالد الصغير توفى بالأمس . الجنازة الأربعاء. هل تأتى . مارى »ونسي البحار واجبه واغرورقت عيناه بالدموع ، وإذ رآه القبطان استفسر عن سر بكائه ، فأراه البرقية ، وإذ قرأها قال له : أين تقطن . . وكان الجواب : في كليفلند ، أهايو يا سيدى !! .. فأرسل القبطان عدة برقيات ، ولم يلبث أن ظهر قارب حمل الرجل إلى سفينة أخرى لتحمله ، واشتركت مواصلات متعددة في الولايات المتحدة ليظهر في الميعاد في الكنيسة في أثناء توديع الصغير !! .. وإذا كان الإنسان في قدرته أن يفعل هكذا ، ... فإن جنود الله وملائكته في السماء على استعداد دائم أن تفعل هكذا ، في الميعاد المحدد المعين من الله !! ..

والسؤال إذاً ، لماذا أبطأ قطار الله في حمل الجواب إلى زكريا ، حتى ظن زكريا أن القطار لم يقم أبداً من محطة البداية ، أو أن السفينة لم تقلع من الميناء

لتسير فى بحر الله العظيم ، يجيب الكسندر هوايت على ذلك ، بالقول إن السفينة كان عليها أن تنتظر سفينة أخرى ، تسير هى فى المقدمة ، والأخرى على مقربة منها ، إذ أن الصبى الذى سيولد ، سيكون مرتبطاً بصبى أعظم ؛ ورسالة الصبى الأول هى أن يكون خادماً ومعلناً عن مجىء الصبى الآخر ، ... فقطار يوحنا أشبه بالقطار الذى يسبق قطار الملك ليعد لوصوله ومجيئه !! ..

ظن البعض أن زكريا انتهز الفرصة الوحيدة فى عمره فى هيكل الله عند تقديم البخور ليطلب طلبته القديمة ، .. ولكن النص الكتابى واضح كل الوضوح بأن زكريا كان لا يتوقع إطلاقاً — وقد بلغت الشيخوخة منه ومن امرأته — أن يكون هناك ثمة رجاء فى مجىء ابن فى ذلك الوقت المتأخر من العمر ، .. والكسندر هوايت يعتقد أن الخبر نفسه قد أثار ارتباكه إلى حد بعيد ، وكأنما يقول للملاك : لا لقد جئت متأخراً ، ومتأخراً جداً ، ومن ذا الذى يشرف على تربية الولد وتنشئته ؟ ! لو أنك جئت بالخبر قبل ذلك بأربعين عاماً ، لكانت بشارتك أعظم بشارة ، وحديثك اشهى حديث إلى النفس ، .. ثم كيف يمكن أن يكون هذا ، وقد أصبحت شيخاً فانياً وامرأتى كذلك !! .. لقد أثار زكريا المشكلة التى يثيرها الضعف البشرى عندما توزن الأمور بموازين العقل البشرى !! .. ولكن الله لا يمكن أن تنتهى طريقه بنهاية التفكير البشرى أو حدود الذهن الإنسانى !! .. وقد عوقب زكريا ، عندما أراد أن يوقف قدرة الله عند منعطف الذهن الإنسانى القاصر !! .. وكانت العقوبة غريبة فى حد ذاتها ، .. من المعتقد أنه لم يصب فقط بالبكم بل بالصمم أيضاً ، .. وقد تعذر عليه أن يتكلم إلى الشعب ، ولا إلى الذين تكلموا إليه يوم ميلاد ابنه . وتكرر القول : « فكان يؤمىء إليهم وبقى صامتاً... ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمى » (لو ١ : ٢٢و٦٢) وإذا كان الايماء الأول من جانبه دليلا على عجزه عن الكلام ، .. لكن

الإيماء الثانى من جانب المخاطبين ، ينهض دليلا على تعذر التفاهم معه بالكلام ، والحاجة إلى الإشارة التى يمكن أن تقوم مقام الكلام !! .. على أن هـذه العقوبة الظاهرة كانت فى واقع الحال رحمة من الرب بالرجل ، الذى عاد إلى بيته ، لتنضم إليه زوجته فى نوع من العزلة إذ « أخفت نفسها خمسة أشهر قائلة هكذا قد فعل بى الرب فى الأيام التى نظر فيها الى لينزع عارى بين الناس » (لو ١ : ٢٤ و٢٥) ... كان على زكريا وإمرأته أن يقضيا فترة خصبة فى روح التأمل والشركة مع الله ، وكان عليهما أن يصما آذانهما عن البشر والعالم . ليشكرا الله على العطية الجديدة المرتقبة ، ولكى يتعلما فى السكون والصمت حكمة أعلى وأسمى وأقوى !! .. ومن المناسب على أى حال فى قصة الحياة أن نربط بينها وبين التأملات التى لابد منها ، ونحن على مقربة من التوقعات الكبرى التى تبدو لنا قريبة ، . . وقد قيل إن رمسيس الثانى تعود أن يخرج من زمام الحياة ، إلى غرفة كان يطلق عليها اسم « غرفة التأملات » ، .. ونحن فى القرن العشرين أكثر حاجة إلى هذه الغرفة ، التى فيها يمكن أن نتعلم الكثير من الدروس والعلوم والحقائق ، .. ولعل الجبال التى كان يقطن فيها زكريا — والتقليد يقول إنها جبال حرمون — ساعدته كثيراً على التـأمل والسكون فى حضرة الله !! ..

ومن اللازم أن نتذكر — بالإضافة إلى ذلك — أن الله أعطى الجواب على سؤال زكريا القديم ، وهو فى هيكل الله ، ومع أننا نستطيع أن نأخذ جواب الله فى كل مكان ، .. لكن ما أكثر ما يلتقى بنا الله بالجواب العظيم ، فى بيته المبارك ، عندما نصرخ أمامه : « لتستقم صلاتى كالبخور قدامك ليكن رفع يدى كذبيحة مسائية » (مز ١٤١ : ٢) .. عندما نضع صلاتنا أمامه وننتظر !! ..

زكريا وابنــه :

جاء المعمدان ابن الشيخوخة الطاعنة فى السن ، ومع ذلك فهو المعمدان الذى لم يقم له نظير بين المولودين من النساء ، على ما سنتعرض له ، عنــد الحديث عن شخصيته اللاحقة لشخصية أبيه ، وليس الأمر الهام هو كم عدد الأولاد فى البيوت ، حتى ولو كانوا مثل غروس الزيتون حول المائدة ، إذ أن الأفضل من ذلك هو النوع ، إذ أن المعمدان الواحد أفضل من مئات وألوف من الأولاد العاديين ، إن الشخص الهام العظيم ، هو الذى يعادل جيشاً بأكمله ، لقد جاء المعمدان فى روح إيليا ، وعندما صعد إيليا إلى السماء بكاه أليشع صارخاً : « يا أبى يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها » (٢مل ٢ : ١٢) كما أن ملك إسرائيل قال الشيء نفسه عن أليشع : « ومرض أليشع مرضه الذى مات به . فنزل إليه يوآش ملك إسرائيل وبكى على وجهه وقال يا أبى يا أبى يا مركبة اسرائيل وفرسانها » (٢مل ١٣ : ١٤) .. ولا شبهة فى أن البيت يتغير كثيراً بوجود ولد واحد أم أولاد كثيرين ، .. ومن المعتقد أن زكريا وأليصابات كانا فى حاجة إلى يوحنا ، كما كان يوحنا فى حاجة إليهما ، .. أما الأبوان فقد كانا فى حاجة إلى الصبى الذى يزيل وحشتهما ، ويؤنس شيخوختهما ، ويشيع فى المنزل جواً من البهجة والجلال والسعادة ، هيهات أن تكون مع عدم وجود الأولاد الصغار ، ومن المؤكد أن الأولاد يعملون على اتساع أذهان الآباء وقلوبهم وصدورهم ، ويعطونهم طعما من الحياة كان من المستحيل معرفته أو الوصول إليه بدونهم !! .. وفى الوقت عينه من المؤكد أن المعمدان كان فى حاجة ، وهو يتدرج فى مراحل الحياة وينمو مع الأيام ، إلى أبوين مثل زكريا وأليصابات ، لقد عاش الغلام فوق الجبال فى بيت يكاد يكون معزولا ، وكان لابد له من هذه العزلة التى تحميه من التلوث بفساد الحياة مع العالم وضجيجها ، إلى يوم ظهوره لإسرائيل ، ..

ومع أن الله يستطيع دون أدنى ريب أن يخرج من البيت الشرير أقدس الأبناء، .
لكن العادة عنده أن الابن المقدس يخرج من أحضان أبوين عرفا الله وعاشا في الشركة المقدسة معه ، والولد سر أبيه ، وعلى شبهه كما تذهب الأمثال ، وهو يأخذ بالوراثة الشيء الكثير ، ليس من الوجهة البدنية أو العقلية فحسب بل من الوجهة الروحية أيضاً ، .. وهنا يقول جيمس هاستينجر : « سعيد من له أو لها مثل هذا الأب أو الأم، ومثل هذا المهد الذى يتربى فيه فى البيت ، ..
ولقد خرج أعظم المصلحين والمجددين من أمثال هذه البيوت ، وتأثير الأم هنا على وجه الخصوص بعيد وعميق ، إذ أنه يغلب أن الرجال العظماء والصالحين لعبت الأمهات الدور الهام فى تربيتهم وتنشئتهم . وربما تفوقت المرأة هنا على الرجل فى هذا المجال ، .. وقد ذكرنا هذا لنبين دور الأمومة فى حياة الأولاد ! ! .. وقد كانت التربية الدينية اليهودية خير مثال على ذلك ، وربما كانت كلمات الفرد أورشايم خير ما يقال فى هذا الصدد : « من المؤكد أن تربية الولد كانت تقع أولا على عاتق أمه ، .. لكن الأب كان عليـــه أن يحمل العبء من الابتداء وإذا لم يكن على نصيب من المعارف الأولية ، فإن غريباً كان يتولى التعليم ، وكان التعليم البيتى يبدأ — فى أيام المسيح — عندما يبلغ الطفل الثالثة من العمر ، . . وهناك ما يدعو إلى اليقين من أن الذاكرة كانت تدرب قبل ذلك التاريخ ، على ما أصبح واضحاً من العقلية اليهودية نفسها ، فالآيات الكتابية ، وألفاظ البركة ، والأقوال الحكيمة كانت تطبع فى ذهن الصغير ، يرددها لتسهل ما يرغبون فى تلقينه إياه ، .. وعند الخامسة كانوا يبدأون معه التوراة ، ولكن ليس من سفر التكوين ، بل من سفر اللاويين ، إذ كانوا يعتقدون أن تاريخ الشعب أكثر من أن يستوعبه الصغير — فى مثل هذه السن — شفوياً ، .. وفى السادسة كانوا يرسلونه إلى المدرسة الابتدائية أو الأولية ، ومن المتصور أن السيد أرسل

إلى المجمع فى ذلك الوقت ، .. والهدف الأساسى أمام المعلم الذى يتولى التعليم فى هذه السن ، كان لتهذيبه فى الأخلاق إلى جانب إعطائه المعرفة العقلية ، .. وفى العاشرة كان عليه أن يتعلم « المشنا » التى تحدثه عن التقاليد ، وفى الخامسة عشرة يلزم أن يكون مستعداً للتلمود ، أو التفاسير الدينية التى توضع أمامه !!. ومن المتصور أن يوحنا المعمدان لم يخرج عن هذه القاعدة فى صبوته وشبابه الباكر !! ..

ولعله من المناسب أن نذكر هنا أن مجىء المعمدان ومجىء المسيح كانا مصحوبين بالترنم والأغانى ، وقد دون لوقا خمس أغانى . فالملائكة قد غنوا أغنية « المجد لله » ، والعذراء أغنية التعظيم : « « تعظم نفسى الرب » وأليصابات أغنية التطويب « مباركة » وسمعان أغنية « الاطلاق » أو « الاعتاق» وزكريا أغنية«البركة— مبارك الرب إله اسرائيل» وهذه الأغانى أضحت معروفة من اللفظ الأول فى الأغنية ، ويعنينا الآن أن نقف قليلا من زكريا وهو يغنى أغنية أمام ميلاد ابنه العظيم !! .. لقد تنبأ زكريا بالروح القدس عن عظمة ابنه ، وقد سبق الملاك أن كشف عن هذه العظمة أمام الله . وعن حياته كنذير معزول عن الآخرين لا يشرب خمراً أو مسكراً ، بل من بطن أمه يمتلىء بروح الله الذى يسيطر عليه ويقوده منذ البداية !! .. والذى سيرد الكثيرين عن المعصية والشر ، إذ سيرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار ويهيىء شعباً مستعداً للرب !! ..

ومع أن زكريا تحدث بلغة العهد القديم ، .. إلا أن هذه اللغة حملت فى نسماتها عبق العهد الجديد وشذاه ، وغنى الرجل شاكراً الله على المسيح الآتى الذى سيخلص الشعب من أعدائه ومبغضيه ، ويقيم قرن الخلاص كما تكلم

بالأنبياء القديسين ، وكان على ابنه أن يمهد لهذا المجيء ، ويعد الطريق ، على النحو العظيم الذى فعله بكل شجاعة وغيرة وقوة وأمانة !! ..

ومع أن ابن الشيخوخة يكون — على الأغلب — ضعيف الجسد ، وادع النفس ، هادىء المسار ، .. لكن المعمدان كان على العكس من كل هذا ، إذ كان ملتهباً شجاعاً ثائراً !! .. ومع أنه جاء متأخراً فى حياة الأب ، .. إلا أنه كان عظيما وسباقاً وأفضل من ملايين الملايين من أبناء الشباب الذين يأتون فى مطلع الحياة ، وفضل القوة ورفعة الأيام !! ..

٨٤
يوحنا المعمدان

« لم يقم بين المولودين من النساء اعظم من المعمدان » (مت ١١ : ١١)

هل يمكن للانسان أن يرى وصفاً للعظمة أروع أو أجل من وصف المسيح لعظمة المعمدان ، .. وعلى وجه الخصوص أن المسيح كان يتحدث عن المعمدان ، وهو فى القاع لا فى القمة ، .. ولقد نحى المسيح جانباً عظمة أولئك الذين يلبسون الثياب الناعمة فى بيوت الملوك ، .. ولم يكن حظ المعمدان — فى كل ما لبس — أكثر من ثوب من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد ، .. وأغلب الظن أن الرجل لم يعرف يوماً ما أطايب القصور إذ كان طعامه على الدوام مما يجده هناك فى البرارى والصخور جراداً وعسلا برياً ، .. وعندما دخل القصر اصطدم بمن فيه إذ لم يكن قصبة تهزها الريح ، بل كان طوداً راسخاً يفزع ويخيف ، وأدخله القصر إلى السجن ، وكانت المأساة أن السجن لم يحتو جسده فحسب ، بل امتد إلى نفسه أيضاً ، عندما أرسل

للمسيح قائلا : «أنت هو الآتى أم ننتظر آخر» (مت ١١ : ٣) .. ولكن المسيح نظر إلى السجين، وهو فى أعماق القاع، صاح : «ولم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان»، .. وعندما واصل المسيح حديثه، لم يجعل المقارنة مجرد المقارنة العادية العامة، بل نقلها إلى المقارنة بالأنبياء، ومن العجيب أن يفوز المعمدان بالمركز الأول إذ هو أيضاً أفضل من نبى، إذ أن الله لم يشرف واحداً من الأنبياء السابقين بشرف الخدمة التى أعطيها المعمدان !! .. كانت حياته قصيرة وكانت خدمته أقصر، إذ يبدو أنه لم يتخط الثانية والثلاثين من عمره، ولكنه — مع ذلك — كان المشعل الذى أضاء الليل البهيم قبل بزوغ الفجر، .. وكان الشهاب الذى لمع فى السماء قبل طلوع كوكب الصبح المنير، وقد طلب من الناس ألا يلتفتوا إليه، بل بالأحرى أن يلتفتوا إلى الأعظم، إذ ينبغى أن ذلك يزيد وأنه هو ينقص، وتلاشى فى حضرة المسيح، وكان يذهب نسياً منسياً حتى إن أحدهم كتب عنه كتاباً بعنوان «النبى المهمل»، .. لكنى أعتقد أنناستطيع أن نأخذ أعظم الدروس من قصة الرجل إذا تابعناه فيما يلى :

يوحنــا وحياته :

يقول ماكرتنى فى تحليله لحياة يوحنا المعمدان إن من أكبر البركات أن يأتى الرجل من أبويه زكريا وأليصابات، من البيت التقى، وهو يستشهد فى ذلك بما فعله توماس كارليل عندما قدم طلباً ليعين فى وظيفة مدرس، وكان من ضمن البيانات عن مؤهلاته هذه العبارة : «لا أنسى أن أذكر أنه من امتيازاتى التى أتمتع بها، صلوات أبوين متدينين وهذه نعمة إذ لم أثبتها هنا فإنى أكون جاحداً» .. ولقد تحدثنا — فى حديثنا السابق عن زكريا — عن امتياز البيت العظيم الذى نشأ فيه يوحنا، .. ومع أننا لا نعلم كم عاش هذان الأبوان، وكم علما يوحنا وربياه على الحق الإلهى، .. لكن يبدو أنهما سارا

السنوات الأولى من حياته حتى مطالع الشباب ، .. وقد كان الأبوان بحياتهما وخدمتهما احتجاجاً كاملا على العصر الذى يعيشان فيه وقد تشرب فيه يوحنا من روحهما ، وعاش حياته محتجاً بكل صلابة وقوة ضد أعمال معاصريه وفسادهم ، ويجوز لنا إذا صح التعبير أن نعتبره « البروتستانتى الأول » فى التاريخ المسيحى . . . على أى حال لقد نشأ الشاب فى بيت عظيم تقى !! ..

فإذا أضفنا إلى ذلك حياة العزلة التى عاشها فى البرية : « وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل (لو ١ : ٨) ولكامبل مورجان هنا رأى يجدر الالتفات إليه والتأمل فيه، إذ أنه يعتقد أن يوحنا كان أصلا من السلسلة التى تؤهله أن يكون كاهناً ، فأبوه وأمه يرجعان إلى الكاهن الرأس ، وكان من المتعين عليه أن يسير فى طريق الخدمة الكهنوتية والتى يبدأ الإنسان فى التدرب عليها وهو فى العشرين من عمره ، ولكنه على غير العادة لم يتجه إلى هـذا التدريب بل أدرك أن له رسالة النبى وليس الكاهن ، ولعل أبويه حدثاه بالقصة كلها ، وكيف أنه معد لرسالة خاصة ، كان من واجبه أن يجهز نفسه لها ، .. ولم يجد أمامه سوى البرارى فى العزلة مع الله ، ليقضى عشر سنوات فى التأهب والاستعداد والعبادة حتى تأتيه الدعوة لتحوله فى الثلاثين من عمره ، لا ليكون كاهناً كما يلزم أن تكون خدمة الكاهن فى الثلاثين ، .. بل ليكون النبى الذى يعد لمجىء المسيح ، .. وقد فعلت فيه العزلة ما تفعله فى العادة فى نفوس الكثيرين من الناس ، إذ أهلته لحياة البساطة الكاملة التى لم تر فى الثياب سوى سترة من عرى ، وهو ليس فى حاجة لأكثر من ثوب من شعر الإبل ، ومنطقة من الجلد يشد بها حقويه ، فإذا جاع فإن الجبال تمده بالجراد الذى يأكله ، وبالعسل الذى يشتار منه ما يشاء !! .. ولقـد تخلص بذلك من أكبر شركين يسقط فيهما الجنس البشرى منذ أول التاريخ إلى الآن ، شرك الكسوة وشرك القوت ، وفى الحقيقة لسنا فى حاجة إلى

إلى أكثر منهما ، « فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما (١ تى ٦ : ٨).. ولكن هل يفعل الناس هذا ، وهم غارقون إلى ما فوق الرأس ، فى اللباس والشراب ، يكفى أن نتأمل جنون المودة والأزياء التى تتغير من عام إلى عام ويصرف فيها الناس ملايين الملايين ، لا لأجل الحاجة إلى الثياب ، بل لمجرد الرغبة فى تغيير الزى والمظهر ، وماذا نقول عن بيوت الأزياء المنتشرة فى عواصم العالم الكبرى ، ومقدار ما تبذل من جهد لتحويل التيار فى هذا الاتجاه أو ذاك ، من التيارات السنوية أو نصف السنوية ، فى الصيف أو فى الشتاء ؟ ! .. إنه فى الحقيقة نوع من الجنون البشرى الذى ينطلق فيه النـــاس من غير وازع أو رادع !! .. فإذا تحولنا إلى الطعام فالأمر قد يكون انكى وأشد ، وإذا بالناس قد حق فيهم قول الرسول : « الذين إلههم بطنهم ومجدهم فى خزيهم» (فى ٣ : ١٩) .. وكم تضيع حياة الناس وأبديتهم وبركتهم ومجدهم لأن الأم الأولى غيرت مسار التاريخ إذ أكلت الثمرة المحرمة !! وما يزال إلى اليوم الكثيرون والكثيرات من أبنائها يفعلون هكذا ، .. ولكن المعمدان نأى عن هذه الطريق بشقيها ونجا بحياة البساطة من شركى اللباس والطعام !! .. كان فرانسس الأسيسى يطلب من الناس أن يتخففوا من الأثقال المادية التى تعوقهم عن السير الصحيح فى الحياة ، وكان يعتقد أن الضربة القاسية التى يصاب بها البشر هى حملهم متاع الدنيا على رؤوسهم وأكتافهم مما يعوق حركتهم الأجيال ! . . ونجح هو فى التخلص من ذلك ليصبح اسمه بين الخالدين فى كل الأجيال . . .

وفى العزلة لا يعيش الإنسان حياة البساطة فحسب ، بل لعله هناك أكثر تقييماً للحياة وأعمق إدراكاً ، إذ يتحرر من كل إغراء أو خوف بل يكون أكثر سرعة من سليمان فى الوصول إلى النتيجة التى بحث عنها بعد أن بنى جناته وفراديسه وطاف بموكبه العظيم فى الحياة ليخرج بالقول الخالد المأثور باطل الأباطيل الكل باطل ... وقبض الريح !! .. « ولنسمع ختام الأمر كله :

اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله » !! .. (جا ١ : ٢و١٧، ١٢ : ١٣) ... والحياة الزاهدة هي دائماً حياة شجاعة ، وكان يوحنا من أشجع الناس وأقواهم على الأرض ، .. لم يكن قصبة تهزها الريح ، بل كان البلوطة التي تتكسر الأنواء عند أقدامها ، دون أن تتراجع أو تهتز ، كان صلباً في الحق ، ولعله واجه الكثير من الوحوش في البرية دون أن يفزع أو يخاف ، وقد فعل الشيء ذاته مع الأمة بأكملها ، وهو يصيح في قادتها : « يا أولاد الأفاعي » .. وهو يزمجر كالأسد في مواجهة الملك : « لا يحل لك » .. وقد يستطيع السيف ، أن يكسر جسده ، لكن روحه لم تكسر قط ، وسجل التاريخ شجاعته على أروع ما يكون التسجيل ، ويصح فيه ما قاله ريجنت موراي وهو ينظر إلى يوحنا نوكس في كفنه عندما قال : « هنا يرقد الرجل الذي لم يخش في حياته وجه إنسان !! ..

وفي كل هذا ينبغي أن ننسى العامل الأعظم في حياته ، إنه الرجل الذي خرج إلى الحياة بعد أن امتلأ من الروح القدس من بطن أمه ، أو في لغة أخرى أن الله استولى عليه من الطفولة ، ولم تكن للشيطان الفرصة أن يصاحب حياته ردحاً من الزمن ، كان الفارق بينه وبين سيده ، أنه ولد من زرع بشر ، وبالإثم صور وبالخطية حبلت به أمه ، لكن الله مع ذلك قطع عليه الطريق منذ نشأته الأولى حتى لا يسير مع العالم ، ومع الجسد ، ومع الخطية ، ومع الشيطان ، ومع الأشرار من بني البشر ، .. ولنا أن نتصوره بهذا المعنى الانسان التقي المتعمق في تقواه ، الذي يتحرك بروح الله المسيطر عليه إلى حد الامتلاء !! ..

ولا نعجب بعد هذا كله إذ نراه الإنسان الوديع الذي لم يغر من نجاح سيده أو تقدمه ، بل هو صديق العريس القائل : « وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس . إذاً فرحي هذا

قد كمل . ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص » .. (يو ٣ : ٢٩ و ٣٠) ومع أن شهرته كواعظ طبقت الأفاق ... لكنه عندما سئل عن الكهنة واللاويين : من أنت : « فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح . فسألوه إذاً ماذا . إيليا أنت . فقال لست أنا . ألنبي أنت ، فأجاب لا . فقالوا له من أنت لنعطى جواباً للذين أرسلونا . ماذا تقول عن نفسك . فقال « أنا صوت صارخ فى البرية » (يو ١ : ١٩ — ٢٣) ... وهنا يذكرنا ماكرتنى بما فعل ندل فيلبس وهو يقف بجوار جون براون على قمة الجبل ويقول : كم من الناس يجاهد لكى لا يكون منسياً بينما ينسى آخرون أنفسهم فتخلد أعمالهم ! .. كان يوحنا المعمدان واحداً من أعظم الجنود المجهولين الذين كتب أمام نصب أقامه الأمريكيون لهم : « من كانوا ؟ هذا لا يعلم أحد . لكن ماذا كانوا ؟ هذا ما يعلمه الجميع !! ..

يوحنا ووعظه :

ويوحنا كواعظ درس عميق خصب للوعاظ ، ولعله ليس من السهل متابعته فى كلمات أو صفحات إلا أنه يجدر بنا أن نشير إلى الحقائق الأساسية الثابتة فى مركزه ورسالته كواعظ ، .. أولا : إنه الواعظ المتأكد من دعوته إذ كان يعلم تمام العلم : « كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا . هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكى يؤمن الكل بواسطته » (يو ١ : ٦ و ٧) كان قلبه وعينيه وأذنه مفتوحة لمعرفة الرسالة الإلهية ورؤيتها والتأكد منها ، ومن ثم قيل عنه : « وشهد يوحنا قائلا إنى قد رأيت الروح نازلا مثل حمامة من السماء فاستقر عليه . وأنا لم أكن أعرفه . لكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى الذى ترى الروح نازلا ومستقراً عليه فهذا هو الذى يعمد بالروح القدس . وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » (يو ١ : ٣٢ — ٣٤) .. ونحن هنا نرى إنساناً يرى بعينه ، ويسمع بأذنيه ، ويدرك بكل يقين أن هناك من

أرسله ، .. وهذه الرؤيا هى التى أعطته التأكد من الدعوة العليا له فى المسيح يسوع !! .. ولعل هذا ما يحتاجه كل واعظ قبل أن يخطو خطوته الأولى فى خدمة الله ، .. إذ أنه إنسان مرسل من الله !! .. ومهما تكن الخدمة بعد ذلك فى طولها أو قصرها ، وهل هى عامان ، أو ستون عاماً ، فالأمر سيان ، ومهما انتهت بالشهادة أو الاستشهاد ، فالأمر لا يتغير ، وإنما المهم أنه واثق من أنه خادم الله ومرسل منه ، .. وآه كم يغفل الكثيرون عن هذه الحقيقة ، فلا يرونها فى الوضوح الكافى ، وينطلقون إلى الخدمة فاشلين لأنهم ذهبوا بهذا الدافع أو ذاك من عواطف الناس ونوازعهم .. كانت هذه الحقيقة ثابتة بعمقها الكامل أمام يوحنا المعمدان ، ولأجل ذلك قال : « لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطى من السماء » (يو٣ : ٢٧).. من اختبارات الكسندر هوايت فى هذه الشأن أنه كان يخدم فى كنيسة كبيرة توشك أن تنتخب راعياً لها ، .. وقد كانت الغالبية فى الكنيسة معه ، إلا أنه كانت هناك أقلية من ذوى النفوذ ضده ، وفى يوم السبت وصلته رسالة أن يعطى الفرصة فى الغد لواعظ آخر تتجه أنظار هذه القلة إليه ، وعليه أن يعطيه فرصة صباح الأحد ، ويعظ هو فى المساء ، .. وقد ضاقت نفسه إلى حد بعيد بروح هذه الجماعة وهى تفرض عليه هذا الأمر . . ولعب الشيطان بنفسه ، وهو غاضب ثائر ، حتى وصل به الإحساس وكأنما السيد يخاطبه قائلا: « ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك » (لو ٢٢ : ٣٢) .. وبعد أن انقضى يوم الأحد أخذ يناجى بنفسه قائلا : « هل يكفيك المسيح نصيباً حتى ولو لم تكن هناك جهنم تريد أن تنجو منها !! .. وجاء الجواب : أجل !! .. ثم جاء السؤال التالى : لنفرض أن مركزك وسمعتك اهتزا ، وأن آخرين سيتقدمون عليك ، .. هل تقنع بالمسيح حتى ولو أخذ هؤلاء المركز الذى كنت تطمع فيه وتحلم به !! .. وكان

الجواب : نعم ! . ووعظ فى تلك الكنيسة آخر عظة له فيها .. ومن العجيب أنه لم يأخذ هو أو الآخر رعاية تلك الكنيسة فقد رتبها الله لشخص ثالث . . ولكنه على أى حال غادرها إلى حيث رتب الله له مكانه ومركزه !! .. أيها الواعظ هل أنت على استعداد أن تكون هكذا وتذهب متأكداً من الدعوة ومكانها حيث يريدك الله على الدوام ؟ ! .. لقد كان يوحنا المعمدان على يقين من دعوته !! .. على أن يوحنا كان أيضاً الواعظ الذى أدرك أن رسالته الحقيقية أن يظهر المسيح أما هو فيختفى !! .. كان فى وعظه وخدمته الإنسان الذى يريد أن يتوارى ليظهر مجد السيد ، وهو الذى يدفع الشعب بل وتلاميذه فى الاتجاه إلى المسيح ولعل أجمل صورة لذلك ما قاله الرسول يوحنا فى الأصحاح الأول من انجيله : « وفى الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه فنظر إلى يسوع ماشياً فقال هوذا حمل الله فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع » (يو ١ : ٣٥ — ٣٧) .. ان قمة الوعظ الصحيح أن يصبح الإنسان مجرد صوت صارخ فى البرية ليلفت النظر إلى يسوع ، وإلى يسوع وحده !! .. سمع أحدهم الواعظين المشهورين جوزيف باركر واسبرجن ،.. وخرج ليقول عن العملاقين العظيمين : إن جوزيف باركر يعطينى على الدوام الاحساس بالواعظ المقتدر ، .. ولكن اسبرجن ينسينى كل شىء عنه ويوجهنى للمسيح ، .. كان باركر من أعظم الوعاظ المقتدرين الأتقياء وحسن أن يكون المرء مثله واعظاً مقتدراً ولكن الأفضل والأحسن دائماً — عند المقارنة — أن نكون كسبرجن الذى يوجهنا إلى يسوع المسيح لكى نراه وحده !! ..

كان يوحنا المعمدان أيضاً واعظ التوبة ، الواعظ الذى صرخ فى البرية بزئير الأسد ، والزئير دائماً يهز الأسماع ويحرك الجميع ، ولأجل هذا تقاطرت الجموع نحو الواعظ الذى يعظ بأسلوب لا يعرف المداهنة أو التملق

أو الحديث بالناعمات ، بل الذى يكشف عن غضب الله على الخطية ، وينادى بالتوبة لأنه قد اقترب ملكوت السموات ، وهنا ينادى بصرامة الله للمتهاونين فيكشف عن السيد الذى يمسك الفأس بيده ليقطع الشجرة غير المثمرة ، .. والرفش فى يده ليعزل الحنطة من التبن الذى يحرقه بالنار التى لا تطفأ وإذ يرتعب الجميع يقول لمن خرجوا ليعتمدوا منه : « يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى » (مت ٣ : ٧) .. وهو إذ يرى شعباً يعيش على الطقوس والفرائض والمظاهر الدينية الخارجية ، يرعد فيهم ببطلانها جميعاً ويؤكد ضرورة الثمر ، وليس التوزع بأنهم أولاد لإبراهيم : « فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم لنا ابراهيم أباً لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم » .. (لو ٣ : ٨) وقد صدق إذ أقام الله بنعمته من الأمم القساة القلوب أولاداً لابراهيم !! .. وقد تحدث عن التوبة العملية : « وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا . وجاءه عشارون أيضاً ليعتمدوا فقالوا له يا معلم ماذا نفعل . فقال لهم لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم . وسأله جنديون أيضاً قائلين وماذا نفعل نحن . فقال لهم لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائقكم » (لو ٣ : ١٠ — ١٤) .. على أنك تستطيع أن ترى يوحنا وقد بلغ الذروة ، عندما تراه واعظ الصليب : « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩) وسيبقى هذا الواعظ مدى الأجيال والعصور الواعظ العظيم الذى تسلق من الانجيل الاجتماعى أعلى قمة وهناك رأى هضبة الجلجثة ، فوعظ بإنجيل الخلاص !! .. وعلينا أن نذكر هنا أن التوبة هى الجانب السلبى فقط من الحياة المسيحية ، لكن قمة المسيحية هى فى الإيمان بالمسيح مخلص العالم الوحيد !! ..

أيها الواعظ عندما عاد مودى من رحلته الناجحة لانجلترا ، كان أول عظة

له بعد عودته عن الصليب ، واستقبلته سيدة ثائرة قائلة : أليس لك غير هذا الموضوع !! .. دائماً تتكلم عن الدم ، .. فقال لها مودى : أشكرك على الوصف الذى خلعتيه على ، وأتمنى أن يكون هكذا دائماً !! .. وإنى اقرأ الإنجيل خطأ إذا لم يكن مفتاحه الصليب ، دم المسيح !! .. كان هنرى دارموند آية فى الفصاحة والبلاغة ، ولكنه فى ضجعة الموت سمع أحدهم يغنى إلى جواره أغنية الصليب !! .. فطلب إليه أن يعيد الأغنية ، وأبدى إحساسه العميق بالألم لأنه رغم عظاته العظيمة ، كان يتمنى أن يعطى الصليب فى خدمته مكاناً أعظم وأوفى مما فعل !! .. ترى هل نفعل هذا قبل أن نأسف على الخدمة التى لم يكن لحمتها وسداها صليب ربنا يسوع المسيح مخلص العالم !! ..

يوحنا وشكه :

وقد حرص الكتاب على أن يعطينا صورة الغيمة التى ارتفعت فى سماء حياة المعمدان ، وقد كان يوحنا سجيناً بسبب زجره للملك هيرودس على زواجه بهيروديا إمرأة أخيه ، .. وكان هيرودس هذا هو هيرودس أنتيباس ابن هيرودس الكبير من زوجته الثالثة ، والذى أصبح ملكاً على ربع مملكة أبيه ، وهذا الربع كان الجليل وبيرية شرق الأردن ، وقد تزوج هذا الملك ابنة أريتاس وكان ملكاً عربياً ، غير أنه هجرها ، وهو فى روما إذ تعلق بهيروديا إمرأة أخيه وأخذها له زوجة ، ومن الغريب أن هذه الزوجة كانت ابنة أخ آخر له اسمه ارستوبولس ، ولكن هيرودس طوح بكل هذه الاعتبارات وعاش معها ، .. وقد أثار أرتياس عليه حرباً ضارية انتقاماً منه لابنته ، .. لكن فزع الرجل الأكبر كان من يوحنا المعمدان الذى قال له : « لا يحل أن تكون لك إمرأة أخيك » (مرقس ٦ : ١٨) وبتحريض

هيروديا قبض عليه وسجنه فى قلعة مكاروس . حيث بقى يوحنا شهوراً عديدة هناك ،.. وفى أعماق السجن ، كانت انتظاراته معلقة على المسيح ليظهر سلطانه ، وينقذه منه ، ولكن يبدو أن الزمن طال ، دون أن تظهر أدنى بادرة لنجاته ، فأرسل إلى السيد اثنين من تلاميذه : « وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر » (مت ١١ : ٣) . . وقد حاول البعض بتفسيرات مختلفة القول بأن يوحنا عندما أرسل التلميذين لم تتعثر أفكاره فى السيد ، وإنما أرسلهما إما لينضما إلى تلاميذ المسيح ، أو ليجنبهما العثرة التى يمكن أن تكون قد تسربت إليهما من بطء السيد فى انقاذ يوحنا ، أو ليطلب إليه محلفاً أن يسارع بإنقاذه !! .. غير أن كلمة المسيح التى تقول : « وطوبى لمن لا يعثر فى » تبين أن يوحنا كان فى ذلك الوقت فى أدق فترة ذهنية تجتازها نفسه وأفكاره ، .. وأنه لم يدخل القلعة التى سجنه فيها هيرودس فحسب ، بل دخل أكثر من ذلك إلى قلعة الشك التى صورها يوحنا بنيان فى كتابه « سياحة المسيحى » والتى تعرض لها السائحون وهم ينحرفون عن طريقهم ليناموا فى أرض غريبة ، وفى اليوم التالى وقعوا أسرى لجبار اسمه « جبار اليأس » الذى أسرهم وألقى بهم فى ظلمات قلعة الشك !!.. والسؤال القائم هو هل شك يوحنا فى شخص المسيح وهو الذى عرفه ، ورأى روح الله نازلا مثل حمامة عليه ، وسمع صوت الله القائل : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » (مت ٣ : ١٧) وهو الذى شجع تلميذيه على أن يذهبا وراءه . وقال : « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » .. فهل يمكن بعد هذا أن يشك فى السيد !!؟.. إن دراسة يوحنا من هذا الجانب أمر قد يفيد كثيراً النفوس المتعبة المجربة !!..

فى الواقع إن يوحنا تسرب الشك إلى نفسه ، وهو صورة لنا نحن الذين رغم ما يصنع الله معنا من معجزات متعددة ملموسة ، فإن الفرق عندنا بين

زمن الشك واليقين ، هو الفرق الذى رآه بطرس وهو ينظر إلى المسيح ويسير مثله فوق الموج ، الأمر الذى لم يفعله بشرى آخر خلاف السيد وتلميذه ، .. ولكنه فى اللحظة التالية يتعرض للغرق ويسمع : « يا قليل الإيمان لماذا شككت » (مت ١٤ : ٣١) .. ويوحنا هنا أشبه بإيليا فوق جبل الكرمل ، وهو يسمو إلى أعلى ذرى الإيمان ، .. ثم يتحول بعدها فى اليوم التالى إلى الرجل اليائس الذى يطلب الموت لنفسه تحت الرتمة !! .. إنها القصة الغريبة للنفس البشرية التى ترتفع إلى أعلى جبال الإيمان ، ثم لا تلبث أن تسقط فى وهاد الشك القاسية !! .. فإذا حاولنا أن نحلل أسباب هذا الشك ، فإننا نجده أول كل شىء ، يرجع إلى عامل الخطية ، .. والخطية هى العامل الأول فى جهل الإنسان والحاده وشكه ووساوسه ، .. ولكن شك يوحنا لم يكن بسبب خطية تحولت إلى غيمة تظلل على إيمانه بالسيد ويقينه بشخصه ، .. إن البعض يعتقد أن الشك ربما كان بسبب الفراغ الذى فرض على يوحنا فى سجنه ، والفراغ دائماً يولد الشك ، ورأس الكسول معمل الشيطان ، .. على أنه مهما كان الفراغ هنا مساعداً على الوسوسة الذهنية ، إلا أن يوحنا كان الأغلب قد تسرب إليه الشك لأنه كان ينتظر المسيح بالمفهوم اليهودى الشائع الذى ينظر إليه كملك أرضى يمسك فأسه ليستأصل الشجرة ، أو رفشه فى يده لينقى الحنطة ، ويلقى بالتبن إلى النار ، وهو لابد سيخرج للقضاء على الفساد والمفسدين ، ويستأصل هيرودس وشره وفساده بالقوة الجبارة ، .. وما أكثر الذين يطلبون المسيح إلى هذا اليوم بهذا المعنى ، فإذا لم ينتقم ، ويسيطر على الفساد والأشرار ، فإنهم يتعثرون فيه ، وإذا لم يحرق مدناً بأكملها ، فإن سؤال يوحنا يستيقظ على لسانهم « أنت هو الآتى أم ننتظر آخر » !! .. بل إن يوحنا ولا شك كان يتملكه العجب كيف يتركه المسيح مظلوماً إلى هذا الحد ، دون أن يهتم به ، وبقضيته على وجه الخصوص !! .. ولعله

تحول إلى آساف آخر قبل أن يدرك مصير الخطاة الأشرار ليقول : «غرت من المتكبرين إذ رأيت سلامة الأشرار» (مز ٧٣ : ٣) كيف لا وهيروديا تعبث وتضحك وتعربد ، .. وهو سجين والمسيح يقف صامتاً تجاه معركة الخير والشر !! .. دعا شاب زميله المسيحى ليذهب معه فى عمل تجارى ، ورفض المسيحى الذهاب ، لأن التجارة المشار إليها ، كانت محاطة بالشبهات والتجارب ، وسخر الداعى من زميله وذهب ، وأثرى وأخذ الكثير من المال ، وأرسل الثانى إلى راعى الكنيسة وهو يتساءل : ما الفائدة من أن الإنسان يتمسك بالحق والبر والاستقامة إذا كان الشر ينجح بهذه الصورة فى الأرض ؟ ! ..

قد يسهل على الإنسان أن يصبر بعض الوقت ، ولكن إذا طال الزمن دون أن تتغير الأوضاع ، ويفتح باب السجن ويوضع الظالم مكان المظلوم ، والمذنب مكان البرىء ، والشرير مكان المؤمن !! .. فلابد أن يكون السؤال «أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ ! .. »

على أنه مهما كان شك الرجل ، فمن الحق أن نذكر أنه عاش داخل السجن دون أن يتخلى عن مبادئه التى يؤمن بها ، سواء كان فى السجن أو خارج السجن ، فالحق حق ، والأمانة أمانة ، والشرف شرف مهما تتغير الأجواء وتتبدل الظروف وتتلون الأحوال ، والفضيلة فى حد ذاتها مجد وثواب حتى ولو كانت داخل السجن ، ولابد أن تنال جزاءها فى الحاضر وفى المستقبل أيضاً ، وهو سينتظر وينتظر : «أنت هو الآتى أم ننتظر آخر» .. وهو يرسل تلميذيه إلى المسيح ، ولا يرسلهما إلى هيرودس للمساومة على الحق !! ..

على أن الرجل أعظم من ذلك ، فعندما أحاط به الشك ، أرسل إلى المكان الوحيد الذى ينبغى أن يرسل إليه ، إذ وجه سؤاله إلى المسيح نفسه !! .. إنه يذكرنا بفريدرك وليم ربرتسون الواعظ الانجليزى العظيم الذى اجتاز

محنة شك كبيرة ، وهو يؤمن أن الحق حق ولا يمكن أن يتحول باطلا ، وأخذ يؤدى واجبه الدينى بأمانة ، حتى انجابت عنه الظلمة القاسية !! .. لم يضق المسيح بشك يوحنا ، لأن المسيح يحب الاخلاص ، ويقبله أكثر من كل تصنع للايمان ، وقد أرسل إلى المعمدان يحدثه برسالته الروحية العميقة : « العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون . وطوبى لمن لا يعثر فى » (مت ١١ : ٥ و ٦) .. وأدرك يوحنا المغزى البعيد العميق من هذا الجواب ، . . وأن القوة الصحيحة هي قوة الروح لا ثورة العاصفة ، وهدوء النور لا صوت الرعد !! .. وسكنت نفسه وهدأت كيفما يأتى المصير شاهداً أو شهيداً !! ..

يوحنـــا وعظمته :

لم تنته القصة عند هذا الحد ، ، إذ وقف المسيح ليشهد عن يوحنا أعظم شهادة يمكن أن تصدر عن إنسان !! .. وقد نحى السيد جانباً كل عظمـــة عالمية يهرع إليها الناس ، سواء فى قصور الملوك أو بيوت العظماء ، وذلك لأن هذه العظمة تتصف عادة بالسمات التى تفقدها كل جلال ومجد ، فهى عظمة ظاهرية ، مهما يبدو الظاهر فيها فإن الداخل مرعب ومريع ، ويكفى أنه فى أيام يوحنا كان المتربع على عرش روما طباريوس قيصر الذى أرسل إلى السناتو يقول : إنه لا يوجد فى الوجود من هو أتعس منه !! .. كما أن جميع أصحاب السلطان فى ذلك التاريخ الذين اشتركوا فى قتل المعمدان أو فى صلب المسيح ، بما فيهم بيلاطس وهيرودس وقيافا وحنان . ماتوا أشر ميتة وأقساها !! .. وهى عظمة ملطخة بالوحل والعار والحقارة ، وقد صور بعضهم عذابات هيرودس ، وهو يستمع إلى كلمات المعمدان التى قبلها لفترة ما بالبهجة : « لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه . وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور » (مرقس ٦ : ٢٠) ..

وقد قيل إنه حاول فى بعض الأوقات أن يتخلص من هيروديا ، وهو يلعن الساعة التى ذهب فيها إلى روما ، وتعلق بها هناك ، لكنه كان يضعف بعد ذلك أمام اغرائها وتجربتها !! .. وفى لحظة عربدة ورقص وسكر قتل الرجل الذى نصحه ، .. ولعله لعن نفسه ، بعد ذلك ، آلاف المرات !! .. على أى حال إن عظمة العالم الكاذبة الوقتية الشريرة هى العظمة التى لا تساوى مجرد اسمها ، ويلفظها يسوع المسيح ويرفضها !! ..

على أن المسيح وهو يتحدث عن عظمة المعمدان ، وأنه لم يقم بين المولودين من الناس أعظم منه ، كان ولاشك يشير إلى عظمته الروحية ، والأخلاقية ، وهى الجديرة بأن يبدأ الإنسان بها فى الصعود على درجات السلم السماوى إلى المجد العظيم ، .. ولكنها مع ذلك ليست هى بيت القصيد فى عظمة يوحنا !! .. وذلك لأن المسيح لم يقارن ، أخلاقياً أو روحياً ، بين يوحنا وبين غيره من القديسين أو أنبياء العهد القديم ، لكن لباب العظمة التى تفرد بها يوحنا والتى جعلته أعظم من نبى ، هو الرسالة التى كلف بها والتى لم ينل نبى آخر مثلها !! .. لقد وقف هؤلاء من وراء القرون يتحدثون عن مشتهى الأمم ورجاء العالم ، .. وكان ملاخى آخرهم على بعد أكثر من أربعمائة عام ، .. أما يوحنا فقد رآه ، ونادى قدامه ، وتحدث عن الملك العظيم القائم فى وسط شعبه ، وذلك حظ لم يصل إليه آخر ، ولم يشرف به نبى سواه .. لقد انفرد يوحنا بهذا المركز العظيم الذى لم يتح لأحد من المولودين من النساء ، والذى سما به على أعظم نبى فى العهد القديم !! ..

ويزداد هذا الفهم تأكيداً ورسوخاً متى كان الأصغر فى ملكوت الله أعظم منه ، ومرة أخرى ليس هذا على أساس الحياة الروحية والأخلاقية ، التى يختلف فيها انسان عن غيره من المؤمنين فى العهد الجديد ، .. لكن الأمر يتعلق بمركز المؤمن فى العهد الجديد ، الذى أعطاه امتيازاً لم يعرفه

أبطال العهد القديم وكان آخرهم يوحنا !! .. ولقد صوره الكسندر هوايت بصورة بارعة عندما تخيل المعمدان وهو يقول لتلميذيه : « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » ويذهب التلميذان ، ولا يذهب يوحنا معهما ، وإذ يطلبان منه أن يأتى معهما ، يجيب اندراوس وبطرس ويعقوب ويوحنا قائلا : « لا اذهبوا أنتم فأنا لست مستحقاً أن أدخل معه تحت سقف واحـد وسأبقى حيث أنا ، وسأؤدى عملى عند الأردن ، وسأنادى بالتوبة ، أما هو فسينادى بالغفران ، وملكوت الله سيأتى قريباً ، ولكننى لن أعيش لكى أراه ، .. لن أعيش لأرى تابور ، والجلجثة ، وجبل الزيتون، ويوم الخمسين مثلكم، هو وأنتم تلاميذه ينبغىأن تزيدوا ، وأنا أنقص ، !!.. هذا الخيال العظيم يكشف عن امتياز المؤمنين فى العهد الجديد ، عن أولئك الذين سبقوا فى العهد القديم !! ..

ذهب يوحنا شهيد الحق آمناً هادئاً مطمئناً ، وقد تلقته ذراع ذاك الذى ضمه إلى مجده الأبدى !! .. ومع أن هيرودس قطع رأسه إلا أنه عندما سمع عن يسوع فزع وارتعب ، وقال : « هذا هو يوحنا المعمدان الذى قطعت أنا رأسه إنه قام من الأموات » أجل ! لقد مات يوحنا ودفنوا جسده ، ويقول التقليد إن رأسه عندما أرسل إلى هيروديا على طبق فتحت فـه وقطعت لسانه !! ..

ولكن هل سكن صوته وانتهت كلمته .. كلا بل إن صوته سيبقى مجلجلا على مدى العصور كلها حتى يأتى المسيح ثانية ويعطى كل واحد حساباً عن نفسه : « لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحـد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً » (٢ كو ٥ : ١٠) !!..

٨٥
أندراوس

« هذا وجد أولا أخاه سمعان » (يو ١ : ٤١)

صرخ أحد المؤمنين أمام الله فى الصلاة : « فى كل مكان تبنى كنيسة ، يبنى الشيطان مقابلها قاعة واسعة ، .. وقد علمنا الاختبار أن رواد القاعة فى العادة أكثر وأنشط » .. ولهذا فالمؤمنون يحتاجون إلى كل جهد وصراع ، ليخلصوا على كل حال قوماً ! ! .. وليس من قبيل الصدف أن تلاميذ المسيح الأوائل كانوا صيادين متميزين قبل كل شيء وبعد كل شيء ، بالجهد والبذل والأناة والصبر ، .. ومهما يكن من طريق الصيد ، وجهود الانسان فيها ، .. إلا أن هناك أسلوبين واضحين بينين ، وهما الصيد بالشص ، والصيد بالشبكة ، والفارق بين الأسلوبين ظاهر ، إذ الصيد بالشص للسمكة الواحدة ، والصيد بالشبكة للمجموع المتعدد ! ! .. وإذا كان ثمة فرق ما بين اندراوس وبطرس كصيادى الناس ، فإن اندراوس كان أدنى إلى

النوع الأول الذى يصطاد بالشص ، .. وكان بطرس أدنى إلى الثانى الذى يصطاد بالشبكة ، ومع أننا قد نعجب بصيد بطرس فى يوم الخمسين عندما خرجت شبكته فى ذلك اليوم محملة بثلاثة آلاف نفس ، إلا أنه لا ينبغى أن ننسى أن بطرس نفسه قد أمسك به شص أندراوس الذى قاده إلى المسيح ، .. ومع أن أندراوس كما ظهر بعد ، لم يكن ندا لأخيه الأكبر ، إلا أنه هو ويوحنا الرسول كانا أول اثنين التقيا بيسوع المسيح ، ومع أنه لم يتفوق فى مركزه على الثلاثة الأول : بطرس ويعقوب ويوحنا ، إلا أنه كان فى مقدمة الثمانية الآخرين ، بعد استبعاد يهوذا الاسخريوطى من الدائرة كلها !! .. والميزة الواضحة للرجل ، أنه كان من أوائل الباحثين عن الآخرين والاتيان بهم إلى يسوع المسيح !! .. ولعلنا نراه فى قصة الانجيل فيما يلى :

أندراوس الرجل :

الكلمة « أندراوس » كلمة يونانية ، من أصل يفيد معنى الرجولة ، حتى إنك يمكن أن تقول إن « أندراوس » رجل بكل ما فى الكلمة من معنى . وقد ترجمها البعض « رجولة » أو « شهامة » أو « شجاعة » وآخرون « همام » « شجاع » « شهم » ، وكان من بيت صيدا المدينة التى كانت فى الطرف الشمالى الشرقى لبحيرة طبرية ، وكان يسكنها خليط من اليونانيين واليهود ، وكانت اللغة اليونانية معروفة فيها ، ويتعلمها اليهود أنفسهم ، .. وربما أعطى هذا الاسم اليونانى ، لهذا السبب ، والذى يعتقد معه كثيرون ، أنه كان تعبيراً عن جمال الرجل ، وجلال هيئته وبنيانه ، على أنه مهما يكن حظه من هذا القبيل فإن جمال روحه كان أعظم وأروع ، .. لقد كان نموذجاً رائعاً للرجولة المسيحية ، .. وهى الرجولة التى تأخذ مكانها الذى وضعها فيه السيد دون أن تتجاوزه على الاطلاق ، .. كان بطلا مسيحياً ، وكانت بطولته أشبه ببطولة بنايا هو بن يهوياداع : « وبناياهو بن يهوياداع ابن ذى بأس

كثير الأفعال من قبصئيل هو الذى ضرب أسدى موآب وهو الذى نزل وضرب أسدا فى وسط جب يوم الثلج . وهو ضرب رجلا مصرياً ذا منظر وكان بيد المصرى رمح فنزل إليه بعصا وخطف الرمح من يد المصرى وقتله برمحه . هذا ما فعله بنايا هو بن يهوديا داع فكان له اسم بين الثلاثة الأبطال وأكرم على الثلاثين إلا أنه لم يصل إلى الثلاثة فجعله داود من أصحاب سره » (٢ صم ٢٣ : ٢٠ — ٢٣) .. إن الرجل المسيحى أشبه الكل بالجندى الذى لا يتخير مكانه فى الجيش ، بل يذهب حيث يضعه القائد ، ويثبت هناك فى موقعه ، .. ومع أن اندراوس سبق أخاه بطرس إلى معرفة المسيح ، بل هو الذى جاء بأخيه ، إلا أنه مع ذلك لم يصل إلى الثلاثة : « بطرس ويعقوب ويوحنا » . إذ كانوا مقدمين عليه ، ومع أنه أكرم كواحد من الاثنى عشر ، إلا أنه عرف مكانه وقبله بدون احتجاج أو شكاية أو تذمر !! .. إن للسيد أن يعطى كل واحد وزناته ، فهو يعطى الخمس وزنات ، والوزنتين والوزنة ، وليس من حق صاحب الوزنتين ، أن يأخذ الخمس ، أو يتذمر أو يشتكى أو يحتج . وهنا نرى الرجولة التى تنتصر على الحسد ، .. لم يحاول قط أن يقول لقد كنت ويوحنا أول من عرف المسيح ، وجئنا إليه ووجدناه ، .. وأنا الذى جئت بأخى بطرس إلى السيد ، فلماذا يسبقنى هذا أو ذاك ؟ .. عندما نشبت الحرب بين اليونان والفرس فى أثناء حكم زركسيس الفارسى (أحشويرش) كان على رأس الأمة اليونانية قائدان عظيمان ثمستوكليس وأرستيدس ، ومع أن ثمستوكليس كان قائداً من أبرز القواد وخطيباً عظيما ، ومحباً لبلاده ، لكنه لم يستطع أن يرى فى ارستيدس ذلك وسعى لنفيه من بلاده ، أما ارستيدس فكان رجلا لايهمه نفسه أو مصيره أو مجده بقدر ما تهمه بلاده ، فقبل ما فعل به ثمستوكليس بصبر وشجاعة ورحابة قلب ، ودارت الأيام حتى أحست أثينا بالحاجة إلى ابنها العظيم ، ومع أنه أسىء إليه

وأهين ، لكنه نسى كل شيء من أجل الواجب ، ورجع إلى بلاده ، ولما تم النصر ، لم تنس بلاده أن تكافئه وتحسن إليه ! ! . . كان توماس شبرد من البيورتان القدامى الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة ، وهو الذى أنشأ جامعة هارفارد .. ومع أن هذا الرجل كان خادماً عظيما ، وواعظاً قديراً ، .. لكنه تعرض لمحنة الحسد عندما وفد على المدينة واعظ شاب استرعى انتباهها وأخذت مواعظه تزحزح مكانة شبرد فى الصحف وأمام الناس ،.. وقد قيل إن شبرد وهو يقرأ عظة للشاب فى إحدى الصحف ، اجتاز جثسيمانى فى ليلة من الليالى ، وهو يصارع العاصفة التى اجتاحت مشاعره ، وظل يصلى حتى الفجر ، إلى أن امتلأ بروح المسيح ، وهدأت نفسه ، وهو يطلب من أعماق قلبه النجاح لزميله فى خدمة يسوع المسيح ، .. ونحن لا نعرف ذلك الواعظ الشاب ، ولكننا نعرف توماس شبرد الذى انتصر على عاطفة الحسد البغيضة التى تجتاح المؤمنين فى كثير من الأوقات ! ! ..

كان أندراوس الرجل الوديع الذى يعمل فى صمت ، والذى لا يهمه أن تعرف من الذى يعمل ، بقدر ما يهمه العمل نفسه . ومن الناس من يهمه أن يأخذ المكان الأول ليتفانى فى العمل ، لكن أندراوس كان له من الوداعة ما يجعله غيوراً فى العمل حتى ولو كان فى المكان الأخير ! ! .. وفى تقليد قديم أن التلاميذ صاموا وصلوا ثلاثة أيام ، ليعلن لهم الله عمن يكتب إنجيلا رابعاً يتحدث عما بقى ويلزم ذكره فى الأناجيل ، وجاء الإعلان إلى أندراوس بأن يوحنا هو الشخص المعين من قبل الله لهذا الأمر ، وبكل سرور أعلن أندراوس هذا ليوحنا ، وقدم له المواد التى يعرفها ! ! ..

كان أندراوس أشبه الكل بذلك المؤمن الذى صورته الكاتبة والشاعرة المسيحية كريستنا روسى ، وهو يصلى إلى الله قائلا :

أعطنى أصغر مكان ، إذ ليس من حقى .
أن أجرؤ وأطلب حتى هذا المكان ! ! ..
لكنك مت لكى أحيا وأشاركك المجد .
أعطنى أصغر مكان ، فإذا بدا
هذا المكان أعلى من قدرى ! ! ..
فانزل بى إلى مكان أدنى .
لكى أجلس وأرى إلهى الذى أحبنى ! ! ..

قال أحدهم : إن الله لو أرسل ملاكين إلى الأرض ليحكم أحدهما المدينة ويكنس الآخر شوارعها ، لما طلب أحدهما أن يستبدل مكانه بمكان الآخر ! ! ..

أندراوس الذى وجد المسيح :

كان المسيح هو كل شىء بالنسبة لأندراوس ، وعندما أشار المعمدان إلى السيد ، أسرع تلميذاه وراء المسيح ، ومن تلك اللحظة تحولا إلى الأعظم والأمجد ، .. ومن المؤكد أن أندراوس ما كان ليستبدل ولاءه للمعمدان بأى ولاء فى الأرض ، إلا لشخص واحد هو المسيا غاية المنى ، وقبلة الأنظار ، .. ولعلنا نلاحظ قول أندراوس وهو يدعو أخاه بطرس : « قد وجدنا مسيا » (يو ١ : ٤١) .. ويمكن أن نتذكر هنا صيحة أرشميدس المشهورة « يوركا » (Eurka) . وكان الملك هيرو ملك سركوسا قد أعطى أحد الصناع كمية من الذهب الخالص ، ليصنع له منها تاجاً ، وكان

الملك يخشى أن يخلط الصانع الذهب الصافى بالزغل ، وترك أرشميدس ليحل له المشكلة ويتأكد من نقاوة الذهب ، وحار أرشميدس ، ماذا يفعل ؟ غير أنه وهو فى الحمام – عندما ألقى بنفسه فى الماء ، ولاحظ ارتفاع الماء وجد الحـل ، إذ يستطيع أن يضع ذهباً مماثلا فى وزنه لما أخذ الصانع ، ويقيس الارتفاع ، .. ومن فرط بهجته وسروره ، خرج من الحمام عارياً يركض فى الشوارع ، وهو يقول : « يوركا يوركا » .. وجدتها وجدتها وأضحى التعبير فى قصة التاريخ مثلا لمن يجد الحل للمشكلة المستعصية العسرة القاسية !! ..

ذهب أندراوس ويوحنا وراء المسيح ، وقضيا معه يوماً بأكمله ، .. وخرج كلاهما يركضان فى كل التاريخ صائحين : « وجدناه . وجدناه وجدناه » .. وبعد عام تقريباً ودع أندراوس شباكه الأرضية ، وسار هو وأخوه فى موكب الخالدين الذين وجدوا يسوع المسيح !! ..

هل وجدت المسيح ؟ هذه هى نقطة الحياة الأساسية ، بل هذا هو المحور المجيد الذى تدور حوله قصة الوجود ذاته. والإنسان منا سيبقى تائهاً حتى يعثر عليه ، كانت مأساة الإبن الأول فى الأرض أنه خرج من لدن الرب ليضرب فى أرض « نود » أو أرض « البعد » وليبقى تائهاً وهارباً ومختفياً عن وجه الله ، طريداً معذباً لا يلوى على شىء ، وذهب قايين فى الاتجاه المضاد للاتجاه الصحيح ، وكانت الخطية هى القوة الطاردة له فى كل مكان ، .. وسيبقى الضال هكذا فى الكورة البعيدة فى أرض الضياع والجوع والخنازير حتى يتمم وجهه مرة أخرى إلى بيت أبيه لينعم بدفء العواطف الأبوية ، .. وعندما يقر رأيه على ذلك ، سيصرخ فى رحلة العودة قائلا : « وجدتها .. وجدتها » ..

ترى ، هل وصلت أيها القارىء العزيز إلى هذا الاختبار ؟ !! .. ليتك تبلغ الحكمة والتعقل والفهم ، لتفعل هكذا !! ..

الرجل الذى جاء بأخيه إلى المسيح :

كان العمل الأول الذى قام به أندراوس بعد أن عرف المسيح ، أنه جاء بأخيه إلى المسيح : « هذا وجد أولا أخاه سمعان فقال له قد وجدنا مسيا الذى تفسيره المسيح » .. ومهما تعددت البواعث ، فإن الكلمة « أولا » هى التى تهز مشاعرنا فى الاتجاه إلى المسيح !! .. والسؤال لماذا جاء بأخيه أولا ، هل للمحبة الفائقة لأخيه !! ؟ .. لا شبهة فى أن المحبة تقف على رأس الدوافع التى تدفعنى لأن أتجه إلى أخى ، ولا أتركه حتى آتى به إلى يسوع المسيح ، بل لا شبهة أيضاً فى أن البرهان الأقوى لحبى لأخى يكمن فى الجهد الذى أبذله حتى يأتى هو أيضاً إلى يسوع المسيح ، .. من المحزن أن الكثيرين من الأخوة — رغم حبهم العميق لأخوتهم — قد يغفلون عن هذه الحقيقة ، فيفعلون كل شىء لأخوتهم إلا ربطهم بالسيد المسيح . .

قد تصور آخرون أن هناك باعثاً آخر ملحاً دفع أندراوس ، ونعنى به باعث الاشفاق على بطرس ، وعلى البيت جميعاً ، إذ كان بطرس — كما يتخيل هؤلاء — متعباً لأخيه ولجميع من فى البيت على حد سواء ، ولا سبيل للتخلص من التعب واستئصاله كلية إلا بأن يصبح بطرس مؤمناً بالمسيح وتابعاً له !! .. ومع أن هذا السبب ربما لم يكن وارداً فى ذهن أندراوس ، لكنه يصلح كقاعدة مباركة مجيدة فى علاقة المؤمن بكل أخ متعب قاس مفسد شرير !! .. قدم أخاك للمسيح وأنت تصل إلى العلاج الصحيح لكل أدوائه وأمراضه !!.. والمسيح عندما يتولاه ، سيجرى عمليات الإزالة لكل أورام خبيثة يمكن أن تكون قد تشعبت وتغلغلت فى حياته وكيانه ،..

كان العمل الأول الذى بدأ به أندراوس هو « ارسالية البيت » أو ارسالية الداخل قبل أن يشق طريقه إلى الحقول الأجنبية . وما أجملها وأروعها من نقطة التحرك والوثوب ، ينسى الكثيرون الاهتمام بها أو البدء منها !! بل لعلها محك الانطلاق والبعث الصحيح ، وما أعظم أن يقف الإنسان فى مواجهة الآخرين ليقول : « أما أنا وبيتى فنعبد الرب » (يش ٢٤ : ١٥) .. ومن الملاحظ أن أندراوس فى انطلاقه الأول لم يهتم بالكم بقدر اهتمامه بالنوع ، ولم يعن بالاسراع بالاتيان بأعداد كبيرة قبل أن يبدأ بأخيه « بواحد » . . وأى واحد هذا ، إنه بطرس الذى جاء بثلاثة آلاف نفس للمسيح فى مرة واحدة ، . . عير الثعلب اللبؤة بأنها لم تلد سوى مرة واحدة فى حياتها فأجابته بالقول : « ولكنه أسد » .

على أن السؤال الذى يعرض لنا بعد ذلك : ولكن كيف جاء بأخيه !!؟.. هل جاء به بمجرد الحديث أو الكلام معه ؟ !! .. من المعتقد أنه جاء به قبل ذلك بحياته وتصرفه ، .. وأغلب الظن أن سلوك أندراوس كان ولاشك مشجعاً لأخيه على المجىء للمسيح ، . . لقد كان أندراوس من أول المستجيبين للمعمدان ، وقد ذهب إليه ، وتعمد فى الأردن ، وتتلمذ عليه ، وكانت خلاله وتصرفاته — كما أشرنا — تصرفات ممتلئة بجلال الشهامة والوداعة والرجولة !! .. إن الحياة التى يعيشها الأخ هى الباعث الأقوى ، والمشجع الكبير على خطى الأخوة إلى يسوع المسيح !! .. وعلى العكس فإن أية لغة يتحدث بها الأخ خلاف ذلك ، ستقابل بقول توماس كارليل يوم قال : « لا تكلمنى ، فإن صوت أعمالك يدوى فى أذنى أكثر من صوت كلامك » .. على أنه من الجانب الآخر ، إن الحياة وحدها على ما يمكن أن تصل إليه من المثالية الجاذبة لابد تحتاج أيضاً إلى النداء والتبشير والصيحة الممسكة بالأخ والقائدة والقائدة إلى المسيح بكل حزم وعزم : « قد وجدنا مسيا » .. والكلام هنا

ليس نداء فلسفياً أو بحثاً نظرياً أو « شعر أشواق لجميل الصوت يحسن العزف ». ان المسيح أعظم وأجمل من هذه كلها ، وببساطة الحياة والاختبار يمكن أن تقود أخاك بمجرد القول : « قد وجدنا مسيا الذى تفسيره المسيح . فجاء به إلى يسوع » .. وترك للمسيح كل شىء بعد ذلك !! .. إن التركيز فى الحديث على المسيح ، مسنوداً بلغة الاختبار ، هو أعلى أسلوب يمكن أن يصل إليه الواعظ فى منبره ووعظه !! .. كان أندراوس هو الأخ الأصغر لسمعان بطرس ، .. ولكنه أضحى على حد تعبير دكتور هربرت لوكير أباه الروحى وبطرس وجد الثلاثة آلاف الذين جاءوا يوم الخمسين !! ..

ماذا فعلت بأخيك !! .. قال قايين : لقد حسدته وقتلته ، أحارس أنا لأخى (تك ٣ : ٩) .. وقال أخوه يوسف : لقد بعناه و غمسنا قميصه بالدم ونحن نأتى إلى أبينا صائحين : حقق قميص ابنك هو أم لا ؟ ولم يكذب الرجل وهو يصرخ : « قميص ابنى وحش ردىء أكله . افترس يوسف افتراساً » (تك ٣٧ : ٣٢ و ٣٣) .. وكان الوحش هم إخوته أبناء أبيه ، .. أما أندراوس : « فجاء به إلى يسوع » ..

أندراوس الذى جاء بالصغير إلى المسيح :

ثمة أمر آخر فعله أندراوس وهو يقدم الآخرين إلى المسيح ، إذ كان هو الذى جاء بالغلام الصغير صاحب الخمسة أرغفة الشعير والسمكتين ، والتى أطعم بها المسيح خمسة آلاف رجل عدا النساء والأولاد ، .. ومن الناس من يطلق على هذا الغلام « المساعد الصغير للمسيح » ، ويمكن أن نضعه فى الكفة الثانية ونحن نذكر بطرس المساعد الكبير للمسيح .. فأندراوس يأتى بالكبير والصغير ليسوع المسيح ، .. وهو بارع الصيد بالشص ، يصطاد السمك الجيد سواء كان صغيراً أم كبيراً .. وما أروعه من عمل أن نهتم بتقديم الصغار

للسيد . ونحن نعلم – أو لا نعلم – أنهم سيصبحون فى يد المسيح سر المعجزات الكبيرة فى قصة الحياة !! .. من سنوات كثيرة أراد شيوخ كنيسة صغيرة فى اسكتلندا أن يحيلوا راعيهم الشيخ إلى التقاعد لأنه لم يربح فى عام كامل واحداً للمسيح ، .. وقال الواعظ الشيخ : ولكننا ربحنا نفساً واحدة .. فسألوه من هو !! ؟ فقال : ألا تذكرون الصبى بوبى .. وذكروا الصبى الصغير الذى لم يعترف بالمسيح مخلصاً فحسب ، بل جاء إلى الراعى الباكى ، وهو غارق فى دموعه لما سمعه من الشيوخ : وسأله هل إذا كبر وتعلم يمكن أن يكون مرسلا فى البلاد البعيدة ؟ .. ومسح الراعى دموعه وهو يقول له : نعم يا بنى يمكن أن نفعل هذا ، .. وفى أحد الأيام وهم يجمعون للمرسليات . طلب هذا الصبى من الجامعين أن يضعوا الصندوق على الأرض ، وقفز إليه وهو يقول : « إنى أعطى حياتى كلها للعمل المرسلى » .. وكان هـــذا الغلام هو الرجل العظيم الذى عرف فيما بعد باسم روبرت موفات المرسل الكبير إلى القارة الأفريقية !! .. كان أحد الرعاة يوجه جهده الأكبر إلى خدمة الصغار ، وقيل إن الشيطان جاءه ذات مرة ، ليقول له : إنك تدفن جهدك مع صغار لا يعرفون قيمتك ، لماذا لا تهتم بالكبار الذين يمكن أن يعرفوا مواهبك ليقدروها ؟ !! .. وقال الراعى : اذهب عنى يا شيطان إذ اضطررت أن أختار خدمة الصغار أو خدمة الكبار ، .. لفضلت الخدمة بين الصغار إذ الأمل فيهم أوفر وأغزر وأعظم ، إذا نحن بدأنا معهم قبل أن يلوثهم العالم وتتقسى قلوبهم بالشرور وغرور الخطية !! ..

أندراوس الذى جاء بالغريب إلى المسيح :

لم يهتم أندراوس بأخيه أو الصغير فحسب ، بل تحول من الحقول الوطنية إلى الحقول الأجنبية ، إذ قاد مع فيلبس اليونانيين الذين جاءوا ليسجدوا فى العيد ، وكان شوقهم أن يروا يسوع ، وحقق لهم الرجل هـــذا

الشوق المجيد ! ! .. ومن هنا يصح القول إنه كان أول التلاميذ الذى يستحق أن يطلق عليه اسم « ابى الارساليات الأجنبية » ، والذى أدرك من اللحظة الأولى إلى أى حد تمتد رسالة المسيح ، .. لقد كان من الواضح أن العلاقة بين اليهودى واليونانى — مهما بلغت من رغبة التلاقى — تسم بالتحفظ ، ولكن الرجل كان من أوائل من ساروا وراء السيد الذى « نقض حائط السياج المتوسط ، أى العداوة . مبطلا بجسده ناموس الوصايا فى فرائض لكى يخلق الاثنين فى نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً ، ويصالح الاثنين فى جسد واحد مع الله بالصليب قاتلا العداوة به . فجاء وبشركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين . لأن به لنا كلينا قدوما فى روح واحد إلى الآب . فلستم إذاً بعد غرباء ونزلا بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله » (أف٢ : ١٤ — ١٩) ..

ومع أننا لا نعلم بالضبط أين خدم أندراوس إلا أن التقاليد تشير إلى نشاطه العظيم ، وقوته المؤثرة فى الجماهير ، ومعجزات إقامة الموتى ، وشفاء المرضى ، بصورة جعلته محط أنظار الناس أينما ذهب هنا أو هناك ، وقد قيل إن خدماته كانت على الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود ، وإنها امتدت إلى بيزنطة وروسيا ، ووصلت إلى اليونان حيث مات هناك مصلوباً عام ٦٠ م فى بتراس على يد أجتياس الحاكم ، الذى استبد به الغضب ، لأن زوجته جاءت إلى الإيمان المسيحى بوعظة وتبشيره ، وإذ حاول عبثاً أن يثنيها عن ذلك ، ولم يفلح ، أمسك بأندراوس ، وحكم عليه بالموت صلباً على صليب هو أدنى إلى شكل المقص المفتوح والمثبت من طرفيه فى الأرض ، .. وقد تركه معلقاً لمدة يومين ، واجتمعت الجماهير التى هالها المنظر ، ولكنها سمعت أندراوس وهو يقول لها : أيها الرجال الحاضرون هنا أنتم والنساء والأولاد الكبار والصغار ، العبيد والأحرار ، وكل من يسمع ، لكى لا تؤخذوا بخداع الحياة الحاضرة ، بل بالحرى تنصتون إلى المعلق أمامكم

هنا من أجل الرب ، وعما قليل سيرحل عن هذا الجسد ، .. ارفضوا كل شهوات هذا العالم ، واحتقروا عبادة الأصنام ، واجروا وراء عبادة إلهنا الحي الحقيقي الصادقة ، واجعلوا أنفسكم هيكلا نقياً لله الذي سيدركني سريعاً ليأخذني إلى مجده السماوي.. وبالجملة احتقروا الأمور الوقتية وثبتوا أذهانكم كرجال يؤمنون بيسوع المسيح » ..وقد قيل إن منظره ألهب مشاعر الجماهير حتى إن الحاكم فكر أن ينزله عن الصليب ولكنه رفض وهو يقول . « يا يسوع المسيح لا تدع عدوك يحل الذي أمسكته نعمتك ، ولا تسمح أيها الآب أن يضع هذا الصغير أيضاً من أدركته عظمتك » .. ثم أسلم الروح !! ..

ولا نظن أنه يفيدنا كثيراً أن ننهمك في البحث عن أين ذهب جسده فيما بين اليونان والقسطنطينية وإيطاليا والعودة مرة أخرى إلى بتراس في اليونان ليدفن هناك في كنيسة الروم الأرثوذكس التي أخذت عظامه من روما بأمر البابا بولس السادس في عام ١٩٦٤ ، .. وإنما يهمنا بالدرجة الأولى خدمته لسيده ، وقد جاء عنه في كتاب قديم : « كان القديس أندراوس الإبن البكر في مجموعة الرسل ، والعمود الأساسي والهام في الكنيسة ، .. والباكورة بين الأوائل ، والمنادي بالإنجيل الذي لم يكن قد أعلن بعد ، وتحدث به إلى أخيه قبل أن يصل أحد إلى أعماقه » ، .. والسؤال كيف أصبحت نبياً ومن أين جاءك هذا النشاط الإلهي ، وأنت تصب في أذني أخيك : « لقد وجدناه!. لقد وجدنا ذاك الذي افتقده آدم ، وحجبته غيوم الخطية عن عيوننا ، وجعلته ذنوبنا يبدو كغريب عنا !! ؟ ..

على أي حال كان أندراوس أول تلميذ عرفناه من تلاميذ المسيح ، وأول من علمنا — وإلى اليوم ما يزال يعلم — أن التلمذة المسيحية تعني أولا وأخيراً أن نجد المسيح ونأتي بالآخرين من القريبين والبعيدين إلى ملكوته الأبدي المجيد !! ..

٨٦
بطــرس

« فنظــر اليه يسوع وقال انت سمعان بن يونا . أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس »
(يو ١ : ٤٢)

ما من شك فى أن بطرس كان التلميذ الأول من تلاميذ المسيح حتى ظهور بولس ، فاسمه يأتى دائماً فى الصدارة فى قوائم أسماء التلاميذ المدونة فى متى ومرقس ولوقا ، كما أنه يظهر فى الطليعة فى كل المناسبات والظروف بين اخوته وزملائه ممن ساروا وراء المسيح ، .. ونحن لا نستطيع أن نعطيه من المركز ما تعطيه إياه الكنيسة الكاثوليكية التى تعتقد أن المسيح منحه مركزاً متميزاً يختلف عن بقية التلاميذ ، إذ جعله رئيساً عليهم ، وأعطاه مفاتيح ملكوت السموات ليربط ويحل كما يشاء ، وأن له مركزاً أعلى فى الشفاعة ، لهذا السبب يفخر الباباوات بأنهم خلفاؤه ، كما يضع كل واحد منهم صورته هو فى ثياب الصيادين على خاتمه ، وعندما يموت يتغير هذا الخاتم ، لكن صورة تبقى كما هى لا تتغير ، ونحن وإن كنا لا نتفق مع هذا الرأى بتاتاً ،

إلا أننا نتفق مع الكاثوليك فى أنه كان أقوى شخصية بين التلاميذ .. وأنه كان أكثرهم تحمساً وشجاعة وقوة ، وأنه ، كما دعاه يوحنا فم الذهب ، كان فهم الذى يتكلم باسمهم ونيابة عنهم ، وأنه أضحى مع الأيام القوة البارزة فى الكنيسة المسيحية ، .. أما كيف وصل بطرس إلى هذه الحال ، وكيف انتهى إلى هذه القوة ، فان السر كل السر يرجع إلى السيد الذى اكتشفه وأمسك به ، وصاغ عناصره ، وحوله من سمعان الذى كان مجموعة من الرمال المتفككة إلى بطرس الصخرة الصلبة المتماسكة . . ولعلنا يمكن أن نراه بعد ذلك فيما يلى :

بطرس الذى اكتشفه المسيح :

عندما جاء أندراوس بأخيه إلى المسيح ، يقول الكتاب : « فنظر إليه يسوع وقال أنت سمعان بن يونا . أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس » (يو ١ : ٤٢) . . وربما لا نجد تحليلا أبرع من تحليل كامبل مورجان فى هذا الصدد عندما قال ما ملخصه : « إنه ينبغى أن نذكر أن هذا الرجل لم يكن اسمه الأصلى بطرس بل سمعان ، وما دنوت من دراسة شخصية دون أن أذكر شيئاً قاله هنرى ودراموند عن دوايت لايمان مودى من أنه أعظم شخصية التقى بها ، وهذا الكلام يمكن أن يقال عن بطرس ،.. وليس معنى ذلك أن دراموند يقصد أن مودى الأعظم من حيث عقليته أو قابليتها للتحصيل والاستيعاب ، بل يقصد أن مودى هو الأعظم من حيث عناصر الطبيعة البشرية فيه ، وهذا ما يمكن أن نتبينه بوضوح إذا درسنا شخصية سمعان . ويمكن أن أطلق عليه رجل العناصر البشرية : فكل العناصر الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية موجودة فيه ».. إن هذا يقتضينا رجعة إلى تعريف « عمانوئيل » كانت للشخصية البشرية والتى صورها بوحدة العقل ، والعاطفة والإرادة ، وهـــذا ما كان عليه بطرس فى علاقاته بالمسيح وفى الجو المسيحى الذى أحاط به ،

وقد دعاه دكتور ما كلينتز فى كتابه الرائع عنه: « الصياد الفيلسوف » وهذا وصف حقيقى صادق ، إذ تظهر قدرته العقلية فى الحقيقة المسجلة عنه من أنه كان أكثر التلاميذ الذين سألوا أسئلة ، والسؤال فى العادة علامة مؤكدة على القدرة الذهنية ، إذ أن الشخص الذى لا يسأل هو فى الحقيقة محدود القدرة الذهنية . وكان بطرس كثير الأسئلة : « إلى من نذهب كلام الحياة الأبدية عندك » (يو ٦ : ٦٨) « كم مرة يخطىء الى أخى وأنا أغفر له »(مت١٨ : ٢١) « يا سيد إلى أين تذهب » (يو ١٣ : ٣٦) .. « يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن » (يو٦ : ٣٧) .. وهى أسئلة كبيرة ، وإن بدا أنها تنطوى على جهل بأشياء كثيرة !! ..

وليست هناك حاجة إلى اثبات أنه الرجل الذى كان ممتلئاً من العواطف البشرية ، أليس هو الصارخ فى إحدى المناسبات : « أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطىء » (لو ٥ : ٨) وفى قيصرية فيلبس : « فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلا حاشاك يارب لا يكون لك هذا» (مت١٦ : ٢٢). « إنى أضع نفسى عنك » (يو ١٣ : ٣٧) .. وعندما خرج فى تلك الليلة الرهيبة : « بكى بكاء مراً » (لو ٢٢ : ٦٢) .. ويضيف هربرت لوكاير إلى كلمات مورجان فى هذا الصدد بأنه ربما لم يعرف التاريخ البشرى إنساناً بكى كما بكى بطرس فى تلك الليلة !! ..

وأكثر من ذلك كان الرجل يملك قوة إرادة هائلة ، وقد يبدو الأمر فى بعض المواطن على العكس من هذا ، لكن النظرة الشاملة لشخصيته تبدو كذلك ، لقد ترك كل شىء ليتبع المسيح ، وترك القارب ليمشى إليه على الماء ، وجرؤ على أن يحتج على المسيح علناً ، وجرد سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة ، .. ومن المناسب أن نفهم معنى قوة الإرادة إذ كثيراً ما نخطىء فهمها .. جاء رجل إلى كامبل مورجان يشكو من ضعف إرادته إزاء خطية

إدمان الخمر وهو يقول : « إنه لا يقدر إلا أن يشرب » .. وأجابه كامبل مورجان ، إن نفس شرب الخمر مقدرة ، لكنها للأسف فى الاتجاه الخاطىء ! ! ..

بطرس الذى صنعه المسيح :

فى أحد معارض أوربا توجد صورتان للمصور رمبراندت ، الصورة الأولى ناقصة مشوهة ، وهى صورته فى مطلع حياته الفنية ، والصورة الثانية عندما بلغ أوج مجده الفنى ، وقد بدت رائعة فاتنة مذهلة ، ونحن عندما نبصر صورة سمعان ، وصورة بطرس ، نرى فى الأولى الرجل الذى اكتشفه يسوع ، وفى الثانية الرجل الذى صنعه يسوع . كانت عناصره موجودة ، ولكنها كانت مفككة أشبه بحبات الرمال التى ينبغى أن تجمع لتكون صخراً ، وقد جمعها يسوع المسيح ، ولعل دراسته من هذه الناحية هى دراسة لما صنعه الفخارى العظيم فيه ، وما يصنعه فى وفيك ! ! ..

لست أعلم تماماً كيف يتحول الفحم الهش الذى يسهل أن تتفكك عناصره إلى الماس الصلب الصلد الثمين ، والذى يعتبر من أقوى العناصر تماسكاً وصلادة ، .. إنهم يقولون إن السبب يرجع إلى وقوع الفحم تحت ضغط وحرارة شديدين ، وقد أمكن للانسان على هذا الأساس أن يصنع الماس الصناعى من الفحم الأسود ! ! .. وأيا كان الأمر فى الطبيعة ، فإنه فى دائرة النعمة يحدث معنا على الدوام أن الفخارى العظيم ، يأتى إلى دعائنا الفاسد ليعيد صنعه من جديد ، .. وقد ذكرنا فى الحديث عن أندراوس الرأى البيورتانى القائل بأنه سارع إلى الإتيان بأخيه إلى المسيح ، لكثرة من كانوا يعانون منه فى البيت ، .. ونحن نشك كثيراً فى هذا الرأى ، ولكننا لا نشك البتة فى أن السيد حول شخصية بطرس المتفككة إلى شخصية الرجل الصلب

الأقوى من الحديد والفولاذ ! ! .. أما كيف فعل ذلك ، فإنه قد فعله بوضعه ثقته فى بطرس ، قبل أن يؤمن بطرس به ، وقد يكون هذا التعبير غريباً ، ولكنها الحقيقة الواقعة التى يلزم أن ننبه الأذهان إليها ، نحن نؤمن بالسيد لأنه هو وضع ثقته فينا ، وانتظر منا ثمر الحياة الجديدة التى وهبنا إياها ، .. كان المسيح قد نظر إلى بطرس قبل أن يقول له : « أنت سمعان بن يونا أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس ! ! .. والكلمة « نظر » فى الأصل ، هى نفس الكلمة التى وردت عندما نظر المسيح إليه فى يوم المحاكمة ، وتفيد لا مجرد النظرة السطحية العابرة ، بل النظرة العميقة النافذة إلى الداخل ، وهى التى ترى فينا الإمكانيات التى قد لا يراها فينا الناس أو لانراها نحن فى أنفسنا ، .. هذا موطن العجب ، ولكنها الحقيقة العظيمة التى تجمل علاقتنا بيسوع المسيح ، .. ذهب رجل إلى كامبل مورجان ، وشد على يديه وهو يقول : إنى أصافحك قبل أن أذهب ، إذ لم يعد فى أمل ، إلى الدرجة أن أمى لم تعد تؤمن بى .. ونظر إليه رجل الله ، ثم قال له : إنه لأمر مؤسف أن تصل إلى هذا الحد ، ولكنى أعرف شخصاً يؤمن بك ، ويؤمن بك لأنه قادر أن يجعلك تماماً الشخص الذى لست أنت إياه .. ومن الواضح أن السيد وثق ببطرس ، فى وقت فقد فيه بطرس الثقة بنفسه حتى أوشك على الضياع : « طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى رجعت ثبت إخوتك » (لو ٢٢ : ٣٢) .. قال مدرس أديسون له : اذهب وقل لأمك إنك لا تصلح لشىء البتة ، ولكن أم أديسون آمنت بابنها ، ورفضت رأى المدرس فى ولدها العبقرى ، الذى أصبح من أعظم عباقرة الأمريكيين فى الاختراع والصناعة ، قد يفقد الانسان الثقة فى نفسه ، وقد يفقدها فيه الناس جميعاً ، لكن هناك واحداً عظيماً لم يفقد الثقة فى عودتنا إليه ، ومجيئنا إلى شخصه المبارك العظيم ! ! ..

إن الإيمان المتبادل مع المسيح يرفع الانسان فوق نفسه إلى أعلى الذرى ويشحذ طاقاته الساكنة ، ويفجر فيه قوى غير مألوفة للبشر ، وهذا ما حدث مع بطرس بالذات ، عندما فعل شيئاً من المستحيل أن يفعله مخلوق بشرى غيره ، .. لقد رأى المسيح ماشياً على الماء ، وكان المنظر أمامه مثيراً وعجيباً ومذهلا ، فلماذا لا يفعل مثلما فعل سيده ، ولماذا لا يرتفع بمعونة سيده ، وعلى مثاله ، ليفعل الشيء الذى لا يجرؤ آخر على تقليده ومحاكاته ؟ ! . ورغم تعثر بطرس فوق الماء ، إلا أن الإيمان بالمسيح علمه أن يكون محاكياً للسيد ومقلداً له ، ويكفى أن نذكر أنه كان مع سيده عند إقامة ابنه يايرس وأنه دخل إلى غرفة الصغيرة مع يعقوب ويوحنا وأبويهما ، ورأى المسيح وهو يمد يده ليقول لها : « طليثا قومى » (مر ٥ : ٤١) .. ومرت سنوات على هذا المشهد الذى ترك أثره العميق فى نفسه ، ودعى هو إلى يافا ليرى مشهداً مماثلا ، لفتاة قد ماتت ، وهى تلميذة للرب ، وإذا به يفعل ذات الشيء مع فارق وحيد أنه جثا على ركبتيه ، لأنه أقل من سيده العظيم ثم التفت إلى الجسد وقال : « يا طابيثا قومى » (أع ٩ : ٤٠) .. إن مجد الإيمان المسيحى هو إضافة شخص السيد إلينا ، أو بتعبير أصح وأصدق ، هو إضافتنا نحن إلى شخص السيد ، وإذا بالقوة الإلهية تسرى فى كياننا وتلم شعثنا ، وتوقفنا على أقدامنا وتنزع منا كل وهن وتردد وخوف وشك ! ! ..

على أن هناك أمراً آخر استخدمه السيد فى صنع هذا الرجل العظيم ، ونعنى به الحب المتبادل بينه وبين المسيح ، .. قال الرسول بولس فى الكلام عن عظمة الحب : « وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً » (اكو ١٣ : ٢) .. ونحن نعلم أن بطرس أحب المسيح من كل قلبه ، وأجاب بعمق على السؤال القائل : « أتحبنى أكثر من هؤلاء » « وكان الجواب : أنت تعلم يارب كل شيء . أنت تعرف أنى أحبك »

(يو ٢١ : ١٥ و ١٧) .. ومع أن بطرس ارتكب الكثير من الأخطاء ، وكان به العديد من العيوب ، أو على حد قول الكسندر هوايت : « لم بطرس كما تشاء ، وقف عند عيوب طباعه ، وضعفات شخصيته ، وحمق تصرفاته ، وقل فيه كما يحلو لك ، لكنى أتحداك مع هذه كلها أن تنكر أنه كان جذاباً أو محبوباً ، إن أبشع ضعفات الطبيعة البشرية هى البرودة ، برودة القلب ، ولكنه مع كل ضعفاته ، لم يكن القلب البارد واحداً منها » .. سقط بطرس سقطته العظيمة وخانته شجاعته ، لكن حبه لم يخنه وهو يخرج إلى خارج ليبكى كأعظم ما يكون المحبون فى الأرض !! .. كانت أزمته يوم الصليب ، نوعاً من الغيبوبة وفقدان الوعى الذى قلبه رأساً على عقب ، فأنكر محبه وحبيبه ، ولكنه ما إن استعاد وعيه حتى غسل بدموعه الغزيرة فعلته الشنعاء ..

على أن حب السيد كان أوفى وأعلى إذ فى قلب الأزمة نظر إليه ، ومن المؤكد أن النظرة — وإن كانت تعبر عن قلب المسيح المجروح ، إلا أنها — كانت ممتلئة بالحنان والعطف والرقة والرحمة .. ولا أستطيع أن أصدق قط التقليد القديم الذى يقول إن بطرس ما سمع ديكاً يصيح إلا وأحنى رأسه خجلا ، إذ لا شك أنه تمتع بغفران كامل غطى نقصه وضعفه بالتمام . غير أنى هنا أعود مرة أخرى إلى رغبته فى التقليد والمحاكاه ، إذ يقال انه عندما حكم عليه بالموت صلباً ، طلب من صالبيه أن يجعلوا قدميه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل ، لأنه وإن كان يشرفه أن يصلب مثل سيده ، لكنه يرى نفسه أقل وأضأل من أن يكون كالسيد ، .. وفى الحقيقة إن الرجل فى الحياة والموت بادل سيده حباً بحب من أعظم وأشرف وأجل ما يمكن أن يتبادله المحبون ، .. وقد صنعه هذا الحب على الصورة الأمجد والأعظم والأجل !! .. كان هذا الرجل على أى حال ، مفتوناً بحب سيده ، وهو معجب بهذا السيد فوق كل إعجاب ، فهو إذ يراه فوق جبل التجلى ، وقد تغيرت هيئته ،

وبدا منظره على الصورة التي تتجاوز الخيال البشرى ، ومعه موسى وإيليا ، وإذا ببطرس ينسى الأرض وما عليها ومن عليها ، فلا يعود يذكر بيته وزوجته والعالم بأكمله ويصيح صارخاً : « يارب جيد أن نكون ههنا » .. وفى البحر ، وكان عارياً وأبصر السيد على الشاطىء ، فإذا به يلقى بنفسه متجهاً إليه وعندما خيره السيد أن يذهب كما ذهب الآخرون وارتدوا عنه ، لكنه لا يرضى بالمسيح بديلا ، ويقول « إلى من نذهب كلام الحياة الأبدية عندك » ! ! .. إنه الرجل الذى فتن بسيده ، سواء فى أعلى الجبل أو فى البحر أو فى الطريق ، وأصبح المسيح كنزه الوحيد : « ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك » (مت ١٩ : ٢٧) .. إنه مثل رفيقه العظيم الذى عندما أراد أن يعبر عن الحياة والموت قال : « لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح » (فى ١ : ٢١) . لقد نظر ذات يوم إلى رجل أعرج من بطن أمه .. والكتاب يقول : « فتفرس فيه بطرس مع يوحنا » .. ولعل بطرس سأل نفسه وهو يتفرس فيه ما الفرق بينه وبين الرجل المشلول ؟ شىء واحد فقط ، .. هو الاسم الذى احتوى بطرس وغطاه ، فإذا به يصيح : « باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش ، » (أع ٣ : ٤ و ٦) وكل من يأخذ هذا الإسم ويسير تحت مظلته ، يبدأ نقطة الحياة والخلود ، .. فإذا كان لك أن تسأل ، .. ولكن ألسنا جميعاً نملك هذا الإسم المبارك ، فلماذا لا يكون المرء فينا بطرس آخر ! ! ؟ .. إن السر يكمن فى أن بطرس أخذ اسم المسيح ، أو بالحرى أخذ شخص المسيح ولكن إلى درجة الامتلاء والتشبع . وهو أكثر من معجب بالمسيح يقلده أو يحاكيه من على بعد لم يكتف بطرس بمجرد الإعجاب والمحاكاة . لقد امتلأ بطرس من الروح القدس ، عندما استولى المسيح بروحه على كل ذرة فيه ، ولم يعد هناك بطرس والمسيح ، بل أضحى بطرس فى الروح القدس مبتلعاً تماماً من المسيح .. وهل تريد أن تعرف كيف يكون ذلك ، ..

رأت القنبرة الصغيرة وهى فى العش أمها تطير بجلال وبهاء فى السماء ، وقالت القنبرة لأمها يا أمى : كيف أتعلم الطيران مثلك ! ؟ .. وعادت الأم تتذكر كيف تعلمت هى الطيران ، ولكنها لا تعرف كيف تصف ذلك ، فقالت للصغيرة : لست أعلم كيف طرت ، .. ولكنى أذكر متى حدث ذلك ، كان يوماً مطيرا بلل الماء جناحى فيه ، ثم انتهى المطر وأشرقت الشمس ، وتطلعت إلى نورها البهى العظيم ، ونفضت جناحى مما علق بها من قطرات الماء ، وانطلقت فى أفق الله العظيم ، دون أن أعلم كيف !! .. كان بطرس أشبه بالقنبرة التى أشرقت عليها شمس البر والشفاء فى أجنحتها ، وإذ أطل عليه وجه المسيح ، أخذ بهذا الوجه فى كل شىء ، وامتلأ فى يوم الخمسين من روح المسيح ، وانطلق يطير فى أفق الخلود ، مأخوذاً بحبه العظيم العجيب !!..

لقد غنى جورج ماتيسون أغنيته العظيمة التى مطلعها : « أيتها المحبة التى لم تدعنى أذهب » عندما فقد بصره وخطيبته التى غدرت به فى محنته القاسية ، ولكنه وجد المسيح ، تعويضاً خالداً عن كل شىء ، .. التعويض الذى أيقظ عبقريته واتجه به فى طريق الخالدين !! .. هكذا كان بطرس صياد الجليل ، وهو يدين للمسيح بكل شىء فى حياته فهو الذى نقله من نكرة مغمور حقير إلى واحد من أعاظم الرجال فى كل التاريخ !! ..

عند بحر الجليل أمسك المسيح ببطرس ولم يدعه يذهب ، وقد ظن بطرس أنه هو الذى ترك كل شىء وأمسك بالمسيح ولم يدر أن المسيح ، هو الذى ترك كل شىء، ليمسك ببطرس وباخوة بطرس ، ويأتى بهم إلى مجده السماوى العتيد .. كان يمكن لبطرس أن يذهب بحماقاته المتكررة ، .. كان يمكن أن يذهب عندما انتهر المسيح واراد أن يبعده عن الصليب مأخوذاً بما للناس ، وليس بما لله ، .. ورأى المسيح الشيطان يطل من عينيه ، ويتكلم بلسانه ، فقال له : اذهب عنى يا شيطان . أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن

بما للناس ، » (مت ١٦ : ٢٣) .. وعاد الشيطان مرة أخرى ليهزه هزا بالتجربة القاسية بنكران السيد ، ومع ذلك فنظره المسيح ، وظهوره الانفرادى له بعد القيامة ، يؤكدان ما قاله مارتن لوثر . إنك تستطيع أن تكتب على كل شعرة فى بطرس « غفران » !! .. وليس شعر بطرس وحده الذى يشهد بمحبة المسيح . بل أن كل نبضة من نبضات قلبه ، وكل قطرة من قطرات دمه ، وكل نسمة من نسمات أنفه . . وكل ذرة من كيانه وتاريخه وماضيه وحاضره ومستقبله تشهد جميعاً بحب المسيح الذى غير بطرس وصنعه على الصورة التى وصل إليها ، فى التاريخ والأبدية معاً !! ..

فى الخيال الرائع لدكتور ماكرتنى ، وهو يتصور أنه صعد إلى السماء ورأى مجموعات متعددة ، ووقف يسأل أحد الملائكة عن هذه المجموعات ، إذ أنه يريد أن ينضم إلى واحدة منها ، قال له الملاك : « هذه مجموعة بولس وإذا ذهبت إليه فإنك ستسمع كلامه عن سيادة الله وتعيينه الأزلى ؟ .. وأجاب الرجل : إن بولس من أحب الشخصيات الى وكنت أتوق أن أنضم إلى جماعته لكنى رجل بسيط أحس بعدم استحقاقى للانضمام لهذه المجموعة ، .. وتحول به الملاك إلى مجموعة يوحنا ويوحنا مستغرق معهم فى الحديث عن طبيعة الله ومحبته ، وبينما هو يأخذ سبيله إليهم ، توقف وهو يقول : « ان هذه المجموعة أعلى من المستوى الذى استحقه لأنهم عاشوا فى الأجواء العالية . وفى سماء المحبة الطاهرة . ويجدر بى أن أبحث عن جماعة تليق بمستواى » .. وقاده الملاك إلى جماعة بطرس التى فرح بها من الأعماق ، لأنها تناسب مستواه فى العواطف الجياشة والأسئلة المتتابعة ، والتراجع ، والتوبة ، والتغنى بأغنية الفداء الذى صنع العظيم من بين الأوحال والتجارب !! .. ومع أننى أنا شخصياً لا استحق الانضمام إلى واحدة من هذه المجموعات المتعددة بما فيها بطرس ، وأقول ما قاله يوحنا نيوتن تاجر العبيد ، الذى غاص فى الحمأة إلى

الأعماق ، وأخذه السيد من المياه العميقة ليكون الواعظ والشاعر المسيحى الأمين وخادم يسوع المسيح ، عندما قال : « ابحثوا عنى هناك عند قدمى اللص التائب ، إذ تجدوننى معه » !! .. لكنى يمكن مع هذا كله أن أنضم إلى قافلة بولس ويوحنا وبطرس ويوحنا نيوتن لأننا أسرى حب المسيح ، وصنيعة إحسانه وجوده وحنانه ورفقه ، فى كل ما نبلغ أو ننتهى إليه !! ..

بطرس الذى مجد المسيح :

وإن كنا لا نتفق مع بعض من يعتقدون فى شفاعة بطرس أو أى قديس آخر ، إذ أن الشفيع الوحيد هو الرب يسوع المسيح ، .. لكننا لا نستطيع أن نغفل البتة أن هذا الرسول مجد سيده تمجيداً عظيما ولعلنا نتابع ذلك فى أكثر من وضع :

مجد الاعتراف :

وهو الاعتراف العظيم الذى اعترف فيه بطرس بلاهوت المسيح ، وبشخصيته العجيبة المنقطعة النظير ، وقد يكون من المناسب أن نتحدث عن مكان الاعتراف ، ونعنى به قيصرية فيلبس الواقعة على بعد خمسة وعشرين ميلا إلى الشمال الشرقى من بحر الجليل ، وكانت المدينة قبلا تدعى بايناس على اسم إله الرعاة عند اليونانيين . ومن المثير أن هيرودس الأكبر الذى بنى هيكل الله فى أورشليم ، هو الذى بنى فى تلك المدينة هيكلا من الرخام الأبيض لعبادة قيصر ، .. وجاء ابنه فيلبس ليوسع المدينة ويجمل الهيكل ، ويطلق عليها قيصرية فيلبس تيمناً باسم القيصر ، ولتمييزها عن مدينة قيصرية القائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، .. عند هذا المكان ، والوثنية تطل بوجهيها التقليديين ، الوجه اليونانى فى « بان » إله الرعاة ، والوجه الرومانى فى عبادة قيصر ، وفى أربعة عشر هيكلا وثنياً كانت منتشرة هنا وهناك ، وعلى الخط

الفاصل بين الوثنية فى قوتها وحماقتها ، واليهودية التى توشك شمسها على الأفول ألقى المسيح سؤاله العجيب الخالد : « من يقول الناس إنى أنا » .. وقد أوقف السؤال التلاميذ أمام أعمق تأمل يمكن أن يواجهوه ، وعليه تبنى المسيحية بأكملها ـ إلى كل الأجيال .. وهنا يأتى اعتراف بطرس عجيباً ومثيراً وملهباً لكل المشاعر ، وقد صعد بطرس بهذا الاعتراف إلى ما وراء العقل البشرى الذى لا يمكن مهما أوتى من حكمة أو إدراك أن يبلغ كنه المسيح العجيب . قال السيد إنه لا يمكن أن يكون من دم ولحم ، أو بمعنى آخر نتاج فكر إنسان ، بحكمته البشرية ، أو فلسفته العميقة ، ففلاسفة الدنيا كلهم لا يستطيعون إلا أن يتخبطوا فى مفهوم الشخص العجيب . وقد بدا هذا من أقوالهم ، فالمسيح إما هو يوحنا المعمدان على حد ما اتجه هيرودس الملك الذى قتله ، أو هو واحد من أعظم الأنبياء القدامى كايليا الذى يعدونه زعيم الأنبياء ، وينتظر اليهود إلى اليوم عودته من السماء ، أو إرميا وكان الشبه عظيما بين نبي الأحزان والمسيح المتألم ، .. أو أنه واحد من أعظم أنبياء العهد القديم يعود مرة أخرى إلى الحياة ، كما كان شائعاً عند اليهود !! .. لم يخط أحد خطوة أخرى وراء هذا ، .. لكن بطرس خطا الخطوة المذهلة ، إذ لمع أمام عينيه الإعلان الإلهى البعيد العميق الغائر فى بطن الأزل ، وصاح : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » (مت ١٦ : ١٦) ..

ومن اللازم أن نشير إلى أن هذا ليس مجرد حديث عن المسيا ، فقد قال نثنائيل من قبل عن السيد : « أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل » .. لكن إعلان الله لبطرس كان أول وأعظم ومضة من النور عن شخص ابن الله العجيب ، وكان أشبه بالشعاع الأول من نور الشمس ، وهى تأخذ سبيلها إلى الشروق لتخرج الانسان من الظلام إلى نور النهار الباهر !! .. لقد رأى بطرس النور واستقبله بالفرح العميق ، وتوالت بعد ذلك الأشعة الساطعة حتى جاء بولس

ليقول : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » .. وما من شك فى أن بطرس بلغ القمة هناك ، وكانت كلماته هتاف المسيحى فى كل العصور والأجيال ، وتحيته للسيد الذى جاء ليقوض الوثنية وليخرج باليهودية من منعطفها الصغير المحدود إلى رحاب الأمم فى مواكب التاريخ ، .. ومرة أخرى يعود الصراع بين الفكر الكاثوليكى والبروتستانتى حول تطويب المسيح لبطرس ، فإذا ذكرنا أن المسيح استعمل لفظ بطرس « بتروس » ولكنه استعمل لفظاً آخر وهو « بترا » ، والفرق بين اللفظين واضح ، قال المسيح : « أنت بطرس (Petros) ويعنى حجرا أو قطعة صغيرة من الصخرة ، وقد جاءت فى الياذة هوميرس عندما رمى أجاكس حجراً على هيكتور ، أما « بـــترا » فمعناها « صخرة » كما جاءت فى الأوديسة (Petra) وقيل إن بوليفيموس جعلها على باب مغارته . وكانت من الفخامة بحيث أن اثنتين وعشرين عربة كما تقول الأساطير ، لم تستطع تحريكها .. وقد قال القديس أوغسطينوس إن الصخرة تشير إلى المسيح وكأنما يقول لبطرس : « أنت بطرس وعلى أنا باعتبارى الصخرة سأبنى كنيستى وسيأتى اليوم الذى تكون فيه عظيما فى هذه الكنيسة مكافأة لايمانك» .. ومن هنا فإن الفكر البروتستانتى يعتقد أن لاهوت المسيح وإيمان بطرس به هو الصخرة التى تبنى عليها الكنيسة فالله هو الصخر الوحيد : « هو الصخر الكامل صنيعه » (تث ٣٢ : ٤) .. « لأنه ليس كصخرنا صخرهم » (تث ٣٢ : ٣١) .. « وليس صخرة مثل إلهنا » (١ صم ٢ : ٢) .. إن بطرس يمكن أن يكون حجراً فى هذه الكنيسة ، ولكنه لا يمكن أن يسلب مركز الله فيها . : « فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذى هو يسوع المسيح » (١ كو ٣ : ١١) .. وعندما قال المسيح لبطرس : « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات . وكل ما تحله على الأرض يكون

محلولا فى السموات » (مت١٦ : ١٩) .. قال نفس الشيء للكنيسة كلها : « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء . وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء » .. (مت ١٨ : ١٨) ولم يكن « الحل » و « الربط » جديداً على أذهان التلاميذ إذ كان تعبيراً شائعاً فى حكم الكاهن على النجس والطاهر عندما يتقدم إليه الأبرص مثلا ليحكم بطهارته أو نجاسته ، وهو ما تحكم به الكنيسة المسيحية آى الخطأ والصواب ، كما حكمت فى مجمع أورشليم فرفعت نير الناموس الطقسى عن أعناق المؤمنين ، والامتناع فقط «عما ذبح للأوثان وعن الدم والمخنوق والزنا » (أع ١٥ : ٢٩).. وهو ما يحكم به فى القبول فى عضوية الكنيسة أو منعها بالنسبة للمؤمن أو غير المؤمن ، والتائب وغير التائب .. أو فى لغة أخرى إنه حكم تقرير ، وليس حكم إنشاء ، . . فالكاهن قديماً لم يكن حراً ليحكم فى ضربة البرص كما يشاء ، بل هو مأمور بأن يفحص الضربة ليراها تنتشر أو تأخذ فى الشفاء إذ هى لسعة كمدت وليست برصا ، .. وخادم الله لهذا ليس حراً فى أن يفتح السماء أو يقفلها فى وجه الانسان ، بل هو مأمور أن يطبق قاعدة الإنجيل على كل ما يرى ، ويحكم إذا كان متمشياً مع الحق الإلهى أو مناقضاً له !! .. ومن المؤسف أن تفسير الكنيسة الذى عاش فترة طويلة خاطئاً بلغ من البشاعة حتى إنه حرق أعظم القديسين أمثال سافونا رولا وجون هس وردلى ولايتمار ، وترك الخطاة والأئمة والملوثين ليكونوا القضاة الحاكمين !! ... على أى حال لقد مجد بطرس السيد باعترافه العظيم بلاهوت المسيح ، وكان بوقا ومتحدثاً باسم التلاميذ والكنيسة جميعاً فى كل التاريخ !! ..

مجد العطاء :

وقد أدرك بطرس أن المسيحية قبل وبعد كل شىء مانحة باذلة معطية إذ تدرك كلمة سيدها المبارك القائل : « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ »

أع ٢٢٠ : ٣٥) ، ومع أن بطرس كان لا يملك حسب الظاهر ما يمكن أن يعطيه أو يقدمه ، لكنه كمسيحى أدرك أنه يستطيع أن يقدم ما يعجز عنه الآخرون ، وهل رأيت حديثه مع الشحاذ الأعرج المقعد عند باب الجميل : « فتفرس فيه بطرس مع يوحنا وقال انظر إلينا . فلاحظهما منتظراً أن يأخذ منهما شيء » (أع ٣ : ٤) .. لقد رأى بطرس فى المشلول المحتاج العالم كله على أبواب خدمته ، وهو ينتظر شيئاً ، وقد قدم له الشىء الذى لا يملكه آخر ، وهو أعظم شىء يمكن أن يقدم للانسان البائس على الأرض : « فقال بطرس ليس لى فضة ولا ذهب ولكن الذى لى فإياه أعطيك . باسم يسوع المسيح الناصرى قم وأمش . وأمسكه بيده اليمنى وأقامه ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه ، فوثب ووقف وصار يمشى ودخل معهما الهيكل وهو يمشى ويطفر ويسبح الله » .. (أع ٣ : ٦ — ٨) لست أعلم من هو الراهب الذى سار مع أحد الباباوات ، وكان يريه كنوز الكنيسة العظيمة ، وقال البـــابا : لقد مضى العهد الذى قال فيه بطرس : « ليس لى فضة ولا ذهب » !! .. وقال الراهب على الفور . قد تملكون الفضة والذهب ، ولكنكم لا تستطيعون أن تقولوا للمقعد : « ولكن الذى لى فإياه أعطيك : باسم يسوع المسيح الناصرى قم وأمش » .. كان اسم المسيح عند بطرس أعظم وأجل وأمجد من كل كنوز العالم ، .. وقد قدمه للرجل المريض فشفاه ، وأعطاه الرجاء فى حياة حرة كريمة نافعة مناضلة متحركة ، .. وأعطاه أكثر من ذلك إيماناً قوياً بسر الحياة فى الاسم العجيب المبارك اسم المسيح !! ..

مجد الكرازة :

لقد أدرك من الدقيقة التى ترك فيها شباكه القديمة ، أنه أصبح صياداً من نوع آخر ، صياداً لنفوس الناس ليسوع المسيح ، كان رجلا لا يتعب

فى استخدام الشبكة ، ولكنه أدرك بأن شبكته مرتبطة بكلمة المسيح ، لقد تعب ذات مساء الليل كله ، — ولكن المسيح أمره على غير المألوف أن يلقى الشبكة على الجانب الأيمن ، وأطاع ، وصرخ مذهولا — بعد الطاعة — بما يتجاوز فكره وخاطره وهو يقول : « اخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطىء » (لوه : ٨) .. وما أكثر ما نطق فى حضرة المسيح بما لا يعى من فرط ذهوله واندهاشه ، .. ولم يخرج المسيح من سفينة حياته قط ، بل سار بها فى بحر العالم يرفع علم الصليب فوقها . لأن « ليس بأحد غيره الخلاص » (أع ٤ : ١٢) .. وكان وفير المحصول ، حصد يوم الخمسين ما بدا مذهلا أمامه ، إذ كان فوق كل تصور وخيال ، .. لقد كانت الباكورة ثلاثة آلاف نفس فى يوم واحد ، وهو شىء يبدو مهولا وعجيباً ، إذ أن أى راع لو كسب ثلاثين عضواً كل عام فى كنيسته ، بذلك يعتبر نفسه ناجحاً ، فإنه فى حاجة إلى مائة عام ليصل إلىما وصل إليه بطرس فى يوم واحد !! .. ولكنه روح الله فى قدرته الكاملة والذى يستطيع أن يحقق فى يوم واحد . ما لا يمكن تحقيقه فى مائة عام فى مكان واحد ، أو كما قال هو فى رسالته الثانية : « ولكن لا يخف عليكم هذا الشىء الواحد أيها الأحباء أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد » (٢ بط ٣ : ٨) ..

مجد الشهادة :

يعد نيومولر من أعظم القادة المسيحيين فى العصر الحاضر ، ولقد تحدى هذا الرجل الجستابو والنازى ، وعندما ضيق هتلر الخناق على الكنيسة ، كان هو أشجع من وقف فى وجهه ، ولقد زج به فى السجن بعد عظة كان عنوانها : « الله فوهررى » إذ كان الناس قد جعلوا من الفوهرر هتلر سيدهم

وإلههم ، .. والكنيسة المسيحية منذ تاريخها الأول تذخر بالشجعان الأبطال الذين لا يخيفهم سجن أو اضطهاد أو تعذيب بل يقولون مع بطرس ويوحنا : « لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا » (أع ٤ : ٢٠) .. « فأجاب بطرس والرسل وقالوا ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس . إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلصاً ليعطى إسرائيل التوبة وغفران الخطايا . ونحن شهود له بهذه الأمور والروح القدس أيضاً الذى أعطاه الله للذين يطيعونه » (أع ٥ : ٢٩ — ٣٢)..
ومع أننا لا نعلم بالضبط الأماكن التى تنقل فيها بطرس كارزاً وشاهداً ليسوع المسيح ، ولكن من الواضح أنه وعظ فى أورشليم وأنطاكية ، ومن المتصور أنه ذهب إلى كورنثوس حيث كانت هناك جماعة ترتبط به وتتعصب لشخصه عندما انقسمت الكنيسة إلى جماعات وأحزاب ، ومن المعتقد أيضاً أنه ذهب إلى روما ، والكنيسة الكاثوليكية تعتقد أنه أول أسقف لروما ، ولكن الفكر البروتستانتى لا يشاطرها هذا الرأى إذ أن بولس كان تواقاً إلى الذهاب إلى رومية ، وكان من عادة بولس الأكيدة أنه لا يعمل على أساس آخر ، ومن غير المتصور أن يذهب بولس إلى كنيسة يؤسسها بطرس ، ويعيش خادماً لها حسب الاتجاه الكاثوليكى وتقليده ، .. بل إن الكثيرين يعتقدون أن هذه الكنيسة لم ينشئها رسول أو تلميذ من تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، بل أنشأها المضطهدون الذين تشتتوا ليجولو مبشرين بالكلمة ، وكان عدد كبير منهم يقصد روما ، .. والآخذون بهذا الفكر يرجحون أن بطرس ذهب إلى روما لمدة قصيرة ، ويقول القديس مكاريوس إن بطرس صلب فى روما بعد أن زارها لمدة شهور لتفقد المسيحيين هناك ، وكان ذلك إبان اضطهاد نيرون القاسى الشديد ، .. وقد قيل إن زوجة بطرس استشهدت قبله ، وإنه شجعها على الموت من أجل المسيح ، .. كما قيل أيضاً إن المسيحيين

شجعوه على الابتعاد عن روما ، وإنه أخذ سبيله ذات مساء إلى طريق ابيان الشهير ، وظل سائراً الليل كله ، ولكنه فى الصباح الباكر ، عند شروق الشمس ، أبصر شخصاً مهيباً أمام عينيه ، وإذ عرف أنه المسيح صاح : « كوفادس (إلى أين) يا سيد » .. وجاءه الجواب : « إن لى تلميذاً كان هناك ثم هرب !! .. وأنا ذاهب لآخذ مكانه ، وأصلب مرة ثانية نيابة عنه » وصرخ بطرس : « لا يا سيد أنا عائد » .. وعاد ليموت مصلوباً ، وعندما أرادوا أن يصلبوه قال إنه شرف لا أستحقه أن أموت مصلوباً مثل سيدى ، ولكنى أرجو أن أصلب وقدماى إلى أعلى ورأسى إلى أسفل ، لأنى أضأل من أن أكون كسيدى !! .. ونظر إلى روما وهو يقول : « عما قريب تتحولين أيتها الهياكل الوثنية المتعالية إلى معابد للمسيح » ، وقال للجماهير المحتشدة : « إن أولادكم سيكونون خداماً للمسيح . . ها نحن نموت يا روما من أجل أن تخلصى ، ويسيطر عليك روح المسيح !! .. ولسوف يجىء قياصرة ويذهبون ولكن مملكة المسيح ستظل ثابتة صامدة على مدى الأجيال !.» وذهب الشاهد ليكون واحداً من الشهداء الخالدين على مر الأزمان وتوالى الحقب والقرون فى كل التاريخ !! . .

٨٧
يعقوب بن زبدى

« فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه فى السفينة مع زبدى أبيهما يصلحان شباكهما فدعاهما » (مت ٤ : ٢١)

هناك مثل يقول : « إن الحياة أقوى من الناس » ولعل المقصود من ذلك أن تيار الحياة أقوى من جهد السابح فى نهرها ، وقد صاح إرميا وهو يتبين هذه الحقيقة : « عرفت يارب أنه ليس للانسان طريقه . ليس لإنسان يمشى أن يهدى خطواته » (إر ١٠ : ٢٣) وقصة يعقوب بن زبدى وأخيه خير دليل على ذلك ، ألم تأت أمهما معهما لتطلب من المسيح أن يجلس واحداً عن يمينه والآخر عن يساره ، ولا ضير فى ذلك مهما يتزحزح مركز التلاميذ الآخرين فى هذا الاتجاه أو ذاك .. ولم يجبها المسيح إلى طلبتها ، لأنه لو أجابها ، لأخذ الأخوان مركز اللصين عن اليمين وعن اليسار ، فى حادث الصلب الوشيك الوقوع ، .. كما أن الأخوين لم يزحزحا صف التلاميذ ، بل تزحزح مكانهما هما فى المصير ، ووقفا على الطرفين من الاثنى عشر ، إذ كان يعقوب أول

من مات شهيداً فى الصف الطويل من الرسل ، وقد سقط بعده كل واحـــد منهم شهيداً ، ولم يفلت من الاستشهاد سوى أخيه يوحنا الذى بقى أكثر من خمسين عاماً بعد موت أخيه ، ، إذ مات يعقوب على الأغلب عام ٤٤ م ومات أخوه حوالى نهاية القرن الأول فى عام ٩٨م على ما يذكر جيروم .. وسبحان موزع الأنصبة المختلفة فى الحياة والوزنات والمواهب والأعمار حتى ولو كان التوزيع بين الأخوين الشقيقين ، ابنى زبدى وسالومة أمهما !! .. وها نحن نتابع قصة الأخ الأكبر يعقوب فيما يلى :

يعقوب من هو :

كان يعقوب على ما يبدو الابن الأكبر لزبدى وسالومى ، وهو الاسم الذى ترجم عند الغربيين بألفاظ مختلفة . فهو فى انجلترا « جيمس » وفى فرنسا « جاك » وفى أسبانيا « جاجو » .. الأسماء التى أخذها العالم الغربى عن الصيادين القدامى ، وأطلقها على الملوك والعامة ، وكانت مصداقاً لجواب المسيح على سؤال بطرس عندما قال : « ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك . فماذا يكون لنا » (مت ١٩ : ٢٧) ورد المسيح بأنه لن يعطيهم الحياة الأبدية فحسب ، بل يأخذ أيضاً مائة ضعف فى الحياة الحاضرة ، وقد أخذوا فى الواقع آلاف الأضعاف من ذيوع الشهرة وعظمة المجد ، فبطرس الأكبر فى روسيا يحمل اسم بطرس الصياد ، وجيمس استيورت أول ملك يحمل اسم يعقوب ، كان ملكاً على انجلترا واسكتلندا معاً ، .. ومن المرجح أن سالومة أمه التى تقدمت إلى المسيح بطلب أن يكون احد ابنيها عن يمين السيد والآخر عن يساره كانت أخت العذراء مريم ، وأنها بحكم هذه القرابة الجسدية ، ظنت أنها تستطيع الوصول إلى مقاعد الحكم مع المسيح ، وقد جهلت تماماً أن أسلوب الله فى حياة الناس يختلف عن أسلوب البشر كل الاختلاف ، وأن السيد الذى جاء ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ، لا يمكن أن يقيم العلاقة على

أسس بشرية جسدية ، وعلى أى حال فالواضح من القصة الكتابية أن زبدى وسالومة كانا أبوين تقيين ، وأن الأخوين يعقوب ويوحنا نشآ فى بيت ، كان الأب فيه على استعداد أن يدع ولديه ليسيرا وراء السيد بدون أدنى معارضة أو تردد ، تاركين الشباك الأرضية ليمسكا شباكاً أعظم وأجل فى سفينة أعظم وأمجد ، وكانت سالومة عميقة الإيمان ، ومهما تكن رغبتهما فى مركز ولديها إلى جانب المسيح ، فإنها فى الواقع كانت الرغبة المرتبطة بالولاء المطلق للسيد المبارك العظيم !! .. كما أنها واحدة ممن خدمن السيد من أموالهن وأحضرت الحنوط قبل السبت لتحنيطه، وذهبن إلى القبر فى يوم القيامة !!.. ويبدو أن الأسرة كانت على حظ غير قليل من اليسير أو الثروة ، إذ أنها كانت تملك لا سفينة للصيد فحسب ، بل كان هناك الأجرى الذين كانوا يستخدمون للمساعدة فى الصيد والخدمة ، .. ومن المتصور أنها كانت أيضاً تملك بيتاً فى أورشليم ، يذهب إليه أفرادها كلما وجدوا هناك فى المدينة ، هذا هو يعقوب وأخوه اللذان سارا فى طليعة التلاميذ ، وكانا من الصفوة المختارة من تلاميذ السيد !! ..

يعقوب والدعوة للخدمة :

لم تكن دعوة يعقوب مؤسسة على مجرد القرابة بالجسد ليسوع المسيح ، فالمسيح لم يدع أحداً للخدمة استجابة لنداء الدم البشرى ، ولم يعط سلطانه مطلقاً على أساس المولد من الجسد أو مشيئة الرجل ، .. ومن المؤسف أن أخوة المسيح حسب الجسد ، لم يؤمنوا به ، ولم يثقوا بشخصه إلا بعد القيامة ، . بل لقد زادت المسافة تباعداً بينهم وبينه ، إذ أرادوا ذات مرة أن يمسكوا به عنوة ، بزعم أنه مختل ، .. وسوف نعرض لهذا عندما نتناول شخصياتهم فى حينها ، .. على أى حال فإن المسيح لا يعطى الخدمة ، على النظام اللاوى ، بالتوارث ، ولا يشترط أن ابن الخادم أو الراعى يأخذ مكان أبيه أو يكون

على غراره لمجرد أنه ابنه ووارثه ، فقد انحصرت الخدمة الدينية للهيكل فى سبط لاوى، باعتبار أنه السبط الذى أفرز للخدمات الدينية فى وسط الأسباط ، وانتهى هذا النظام إلى الأبد ، وجاء المسيح على رتبة ملكى صادق ، وجعلنا جميعاً ملوكاً وكهنة لله أبيه ، .. وهو يدعو الانسان بشخصه للرسالة التى سبق فأعدها له لكى يسلك فيها ، .. إن القرابة الجسدية قد تصلح لأن تعطى الإنسان حقوقاً أرضية أو امتيازات بشرية ، لكنها لا يمكن أن تكون الأساس التى تبنى عليه الخدمة الدينية ،.. على أن هذا لا يعنى — من الجانب الآخر — استحالة أن يحذو المرء حذو أبيه أو قريبه فى الخدمة ، متى كانت دعوة الله واضحة أمامه ، .. ومن الواضح أن الله كما يريد الدعوة الفردية ، فانه مرات كثيرة ما يسر بالدعوة الأسرية ، كما نرى هنا الأخوين توجه لهما الدعوة فى يوم واحد ، .. كما دعى بطرس وأندراوس أيضاً للتلمذة والخدمة !! .. وما أجمل أن تتقدم الأسرة بأكثر من ابن إلى الخدمة المقدسة !! ..

ونحن لا نعلم بالضبط كيف التقى المسيح بيعقوب بن زبدى ، .. إذ لا يذكر الكتاب شيئاً واضحاً ، على غرار الصورة التى بدت فى قصة بطرس وأندراوس وكيف جاء الأصغر بالأكبر إلى المسيح ، .. هل فعل يوحنا الشيء ذاته ، .. وهل عاد يوحنا بعد اللقاء العظيم مع السيد ، عندما التقى به ومعه أندراوس ، وقضيا يوماً سجله الرسول بعد ما يقرب من الخمسة والستين عاماً ولم يفته أن يقول عن لقائه بالسيد : « وكان نحو الساعة العاشرة » !؟ .. هل عاد ليقص على أخيه انطباعه العميق بذلك اليوم الخالد !! ؟ وهل عاد ليذكر له دون ملل شتى الأحاديث التى دارت ، وكيف ألهبت مشاعره ، وأثارت أعماقه ، ورفعت فى كيانه أعظم أحلام اليهودى ، الحديث عن المسيا !! ؟ إن أى حديث مع السيد لا يشبع النفس فحسب ، بل يرفعها

فوق أجنحة النسور ، بالرؤى المحلقة فوق دنيا المعاناة والتعب والمشقة والضعة والاسفاف التي تثقل أكتاف الناس على الأرض .. على أى حال ، من المؤكد أن يوحنا أخبر أخاه بهذا اللقاء ، .. وأن المسيح التقى بيعقوب لقاء على غرار اللقاء مع بطرس وأن ابن الرعد اهتز من الأعماق وأصبح تلميذاً للمسيح ، قبل أن يتفرغ للخدمة ، وأن ما جاء فى الاصحاح الرابع من إنجيل متى بالنسبة للأربعة التلاميذ ، لم يكن دعوة للتعرف به ، وهو ما لا شك تم من قبل ، بل كان دعوة للتفرغ للخدمة : « وإذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل أبصر أخوين سمعان الذى يقال له بطرس وأندراوس أخاه يلقيان شبكة فى البحر فإنهما كانا صيادين . فقال لهما هلم ورائى فأجعلكما صيادى الناس . فللوقت تركا الشباك وتبعاه . ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه فى السفينة مع زبدى أبيهما يصلحان شباكهما فدعاهما . فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه » (مت ٤ : ١٨ — ٢٢) .. وهل لك أن تتخيل منظر الأربعة أمام المسيح لتأخذ أجمل دروس الدعوة وأجلها ، .. عند بحر الجليل ، وفى اللقاء مع الأربعة بدت أعظم حركة لتغيير وجه الأرض ، ومن المثير أنها بدأت بأربعة ، قديماً صاح زكريا النبى وهو يرى يوم الأمور الصغيرة فى بناء الهيكل وزربابل يتعثر ويتوجس خوفاً من الطريق : « لأنه من ازدرى بيوم الأمور الصغيرة . فتفرح أولئك السبع ويرون الزيج بيد زربابل . إنما هى أعين الرب الجائلة فى الأرض كلها » (زك ٤ : ١٠) .. وكما فرحت عين الرب قديماً وهى ترى العائد من السبى يمسك بزيج البناء ، ويضع الأحجار الأولى فى بيت الله حجراً فوق حجر ويصفها بعضها فوق بعض مستخدماً الزيج للتأكد من استقامة البناء المرتفع دون بروز حجر إلى الخارج أو ميله إلى الداخل ، هكذا فرحت عين المسيح فى ذلك اليوم العظيم على بحر الجليل ، وهو يضع الأحجار الأولى فى بناء هيكل الله العظيم ،

كنيسته المباركة .. وأغلب الظن أن الوقت كان فجرا أو صباحاً مشرقاً ، أخذت تسكب الشمس فيه شعاعاتها الأولى مع الصباح ، لأن بطرس وأندراوس كان يلقيان الشباك ، وأفضل أوقات الصيد الليل أو الصباح الباكر الهادىء دون حركة أو ضجيج ، وكان ابنا زبدى يصلحان الشباك ربما بعد ليلة قضياها فى الصيد أو تأهبا لاقتناص الفرصة مع تباشير الصباح الأولى ، .. كان الوقت كما يمكن أن نتخيل هادئاً مشرقاً ، .. وجاء المسيح أمام بحر العالم ، ليمسك بأول أربعة باكورة الصيد العظيم من المؤمنين فى كل التاريخ ، وكان هو شمس البر المشرقة بعد ظلمة الليل القاسية على الأرض ! ! .. كانت الخطوة الأولى فى رحلة الألف ميل كما يقولون ، وما أجلها من خطوة وأمجدها وأعظمها ، .. ومن العجيب أن المسيح لا يشغل مثلنا بكثرة العدد أو ضجيج الجماهير ، بل حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه فهناك يكون فى وسطهم ، .. ولا يقتصر الأمر على العدد ، بل الأكثر إثارة والأدعى إلى العجب هو النوع ، إذ لو قيل إن المسيح دعا أربعة ملوك أو أباطرة ، من ملوك وأباطرة الأرض ، لبدا المنظر جليلا رهيباً ، لأربعة يتحكمون فى مصائر الشعوب والبشر ، وهم يقفون مع السيد على شاطىء البحر ، بثيابهم العظيمة ومظهرهم الجليل ، وربما بأوسمتهم التى تملأ الصدور ، وتخلب اللب ، .. ولكن المسيح تجاوز أباطرة الدنيا بأكملها ، ولم يقدم لخدمته واحداً من الأباطرة حتى ولو كان طباريوس قيصر نفسه ، .. ولم يتحول المسيح ليأخذ أربعة فلاسفة مستغرقين فى حوارهم وتأملاتهم ، وما يمكن أن يخرجوا به إلى العالم من نظريات المعرفة والحكمة والعلم !! .. ربما أخذ سقراط أفلاطون يحاوره ، .. وعلم أفلاطون أرسطو قبل أن يصبح التلميذ فيلسوفاً عظيما ، .. لكن المسيح لم يأخذ واحداً من فلاسفة الدنيا ، يهز المسكونة بعبقريته وقدرته على التحليل والابداع ، .. لقد تحول المسيح عن حكماء

الأرض ، وقادة الفكر فيها !! .. ولم يناد المسيح أربعة من ملوك المال ، الذين يقبضون بأيديهم على خزائن الذهب وكنوز العالم !! .. كما أن السيد لم يناد أربعة من القواد العسكريين الذين تلمع على أكتافهم أو صدورهم الشارات أو النياشين أو يحملون أدوات الحرب والقتال ، .. لم يحدث شيء من هذا عند بحر الجليل ، بل حدث العجب ! إن الأربعة كانوا أربعة صيادين فقراء تفوح من ثيابهم رائحة السمك ، ولا يحملون من العلم والمعرفة إلا أضأل الدراسات وأقل المعارف !! .. وكانوا نواة أعظم مجموعة عهد إليها المسيح فى تغيير العالم ، .. أعتقد أن هذه الصورة يمكن وحدها أن تقنعنا بأن قائد المجموعة لا يمكن أن يكون مجرد انسان ، بل هو فى الحقيقة الله الذى ظهر فى الجسد !! .. على أنه من الواجب أن نلاحظ فى هذه الدعوة ، أن المسيح لا يمكن أن يدعو الانسان الخامل أو يستريح إليه ، .. لقد جاء المسيح إلى أربعة كانوا يجهدون أنفسهم فى العمل ، فبطرس وأندراوس كانا يلقيان الشبكة فى البحر ، وكان يعقوب ويوحنا يصلحان شباكهما ، .. لقد جاء إلى الأربعة وهم يعملون ، سواء باستخدام الشبكة أو إصلاحها ، .. قد يكون الأربعة من أضأل الناس حظاً ، ومن عامتهم فى الأرض ، لكنهم مع ذلك كانوا أمناء فى العمل الصغير البسيط الذى كانوا يقومون به ، وكانت لهم روح الأمانة والمثابرة والجد ، وكانوا يحملون الخلال والصفات التى هى نواة لكل بطولة فى الأرض !! .. والمسيح عندما يدعو خادماً للخدمة والرسالة ، فإنه أغلب الظن لا يدعوه إلا نادراً — وهو يأكل بملعقة من ذهب ، أو من فراش ناعم وثير !! .. إن المسيح يطلب دائماً الصياد الذى يرى وجهه مبللا بالعرق ، وعضلاته مفتولة من الكفاح ، وعلى وجهه تصميم النضال الصابر ، والسهر الذى قد يتعبه الليل كله دون أن ينال شيئاً ، .. إنه فى حاجة إلى الصادق الأمين ، الذى يقول له فى اليوم الأخير : كنت أميناً فى

القليل أقيمك على الكثير !! .. ومن الواضح أن المسيح وهو يدعو الأربعة إلى صيد الناس يحول المهنة إلى الرسالة ، .. أو بتعبير أدق ، يلمس المهنة لكي تتحول إلى رسالة ، فبادىء الصيد فى السمك والناس واحدة ، وخلال الصياد وأسلوبه متماثلة فى الاثنين . وكم يحتاج صياد السمك إلى الانطلاق فى البحر فوق المياه وتحت السماء وهو يكافح الأمواج العاتية أو ينساب فوق المياه الهادئة هكذا يفعل صياد الناس ، .. وما يحتاجه أحدهما إلى الصبر والاحتمال والتعب والرجاء يحتاجه الآخر ، والهدف عند كليهما مركز ثابت !! ..

ولعل مما يدعو إلى الإعجاب ، الجواب على الدعوة : « فللوقت تركا الشباك وتبعاه » . « فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه » .. وهل هناك تصميم أروع من هذا التصميم ، « فللوقت » التى تكررت مرتين ، والمغزى العميق البعيد فيها ، درس واضح بين يجدر بنا أن نتوقف إزاءه لنعلم القبول من حيث عامل الزمن فيه ، إذ هو قبول حاسم دون شبهة أو تردد أو تلكؤ أو إهمال !! . كما أن القول « تركا » يتحدث عن القبول من حيث عامل التضحية ، والثمن المدفوع فيه » .. لقد تركا « الشباك » « السفينة وأباهما » أو فى لغة أخرى تركا المهنة والأسرة والثروة فى الانطلاق صوب المجهول فى الخدمة العظيمة !! . ليس من السهل أن نتصور المشاعر فى الكلمة « تركا » ، وليس من الميسور الحديث عن السفينة ، وأكثر من السفينة « أباهما » .. كان هذا وداعاً رائعاً عظيما للعالم القديم ، والأربعة يستجيبون لدعوة الله العليا فى المسيح يسوع !! .. وهكذا فعل يعقوب بن زبدى وصحابه فى ذلك اليوم الخالد على بحر الجليل !! ..

يعقوب والاعداد للخدمة :

كانت خدمة يعقوب بن زبدى أقصر خدمة بين رسل المسيح وتلاميذه الاثنى عشر بعد أن خرج من القافلة يهوذا الأسخريوطى ، ومنذ لقائه مع المسيح على بحر الجليل إلى استشهاده على يد هيرودس كانت المدة سبعة عشر عاماً ، قضى منها ثلاث سنوات فى صحبة السيد يتدرب على الخدمة ، .. ومن الواضح أنه كان واحداً من الدائرة الأضيق فى التلاميذ ، إذ ما أكثر ما صاحب المسيح فى هذه الدائرة ، سواء فى بعض الخدمات أو المعجزات كمثل إقامة ابنة يايرس : « ولم يدع أحداً يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب » (مرقس ٥ : ٣٧) أو فى التجلى : « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين » (مت ١٧ : ١) .. أو فى جثسيمانى : « ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب » (مت ٢٦ : ٣٧) .. أو يمكن أن نرى الخدمة هنا فى أوضاعها الثلاثة : فى قوتها ، ومجدها ، وآلامها ، .. لقد رأى يعقوب المسيح المقتدر على الموت ، صانع المعجزات ، وما من شك فى أنه وقف أمام الصبية الصغيرة التى أعادها المسيح إلى الحياة، مذهولا ومندهشاً ، أمام عظمة سيده ، .. وعندما ارتفع إلى أعلى جبل التجلى ، ورآه فى مجده الأسنى ، ومعه موسى وإيليا ، تعاظم السيد أمام عينيه ، بل صغرت معانى الحياة الحاضرة فى ضوء الأبدية ، التى هى أعظم وأمجد ، .. عندما رأى سيده يواجه الصليب فى جثسيمانى ، بل يسير بخطاه العظيمة نحو الموت ، فداء للجنس البشرى !! .. كل هذه الدروس وغيرها فى صحبة المسيح ثلاثة أعوام أعدته ودربته على الخدمة التى كان عليه أن يقوم بها فيما بعد !! .. وقد أطلق المسيح عليه وعلى أخيه « ابنى الرعد » ، للطبيعة الثورية النارية التى جبلا عليها ، لم يكن يعقوب بطبعه هادئاً وادعاً ساكنا آمناً ، بل إن ناراً تتلظى فى داخله ، فإذا عامل السامريون

المسيح معاملة قاسية خشنة جافة ، فهو لا يقبل هذا على الإطلاق ، وإذا هو وأخوه يتحولان إلى صورة متكررة من إيليا النبي ، وهما يطلبان أن تنزل نار من السماء لتحرق القرية ، ويبدو أنهما ألحا على المسيح فى ذلك ، « فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أى روح أنتما ، لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص » !! (لو ٩ : ٥٥ و ٥٦) .. ومن المعتقد أن المسيح لم يبدل طباع الأخوين ، لكنه بالأحرى حولها فى اتجاه الخير ، .. فالنار التى تحرق ، هى بعينها التى يمكن أن تحرك الآلات والمصانع . وتلعب الدور العظيم فى الحياة كلها ، .. والتجديد لا يقلب طباع الناس فيجعـــل الهادئ ناراً ، والملتهب ماء !! .. إنه بالأحرى يحول هذه الطباع حتى تلتهب فى عمل الله ، وتغار لاسمه ومجده ، .. وقد تدرب يعقوب على تحويل طاقته الكامنة وحراوته الملتهبة لخدمة المسيح ومجد الله فى الأرض !! .. وكان الرجل إلى جانب ذلك واسع الرؤيا ، قوى الرجاء ، طموحاً إلى أبعد الحدود وقد كشف المسيح الصورة الحقيقية لمسار الطموح ونهايته ، وربطه بعامل إلهى ، وآخر بشرى ، .. إذ أن مراكز الناس فى الأرض أو السماء معينة أساساً بالمشورة الإلهية الأزلية الثابتة الحكيمة ، وأن حظوظ الناس فى الحياة ، تسير — إذا أدركوا الحقيقة — وفق إرادة الله المتسلط فى مملكة الناس ، .. ولعل صلاة حنه أم صموئيل تكشف هذه الحقيقة بأروع مظاهرها ومعانيها : « لا تكثروا الكلام العالى ولتبرح وقاحة من أفواهكم لأن الرب إله عليم وبه توزن الأعمال . قسى الجبابرة انحطمت والضعفاء تمنطقوا بالبأس . الشباعى آجروا أنفسهم بالخبز والجياع كفوا . حتى إن العاقر ولدت سبعة وكثيرة البنين ذبلت . الرب يميت ويحيي . يهبط إلى الهاوية ويصعد . الرب يفقر ويغنى . يضع ويرفع . يقيم المسكين من التراب . يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء ويملكهم كرسى المجد » (١ صم ٢ : ٣ — ٨) .. على أنه

من الجانب البشرى ، إن العظمة مرتبطة دائماً بالجهد والتعب والتضحية والمشقة ، وهى فى لغة السيد المسيح الصبغة والكأس ، وإنه لا يمكن لأحـــد أن يبلغ المجد دون أن يصطبغ بصبغة المسيح ، ويشاركه كأسه وعاره وآلامه ، وقد أكد ابنا زبدى استعدادهما لذلك ، .. وأتماه مع الأيام !! .. على أى حال لقد وجههما السيد المسيح إلى الخدمة كالطريق الصحيح المرتب من الله للمجد والعظمة ، .. وعلى الإنسان أن يسلك فيها ، تاركاً لله المكان الذى يحدده بنعمته للانسان فى المجد !! ..

يعقوب واستشهاده :

ليس لنا علم كبير بالخدمات التى قام بها يعقوب فى الكنيسة ، لكنه وهو واحد من الأعمدة ، امتدت إليه أنظار هيرودس كرفيق لبطرس وزميل له ، وبدأ بالقبض عليه ، وقتله ، ولعلنا نلاحظ الصراع بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، ونصيب الهيرودسيين فى الشر والقسوة والقتل ، .. لقـــد قتل هيرودس الكبير أطفال بيت لحم ، وهيرودس الثانى يوحنا المعمدان ، وهيرودس الثالث يعقوب بن زبدى !! .. على أن السؤال الذى يطوف دائماً بالأذهان : هنا تلميذان يقعان تحت يدى مضطهد واحد ، فلماذا يسمح الله بأن يقتل واحد منهما وينجو الآخر ، .. قال أحدهم إننا نجد أنفسنا أمام سر من الأسرار العالية التى لا تستطيع القدم البشرية ، أن تطأ موقعها المقدس ،.. وإن حاولت الاقتراب فلتخلع نعليها ، ولتغطى وجهها باحترام أمام الله ، .. وهناك من الأسرار ما لا يمكن حله فى الأرض ، وسيبقى غامضاً إلى أن تشرحه السماء !! .. كان يعقوب أول الاثنى عشر فى الاستشهاد ، وهو الثانى بعد رجم استفانوس ، وكشف الله فى موته ونجاه بطرس حكمة الله وقدرته معاً ، .. أما الحكمة فتبدو فى أن موت يعقوب انتهى إلى عكس النتيجة التى كان يحلم بها اليهود : « وفى ذلك الوقت مد هيرودس الملك يديه ليسيء

إلى أناس من الكنيسة ، فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف وإذ رأى أن ذلك يرضي اليهود عاد فقبض على بطرس أيضاً » .. والتصور البشرى الدائم هو أن الاضطهاد يسحق الكنيسة ويقوض أركانها ، ولكن حكمة الله أظهرت العكس إذ أن دم الشهداء بذار الكنيسة ، وهو الذى وسعها ونماها ، وكشف للناس أن الإنسان الذى جاء به الله إلى معرفته والشركة معه ، هو الإنسان الذى لا يأبه لاضطهاد أو يخشى موتاً ، بل بالحرى يسترخص كل شيء ، حتى الحياة نفسها ، من أجل معرفة المسيح والوجود فيه ، وإذا صحت رواية يوسابيوس فيما أخذه عن أكليمندس السكندرى من أن شجاعة يعقوب أمام الموت وشهادته لسيده ، أذهلت الجميع ، وعلى وجه الخصوص الرجل الذى وشى به ، وقدمه للمحاكمة ، وقد قيل إن الرجل قبل المسيحية ، وطلب من يعقوب المسامحة والغفران ، وأنه مات أيضاً معه قتيلا بالسيف ، .. على أنه إذا بدت حكمة الله فى موت يعقوب ، فقد ظهرت قدرته فى إنقاذ بطرس ، .. ومهما يكن الطغيان البشرى فإن الله أعظم وأقدر ، .. وإن المصير لا يحكمه فى الحقيقة سلطان بشرى ، بل الإرادة العليا الصالحة فى السماء !! ..

خدم يعقوب أربعة عشر عاماً ، وقيل إنه ذهب إلى الهند ، وهناك من يقول : إن خدمته امتدت إلى أسبانيا ، ثم عاد إلى أورشليم ، وإذ كان مقداماً شجاعاً بارزاً بين التلاميذ ، امتدت إليه يد هيرودس ، وذهب الرجل فى موكب الخالدين أول شهيد بين الرسل الاثنى عشر ، وتأخر أخوه إلى النهاية ليموت موتاً طبيعياً ، ويقف الأخوان كما ذكرنا على الطرفين ولكن لا على يمين المسيح ويساره ، .. بل على اليمين واليسار فى صف الاثنى عشر فى الشهادة والاستشهاد . وسبحان موزع أنصبة الناس بالحق والحكمة والجلال والعظمة هنا فى الأرض ، .. أو هناك فى المجد العتيد فى السماء !! ..

٨٨
يوحنا

« وكان متكئا فى حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه » (يو ١٣ : ٢٣)

أراد كاتب غربى أن يعطى أروع صورة يمكن أن يتخيلها الذهن البشرى عن المحبة ، فتخيل الجنس البشرى وقد استيقظ ذات صباح وقد خلت قلوب الناس من المحبة ، بكافة أنواعها ، محبة الطبيعة ، ومحبة الانسانية ، ومحبة الوطن ، ومحبة الأسرة ، .. فماذا كانت النتيجة ؟ .. لقد تحول الناس بين يوم وليلة إلى وحوش فى غابة ، .. فهذا الانسان الذى كان مفتوناً بجمال الطبيعة والذى كان يتمشى كوردثورث فى سفوح الجبال ، وكأنما يتمشى مع الله فى معبد ، .. هذا الانسان فقد حب التأمل فى روائع الكون وجمال الطبيعة ! ! .. كما أن حب الانسانية لم يعد يعطينا أمثال جوزفين بتلر وفلورانس نايتنجيل وأديث كافل ، وفقد الناس كل وازع للحنان والرفق والرقة والجود والإحسان والرحمة ، .. فإذا انتهينا إلى حب الوطن ، لم نعد نرى أمثال دانتى

يضرب فى المنفى على غير هدى ، وخيال فلورنسا لا يكاد يغيب عن عينيه ، وشوبان وهو يعزف موسيقاه العظيمة ، وقد حمل معه حفنة من تراب الوطن ، .. فإذا وصلنا إلى حب الأسرة ، فإننا لا يمكن أن نعثر على أنتيجونا اليونانية ، الفتاة التى تابعت أخاها حتى القبر ، وظلت إلى جوار جثته حتى ماتت ، أو بنلوب التى ظلت عشرين عاماً تحدق فى الفضاء البعيد تنتظر مجىء زوجها وسفنه الضائعة !! .. فإذا تجاوزنا هذه جميعاً ، فإن الانسان يفقد معنى الوجود إذا لم يسبح فى نهر الحب الإلهى بمياهه الطامية الأبدية التى لا تعبر !! .. عندما أراد يوحنا أن يتحدث عن نفسه ، لم يجد أجمل من القول : « وكان متكئاً فى حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه » .. قد يكون ، إذاً ، من أجمل الصور وأبهى المناظر أن نرى يوحنا من الجوانب التالية :

يوحنـــا من هو :

يكاد الاجماع فى التاريخ المسيحى يذهب إلى أن يوحنا الرسول هو التلميذ الذى كان يسوع يحبه ، وقد سبقت الإشارة فى الحديث عن يعقوب أخيه ، إلى أنهما ابنا زبدى ، وأن أمهما سالومة ، ومن المرجح أن الأم هى أخت العذراء مريم ، فهو حسب الجسد ابن خالة يسوع المسيح ، .. ومن المظنون أن بيته أصلا فى بيت صيدا مدينة بطرس وأندراوس ، ويعتقد أنه كان له بيت آخر فى أورشليم ، وأنه كان ميسور الحال ، وربما كان أغنى تلميذ من تلاميذ المسيح ، إذ أن أباه كان يستأجر فعلة فى أعمال الصيد ، وكانت أمه أيضاً واحدة من السيدات اللواتى كن يخدمن المسيح من أموالهن ، .. ومن المعلوم أنه كان معروفاً لرئيس الكهنة ، وسواء كانت هذه المعرفة ، كما يعتقد البعض ناتجة عن بيع السمك لرئيس الكهنة ، أو بسبب آخر ، فمن الواضح أنه كان أقرب التلاميذ إلى الطبقة اليهودية الراقية ، ويظن أنه كان أصغر الاثنى عشر ، وأنه كان يناهز الخامسة والعشرين حين تبع السيد

وصار تلميذاً له ، كما أنه كان آخر التلاميذ فى موته ، ويقال إنه عاش إلى عام ٩٨ أو ١٠٠ ميلادية ، وإنه مات بعد عودته إلى أفسس فى أثناء حكم تراجان الامبراطور ، هذا عن ظاهر الرجل ، أما باطنه فكان يحمل عقلا من أندر العقول على الأرض ، ويحسن أن نستمع إلى وصف الكسندر هوايت فى ذلك إذ قال ما ملخصه : « كان يوحنا ابن الصياد يحمل عقلا من أندر العقول التى أجزلها جود الله على أبناء الناس ، ونحن نطلق عليه فى بعض الأوقات « أفلاطون المسيحى » ، ونحن نعنى بذلك أنه كان بالطبيعة يحمل عقلا فذا غنياً سامياً جميلا ، .. كان ألمعيا ذا ذهن متأمل متسع متصوف روحى ، .. وربما كان لأفلاطون هذه الملكات ، وقد يزيد فيها عن يوحنا ، .. لكنه مع ذلك لم يكن يملك امتيازات يوحنا وفرصه الواسعة ، إذ لم يكن له كتب العهد القديم ، كان له سقراط أستاذاً ، ومن أجل ذلك خلف فلسفاته وكتبه ، .. ولكن يوحنا خلف لنا انجيله ورسائله ورؤياه !! .. وكان له الشرف الخالد أنه استوعب وتأمل وكتب أعظم قطعة خطتها يد إنسان بحبر وقلم ، .. إن الأربع عشرة آية الأولى فى انجيل يوحنا تقف وحدها على قمة كل الأداب الدينية وغير الدينية فى كل التاريخ : « كان الكلمة الله » « والكلمة صار جسداً » جملتان قصيرتان ، ولكنهما أبعد وأعمق من كل فلسفة عرفها الانسان ، وأكثر نعمة وجمالا وحقاً من كل ما خطه قلم الانسان أو جاء على ألسنة الناس أو الملائكة ، .. لقد كتب فيلو اليهودى السكندرى مجلدات كاملة عن « الكلمة » « اللوجوس » ، ومع ذلك كما يقول نيومان : إن اللوجوس عند فيلو ليس إلا تصوراً نبيلا عارياً ومن غير عمل ، على العكس من « الكلمة » الذى هو عند يوحنا شخص الله ، وأكثر من ذلك شخص الله المتجسد فى إنسان ، وقد جاء هذا إعلاناً واختباراً وامتلاكاً يقف يوحنا بنفسه ليكون الشاهد الحى عليه ، والدليل الصحيح الثابت غير المنقوض ، ..

وإذا جاز لفيلو أن يقول : بسمع الأذن سمعت عنك ، فإن يوحنا يستطيع القول : « الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة » .. وإذ صار الكلمة جسداً ورأته عينا يوحنا ، لذلك لا عجب أن يوجد بين أيدينا الإنجيل الرابع ورسائل يوحنا وسفر الرؤيا !! .. فإذا عنّ لأحد أن يسأل : كيف استطاع يوحنا بين التلاميذ ، أن يتفرد بهذه الحقائق البعيدة العميقة السامية ، وكيف وصل إلى أن يكون رسول المحبة والحكمة ؟ .. إن الجواب — إن أمكن أن نجيب — هو أنه كان أقدر من الجميع تأملا وتفكيراً ، .. وكلمات المسيح عنده تسقط على الأرض الجيدة ، وأصوله تمتد إلى الأغوار البعيدة العميقة ، حتى إن زرعه يأتى بالمائة ضعف ، .. وهو تجسيد للمزمور الأول ، إذ هو الجالس نهاراً وليلا ليتأمل كلمات سيده ، بل ليتأمل سيده نفسه ، وهو الشجرة المغروسة على النهر التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل ، وما أجمل أن يعيش الإنسان على التأمل فى الأمور الإلهية !! وما أجمل أن تتكون عادته ليصبح رجل تأمل فى أعلى الأمور التى تستدعى التفكير العميق الثاقب !! وما التأمل إلا الجذور الحقيقية ، والعصارة والدسم لكل إيمان ، وصلاة ، وطاعة روحية ، .. فإذا سألنا : لماذا تبدو عقولنا ضحلة وخاوية من أمور الله السامية !! ؟ ولماذا يبدو إيماننا ضعيفاً !! ؟ .. ولماذا لا نمسك بالحقائق العليا الإلهية الثمينة !! ؟ . إن السبب يرجع بكل بساطة إلى أننا لا نتأمل !! .. نحن نقرأ العهد الجديد لماماً ، ونحن نسمعه يقرأ ، ومع ذلك لا نأخذه بتأمل .. نحن نصلى بعض الوقت ، أو نظهر كأننا نصلى ، ولكننا لا نجهز أنفسنا وقلوبنا للمثول أمام عرش النعمة لنعرف بالتأمل من الذى نتحدث إليه ، وما الذى سنتحدث فيه أو نطلبه أو نسأل عنه ، أو نقبله ، .. إننا لم نسمع البتة عن فيلو ، ولكننا مع ذلك ننتمى إلى مدرسته الفارغة .. والمسيح يسوع

يصبح لنا لذلك اسما — ولكنه مجرد تصور — واسماً مقدساً ، ولكنه لا يزيد عن التصور ، .. وهو سيبقى اسماً لنا إذا لم يحرك نفوسنا أو يثير رهبتنا أو يعمق فرحنا !! .. غير أننا إذا كنا رجال تأمل ، يتغير كل شيء ، فالمسيح يسوع ، والعهد الجديد الذى يتحدث عنه ، وأورشليم الجديدة التى ذهب ليعدها لنا ، تصبح جميعاً حقيقة الحقائق ، ويصبح السيد لنا أعز وأوفى الأصدقاء ، والمدينة أعظم وأصدق من ذات المدينة التى نعيش فيها ، وما نقرأ فى كلمة الله عما فعل يسوع أوقال، وعما لايزال يفعل إلى اليوم،ويقول،أكثر صدقاً إلى الأبد ، مما نقرأ فى كل صحفنا الصباحية ، والتقارير التى ترفع إلينا،.. وأما ما يطلق عليه التحصيل العلمى وامتيازاته أوما قيل فى وصف يوحنا وزملائه من أنهم رجال عاميون ، ومحدودو المعرفة والعلم ، فلنذكر أن هذا الرسول كان يحمل فى ذهنه كل الانجيل الرابع ،ومن يقرأ هذا الانجيل العجيب ، دون التأمل فى أعماق حقائقه ، فإنه سيخرج خائباً خاوياً ، حتى ولو كان أعلم العلماء ، أما من يقرأه بالتأمل المتعمق، والدراسة الكافية ، فإنه سيشترك مع يوحنا نفسه فى القول : « الذى رأيناه وسمعناه نخبركم به لكى يكون لكم أيضاً شركة معنا . وأما شركتنا نحن فهى مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح » (١ يو ١ : ٣) ..

تعود الفنانون والرسامون والشعراء والكتاب ، أن يصوروا يوحنا حلو القسمات ، حالم الوجه ، بعيد النظرة ، محلق التفكير ، ولعل هذا هو الذى جعلهم يربطون بينه وبين النسر ، وبين الانجيل الرابع وملك الجو الذى يضرب بجناحيه القويتين فى الفضاء المتسامى البعيد . لكن يوحنا مع ذلك كان شيئاً آخر يخشى أن تضيع معالمه وراء هذا التصور الحلو الرقيق الحالم ، ونعنى به يوحنا الثائر العنيف المزبد « ابن الرعد » ، .. لم يكن يوحنا كما تصوره البعض أقرب إلى الطباع الأنثوية ، فإذا قورن ببطرس فإن هـــذا

الأخير عنيف شديد خشن سريع الكلام ، على العكس من يوحنا الذى كان أكثر تأنياً وأقل كلاماً ، وهو لا يملك الشجاعة التى تواجه المسيح بما تطلب أو تريد ، ، وهو يستتر وراء أمه عندما يطلب مركزاً دون التكلم بالصراحة اللازمة .. وهو يكتب فائضاً بالمحبة فى كل كتاباته .. ومع أن هذا كله حقيقى وصادق إلا أننا نتفق مع دكتور جويت فى قوله : « كلما أتقدم فى خدمتى كلما أرى صورة مغايرة لما تخيلت عن يوحنا الرسول ، إن يوحنا الذى رسمه المصورون يختلف كثيراً عن يوحنا الذى يظهر لى ، فيوحنا كما ألف الفن تصويره ، يبدو بلون غضون أو تجاعيد ، أو مظهر يدل على الاهتمام ، أو أثر يتحدث عن العاطفة ، .. لقد أعطانا الفنانون بطرساً مغضن الوجه ، ويوحنا ناعم الملمس ، ولكنى لا أستطيع أن أسمع الرجل يقول للسيد أمام قرية للسامريين : « يارب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً » (لو ٩ : ٥٤) دون أن أتساءل : هل هذا هو يوحنا !! ؟ وهل هذه هى طبيعة الرجل !! ؟ ولا أقصد بذلك أن أقول إن الفنان لم يعطنى الصورة الصحيحة عن يوحنا ، .. يوحنا الذى احتضنه يسوع المسيح ، إذ لا شك أن الفنان وهو يرسمه بشخصيته الرقيقة الوادعة الحالمة البعيدة النظر ، كان يقترب من الحقيقة ، ولابد أن يكون الغموض والخفاء بعض ملامحه ، ولابد أن يرتسم على وجهه الكثير من الوداعة والرقة واللطف ، التى يمكن أن نكشف ازاءها جراحنا الدامية وقلوبنا المكسورة ، ولكن هذا اللطف لا يمكن أن يكون أنثويا ، إذ ينبغى أن يكون قوياً ممتلئاً بالرجولة ، لا يستطيع الثرثار أن يهزأ به ، إلا إذا قصد أن يلعب بالنار ، .. لأن يوحنا الذى كان نوراً ، كان أيضاً برقاً ، إذ هو الشخص الذى دعاه يسوع مع أخيه « بوانرجس » أى « ابنى الرعد » !! ..

لقد سبق الحديث فى شخصية يعقوب عن هذه الخلة والصفة ، بما لا نحتاج معه هنا إلى تكرار ، كما سبق الحديث عن دور الطموح الذى كان له ولأخيه ، ويحسن الرجوع إليهما هناك ، إنما يكفى أن نشير إلى الغيرة الملتهبة التى كانت تملأ قلبه ، والتى لازمته طوال حياته ، لقد ذكر ايريناوس أن يوحنا دخل ذات مرة إلى حمام فى أفسس ليستحم ، وهناك رأى رجلا مهرطقاً اسمه سيرانتوس كان معروفاً بنكرانه للاهوت المسيح ، فما كان من يوحنا إلا أن قفز من المكان وأسرع خارجاً من الباب ، لأنه لا يحتمل أن يضمه سقف واحد مع عدو للمسيح ، .. وقد ذكر جيروم أن أساقفة الكنيسة فى أفسس طلبوا من الرسول أن يكتب رداً على هرطقة سيرانتوس ، وعقيـــدة الأبيونيين التى تقوم مزاعمها على أن المسيح لم يكن له وجود قبل ولادته من مريم ، كما أن عليه أن يكمل ما جاء فى الأناجيل الثلاثة ، من الروايات المتعلقة بالمسيح والتى لم تذكر فى هذه الأناجيل !! ..

يوحنـــا وحضن المحبة :

« وكان متكئاً فى حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه » .. وأى دليل أبلغ من هذا عن رابطة المحبة التى ربطت بين يوحنا الحبيب ويسوع المسيح سيده ، .. ولكنى مع ذلك ، وأنا أتوقف أمام هذه المحبة لتحليلها أجدنى أشهد عجباً إذ هى أولا وقبل شيء المحبة المميزة !! .. كيف لا وأنا أعلم أن محبة المسيح شاملة تمتد إلى جميع المخلوقات والأحياء ، فليس هناك مخلوق لم تصل إليه محبة المسيح ، .. وليس هناك حى ، لم يتمتع يوماً ما بهذه المحبة ، .. لقد أحب المسيح الحيوان الرابض فى أعماق البحار ، والظبى الذى يسعى فى الفلاة الموحشة ، وفراخ الغربان التى تنعب وتتردد فى أعشاشها البعيدة ، .. وقد امتدت محبة المسيح إلى الطفل المنبوذ ، والشاب الشارد ، والفتاة المنحدرة ، .. إنها المحبة التى ترسل شعاع نورها إلى الجميع ، كما

ترسل الشمس المشرقة فى كل صباح ، أو تخفق بنسماتها فوق الكل ، كما يهب النسيم العليل فى سائر الأرجاء !! .. أو ترسل السماء ماءها المروى يتدفق من ينبوع إحسانه وجوده ، فكيف يمكن بعد ذلك أن يقول : «كان يسوع يحبه » .. بل إنها أكثر من ذلك هى المحبة التى لا تتوقف عند من يكرهه الناس لهذا السبب أو ذاك من صورة أو شكل أو أخلاق أو طباع أوما أشبه!!. قال أحدهم : إنها بطولة أن تحب توماس كارليل » .. لكن المسيح يحب كارليل وغير كارليل ، وهو صديق من لا صديق له » ، . . إنه صديق المنبوذ والتعس والمكروه والضائع والضال » .. فلماذا يطلق على يوحنا « الذى كان يسوع يحبه » !! .. ولماذا هو وحده بين التلاميذ يأخذ المكان المفضل إذ يتكىء على صدره !! .. لقد اختار المسيح تلاميذه وجعلهم دوائر متعددة ، فهناك السبعون تلميذاً ، وهناك الاثنا عشر ، وهناك من الاثنى عشر دائرة أضيق ، دائرة الثلاثة ، وهناك بين الثلاثة هذا الواحد الذى قيل عنه : « كان يسوع يحبه » .. فلماذا أحبه يسوع !! .. هل لأنه كان أصغر تلميذ !!؟ وقد سئلت إمرأة عربية : أى أولادك أحب إليك ، فأجابت : الصغير حتى يكبر ، والمسافر حتى يجىء ، والمريض حتى يصح !! .. فهل كان الأمر بالنسبة ليوحنا أصغر الجميع ، وأحوجهم إلى السيد أو لأنه كان أكثرهم تفهماً به ، أو تجاوباً معه ، أو يرجع الأمر لسبب آخر نجهله !! ؟ قد يكون هذا السبب أو غيره هو الدافع لحب المسيح الأعمق ليوحنا ، لكننا هنا أمام حكمة أو نعمة الاختيار كما يقول اسبرجن ، فإذا كان قد أعطى بطرس أن يكون شجاعاً، وغيره أن يكون حكيماً، فإنه أعطى يوحنا أن يكون محباً ومحبوباً ، وهذه نعمته العظمى المباركة فى حياته بين الناس !! ..

لم تعط هذه المحبة عبثاً وبغير هدف ، بل كانت فى الواقع المحبة المهذبة المصلحة لابن الرعد ، الذى تكشف عن ضعفات كثيرة متعددة ، ففضلا

عن أن روحه كانت نارية ملتهبة تؤثر الانتقام وتسعى إليه ، كما ظهر فى طلبه النـار ليهلك قرية سامرية ، وكما ظهر فى رغبته الأنانية فى أن يمنع شخصاً يخرج شياطين باسم المسيح ، وكما ظهر فى طموحه أن يجلس مع أخيه على أفضل الكراسى ، .. غير أن الرب أمسك به وأدار اتجاه عاطفته ، وحول نهارها إلى نورها ، وتدميرها المحرق إلى لهب المحبة ، وكما قلنا فى الحديث عن يعقوب إنه لم يغير طبيعة الالتهاب ، بل حولها ووجهها للخدمة الصالحة. وأليس غريباً أن هذا الذى طلب ناراً لتهلك قرية السامريين ، كان فيما بعد من أول الرسل الساعين للمناداة للسامريين بالخلاص ، فإذا ذهب فيلبس إلى السامرة وبشرها ، ما أن سمع الرسل الذين فى أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله حتى أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكى يقبلوا الروح القدس ، وهذا الذى كان لا يعنى بنفسه ، يروى عنه أكليمندس السكندرى ، أنه أحب شاباً ورعاه بعناية فائقة حتى ضمه إلى الكنيسة ، ولكنه وقد ترك أفسس فترة من الزمن ، تباعد الشاب عن الحياة الروحية ، وضل ، وأوغل فى الفساد حتى أصبح زعيما للصوص. وإذ عاد الرسول وسمع بقصته المحزنة سعى إليه فى الجبال ، وإذ أبصرته العصابة قبضت عليه ، فطلب رؤية زعيمهم ، وما أن رآه الشاب حتى ولى مذعوراً ، فصاح الرسول : لماذا تهرب ؟. وناداه فى رنين حلو بالاسم المجيد أن يقف ، فوقف ، وبكى إذ أسره الاسم المبارك ، .. هذا هو يوحنا الذى نسى نفسه بحثاً عن الآخرين .. وهى المحبة التى توجه وتغير وتصنع وتهذب ، وهى التى تبصر العصارة الحلوة فى الثمرة الفجة ، والزهرة العبقة فى البذرة اليابسة !! ..

كان يوحنا مغبوطاً أكثر من ذلك لأنه التلميذ الذى اتكأ فى حضن يسوع ، وكان أقرب الناس إلى حرارة حبه ونبض قلبه ولم تكن ثمة

مسافة فاصلة بينهما على الاطلاق . كانت عظمة أخنوخ أنه سار مع الله كما يسير الصديق مع صديقه ، وجاء ابراهيم ليستمتع باللقاء مع الله ، والاقتراب إليه، وضيافته ، وتكلم موسى مع الله كما يكلم الرجل صاحبه وجهاً لوجه... لكن أعظم صورة للدنو والاقتراب والالتصاق ، كانت ليوحنا الذى اتكأ على صدره ، وإذا كان ثمة درس يمكن أن تعطيه هذه الحقيقة ، فهو أن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يقف على بعد من الله ، ، مهما تكن المسافة قصيرة بينهما ، لقد جاء المسيح لا ليقصر المسافة بين الله والانسان ، بل ليلغيها تماماً ، حتى يستشعر المؤمن دفء الصدر الإلهى ، ونبض المحبة الأبدية عند الله !! .. ومن المؤسف أنه بعد هذا كله ، يعيش الذهن البشرى فى البحث عن الوساطة أو الشفاعة التى تقربه من يسوع المسيح !! .. ولعل هذا الخيال يبدو فى قصة الكوميديا الإلهية الرائعة التى تعد من أبدع ما سطر الإنسان فى الأدب الدينى فى كل التاريخ ، لكن دانتى ، وهو الرجل الواسع الذهن ، لم يستطع التحرر من فكرة المطهر الذى يسبق السماء ، الأمر الذى ما يزال يطوف بذهن البعض إلى اليوم !! .. وعندما صرخ دانتى فى طلب الخلاص ، سمعت بياتريس صرخته ، فهرعت تتوسل إلى إحدى القديسات التى هرعت بدورها إلى العذراء متشفعة فيه ، .. ولكن دانتى لم يكن فى حاجة إلى هذا كله ، إذ أن المسيح سمح للانسان فى يوحنا أن يتكىء على صدره !! ..

فإذا تحولنا إلى نظرة أخرى فإننا يمكن أن نرى هنا المحبة الواثقة ، وقد ظهرت ثقة المسيح فيه فى أمرين عظيمين ، لقد عهد إليه بأمه مريم العذراء دون الجميع ، وضمها يوحنا إلى خاصته ، ورعاها كأوفى ما تكون الرعاية ، وقد قيل إنها عاشت معه فى أورشليم لمدة اثنى عشر عاماً ، .. كما أنه عهد إليه بسفر الرؤيا إعلاناً عظيماً من الله للكنيسة المتألمة !! . .

يوحنا ورسالة المحبة :

إذا كان ما سبق ذكره يكشف عن امتيازات المحبة وأثرها فى حياة يوحنا ، فإنه من المناسب أن نعلم مسئوليات يوحنا ورسالته تجاه هذه المحبة العظيمة !! ..

لقد أخرجت هذه المحبة أولا وقبل كل شىء يوحنا من رغبة الظهور إلى حب الاختفاء ، ومن السعى وراء المقعد الأول إلى السعى إلى المقعد الأخير ، لقد تعلم أن المحبة لا تطلب ما لنفسها . وأنت إذ تقرأ انجيله والرسائل الثلاث التى كتبها ، لا يمكن أن تجد اسمه فيها هناك ، .. وعندما استهل سفر الرؤيا بذكر اسمه ، وكان هو الرسول الوحيد الباقى من الاثنى عشر ، وقد تجاوز التسعين من عمره واقترب من المائة ، لم يصف نفسه بلقب رئيس أو سيد ، بل قال فى رؤياه العظيمة للكنيسة : « أنا يوحنا أخوكم وشريككم فى الضيقة وفى ملكوت يسوع المسيح وصبره » (رؤ ١ : ٩) .. وهو يضع النموذج الأسمى والأعلى لقادة الكنيسة فى كل التاريخ ، فإذا كان يوحنا المعمدان قد بدأ رسالته بالقول : « ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص » .. فإن يوحنا الحبيب يمتد إلى ما هو أكثر ، كما لو أنه يقول : ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أختفى . وهذا حق ، فلا يجوز لبشرى مهما تكن عظمته وشأنه ، أن يتميز على أخوة المسيح ، ويأخذ مكاناً منفرداً أو متعالياً أو يمكن أن يحجب النظر أو يضعفه عن رؤية يسوع وحده ، .. وكما عاد موسى وإيليا إلى السماء ، ولم يعد التلاميذ يرون أحداً إلا يسوع وحده ، .. فهكذا ينبغى أن تكون كنيسة المسيح بقادتها ورعاياها ، أخوة وشركاء فى الضيق أو المجد على حد سواء !! .. كما أن خدمته ، كانت لحمتها وسداها المحبة ، لقد عاش يوحنا يعزف لحن المحبة ، رافعاً قيثارته ، ليغنى أعظم أغنية تسمعها الأرض : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به

بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) .. « بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس . كل من لا يفعل البر فليس من الله وكذا من لا يحب أخاه . لأن هذا هو الخبر الذى سمعتموه من البدء أن يحب بعضنا بعضاً . ليس كما كان قايين من الشرير وذبح أخاه . ولماذا ذبحه . لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة » (١ يو٣ : ١٠ – ١٢) . لا تتعجبوا يا إخوتى إن كان العالم يبغضكم . نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة . من لا يحب أخاه يبقى فى الموت . كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس . وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (١ يو ٣:١٣–١٥) « بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغى أن نضع نفوسنا لأجل الاخوة » (١ يو ٣ : ١٦) « يا أولادى لا نحب بالكلام واللسان بل بالعمل والحق» (١يو٣:١٨) « وهذه هى وصيته أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح ونحب بعضنا بعضاً كما أعطانا وصيته » (١ يو ٣ : ٢٣) .. « أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هى من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله . ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة » (١ يو ٤ : ٧و ٨) « والآن أطلب منك ياكيرية لا كأنى أكتب إليك وصية جديدة بل التى كانت عندنا من البدء أن يحب بعضنا بعضاً . وهذه هى المحبة أن تسلك بحسب وصاياه » (٢ يو ٥و ٦) .. « الشيخ إلى غايس الحبيب الذى أنا أحبه بالحق» (٣ يو ١) .. وفى سفر الرؤيا إذ كان هناك ما يؤلم من ملاك كنيسة أفسس : « لكن عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى » (رؤ ٢ : ٣) .. أجل كان يوحنا على حق ، فالمحبة هى كل شيء ، ومن ثم جاء أوغسطينوس فيما بعد ليقول : « أحبب وافعل بعد ذلك ما تشاء » .. وفى تقليد قديم أن الرجل وقد وهن من الشيخوخة ، كانوا يحملونه حملا ليقول عبارة واحدة : أيها الأولاد أحبوا بعضكم بعضاً !! .. وإذ ضاق بعض الشباب ، وقالوا له ألا يمكن أن تقول شيئاً آخر !! .. أجاب : إنها وصية الرب !! ..

كانت المحبة فى الواقع مجد يوحنا وفخره ، والتاريخ يحمل إلينا الرجل وهو فى ضجعة الموت يسمع تلاميذه وأحباءه يبكون الرجل العظيم ، ويقولون !! الرسول !! .. فقال .. ماذا تقولون .. الرسول : لا يا أولادى بل حبيب يسوع ومحبه !! .. أجل وهذا حق ، إذ ليس هنا لك ما يمكن أن نفخر به على هذه الأرض غير محبتنا ليسوع المسيح ، ومحبة المسيح لنا .. قال صموئيل رزفورد تخيل نفسك فى لحظة الموت ، واسأل بماذا تفخر !! ؟ .. هل تفخر بالجاه أو النفوذ أو المال أو السلطان !! .. إن أعظم فخر فى الحياة هو الفخر بالعلاقة العميقة المحبة بيسوع المسيح !! ..

عاش يوحنا ليبقى آخر الاثنى عشر ، ولست أعلم هل كان سعيداً أن يكون آخر الركب فى موكب الرسل العظيم ، .. الذى أعلمه أن بولس اشتهى أن ينطلق ليكون مع المسيح ، ذاك أفضل جداً ، ولم يلزمه بالبقاء فى الأرض سوى الرسالة التى كان عليه أن يؤديها ويقوم بها إلى النفس الأخير ، .. فيوحنا هو الرجل الذى خرج برؤياه الخالدة على مواكب التاريخ ، ورأى فى بطمس المدينة المقدسة بعد سقوط بابل العظيمة . ويكفى أنه صرخ فى ختام رؤياه : « يقول الشاهد بهذا نعم . أنا آتى سريعاً . آمين . تعال أيها الرب يسوع نعمة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم آمين » ..

٨٩
يعقوب بن حلفى

« يعقوب بن حلفى ولباوس الملقب تداوس »
(مت ١٠ : ٣)

وقف توماس جراى الشاعر الانجليزى ، وعيناه مبللتان بالدموع ، وهو ينظر إلى الموتى الراقدين فى مقبرة فى إحدى الكنائس وقال : « كم فى هذا المكان المهجور من كانت قلوبهم ممتلئة فى يوم من الأيام بنار سماوية !! ؟ وأياد ينحى أمامها صولجان الامبراطورية !! .. أو يستيقظ من أجلها القيثار بأعذب الأنغام !! ؟ كم من جواهر تلمع ولكن فى ظلمات المحيط !! ؟ وكم من زهرة ترسل عبيرها ولكن فى قلب الصحراء !! ؟ .. أجل هذا انسان وقف يبكى رجالا من أعظم من عرفتهم الأرض ، ولكنهم طووا وغيبوا فى ظلمات القبر ، دون أن يعلم الناس من قصتهم سوى أنهم ذهبوا لسبيلهم مع الزمان ، .. وإذا أمكن أن يكتب على قبورهم كلمات ، فإنها الكلمات التى تكتب على قبر الجنود المجهولين : « معروف لله وحده » .

كان يعقوب بن حلفى واحداً من الاثنى عشر ، .. ولكنك لا تكاد تعرف عنه شيئاً ما خلا اسمه ، أو بعض ما يمكن أن يثار عنه استنتاجاً من الكتاب أو بعض روايات التقاليد ، .. ومع ذلك فإن هذا الجندى المجهول سيكون موضع تأملنا وملاحظاتنا ، ولن نتجنب جادة الصواب ، إذا كنا نستنتج عنه الحقائق العامة التى لا تخرج عن رسالة المسيح فيمن اختارهم ليقودوا الحركة المسيحية ، وهى تشق طريقها إلى الخليقه كلها ! ! .. ولذا يحسن أن نراه فيما يلى :

يعقوب بن حلفى والدعوة للرسالة :

لسنا نعلم بالضبط من هو يعقوب بن حلفى ، إذ لسنا نعرف أكثر من أنه واحد من تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، وبخاصة أن الاسم يعقوب من الأسماء الشائعة عند اليهود ، وهناك أكثر من يعقوب قد يختلط الأمر فى تحديد شخصياتهم ، فهناك من ربط شخصيته بيعقوب أخى الرب ، باعتبار أن هذا الأخير قد دعى كذلك وهو ابن خالة المسيح ، كيوحنا ويعقوب بن زبدى ، ولكن هذا الرأى غير مقبول إذ من الثابت أن إخوة المسيح لم يؤمنوا به إلا بعد قيامته ، وليس من المستطاع — مهما كان تصور هذه الاخوة — أن يكون واحد منهم تلميذاً وهو لا يؤمن بيسوع المسيح، .. وهناك من اعتقد أن يعقوب بن حلفى هو أخو لاوى بن حلفى أو متى العشار ، باعتبار أن متى بن حلفى هو أخو يعقوب بن حلفى ، وحيث أن الأول كان عشاراً مرتداً عن الإيمان اليهودى ، فلابد فى تصورهم أن العلاقة بين متى ويعقوب كانت متوترة ، وأن يعقوب كان ضد أخيه المرتد عن الإيمان والذى يعيش مستنداً إلى القوة الرومانية وحرابها ، .. وهناك من اعتقد أنه دعى يعقوب الصغير وأن أمه مريم ، تمييزاً له عن يعقوب الكبير الذى هو فى رأيهم يعقوب بن زبدى ، وقد جاء هذا استناداً إلى قول مرقس يوم

الصليب : « وكانت أيضاً نساء ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة » (مر ١٥ : ٤٠).. ومهما يكن التصور فيه ، إلا أنه واحد من الاثنى عشر ، وهؤلاء الاثنا عشر لم يخرج من بينهم إلا يهوذا الاسخريوطى الذى خان الرسالة أو بالحرى أداها على أبشع صورة يمكن أن يتصورها الخيال البشرى ، .. وأما البقية فإنهم أعطوا الفرصة التى لم تعط لغيرهم من الجنس البشرى ، فإذا كانت الأمة الإسرائيلية تفخر بالاثنى عشر من أبناء يعقوب آباء أسباطها الاثنى عشر ، ونسلها الممتد الكبير ، .. فإن هذا الفخر لا يعد شيئاً بالنسبة للاثنى عشر رسولا الذين جعلهم المسيح النواة الصحيحة للكنيسة العظيمة التى مدت شعابها بين كل الأجناس ، وفى كل التاريخ ، والتى لن تسقط أبداً ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، ومع أن هؤلاء التلاميذ صبغوا الكنيسة بعرقهم وجهادهم ودمهم ، .. إلا أنهم كانوا ولاشك من أعظم المحظوظين فى الأرض ، لأن الله عندما وزع أنصبة الناس ، أعطاهم أوفى نصيب يمكن أن يعطى لانسان بشرى ، وآخر واحد فيهم ، والأصغر بينهم يقف فى الطليعة وفى المقدمة بين مواكب البشر فى كل جيل وعصر !! ..

وكل رسالة أخرى يمكن أن تحسب عدما إزاء رسالتهم التى مجدهم بها يسوع المسيح !! .. أجل ويكفى أن يعقوب بن حلفى كان واحداً من الرسل الاثنى عشر . ... وإلا فهل يمكن أن تحدثنى عن رسالة أنقى وأقدس من هذه الرسالة ، أليست هى الرسالة التى عادت إلى الخط المستقيم الذى انحرف عنه الإنسان الذى أخرجته الخطية من جنة عدن ، وسار فى السبيل الملتوى فى الأرض ، يفكر أول ما يفكر أن يبنى برجاً رأسه فى السماء حتى لا ينقطع اسمه . ويبقى مشهوراً ذائع الصيت ، يتحدى بشهرته الحياة والموت على حد سواء ؟.. وكم يعيش الناس ، ويقضون قصتهم الأرضية فى الطريق التائه

بحثاً عن الشهرة التى تلمع فى خيالهم ، كما يفعل فى العادة نجوم السينما أو كواكبها كما يقولون .. وكم يسير الركب المجهد من بنى البشر بحثاً عن هذه الأضواء التى هى أشبه الكل بالبرق الخاطف ، الذى يلمع فى الفضاء قليلا ، ثم يختفى فى الظلام كالشهب المحترقة !! .. وكم من الناس من لا يلتفت إلى شهرة ، ولكنه يبحث عن المال دون أن يهدأ أو يستريح حتى يسقط صريعا آخر الأمر ، ولا يأخذ معه من المادة شيئاً إذ أن ثوب الكفن لا جيوب له ، .. وكم يصارع الناس ويقاتلون ، وتتماوج العصور بالحروب التى لا تنتهى ، والدماء التى لا تقف ، بحثاً عن المال ، وقد جن به الانسان واستولى عليه السعار .. مسكين الانسان حقاً ، ، وقد أخطأ المسار دون رغبة فى عودة أو هوادة فى سير ، وهو يندفع إلى الهاوية الأبدية دون توقف ، .. لكننا نرى أناساً شاء المسيح فى رحمته الأبدية ، أن ينتشلهم ، ويحولهم إلى الطريق الصحيح ، وصغيرهم أعظم من أى كبير فى الأرض ، .. وتراب أقلهم أثمن من تبر الملوك وجواهر العظماء بين الناس !! .. لست أعلم ما هو الشىء الذى يمكن أن يأخذه الانسان من متاع الأرض ، ويدانى اللقب الذى يطلق عليه « كمسيحى » .. فإذا كان مجدى الحقيقى يرتبط بهذه النسبة الصحيحة ليسوع المسيح ، وإذا كانت ياء النسب تدمجنى فى شخص المسيح ، بكل ما فى كلمة المسيح من جلال ومعنى ، فما هو الشىء الذى يدانى لفظ « مسيحى » فى الأرض ، .. فإذا كان هذا واقعاً حقيقياً صحيحاً ، فكم بالأولى أن يقفز المسيحى إلى الصف الأول ويصبح واحداً من الاثنى عشر فى أول صف فى التاريخ المسيحى ، .. لست أظن أننا فى حاجة إلى الانتظار إلى نهاية الدهر لندرك هذه الحقيقة ، ولسنا فى حاجة إلى الصبر حتى ننفذ إلى ما وراء المنظور لنرى الانقلاب الأعظم فى الحياة ، حتى يمكن أن نرى لعازر المسكين المضروب بالقروح عند بيت الغنى ، وقد تغير وضعه ووضع

الآخر ، وانعكست الآية بالتمام كما لابد أن تنعكس ونحن نتابع قصة المؤمن وغير المؤمن ، .. لسنا فى حاجة إلى مثل هذا الزمن لنرى هذا التغير والانقلاب ، .. قال الرسول يوحنا فى ختام رؤياه وهو يتحدث عن المدينة المقدسة : « لأن خارجاً الكلاب والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً » (رؤ ٢٢ : ١٥) .. ان مجرد دعوة يعقوب بن حلفى ليأخذ مكانه بين الاثنى عشر ، تحمل من المعانى ما تعجز كتب كثيرة عن استيعابها !! ..

يعقوب بن حلفى وخدمته الصحيحة :

وأية خدمة هذه التى قام بها يعقوب بن حلفى ؟ إنها أولا وقبل كل شىء ، كانت خدمة يسوع المسيح ، ومهما كان نوع هذه الخدمة ، ومهما كانت درجتها ، فيكفى أنها خدمة المسيح ، .. قال أحدهم عندما أراد أفلاطون أن يخلد اسمه كتب « الجمهورية » وسائر كتب الفلسفة التى حفظت اسمه فى كل العصور ، .. وعندما أراد دانتى أن يخلد اسمه مع الأجيال كتب « الكوميديا الإلهية » . وعندما أراد ملتون أن يذكر اسمه إلى الأبد كتب « الفردوس المفقود والمردود » ، .. لكن من العجيب أن المسيح لم يكتب بشخصه كتاباً واحداً !! .. لكن كل واحد من تلاميذه أضحى بذاته كتاباً مفتوحاً أمام الناس ، .. كان يعقوب بن حلفى واحداً من هذه الكتب التى نشرها المسيح وأرسلها أوراقاً لتضم إلى سفر الحياة الذى سيفتح فى اليوم الأخير ، .. وكل الكتب ستطوى عندما تنتهى الرحلة الأرضية ، ولن يضاف إليها سطور أخرى لكن من العجيب أنه وان مات يتكلم بعد ، .. وأن الناس يعودون بين الحين والآخر ليقرأوا الصفحات المطوية ، ويأخذوا منها دروس الحياة . وقد قيل إنها عظات اسبرجن المكتوبة والتى نشرت بعد موته ، جاءت

بالكثيرين إلى يسوع المسيح ، لأن هذا الواعظ الكبير كغيره من المؤمنين ، تحول بعد موته إلى صفحات فى كتاب المسيح المنشور بين الناس !! ..

ولقد كتب يعقوب بن حلفى فى كتاب المسيح سطوراً لا يمكن أن تمحى مع الزمن أو تنتهى مع التاريخ ، .. ولقد كتب هذه السطور أولا وقبل كل شىء بحياته ، التى تمثلت بيسوع المسيح ،.. كان واحد من المرسلين يتحدث فى وسط جماعة من المتوحشين عن جمال المسيح الفائق ورحمته وحنانه وسموه وجوده ، .. وإذا بأحدهم يقول للمرسل : لقد مر هنا من ثلاث سنوات هذا المسيح الذى تقول عنه ، .. فقال المرسل وكيف ؟ أجاب : إنه رجل مر من هنا من ثلاث سنوات فيه كل ما ذكرت من هذه الصفات .. لست واحداً من الاثنى عشر فقد شاء ركب المسيح أن آتى بعد ما يقرب من ألفى عام من تاريخهم القديم ، .. ولكن يمكن أن أكون واحداً منهم بنوع الحياة التى أعيشها فى جيلى وعصرى، إلى أن يكمل الموكب كله ،.. لأن القرون تتغير ، ولكن تلاميذ المسيح الذين أخذوا روحه ، وعاشوا فكره ومبدأه ورسالته هم واحد فى كل العصور والأزمان .. على أن يعقوب بن حلفى لم يكن مجرد حياة صامتة ساكنة غير متحركة، بل كان رسولا مملوءاً بروح المسيح ونشيطاً وغيوراً فى خدمة سيده ، وما من شك فى أنه جال هنا وهناك وهو يشهد للسيد حتى ختم شهادته بدمه فى آخر الأمر ،.. قد تستطيع أن تصف تلاميذ المسيح بأنهم عاميون ، وفقراء ، وبسطاء ، ومحدودو الحظوظ مما يملك الناس من متاع أو مادة ،.. لكنك لا يمكن أن تصفهم قط بأنهم كانوا فى المؤخرة فى الشجاعة والصلابة والأمانة والالتهاب والغيرة على مجد يسوع المسيح !!.. تحولوا فى كل مكان ذهبوا إليه إلى قصة تروى وحديث يتناقله الركبان فى كل مكان ، .. لقد كانوا مكروهين ومضطهدين ، لأنهم أضحوا احتجاجاً صارخاً ضد الفساد والشر والموبقات والاثم والضلال فى الأرض ، ولقد

ثبتوا فى شجاعة الأسود ، ووداعة الحملان حتى اكتسبوا إعجاب أشد خصومهم قسوة ، وهم ينادون برسالة المسيح !! ..

على أن قصة يعقوب بن حلفى تعطينا من الملامح الأخرى ما ينبغى ألا نجهله ، إنه لا يظهر أبداً منفرداً ، بل يضم اسمه إلى أسماء التلاميذ الآخرين ، ولم يظهر اسم رسول منفرداً أو بعيداً عن اخوته أو مستقلا عنهم تمام الاستقلال ، .. لا شبهة فى أن لكل واحد منهم عملا متميزاً خاصاً ، .. ولكنهم فى مجموعهم كانوا عمالا يشتغلون فى عمل واحد يساعد أحدهم الآخر ، وتستطيع أن تراهم كقادة فى جيش أو جنود فى معركة ، .. والقتال محتدم محموم ، وكل منهم يواجه المعركة بشجاعة وثبات وقوة مذهلة ، لكنهم مع ذلك ، يساند كل واحد أخاه ، ويقف معه على خط القتال دون تراجع أو تقهقر ، وهذه ميزة المسيحية ، وهذا مجد خدامها . لقد أرسل المسيح تلاميذه اثنين اثنين للتشجيع والتكميل والتقوية والتساند والتآزر ، فالحصاد كثير والفعلة قليلون ، والحصاد يحتاج إلى أكبر عدد من الحصادين المتعاونين المتكاتفين !! .. يوماً ما رأى برنابا أن العمل فى أنطاكية أكثر منه فاستدعى بولس ، وأرسل يوحنا ويسلى إلى جورج هوايتفيلد يقول له : « ليس معى سوى شخص واحد إلى أن يلهب الله قلوب بعض الخدام فيأتون للمعاونة ، ولماذا لا تكون أنت يا جورج هذا الخادم المطلوب » ..

على أن الشيء المثير فى قصة يعقوب بن حلفى ، أو يعقوب الصغير إذا صح أنه هو ، وأنه أعطى هذا الاسم تمييزاً عن يعقوب بن زبدى الذى يظن أنه يعقوب الكبير ، أن ابن حلفى اختار المقعد الخلفى فى صفوف التلاميذ أو على الأقل اختار واحداً من المقاعد الخلفية فى هذه الصفوف ، .. وذلك لأنه خلا من الشائبة التى طالما لوثت ودمرت خدمة الكثيرين : حب الظهور والمباهاة والغرور . عندما رسم ليوناردفنشى صورة العشاء الربانى العظيمة ،

ورآها صديق له أبدى إعجابه العظيم بالكأس الظاهرة فى الصورة ، ولشدة دهشته ، وجد فرشاة الرسام المبدع تمحوها محوا ، وإذ ذهل لماذا يفعل هذا ، كان الجواب : أنه لا يسمح لأى جزء فى الصورة أن يلفت النظر ويبعده عن مركزها الأعظم الذى هو يسوع المسيح ! ! .. ذهب خادمان إلى كاتدرائية لنكولن العظيمة وأبصرا ما فيها من روائع الفن ، وقال أحدهما : هذه أعمال قام بها أناس لا يعرفهم سوى الله ! ! .. وما أكثر الذين ذهبوا بأعمالهم العميقة الخفية الصامتة وهم أشبه بالمرسل الذى بدأ العمل فى الخدمة ، وقال آخر : يبدو أن خدمتك لن يستطيع أن يتبينها الكثيرون ، فقال له : يكفى أن أكون الأساس المدفون فى الأرض ، ولكن يهمنى أن أظهر ، ولكن يهمنى أن مجد سيدى يظهر ! ! ..

يعقوب بن حلفى ومجده الأبدى :

ربما ليس من السهل أن نحدد بالضبط أين عمل يعقوب بن حلفى ، وإن كانت التقاليد تسهب فى ذكر خدمته ما بين بريطانيا وأيرلندا والشمال الغربى من أسبانيا ، ويقال إنه عمل فى فارس واستشهد هناك ، .. وأيا كانت الأمكنة التى خدم فيها ، . فإن مجده الصحيح أنه كان من الأبطال المؤسسين للكنيسة فى يسوع المسيح ! ! .. وأنه سيبقى واحداً من المختفين العظماء فى خدمة المسيح ! ! .. بين جزر الفلبين جزيرة اسمها بنايا ، وقد ذهب إليها المرسلون ليبشروا سكانها باسم المسيح ، وبعد تسعة أشهر تقدم من السكان ثلاثة عشر ألفاً يطلبون الانضمام إلى عضوية الكنيسة ، ودهش المرسلون وتساءلوا عن سر الإقبال العجيب بين السكان للاتيان إلى الله ، .. وبعد البحث عرفوا قصة مثيرة ، .. جاء رجل من خدام الله اسمه بدرا جوان إلى جزيرة بنايا منفياً ، ومعه الكتاب المقدس ، واكتسب الرجل محبة الأهلين وثقتهم ، وهو يعلمهم عن المسيح المخلص ، .. وقال لهم وهو فى ضجعة الموت :

سيأتى إليكم يوماً ما أناس أتقياء آخرون وسيعلمونكم باخلاص ومحبة عن المسيح ، ومات الرجل بعد أن بذر بذاره العظيمة ، وما أن جاء المرسلون حتى ظهرت هذه البذار وأثمرت ثمرها العجيب !! ..

تهتم التقاليد بموت يعقوب بن حلفى ، وهل مات فى فارس أو فى غيرها من البلاد ، .. لكنى لا أهتم كثيراً بأين استشهد الرجل ، وأين انتهت حياته الأرضية ، لأنى رأيت اسمه فى مكان أبهى وأعظم وأمجد بما لا يقاس ، لقد رأيت اسمه مكتوباً على سور المدينة الخالدة : « وسور المدينة كان له إثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الحمل الاثنى عشر » ..(رؤ٢١ : ١٤)

٩٠
يهوذا ليس الاسخريوطى

« قال له يهوذا ليس الاسخريوطى : ياسيد ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم » (يو ١ : ٢٢)

أطلق جيروم على يهوذا ليس الاسخريوطى ، يهوذا الثلاثى إذ كان له اسمان آخران « لباوس » و « تداوس » وهو أمر لم يكن بعيداً عن الذهن اليهودى الذى درج على أن يعطى الشخص الواحد أكثر من اسم ، فسمعان كان اسمه إلى جانب هذا الاسم « صفا » و « بطرس » .. ومع أن هناك أسباباً كثيرة قد تدعو إلى تغيير الاسم أو إضافة اسم آخر إلى الاسم القديم ، فابرام الأب المرتفع أضحى ابراهيم أبا الجماهير ، ويعقوب الذى تعقب أخاه ، أضحى إسرائيل المجاهد مع الله ، .. ومع أن يهوذا ليس الاسخريوطى لا نكاد نعرف عنه فى الكتاب المقدس سوى سؤال واحد ألقاه إلى السيد المسيح ، إلا أن الكتاب مع ذلك كان حريصاً على الفصل بينه وبين يهوذا آخر ، كما أعطانا أسماء الشهرة التى كان يلقب بها فى بعض الأوقات ، ومن التفرقة

بينه وبين الخائن ، ومن الأسماء التى كان يحملها ، ومن السؤال الذى ألقاه وجواب المسيح عليه يمكن أن نتأمل قصة الرجل الذى آثر مع يعقوب ابن حلفى ونثنائيل على أن يجلسوا فى الصفوف الخلفية ، إذ لا نكاد نعرف عنهم سوى لقائهم مع المسيح وبضع كلمات لا تعطينا سردا كاملا لقصتهم !!. ويحسن أن نتوقف مع ذلك من كل واحد منهم لنحلل شخصيته على حدة ، وما أكثر ما تفيض هذه الشخصيات بالكثير من الدروس والتأملات والعبر !! .. وها نحن نقف اليوم من يهوذا ليس الاسخريوطى ..

يهوذا والفرق بينه وبين الاسخريوطى :

كان لهذا الرجل كما ذكرنا ثلاثة أسماء ، فأول أسمائه يهوذا ، وهو اسم شائع جداً عند اليهود ، ومأخوذ من اسم يهوذا بن يعقوب ، الذى ولدته ليئة ، وأطلقت عليه « حمد » أو « شكر » تعبيراً عن شكرها لله الذى نظر إليها وهى مكروهة ومنبوذة ، وأعطاها تعويضاً فى أولادها ، ومنهم يهوذا ، الذى سيكون سبطه أعظم الأسباط ، ومنه سلسلة الملوك العظام ، ومنه المسيح مخلص العالم ، .. أما الكلمة « تداوس » فمن أصل عبرانى « ثاد » ويقال إنه يشير إلى ثدى الأم ، أو صدر الطفل ، والكلمة « لباوس » من معنى «لب » أو « قلب » ، .. وهذه الألفاظ جميعاً قد تقربنا من معنى الحياة عند هذا الرجل ، إذ هو الإنسان الطيب البرىء الملىء برحيق الحياة الحلوة السمحة ، .. والبعض يذكر أن الكلمة « لب » فى لباوس تشير إلى الشجاعة الكاملة ، التى كان عليها الرجل !! .. ومهما يكن من معانى الأسماء أو تصريفها ، فإن هناك شيئاً واضحاً وثابتاً ، ثبوت الجبال الرواسى ، إن هناك تلميذين من تلاميذ المسيح ، كانا يحملان معنى الحمد والشكر ، والاسم فى الأصل رجاء من الأبوين أو حلم لهما ، يطلقانه على الأبناء على أمل أن يصبح الابن اسما على مسمى ، .. وما أكثر ما يتحقق هذا الرجاء على صورة لم يكن يحلم

بها الأبوان على الإطلاق ، .. كما قد يتحقق العكس على خط مستقيم ، إلى الدرجة التى يمكن معها القول : « خير لهذا الرجل لو لم يولد » .. والكتاب عندما يضع أمامنا هذين التلميذين اللذين يحملان اسماً واحداً ، يضع التفرقة الحاسمة بينهما إلى الدرجة التى يقول فيها عن يهوذا الآخر : يهوذا ليس الاسخريوطى ، .. وهى تفرقة لم يكن من السهل تبينها فى أول الأمر ، فنحن نرى فى بدء الطريق تلميذين من الاثنى عشر ، لا نستطيع التفرقة بينهما كما لا نستطيع أن نفرق بين العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات ، .. وما أكثر الذين بدأوا الطريق كأروع ما يكون البدء ، وأجمل ما تكون الخطى الأولى المندفعة المتقدمة ، بل نحن لا نعلم لماذا خص المسيح يهوذا الاسخريوطى بأمانة الصندوق !! .. هل لأنه كان ذا مواهب ظاهرة متفوقة فى الشئون المالية وربما لا يصل إليها أو يبلغها يهوذا ليس الاسخريوطى ، .. أو فى لغة أخرى ، إن يهوذا الاسخريوطى تفوق على سميه فى أول الطريق وتقدم عليه !! .. أم أن الأمر يرجع إلى أن المسيح أراد أن يشجع فيه الثقة بالنفس ويؤكد له أنه على استعداد أن يبرزه كانسان ذى نفع بين أخوته الاثنى عشر ، أم أن المسيح يريد أن يكون كامل العدالة معه ، وهو لا يرغب أن يحاسبه على شيء لم يفعله بعد !! .. على أى حال ، ومهما كان السبب ، فإننا أمام تلميذين على قدم المساواة ، ولهما الفرص المتساوية وكان يمكن أن يقطعا الشوط إلى آخره بنجاح ، ولكن واحداً منهما خطا خطوات سريعة قبل الآخر ، ثم توقف أو انحرف ، وسار الثانى فى الطريق الصحيح إلى آخره بترنم ونجاح !! .. إنه شيء مثير وعجيب ومحذر فى الوقت نفسه !! .. وهو أشبه الكل — فى مثل الزارع — بالمزروع على الأماكن المحجرة والذى يسمع الكلمة بفرح ولكن ليس له أصل فى ذاته بل هو إلى حين فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر !! .. أجل! هنا يمكن أن نقول إن

يهوذا ليس الاسخريوطى ، كان الفرق بينه وبين الآخر ، أنه لم يجاهد جهاده الحسن فحسب ، بل أكثر من ذلك أكمل السعى وحفظ الايمان إلى النفس الأخير !! .. كما أن يهوذا ليس الاسخريوطى كان على النقيض من زميله ، فإذا كان الأول له براءة الأطفال ونقاوتهم وسلامة طويتهم ، فإن الآخر على العكس كان له رياء الشيطان وخبثه ومداراته ، وأين قبلة هذا من ذاك ، أين قبلة الصبى البرىء فى حضن أمه ، من قبلة الخائن الذى أسلم سيده بأبشع قبلة وضعها إنسان على خد آخر فى الأرض !! .. ولست أعلم هل بكى يهوذا ليس الاسخريوطى زميله الذى سار معه ثلاث سنوات كاملة ، ثم ضاع ضياعه الأبدى فى أوائل الطريق !! .. غير أنى أعلم أن بولس بكى أمثال الأسخريوطى : « لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أذكرهم أيضاً باكياً وهم أعداء صليب المسيح » !! (فى ٣ : ١٨) .. وأيا كان الأمر فمما لا شك فيه أن من أكبر مآسى الانسان أن يبدأ إثنان مع المسيح وينتهيا وقد فصلت بينهما الهوة الأبدية التى لا تعبر !! ..

يهوذا ليس الاسخريوطى وسر الحياة فى المسيح :

وقد أدرك يهوذا ليس الاسخريوطى أن الفارق بينه وبين الاسخريوطى الضائع ، يرجع إلى شىء واحد تبينه من الجواب الذى أجاب به المسيح على سؤاله عندما : « قال له يهوذا ليس الاسخريوطى يا سيد ماذا حدث حتى إنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم ؟ أجاب يسوع وقال له إن أحبنى أحد يحفظ كلامى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نصنع منزلا . الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى . والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم » (يو ١٤ : ٢٢-٢٦) ولقد عثر يهوذا فى هذا الكلام على سر الحياة فى المسيح ، .. ويبدو هذا السر

أولا فى أن العلاقة الروحية بالمسيح آسمى وأعمق بما لا يقاس من العلاقة الجسدية ، .. لقد عاش هو وصحبه من التلاميذ مع المسيح ثلاث سنوات أو ما يزيد قليلا ، .. وكان المسيح معهم يبهرهم بشخصه وتعاليمه ومعجزاته وعنايته ، وفجأة ألمح المسيح لهم بأنه سيتركهم . ويبدو أن أبرع وأدق تصوير لفهمهم لهذا الترك أنهم سيشبهون اليتامى ، واليتامى هم أولئك الصغار الضعفاء العاجزون الذين يتركهم أباؤهم للفراغ والضياع والوحدة والوحشة ، وليس أقسى على الإنسان ، أو أمر من أن يواجه الحياة مواجهة اليتيم لها ، وكان يمكن أن يكون التلاميذ هكذا ، لكن المسيح قال لهم « لا أتركـكم يتامى . إنى آتى إليكم » (يو١٤ : ١٨).. وقد بدا قوله أشبه باللغز المستعصى على الحل ، .. إذ كيف يتركهم ، ولايتركهم ، وكيف لا يراه العالم وأما هم فيرونه ، وكيف يموت ثم يحيا . وإذ هو حى ، فهم بالتبعية يحيون ، .. لقد دخل المسيح معهم إلى أعمق أسرار الحياة المسيحية ، إذ أنه سيستبدل العلاقة الجسدية التى تخضع للحواس وتلمس لمسا ماديا ، بعلاقة أكمل وأجمل وأقوى ، بعلاقة أبدية دائمة روحية فى داخل الانسان نفسه !! .. لقد كان بالجسد يعيش معهم ولـكنـــه بالروح يعيش فيهم فى داخلهم ، .. لقد كان بالجسد يظهر ثم يغيب ، ويقترب ثم يبعد ، لـكنه بالروح سيظهر لهم ظهوراً لا يمكن أن يعرفه العالم أو يراه ، إذ سيأتى إلى كل واحد منهم ويصنع هناك منزلا ويستقر فيه إلى الأبد ، .. لقد كانت مشكلتهم المستعصية ، وهو فى الجسد ، كيف يواجهون الحياة ، إذا غاب عنهم ، .. لقد صرف الجموع ذات مرة ، وأمر التلاميذ أن ينزلوا إلى السفينة ويسبقوه إلى العبر ، وكانت ليلة ليلاء عندما هاجت الزوابع ولعبت بالسفينة ، وتراقص الموت أمام أعينهم ، وكان غائباً عنهم ، إلى أن ظهر ماشياً على البحر ، وظنوه خيالا ومن الخوف صرخوا إلى أن قال لهم : « أنا هو لا تخافوا !! .. (مت١٤ : ٢٧) وإذا طلب بطرس أن يمشى مثله على

الماء ، دعاه وسار مثبتاً النظر فيه ، ولكنه عندما حول النظر كاد يغرق إلى أن أمسك به المسيح ، وهو يقول له : « يا قليل الإيمان لماذا شككت » (مت ١٤ : ٣١) .. وكان هذا الخيال يلعب بنفوسهم على الدوام ، .. ماذا يعملون وهم يركبون سفين الحياة فى غياب المسيح وبعده عنهم !! .. وفى مرة أخرى فاجأ المرض لعازر ، وكانت قسوة المرض ظاهرة ، وأرسلت الأختان إليه تخبرانه بمرض أخيهم ، .. وإذ كان غائباً ، مات لعازر وقالت الأختان له عبارة واحدة : « لو كنت ههنا لم يمت أخى » .. (يو ١١ : ٢١و٣٢) كانت المشكلة واضحة بارزة فى غيابه ، .. وعندما مات المسيح ، تحول التلاميذ بالفعل إلى يتامى ، إذ صعقهم الخوف من اليهود فاجتمعوا والأبواب مغلقة . ولا أعلم كم سكبوا من الدموع كما يسكب اليتيم المسكين العاجز !! لكن أعلم أن المجدلية وهى تنظر إلى قبره الفارغ ، كانت أتعس إمرأة وهى تقول : « أخذوا سيدى ولا أعلم أين وضعوه » (يو ٢٠ : ١٣) .. وتلميذا عمواس وهما يسيران عابسين وقد تجمعت هموم الدنيا بأكملها على رأسيهما وهما يصيحان : « ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل » (لو ٢٤ : ٢١) إن هذا الغياب المخيف عالجه المسيح أعظم علاج يمكن أن يخطر بالبال ، إذ أكد أنه لن يتباعد قط عن واحد من التلاميذ دقيقة واحدة من الزمن ، إذ أنه جاء ليصنع فى جسد كل واحد منهم منزلا يستقر فيه ويبقى ويسكن !! .. لسنا فى حاجة بعد هذه العلاقة العظيمة ، إلى أن نفعل ما فعله أصدقاء ستيفنسون فى مدينة فيلاما ، عندما شقوا طريقاً وعبدوه فى قلب الغابة التى تفصل بين بيوتهم وبيته ، وأطلقوا عليها « طريق القلوب المحبة » وفاء لما فعل الرجل معهم ولطفه ومحبته ومساندته لجميعهم فى أدق الأوقات وأحلك الليالى ، .. أما نحن فى علاقتنا مع المسيح فلا فاصل بيننا على الاطلاق فى غاية الحياة حتى نعبد الطرق التى تصلنا به !! .. إنه ليس معنا فحسب ،

بل أكثر من ذلك إنه فينا وفى أعماقنا .. وأكد المسيح هذه الحقيقة لا بصورة غامضة هى مجرد خيال أو وساوس أو أحلام ، بل بالوقائع الظاهرة الثابتة الدائمة فى الحياة !! ..

كانت حياة يهوذا ليس الاسخريوطى وصحبه فى قصة الحياة خير دليـــل على ذلك ، .. لقد ظهر المسيح معهم فى أدق أزمات الحياة ، فهذا بطرس المسجون الذى يزمع هيرودس أن يقتله ، وهو مقيد بسلسلتين ، وإذا بالملاك يدخل السجن ، ويضرب بطرس فى جنبه وهو نائم ، وتسقط السلسلتان ويفتح باب السجن، ويخرج وهو فى شبه ذهول : « فقال بطرس وهو قد رجع إلى نفسه الآن علمت يقيناً أن الرب أرسل ملاكه وأنقذنى من يد هيرودس ومن كل انتظار شعب اليهود » (أع ١٢ : ١١) .. ونفس الشيء حدث مع بولس عندما قال : « فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى بل الجميع تركونى لا يحسب عليهم . ولكن الرب وقف معى وقوانى لكى تتم بى الكرازة ويسمع جميع الأمم فأنقذت من فم الأسد » (٢ تى ٤ : ١٦ و ١٧) .. وفى أقسى الآلام والأحزان والتعاسات لم يتركهم قط ، .. كتبت هيلن كلر العمياء الصماء البكماء ذات مرة تقول : « إن من يتطلعون الى وهم بكامل صحتهم وحواسهم يرثون لحالى ، ولكنهم جد مخطئين لأنهم لا يبصرون غرفة حياتى الذهبية التى أقيم فيها مبتهجة وذلك لأن طريقى مهما بدت مظلمة فى عيونهم فإنى أحمل نوراً سحرياً فى قلبى . الإيمان هو النور الكشاف القوى يضيء طريقى ، ومع أن شكوكاً شريرة تتربص بى ، فإنى أسير بلا خوف نحو الغابة المسحورة حيث أوراق الأشجار كلها خضراء وحيث يقيم الفرح ، والبلابل تبنى أعشاشها ، وتغرد ، وحيث الحياة ... فى حضرة الله » .. ولد تشارلس اليون أحد الرؤساء الكبار لجامعة هارفارد مشوه الخلقة ، فلما بدأ يدرك هذه الحقيقة المرة قالت له أمه ليس من المحتمل يابنى أن تتخلص من

هذه التشوهات فقد استشرنا أعظم الجراحين ، فقالوا إن لا فائدة من أى محاولة . ولكن يمكنك بمعونة الله أن تعمل على إنماء عقلك وروحك بدرجة تجعل الناس ينسون وجهك !! .. وارتبط تشارلس اليون بالله الذى رفعه تماماً فوق محنة حياته وجعله نافعاً !! ..

وإذا كان المسيح يظهر لأتباعه وتلاميذه فى الخطر أو الأحزان ، فإنه أيضاً يظهر لهم فى الأحلام والآمال !! .. كانت إمرأة فقيرة تسير من سنوات عديدة فى شارع من أصغر شوارع لندن وقد حملت سلة كبيرة ملأتها بالثياب التى أعطاها لها سكان ذلك الشارع من الذين يعطفون عليها ويرثون لحالها لتغسلها لهم فى منزلها ، ويدفعون الأجر الذى يساعدها على العيش مع ولدها الذى كان فى ذلك الوقت فى الثانية من عمره ووضعت المرأة المسكينة فوق الثياب القذرة فتات الخبز والطعام التى أحسن بها ذوو الشفقة والرحمة من عملائها ، وكان الليل حالكاً والبرد قارساً ، فلم تكد تجتاز شارعاً أو أو شارعين حتى التفت إليها ولدها وقال لها : « لقد تعبت يا أماه » .. فنظرت إليه وأغرورقت عيناها بالدموع ووضعت السلة على الأرض ودعته للجلوس إلى جوارها ففعل ، وبينما هو يسترد قواه الضعيفة حانت منه التفاتة فأبصر دار البرلمان الانجليزى فقال لأمه وهو يشير إليها : « انظرى يا أماه لو منحنى الله صحة وقوة لأدخل هذه الدار فلن تبقى فى انجلترا أم تضطر إلى العمل كما تعملين ولا يبقى فيها ولد يعيش كما أعيش » .. ومرت الأيام ودخل هـذا الولد بعد ما كبر البرلمان الانجليزى وأصبح من أبرز زعماء حزب العمال وأحد وزرائه الذين كافحوا لأجل الطبقات الكادحة وكان اسمه جون برنس !! .. لقد قطع يهوذا ليس الاسخريوطى الطريق كلها التى لم يستطع أن يقطعها الاسخريوطى ، لأنه عاش مع المسيح الذى ظهر له ومعه فى الاخطار والأحزان والآمال !! ..

يهوذا ليس الاسخريوطى والخدمة المختفية :

من المثير حقاً أن التلاميذ الاثنى عشر لم يكونوا جميعهم على خط واحد من القوة والنشاط والإنتاج والنجاح ، ولم يقفوا فى الخدمة صفاً واحداً . بل من العجب أيضاً أن واحداً أخذ مكان الاسخريوطى ، ليكمل عدد الاثنى عشر ، ولكنه كان أيضاً من غير البارزين إلى أن جاء واحد آخر واجتاز الصفوف جميعاً إلى الأمام ، وهو يقول . « أنا تعبت أكثر منهم جميعهم » (١ كو١٥ : ١٠) .. ومهما يتفاوت عملهم أو تختلف قدراتهم ، فإن السر يرجع أولا وأخيراً كما يقول الكسندر مكلارن إلى المسيح الذى يعمل فيهم ومعهم !! .. ولعله من الواجب دائماً ألا ننظر إليهم ، أو نفكر فيهم ، وفى عملهم أكثر من اللازم ، بل ننظر إلى من يحركهم للعمل ، ويعمل فيهم بروحه وسلطانه وقوته ، .. إن كل عمل مسيحى يمكن أن نضعه بين قوسين فنحن نفتح القوس بالآية القائلة : « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) .. ونقفل القوس بالقول الآخر : « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » !! (فى ٤ : ١٣) .. « فمن هو بولس ومن هو أبلوس . بل خادمان آمنتم بواسطتهما وكما أعطى الرب لكل واحد . أنا غرست وأبلوس سقى لكن الله كان ينمى إذاً ليس الغارس شيئاً ولا الساقى بل الله الذى ينمى » (١ كو ٣ : ٥ — ٧) ..

وإن كنا لا نعلم إين كان يشتغل يهوذا ليس الاسخريوطى ، إلا أن التقاليد تشير إلى أنه اشتغل بنجاح فيما أطلق عليه فيما بعد أرمينيا ، .. وأيا كان المكان الذى عمل فيه ، فإنه الرجل المتواضع الأمين الذى يعيش مع اخوته فى سلوك مسيحى ، الخاضع للرسالة التى طلب منه أن يؤديها . وسواء كانت هذه الرسالة كما يقول الشاعر ملتون صغيرة أو كبيرة ، سريعة أو بطيئة ، فهى هى فى قيـــاس الله ووزنه الدقيق !! .. وأيا كان النصيب من الخدمة

حقيراً أم سامياً ، فهو يقبل ما تسوقه مشيئة الله له ، وهو يعلم أن الكل إذا استخدمناه بحسب النعمة المعطاة لنا ، سيبقى ثميناً وعظيماً على الدوام فى عينى الله خالقنا وصانعنا !! ..

لم يكن شعار يهوذا وهو يعمل : الشهرة ، بل الأمانة والاخلاص فى العمل ، وهو لا يود أن يظهر أى اسم من أسمائه الثلاثة بل ليختف الكل ، ليظهر يسوع المسيح !! .. وهو يذكرنا بذلك الرجل الذى كان محباً لسير فيليب سدنى الذى مات فى ساحة الحرب ، وكانت آخر كلمة نطق بها : « إن حاجتك أهم من حاجتى » فما كان من صديقه إلا أن طلب أن يكتب على قبره بعد موته : « هنا يرقد صديق السير فيليب سدنى » .. ولعل شيئاً أعظم من هذا قاله يهوذا ليس الاسخريوطى وهو يستشهد من أجل يسوع المسيح .. إذ أنه فى الحياة أو الموت ، ملك ليسوع المسيح : « لأن ليس أحد منا يعيش لذاته ولا أحد يموت لذاته ، لأننا إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت . فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن » (رو ١٤ : ٧و ٨) ..

٩١
فيلبس

« فى الغد اراد يسوع أن يخرج الى الجليل ،
فوجد فيلبس فقال له اتبعنى » (يو ١ : ٤٣)

فى كتاب كامبل مورجان « الطبيب العظيم » وهو دراسة لمعاملة المسيح لخمسين من الشخصيات فى العهد الجديد ، من الرجال والنساء ، من الأخيار والأشرار ، من الأنماط المختلفة من الناس ، ستعثر على هذه الحقيقة العجيبة ، أن المسيح تعامل مع كل شخص منهم بكيفية تختلف عن معاملته للآخر . .. فإذا كانت وجوه الناس مهما تتقارب فى شكلها ، لابد من أن تختلف فى مظهر معين أو عند نقطة معينة ، .. وإذا كانت بصمات الأصابع فى جميع الناس الساكنين على وجه الأرض ، لا يمكن أن تماثل تماماً فى شخصين بدون أدنى اختلاف ، .. فإن خالق الناس المختلفين فى صورهم وظروفهم وحياتهم لا يمكن أن يتعامل مع أى واحد منهم بنفس المعاملة التى يتعامل بها مع الآخر . وقد اتضح هذا تماماً فى معاملة المسيح للاثنى عشر ، فمع أنه جمعهم حوله ،

وأحبهم وأحبوه ، وأمسك بهم ، ولم يخرج من دائرتهم إلا ابن الهلاك إلا أنه لم يتعامل مع واحد منهم ، نفس المعاملة التى تعامل بها مع الآخر ، ويكفى أن تتأمل مجرد اللقاء مع المسيح ، فمرات يأتى هذا اللقاء بسعى التلميذ وراء المسيح ، كما سعى أندراوس ويوحنا عندما سمعا المعمدان يتحدث عنه، فطلبا أن يعرفا أين يمكث ومكثا عنده يوماً بكامله قبل أن يصبحا تلميذين له ، .. لكن فى مرة أخرى يسعى المسيح وراء التلميذ ، كما نرى فى قصة فيلبس ، الذى وجده المسيح وقال له اتبعنى !! .. ومرة ثالثة يدخل تلميذ فى القصة فيأتى أندراوس بأخيه بطرس إلى المسيح ، ويأتى فيلبس بنثنائيل أيضاً ، .. فإذا ذكرنا أكثر من ذلك أن المسيح جمع حوله مختلف العقليات والارادات ، أدركنا أن لكل إنسان منا مكاناً عنده ، وأنه مهما تكن ، فإن لك مكاناً فى خدمته يختلف عن مكان الآخر !! .. كان فيلبس واحداً من النماذج التى تعطى صورة لهذه الحقيقة بين التلاميذ ولذا يلزم أن نراها فيما يلى ونحن نتعرض لشخصيته :

فيلبس من هو :

كان فيلبس التلميذ الوحيد من الإثنى عشر ، الذى لا نعرف له اسماً سوى الاسم اليونانى الذى أطلق عليه ، .. ويرجع هذا على الأغلب ، لأنه ولد فى بيت صيدا ، وربما كانت هذه المدينة أكثر المدن اختلاطاً باليونانيين والثقافة اليونانية . والاسم فيلبس ، كان ولاشك من الأسماء الشائعة فيها ، إذ أن فيلبس كان واحداً من أبناء هيرودس الذى بنى ووسع قيصرية فيلبس ، .. وكان الاسم فيلبس مأخوذاً على الأغلب من فيليب أبى الإسكندر الأكبر ، .. والكلمة فيليب أو فيلبس تعنى محب الخيل ... ومن الواضح أن علاقة فيلبس باليونانيين كانت ظاهرة وبارزة ، فى أن اليونانيين الذين جاءوا فى العيد ليروا يسوع ، اتصلوا بفيلبس دون غيره من التلاميذ ، وهم يقولون :

« نريد أن نرى يسوع » .. على أن هذا لا يمكن أن ينسينا أن الرجل كان عميق الاحساس والولاء لعقيدته اليهودية ، ونحن نسمعه يقول لنثنائيل : « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة » (يو ١ : ٤٥)... ونحن نقف هنا إزاء شخص كان يعيش بأحلام اليهود الأتقياء ، وهم يتطلعون إلى المسيا كأعلى انتظاراتهم وأحلامهم ، .. ويزداد تقديرنا للرجل ، عندما نعلم أنه عاش فى بيت صيدا بهذه الأحلام ، مع أن بيت صيدا كانت فى ذلك الوقت مرتعاً للفساد والفجور ، وقد رفضت رسالة المسيح ، وقال لها السيد : « ويل لك يا كورزين . ويل لك يا بيت صيدا . لأنه لو صنعت فى صور وصيداء القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديماً فى المسوح والرماد ولكن أقول لكم إن صور وصيداء تكون لهما حالة أكثر احتمالا يوم الدين مما لكما » (مت ١١ : ٢١و ٢٢) ..

ومع أننا لا نستطيع أن نعود إلى ماضى الرجل فى بيت صيدا ، فإن الكتاب لم يعطنا أدنى نور من هذا القبيل إذ لم يذكر شيئاً عن شبابه أو ماضيه ، غير أنه من المتفق عليه أنه وقد كان من المدينة التى عاش فيها بطرس وأندراوس « وكان فيلبس من بيت صيدا من مدينة أندراوس وبطرس » (يو ١ : ٤٤) كان لهذين الأخوين أثر بعيد عميق فى حياته ، ومع أننا لا نستطيع أن نحدد من منهما كان له الأثر الأبعد والأعمق ، إلا أنه يبدو أن رابطة فيلبس بأندراوس كانت أعمق وأقوى ، وهذا ظاهر من أن فيلبس عندما جاء اليونانيون ليروا يسوع ، وطلبوا منه ذلك ، اتجه هو إلى أندراوس فى هذا الشأن ، .. وعلى أى حال ، لا شك فى أن الصداقة التى تربط شباباً أو رجالا من مدينة واحدة ، لابد أن تعكس أثراً بعيداً لا يمكن اغفاله أو نسيانه ، وإذا كان القديس أوغسطينوس قد قال فى عبارته النبيلة ، أنه كان من الممكن ألا نعرف شيئاً عن بولس الرسول لولا صلاة استفانوس ، .. أى أن بولس ، وهو يرقب

استفانوس يرجم ، وقد احتفظ بوجهه الملائكى ، وصلاته المؤثرة ، الصلاة التى لازمت شاول ليلا ونهاراً ، وهو لا يستطيع أن ينتزعها من مخيلته ، وكان يزداد إمعاناً فى العنف والقتل ، واضطهاد أتباع المسيح ، وهو يرفس مناخس كالثور الهائج الذى لا يهدأ أو يستريح ، .. ان التأثير الذى يحدثه إنسان فى آخر بالعشرة أو الصداقة أو المعاملة ، أو التصرف ، يترك الطابع العميق الذى لا يمكن إدراك مداه ، .. وعندما سئل تشارلس كنجسلى عن سر ما فى حياته من كرم وجمال ، أجاب : لى صديق !! .. وهؤلاء التلاميذ القدامى كيف صعدت حياتهم إلى أسمى علو يصل إليه بشرى ؟ .. لا شبهة فى أن الجواب كان : صداقة يسوع المسيح !! .. ومع أن ضعفاتهم البشرية كانت تلاحقهم ، حتى فى قلب هذه الصداقة ، إذ كانوا يبحثون عن نفوسهم قبل أصدقائهم ، لكن المسيح هذب هذه العلاقة ورفعها بروحه إلى أعلى ما يمكن أن تكون عليه الصداقة بين إنسان !وإنسان !! .. على أى حال ، من المؤكد أن علاقة بطرس وأندراوس بفيلبس كان لها الأثر الكبير فى إعداده وتجهيزه للتلمذة ليسوع المسيح !!..

ومع هذا فإن الرجل كان فى طبيعته — على عكس صديقيه — بطىء متردد ، ليس له اندفاع بطرس أو يقين أندراوس ، وهو يقف حائراً أمام مشكلة اطعام خمسة آلاف ، ويقيس الأمور قياساً عملياً بحتاً ، وليس له الشجاعة فى اقتحام الصعاب ، فإذا جاءه اليونانيون طالبين أن يروا يسوع ، فهو يحار فى مواجهة المشكلة ويذهب إلى أندراوس لعله يجد الحل ، .. كما أنه ليس صاحب البصر البعيد الأفق ، فلم يستطع أن يرى فى يسوع شخص الآب مع طول عشرته معه ، .. لقد سأل بعضهم هذا السؤال لماذا اختار يسوع الرجل بين الاثنى عشر ، مع مواهبه المحدودة ، .. وكان الجواب ، إن المسيح فيه وبه يعطى تشجيعاً دائماً لكل ضعيف ومتردد وبطىء ليصبح واحداً من العاملين فى كنيسة المسيح !! ..

على أن ميزة الرجل الواضحة ، والتى تغطى هذا التردد والأحجام ، كانت صراحته واخلاصه ، فهو إذ يقف أمام مشكلة ، لا يداريها ويدعى بالصمت فهمها ، أو على الأقل لا يكشف نفسه ، فإذا عجز عن مشكلة إطعام الجماهير ، لا يلبث أن يعلن هذا العجز ، .. وإذا لم يستطع إدراك الأمنية التى تجول بنفسه تجاه الآب السماوى ، يعلن هذا بوضوح ليسوع المسيح ، .. لم تكن فى صفات الرجل صفة الإدعاء أو التصنع ، فهو صريح وهى سمة من أجمل السمات التى يمكن أن يتحلى بها الإنسان ، .. والله يسر كثيراً أن نعلن أمامه وأمام الآخرين : « انى أبلد من كل إنسان وليس لى فهم إنسان » (أم ٣٠ : ٢) !! .. وهو على استعداد لأن يستخدم البطىء الذهن ، ولكنه — فى الوقت عينه — ممتلىء بالصدق والصراحة والإخلاص !!.

فيلبس الذى وجده المسيح :

إن الطريقة التى جاء بها فيلبس إلى يسوع المسيح تختلف عن طريقة بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا ، إذ أن المعمدان وجه أندراوس ويوحنا فذهبا إلى يسوع المسيح ، وأندراوس قاد أخاه إلى السيد ، .. لكن الأمر بالنسبة لفيلبس يختلف كثيراً عن ذلك ، إذ لا نقرأ أن أحداً دخل بينه وبين المسيح أو قاده إليه . .. لقد ذكرنا أن بطرس وأندراوس ربما أعداه لذلك ، بصحبتهما وشركتهما ، .. وربما كان فيلبس قارئاً جيداً لكلمة الله ، وكان مستعداً بالكلمة لقبول السيد ، إذ كان ينتظر ذلك الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء ، .. لكن لقاءه بالمسيح كان مباشراً وشخصياً ، .. كان المسيح فى طريقه إلى الجليل وفى مكان ما التقى به ، دون أن يكون معه آخر ، يأتى به إلى السيد، .. ومع أن النتيجة فى النهاية بالنسبة للتلاميذ جميعاً هو أنهم وجدوا السيد ، .. لكن الطرق تتعدد وتختلف ، فهناك من وجد السيد ، وهناك من وجده السيد ، هناك من سعى إليه وجد فى البحث حتى لقيه . ..

وهناك من بقى فى مكانه ، أو ربما كان يسعى كبولس سعياً مضاداً أو عكسياً، فكان يجرى من السيد ويهرب منه، ولكن السيد مع ذلك لحق به ووجده !!.. ألم يقل الرسول : «أسعى لعلى أدرك الذى لأجله أدركنى أيضاً المسيح يسوع !! ..» (فى ٣ : ١٢) .. إن الذى يدرك إنساناً هو ذاك الذى يركض وراءه ساعياً حتى يصل إليه ويجده ، .. وما أجمل أن نتصور فيلبس ، فى طريق الجليل، وبولس فى طريق دمشق، وإذا بالمسيح يجدهما ويأتى بهما إلى خدمته ومجده العظيم !! .. كان فيلبس بطبيعته بطىء التفكير ، وليس من السهل أن يقتنع أو يقنع ، ومن ثم كان فى حاجة إلى اللقاء المباشر مع المسيح الذى وجده ، وبشخصه يستطيع أن يقنع ، كما أن فيلبس كان أعجز من أن يقنع نثنائيل، ولذا جاء به مباشرة إلى المسيح !!..كان بولس جبار الذهن ومتوقد العاطفة ، ولكنه كان عدواً للمسيح ، ولم يكن من الممكن أن يقنعه بشرى بحقيقة المخلص ، فكان يحتاج إلى جبار يسقطه إلى الأرض ويهز تفكيره من الأساس ، وهذا ما فعله معه يسوع المسيح !! .. وفى الحقيقة إن أسلوب اللقاء مع المسيح لا يكاد يتفق فيه اثنان .. وقد حدثنا رتشارد باكستر عن العذابات النفسية التى اجتازها سنوات عديدة ، وهو يشك فى تجديده ، لا لأنه لم يكن مجدداً ، بل لأن تجديده لم يكن على نمط ما حدث مع مستر بولتن ومستر هوكر ومستر روجرز أو للآخرين من اللاهوتيين ، كما أنه لم يعرف بالضبط تاريخ تجديده ، ولم تنته شكوكه إلا بعد أن أدرك أن علاقة المسيح بكل شخص تتميز بخصوصية يلزم تبينها واحساسها وإدراكها !!... والمهم فى نهاية المطاف أن يصل المرء إلى القول : لكى أربح المسيح وأوجد فيه وليس لى برى الذى من الناموس بل الذى بإيمان المسيح البر الذى من الله بالإيمان . لاعرفه وقوة قيامته و شركة آلامه متشبهاً بموته ، لعلى أبلغ إلى قيامة الأموات » (فى ٣ : ٨ — ١١) ..

فيلبس الذى وجد نثنائيل :

لا حاجة إلى القول إن لقاء فيلبس بالمسيح ملك عليه قلبه ومشاعره ، فتحرك البطىء وتحول إلى السرعة ليأتى بصديقه نثنائيل ، ولم يشغل فيلبس نفسه بالإجابة على أسئلة نثنائيل ، بل قال له : تعال وانظر !! .. وفيلبس يعطى درساً عظيماً لكل مسيحى وجد المسيح واستمتع بالشركة الحلوة معه ، فإذا كان واجبنا الأول أن نأتى بأقرب الأقربين إلينا ، كما جاء أندراوس بأخيه إلى السيد ، فان الواجب الثانى هو أن آتى بصديقى إلى يسوع المسيح كما فعل فيلبس مع نثنائيل !! .. هل تذوقت حلاوة المسيح ، وهل أدركت أن كله مشتهيات ؟ .. إذا كنت قد وصلت إلى هذا الاختبار ، فان من المتصور الطبيعى أن يشاركك الأخ والصديق فى المائدة الغنية الحافلة التى تستمتع بها ، .. كان روبرت روجرز كلما رأى شخصاً كئيب الوجه عابساً يقول له : هل سمعت صوت الموسيقى !!؟ فسأله أحدهم : أى موسيقى تعنى !! فانى أسمع الموسيقى دائماً ؟ فأجابه روجرز أعنى الموسيقى التى لم تألف أذان الناس سمعها ليستريحوا على نغماتها المطربة الحلوة ، موسيقى صوت الله داخل الإنسان !! ..

وفى معرفة المسيح أجمل موسيقى يمكن أن تغنى للنفس البشرية !! .. أى هدية تقدمها لصديقك إذا رمت أن تقدم له أعظم هدية على وجه الأرض ؟ .. فى قصة واقعية حدثت بين صديقين فى مدينة دبلن عاصمة ايرلندا الجنوبية ، وقد رواها ماك كارثى لآخر فى عام ١٩٥١ ، وكان فى فجعة الموت فى ذلك الوقت ، .. وكان شيخاً متقدماً فى الأيام ، قصير القامة ، ضعيف البصر تنير وجهه ابتسامة عذبة تحدثك عن السلام العميق الذى يغمر قلبه . قال لما كنت شاباً كنت صديقاً حميماً لجراهام صاحب البيت المقابل لبيتى ، وكنا نسكر معاً ، ونلعب القمار ، ونرقص معاً ، ونقضى الليالى

الصاحبة الغارقة فى الشر والفجور معاً ، نعم كنا كأخوين شقيقين ، وذات مساء ، بينما كنت أسير فى أحد شوارع المدينة منذ عشرين عاماً رأيت خيمة صغيرة ، وما أن اقتربت منها ، حتى تلبد الجو فجأة بالغيوم وابتدأت الأمطار تنهمر بغزارة وقوة فدخلت إلى الخيمة لأحتمى بها وهناك رأيت شخصاً واقفاً على منبر صغير يتكلم إلى المجتمعين ، وكان حديثه عن شخص الرب يسوع المسيح بكيفية لم آلفها أو أسمعها من قبل !! .. كان حديثه كما أذكر : « وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم . الذى يؤمن به لا يدان والذى لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد . وهذه هى الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة » .. (يو ٣ : ١٤ — ١٩) .. وقبل أن ينتهى الخادم من رسالته وجدت — دون أن أدرى — دموعى تنحدر بغزارة من عينى ، جففتها ولكنى حاولت عبثاً أن أهدئ نفسى وأسكنها ، .. وفى نهاية الخدمة تقدمت إلى الأمام وسلمت قلبي ونفسى وكل مالى لشخصه الكريم ، وودعت العالم وكل ما فيه من شهوات !! .. وفى اليوم التالى حدثت صديقى جراهام باختبارى ، فقابله بالضحك والسخرية ، ولم تستمر صداقتنا بعد ذلك وانقطعت عنى أخباره ، وذات مساء منذ ثلاثة أعوام تقريباً سمعت أن جراهام صديقى مريض جداً ، فذهبت لأعوده فى مرضه ، وإذ دخلت عليه وهو فى فراشه ، رأيته شاحب الوجه كسير الخاطر دامع العين وقال لى بصوت محطم أسيف : إنى شاعر بأن نهايتى قد اقتربت لكنى غير مستعد للذهاب ، وأخشى الموت الذى يطاردنى فى منامى ، ويلازمنى فى يقظتى .. ألا تستطيع أن تساعدنى يا ماك ؟ جلست إلى جواره على الفراش وأخرجت من جيبى

الكتاب المقدس وقرأت له ذات الكلمات التى جاءت بى للمسيح ، ثم ركعت بجواره لأرنم الترنيمة الخالدة التى كتبتها فرانسز رادلى هفرجال والتى تقول

إنى واثق بلك يا يسوع
واثق بلك وحـــدك
لنوال الخلاص الكامل
العجيب المجـــانى

وبعد أن انتهيت من الترنيم رفعت صلاة عميقة من أجل صديقى . لأرنم الترنيمة مرة أخرى وإذ وصلت للعدد الثانى :

إنى واثق فى صفحك
لذلك أنحنى عنـــد قدميك
لأجل نعمك ومراحمك العظيمة
بيقين كامل الآن .

وعندئذ سمعت صوته يردد الكلمات الحلوة : أؤمن بلك يا سيد الآن . . وأشرق وجهه بنور سماوى . . ثم قال آه يا ماك لم أكن أتصور أن الرب يسوع يقبل إنساناً خاطئاً مثلى ! ! قلت له اسمع يا صديقى ماذا يقول الرب يسوع : لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى » (لو ٥ : ٣١ و ٣٢) .. لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة . وكما وعد : « من يقبل الى لا أخرجه خارجاً » (يو ٦ :٣٧) ! ! .. قبل أن أتركه خلع ساعته الذهبية وقال لى : هذه ساعتى . أرجو أن تقبلها منى تذكاراً حتى نتقابل هناك ، وفى اليوم التالى مالت حياته للغروب وذهب إلى راحته الأبدية . . وما زالت هذه الساعة تذكرنى به ؟! .. وفى الواقع إن أثمن ساعة ذهبية هى التى يقود فيها صديق صديقه إلى يسوع المسيح ! ! ..

فيلبس والقدرة العظيمة ليسوع المسيح :

إن المعجزة الوحيدة المذكورة فى الأناجيل الأربعة هى معجزة إطعام الخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد ،.. وهى المعجزة التى أثرت فى الجماهير أكثر من غيرها إلى درجة أنهم قرروا أن يأتوا ليختطفوا المسيح ويجعلوه ملكاً عليهم . .. وكان السؤال : كيف يمكن إطعام هذا العدد الغفير ؟ .. وقد وجه المسيح السؤال إلى فيلبس ، وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل . أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمئتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً !! (يو ٦ : ٦ و ٧) .. كانت أمام ذهن فيلبس معادلة صعبة ، والمسيح وقد اختار فيلبس بالذات ليوجه إليه سؤال ، لم يكن يقصد أن يعرف رأيه ، إذ أنه يعلم ماذا سيقول ، بل كان يقصد بالأحرى أن يدرك فيلبس أنه قادر على الخارق من الأمور ، وأن كل شىء مستطاع لديه ، ولا يعسر عليه أمر ، .. كان المسيح يقصد أن يحرك ذهنه لينطلق بسرعة هائلة على أجنحة الإيمان ، .. وليس الإيمان إلا الطائرة التى تحمل ذهننا المتردد البطىء ، إلى آفاق لا تخطر لنا على بال !! .. لم يكن محتاجاً إلا إلى غلام صغير وخمسة أرغفة شعير وسمكتين ليطعم الآلاف ، ويحل المعادلة الصعبة المستغلقة على ذهن فيلبس !! .. وهو دائماً يفعل هكذا مع تلاميذه عندما يقتادهم بالإيمان إلى آفاق مجهولة ، وبحار مجهولة ، وسبل مجهولة ، ونتائج تتجاوز كل فهم أو فكر بشرى !! .. عندما أرادت القديسة تريزا أن تبنى ملجأ سألوها كم معك من نقود ؟ . أجابت : ثلاث شلنات !! .. فقالوا هل يمكن بثلاث شلنات أن تقيمى ملجأ ؟ . أجابت : إن ثلاث شلنات وتريزا لا شىء البتة ، ولكن ثلاث شلنات وتريزا ويسوع المسيح يمكن أن تصنع كل شىء .

وعندما علم فيلبس وأدرك بعد ذلك أن المسيح يسوع هو صورة الله غير المنظور ، تعلم أنه وحده القادر على حل كل المعادلات الصعبة أمام ذهن الإنسان !! .. أليس هو الخالق الذى حل معادلة الخلق الصعبة إذ « كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان !! (يو ١ : ٣) .. وقد خلق وحده كل شيء من لا شيء « وبالإيمان نفهم أن العالمين أتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يرى مما هو ظاهر » (عب ١١ : ٣) .. وإذا كان العالم يحار فى أيهما أسبق الدجاجة أم البيضة ، .. فإن الفهم المسيحى لا يجد فى الكون المعادلة الصعبة لأن أمور الله « غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته » (رو ١ : ٢٠) .. والمسيح القدير لم يصنع المخلوقات المادية فحسب ، بل الروحية أيضاً !! .. وقديماً سأل أيوب : « من يخرج الطاهر من النجس » . ثم قال : « لا أحد » (أيوب ١ : ٤) لأنها معادلة صعبة أمام الانسان !! .. لكنها ليست صعبة أمام يسوع المسيح !! .. وهو وحده الفادى الذى أخرج الطاهر من النجس ، بموته على الصليب ، وكفارته الكاملة ، .. وهو إلى جانب هذا كله المعتنى الذى مد يده إلى العاجز والمشلول والمنكوب والضائع ، وصنع منهم أبطالا أقوياء ناجحين !! .. بل حتى الموت حل معادلته الصعبة فسيسمع جميع الذين فى القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحيوة والذين فعلوا السيئات إلى قيامة الدينونة » !! .. (يو : ٢٨ و ٢٩) .

فيلبس ونداء المسيح المتسع :

جاء اليونانيون إلى فيلبس يطلبون أن يروا يسوع ، وكان من المتصور أن يسرع بهم إلى المسيح كما فعل مع نثنائيل ، لكنه احتاج إلى أندراوس ، وجاء الاثنان بهم إلى المسيح ، وهنا ظهر أنه إذا كان الشرق قد جاء فى ميلاده ممثلا فى المجوس ، فإن الغرب يأتى عند الصليب ممثلا فى اليونانيين ،

وقد ربط المسيح رسالته كلها بالصليب ، فى القول : « الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير » (يو١٢ : ٢٤) .. وربما لم يكن هذا واضحاً أو مفهوماً فى بادىء الأمر لفيلبس أو لليونانيين ، لكنه بعد صلب المسيح ، فتح البـــاب أمام الأمم ، وتعلم الكل أن الموت مفتاح الحياة ، أو كما قال أحد كتاب الغرب « منذ ألفى عام ارتفع على هضبة صليب وكان على هذا الصليب المسيح يموت . فهل كان هناك حسب الظاهر فشل مثل هذا الفشل أو هزيمة تعدل هذه الهزيمة ؟ لكن مع ذلك ، فمنذ ذلك التاريخ هوت امبراطوريات شامخة إلى الحضيض والرماد ولم يبق من أطلالها الدارسة سوى أحجار هنا أو خرائب هناك ، غير أن ذلك الفرد العجيب المصلوب يعيش اليوم آسراً أفئدة الناس وضمائرهم إلى الأبد .. وفى العالم اليوم آلاف الملايين التى تعترف به رباً ومسيحاً ، وهو يعيش فيهم بقوة روحه ، روح الحق والمحبة والتضحية . وهذا الروح هو أعظم قوة رافعة محيية مخلصة عرفها البشر فى كل أجيالهم » ..

فيلبس والرؤيا الكاملة عن المسيح :

لم يكن فيلبس فى حاجة إلى التركيز على الصليب الذى سيقرر خدمته ورسالته فيما بعد فحسب ، بل كان أكثر من ذلك فى حاجة إلى إدراك أعمق ورؤيا أكمل عن يسوع المسيح .. كان إدراكه للمسيح كما عبر عنه فى الابتداء : « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة » (يو ١ : ٤٥) .. ولعله وهو يتكلم عن موسى كان يحسده لأن موسى رأى الساكن فى العليقة فى ذلك المنظر المهيب ، الذى خلع إزاءه الحذاء لأنه كان على أرض مقدسة ، ولف وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله .. وهو يوم يتحقق له هذا يتحقق حلمه الأعظم فى الحياة : « أرنا الآب وكفانا » (يو ١٤ : ٨) إذ ليس فى الوجود ما هو أعظم من أن يبصر

الانسان شخص الله ، ويرى وجهه الكريم المبارك !! .. ومن المحزن حقاً أنه عاش ينظر إلى هذا الوجه ثلاث سنوات دون أن يعلم ذلك ، .. وكان يعيش فى حضن حلمه ، وهو يبحث عن الحلم فى السماء البعيدة !! .. وما من شك فى أن جوابه قد صدم المسيح صدمة محزنة ، إذ أنه الرجل الذى كان يتطلع إلى الشمس فى كمال جلالها ، وهو يتساءل : أين هى الشمس ؟ وقد قال له المسيح محزوناً : « أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفنى يا فيلبس ؟ الذى رآنى فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب » (يو١٤ : ٩) .. وهنا لابد أن نقف بكل إجلال وخشوع ، ونحن نذكر أن الذى تكلم مع موسى هو هو بعينه الذى تكلم مع فيلبس لأن « يســوع المسيح هو هو أمسا واليوم وإلى الأبد » (عب ١٣ : ٨) ، وأن المشرع القديم كان أذكى وأسرع التفاتاً من التلميذ الجديد ، .. لقد أدرك الرجل الأول سيده العظيم من نظرة واحدة ، وعاش الثانى ثلاث سنوات ، وهو لم يعرف هذا السيد المبارك ، .. سمع موسى فى جبل الله أمرين عظيمين : الله يتكلم ، ويصنع معجزة . وكان الأمران كافيين لأن ينطلق الرجل نحو الرسالة العظيمة التى كان عليه أن يؤديها ، .. أما الآخر فقد سمع كلام المسيح وتعاليمه ، ورأى معجزاته العجيبة الباهرة ، دون أن يتقدم خطوة أكثر من أن يسوع بن يوسف الذى من الناصرة هو الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء . .. ولكنها البلادة التى تملكته وتتملكنا مرات كثيرة ونحن نتأمل يسوع المسيح !! .. نعم إنه سر عظيم أبدى يتجاوز كل إدراك وذهن إذ « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تى ٣ : ١٦) .. والانسان لا يستطيع أن يأخذه بمجرد الاجتهاد الذهنى أو الرؤيا المادية ، إذ أن الله غير منظور ولا يمكن أن يراه أحد ويعيش ، .. ولا يمكن للعين البشرية أن تراه إلا إذا كشف هو عن نفسه بصورة ما ، وغطى جلاله بكيفية ما كما ظهر فى العهد

القديم مرات عديدة للآباء والقضاة والأنبياء ، وقد رآه هؤلاء وأدركوا أنه الله الذى خشعوا أمامه ، فقال ابراهيم : « قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧) .. وهتف يعقوب فى صراعه معه : « لا أطلقك إن لم تباركنى » (تك ٣٢ : ٢٦) وصرخ منوح بعد صعوده عنه : « فقال منوح لامرأته نموت موتاً لأننا قد رأينا الله . فقالت له إمرأته لو أراد الرب يميتنا لما أخذ من يدنا محرقة وتقدمة » (قض ١٣ : ٢٢ و ٢٣) .. لم يحتج هؤلاء وغيرهم إلى ما احتاج إليه فيلبس ليسمع قول المسيح : « الذى رآنى فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب . ألست تؤمن أنى أنا فى الآب والآب فى . الكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى لكن الآب الحال فى هو يعمل الأعمال . صدقونى أنى فى الآب والآب فى . وإلا فصدقونى لسبب الأعمال نفسها » (يو ١٤ : ٩ — ١١) .. كان برهان المسيح كامناً فى تعاليمه ، ومعجزاته ، وعندما تأمل التلاميذ هذه التعاليم والمعجزات ، بزغت شمس نوره لتسطع فى أفقهم ببهاء عجيب حتى إن يوحنا قال فى مطلع انجيله : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » .. « والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » (يو ١ : ١ و ١٤) .. وفى مطلع رسالته الأولى : « الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة . فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التى كانت عند الآب وأظهرت لنا » (١يو ١ : ١ و ٢) .. ومن الثابت على أى حال أنها ليست الرؤيا المادية ، بل الإيمان القلبى هو الذى يكشف عن حقيقة المسيح للانسان إذ لا يستطيع أحد أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس » (١ كو ١٢ : ٣) وقد عرفه فيلبس هو والتلاميذ بهذا المعنى ، وقد ظهر هذا فى رؤيا يوحنا اللاهوتى الذى قال : فلما رأيته سقطت عنـــد

رجليه كميت فوضع يده اليمنى على قائلا لا تخف أنا هو الأول والآخر والحى وكنت ميتاً وها أنا حى إلى الأبد الآبدين آمين ولى مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ ١ : ١٧ و ١٨) .. وكان من المستحيل على التلاميذ أن يتقدموا خطوة واحدة لغزو العالم لسيدهم دون هذا اليقين الذى لا يتزعزع أو يتذبذب ، بلاهوته ! ! ..

تقول التقاليد إن فيلبس أدى رسالته العظيمة فى أسيا الصغرى فى مقاطعة فريجية ، وأنه نجح نجاحاً باهراً فى خدمة المسيح فى الأماكن المجاورة للكنائس السبع التى خدم فيها يوحنا الرسول ، وهكذا استخدم السيد يوحنا اللماح الذهن والرائى العظيم ، إلى جانب فيلبس العملى والبطىء التحرك ، لأنه لى ولك مكان ومكانة عنده مهما اختلفت مواهبنا ، وتباينت وزناتنا ، لأن السر الحقيقى هو أنه « لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحى قال رب الجنود » (زكريا ٤ : ٦) .

٩٢

نثنائيل

« ورأى يسوع نثنائيل مقبلا اليه فقال عنه هوذا اسرائيلى حقا لا غش فيه » (يو ١ : ٤٧)

رسم مصور صورة رائعة لابراهام لنكولن ، وقد وقف أحدهم يحدق فيها ويتأملها من جوانبها المختلفة ، وأخيراً قال : « إنها رائعة حقاً ، ولكن هناك فى الزعيم الأمريكى شيئاً أبعد وأعمق ، مما وصلت إليه براعة المصور » ،. فإذا صح أن يقال هذا عن إنسان ، فإنه أصح بالنسبة ليسوع المسيح ، ولو أنك سألت واحداً من تلاميذه هل يستطيع أن يصف المسيح ، لقال لك إنه أبهى من كل وصف وأعمق من كل حديث ، وإن العالم كله مهما يكتب عنه لا يستطيع أن يستوعب شخصه العجيب ، فإذا أمكن للطفل الذى يلعب على الشاطىء أن يسبح فى المحيط ويصل إلى أعماقه ، وإذا أمكن لرائد الفضاء أن يبلغ آخر الكواكب التى تبعد عنا آلاف بل ملايين السنين الضوئية ، لأمكن للنفس البشرية أن تقترب من إدراك المسيح ، دون أن تدرك كنهه

وأبعاده ، وقديماً صاح صوفر النعمانى قائلا : أإلى عمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهى . هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل . أعمق من الهاوية فماذا تدرى . أطول من الأرض طوله وأعرض من البحر » (أيوب ١١ : ٧–٩)
عندما جمع المسيح تلاميذه حوله ، كان كل ما فعله معهم ، أن أخذهم فى رحلة عجيبة ، ليكشف لهم يوماً وراء آخر ، أسراراً فوق خيالهم وأعلى من تصورهم !! .. كان نثنائيل جالساً مع نفسه تحت التينة مستغرقاً فى التأمل ، ومن المؤكد أنه كان يتأمل فى تلك اللحظة قصة أبيه يعقوب وسلم السماء ، .. وقد ذهل تماماً عندما سمع المسيح يعيد عليه التأمل الذى لا يعرفه سوى الله وحده ، وعندما سمع المسيح يقول : « قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » صرخ : « يا معلم أنت ابن الله . أنت ملك إسرائيل » (يو ١ : ٤٨ و ٤٩) .. وسار وراءه ليكون واحداً من الاثنى عشر الخالدين . . وها نحن نتابع قصته اليوم فيما يلى :

نثنائيل من هو :

من الثابت أن الاسم الآخر لنثنائيل هو برثولماوس ، إذ أن البشيرين الثلاثة الأوائل ذكروه بهذا الاسم وهو يذكر فى العادة بعد فيلبس ، وقد ذكر يوحنا نثنائيل مرتبطاً بفيلبس دون أن يذكر اسم برثولماوس ، والاسم نثنائيل معناه « عطية الله » وهو من قانا الجليل التى تبعد ثلاثة أميال تقريباً عن الناصرة ، وقد وصفه السيد المسيح بأنه إسرائيلى حقاً لا غش فيه ، وقد كشف السيد بذلك عن أعماق الرجل وحياته ، فهو ليس مجرد إسرائيلى المولد ، كيهودى من أبناء يعقوب ، شأنه شأن الكثيرين الذين لا يعرفون عن الديانة اليهودية ، سوى أنها دين آبائهم وأجدادهم ، ويأخذونها وراثة دون أن تكون حياة أو اختباراً ، كالملايين ممن ينتسبون إلى المسيحية لأن أباءهم كانوا مسيحيين ، دون أن يعرفوا أو يختبروا الحياة المسيحية أو يعرفوا كنهها

ومعناها ، .. كان نثنائيل الرجل الذى لم يكن يعقوبياً إذا جاز التعبير بل إسرائيلياً ، أو الرجل الذى لم يعش حياة أبيه يعقوب الأولى بما فيها من مكر وخداع وغش ، بل الرجل الذى تحرر من كل غش وخداع عندما جاهد مع الله وغلب ، وأضحى « اسرائيل » أو « أمير الله » ، ومن هنا يمكن أن نرى نثنائيل الرجل المطلوب الذى وصفه داود فى المزمور الثانى والثلاثين : « طوبى للرجل الذى غفر اثمه وسترت خطيته طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية ولا فى روحه غش » .. ومن هنا يمكن أن نراه الرجل المستقيم الواضح الذى لا يعرف الرياء والازدواج ، وهو التقى المتعبد الذى تحلو له خلوة التأمل والشركة مع الله ، .. وقد جلس هناك تحت التينة فى الخلوة مع الله ، حيث لا يراه بشرى أو يرى هو أحداً سوى الله ، ولعله كان مستغرقاً فى التأمل فى قصة يعقوب عندما خرج هارباً من بيت أبيه ، وهناك رأى رؤياه العظيمة ، فى سلم السماء والملائكة الذين يصعدون وينزلون عليه ، والله على رأس السلم يعده بالوعد المبارك الثمين ! ! ..

نثنائيل المتعصب :

على أن نثنائيل رغم هذه المزايا التى أشرنا إليها ، كان الرجل المتعصب ، فقد ركض إليه فيلبس : « وقال له وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة » (يو ١ : ٤٥) .. وكان من المتصور أن الرجل يركض سريعاً ، ولكنه على العكس لم يفعل ، بل أثار سؤالا قاسياً : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟ » ..أو فى لغة أخرى أنه تردد إزاء قبول فيلبس للمسيح ، .. ألا يحتمل أن يكون مخدوعاً ، إذ أن الناموس والأنبياء لا يصورون المسيا آتياً من الجليل ، .. فإذا أمكن أن نتصور الجليل مهد المسيح وموطنه ، فإنه يصعب تصور أنه يأتى من ناصرة الجليل ، وذلك لأن الناصرة كانت مدينة مشهورة بفسادها وشرها

وإثمها وتمردها ، ومن المستبعد فى نظره تصور أن يكون المسيح آتياً من بيت يوسف النجار ، .. وأن يكون نجاراً مغموراً ، .. وأن يأتى هذا النجار المغمور من المدينة الآثمة مدينة الناصرة !!..لقبرفع نثنائيل حاجز الكراهية والتعصب بينه وبين يسوع المسيح !! ..

ومن المؤكد أن التعصب من أعظم الحواجز والموانع التى عرفها الانسان فى كل التاريخ ، ضد النجاح والتقدم وخير البشرية ، وقد أخذ سبيله فى كل مجال بين الناس ، .. ففى ميدان الصناعة عندما اخترع اوكرايت آلة الغزل الميكانيكية ، هرب من برستون لينجو بحياته من الغزالين الذين هددوه بالقتل ، متصورين أن اختراعه سيهدد صناعتهم بالبوار ، .. وواجه نفس الشىء الذى لاقاه فى برستون فى نوتنجهام ، عندما حرق الأغبياء المتعصبون طواحينه ودمروا آلاته تدميراً !! .. ولا يمكن أن ينسى الناس السخرية العميقة أو المقاومة التى لاقاها جورج استفنسون عندما فكر فى صنع قاطرة السكك الحديدية ، وعده الناس مخبولا مجنوناً ، وهو يتحدث عن قاطرة تتجاوز سرعتها أربعين كيلو متراً فى الساعة !! .. فإذا تحولنا إلى ميدان العلم لنذكر ما لاقى جاليليو عندما خرج بنظريته القائلة بأن الأرض كروية وتدور حول الشمس ، وكيف سجنته الكنيسة وعذبته وهى ترى نظريته كفراً ما بعده كفر ، وهى لا تدرى أن الأرض كروية فى كتاب الله نفسه !. وعندما خرج روجر بيكون الفيلسوف الانجليزى بنظرياته فى الكيمياء والطبيعة اتهمه مواطنوه بالسحر والشعوذة ، وبقى فى السجن عشر سنوات مغيباً وراء حاجز الحماقة والتعصب الأعمى ! .. وفى الميدان الدينى لست أظن أن هناك من هو أبرع من تصور يوحنا بنيان فى الحرب المقدسة عندما صور نفس الإنسان مدينة مسورة بسور عظيم ضخم ولها خمسة أبواب أطلق عليها باب الأذن ، وباب العين ، وباب الفم ، وباب الأنف ، وباب اللمس ، ..

أو فى لغة أخرى أبواب الحواس الخمس فى الإنسان ، وعندما تأتى قوات عمانوئيل لحصار المدينة ، فإن الشيطان يجهز دفاعه الأول لحراسة باب الأذن وذلك عن طريق الحارس الذى أطلق عليه « المتعصب الأعمى » الذى يقف خلفه ستون جندياً صم الآذان لا يسمعون ،.. وليس للجميع سوى التحزب والتعصب الأعمى الذى لا يقبل نقاشاً أو كلاماً !! .. وقد أبدع ج.د. جونز وهو يصف ملايين الناس التى رفضت المسيح بدافع التعصب الأعمى ، .. فهناك الملحدون واللاأدريون الذين رفضوه ، وأغرقوا العالم بالكتب التى تشكك فى شخصه الكريم ، .. وتعلم الناس أن الدين خرافة ، وليتهم يقودونهم إلى ما يمكن أن يكون تعويضاً — إذا أمكن أن يتصوروا تعويضاً عن يسوع المسيح — وقد قال بطرس قديماً : « إلى من نذهب . كلام الحياة الأبدية عندك » (يو ٦ : ٦٨) فإذا أنت قصدت الحديث مع ضحاياهم ، فإنهم يتعللون بهؤلاء الفلاسفة أو اللا أدريين وما يزعمون لهم أو عنهم من حكمة وفلسفة وفهم !! ... وهناك أصحاب المدارس العقائدية أو الفكرية التى خرجت فى أعقاب الغنوسية والأريوسية والنسطورية والبلاجية والأرمينية ممن ابتدعوا المعتقدات التى ضيعت الكثيرين ممن ساروا وراءهم بروح التعصب الأحمق الأعمى !! .. ولعل من أبشع مظاهر التعصب فى كل التاريخ الصراعات الدينية الدموية والتى أدت إلى الحروب ، ومن المحزن أن تأتى مذبحة سان برثولميو المشهورة فى التاريخ الفرنسى والتى قتل فيها الآلاف من الهوجونوت البروتستانت ، ودعيت كذلك لأنها حدثت فى عيد القديس بارثولماوس « نثنائيل » الرجل الذى كان أول تصوره عن المسيح : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شىء صالح » ..

نثنائيل وعلاج التعصب :

لم يحاول فيلبس أن يدخل فى نقاش مع نثنائيل ، ولم يحاول أن يثبت له بالبراهين المختلفة من هو يسوع المسيح ، لقد أحس أن المتعصب لا يمكن أن يكسب بالحوار ، بقدر ما يكسب بالاختبار ، ومن ثم قال له : « تعال وانظر » !! .. (يو ١ : ٤٦) ولعله من المعروف فى شتى الميادين أن النجاح وليد الاختبار العملى ، فالصناعات المختلفة والعلوم العديدة لم يقتنع الناس بالجدل حولها بل بالنتائج العملية التى أسفرت عنها ، والذين قاوموا الغزل الميكانيكى سارعوا إليه بعد أن شق طريقه فى وسط المنازل اليدوية ، .. والذين سخروا من قاطرات السكة الحديد ، ركبوها بعد ذلك ، وزالت سخريتهم أمام أثرها فى حياة الناس ، والذين قاوموا جاليليو ، علموا أولادهم فى المدارس نظريته التى آمن بها الجميع ، .. والذين رفضوا المشتقات الكيمياوية أو المعادلات الطبيعية ، عادوا إلى الأخذ بها ، والاجتهاد فى درس أفضل الطرق للوصول إلى الأنواع المختلفة فيها !! .. وكان فيلبس مهما برع فى التصوير أو الوصف أعجز من أن يعطى المسيح حقه لو حاول ذلك ، .. وأدرك أن الاختبار أعظم من الشرح ، واللقاء المباشر أعظم من كل وصف ، ومن ثم قال لنثنائيل : « تعال وانظر » ..

ذكر واعظ مشهور اسمه دكتور كيف وهو يتحدث فى أحد المؤتمرات فى بوسطن فى الولايات المتحدة : أنه بعد أن وعظ فى كنيسة كبيرة فى أحد أيام الآحاد جاءه شاب بعد الاجتماع ليشكره على العظة ، ويقول له : « ومع ذلك فإن المسيح عندى يختلف عن نظرتك إليه ، وعلى وجه الخصوص أنا ضد النظرة المعجزية عن يسوع المسيح » .. ولم يحاول دكتور كيف أن يجادل الشاب ، ولكن قال له : « هل لك أن تعدنى بأن تقرأ بعناية — وإن أمكن على انفراد — انجيل يوحنا !!؟ .. » .. فقال له الشاب : أعدك

بالتأكيد !! .. ولكنك لم تجبنى عن سؤالى عن المعجزات !! ؟ .. فقال له الرجل : لتؤجل السؤال بعض الوقت !! .. ومرت أسابيع عاد بعدها الشاب ليقول : لقد قرأت انجيل يوحنا واستمتعت بقراءة الانجيل ولكنى ما زلت عند موقفى الأول من المعجزات ، .. فصدم دكتور كيف من الجواب ولكنه عاد يقول له « يا صديقى أرجوك أن تقرأ مرة أخرى!! ؟ .. وعاد الشاب بعد أسابيع قليلة أخرى ، .. ولاحظ دكتور كيف أن هناك تغييراً واضحاً فيه ، فسأله: يبدو أنك فى وضع مختلف !!.. فقال: نعم وأنا لا أدرى كيف حدث التغيير ، لكنى وأنا أقرأ احسست أن معجزة حدثت معى ، إذ بدا لى من خلال القراءة أنى أكلم المسيح ، والمسيح يتكلم إلى ، وانتهت كل شكوكى وتساؤلاتى ، لأنى التقيت بالمسيح وجهاً لوجه !! ..

وقف أحد الملحدين فى حديقة هايد بارك بلندن يحاضر فى مجموعة من الناس ساخراً من يسوع المسيح ، وقد رسم رسماً كاريكاتورياً ينطق بهذه السخرية ، واستمع الكثيرون وتجاوبوا معه فى هذه السخرية ، ومر بالمكان فرانك سميث وكان من العاملين فى جيش الخلاص ، وقد التهب قلبه من الإهانة التى وجهت إلى سيده ، فما كان منه إلا أن طلب الحديث بعد أن أنهى الساخر المجدف كلامه ، .. وابتدأ يتكلم عن المسيح الحقيقى ، .. المسيح الذى اشتغل سنوات فى دكان نجار ، المسيح الذى كان صديق الفقير والطريد والبائس والمدوس ، المسيح الذى أحب الأطفال الصغار ، المسيح الذى جال يصنع خيراً ، المسيح الذى نادى بالقيمة العظمى للنفس البشرية الضائعة ، المسيح الذى أحب الناس ومات على الصليب من أجلهم . المسيح الذى لم يفعل خطية ، ولكنه مع ذلك لم يطرد واحداً اتجه إليه طلباً للنجاة من الخطية ، المسيح الذى وقف على رأس الخير والحنان والحب والرفق والرحمة فى كل الأرض على مدى أجيال التاريخ ، .. وما أن تكلم الرجل حتى انحنت الرءوس

وهتف العمال ليسوع المسيح صديق البؤساء والمنكوبين فى الأرض ، وولى الملحد هرباً من أمام جلال المسيح العظيم !! .. تعال مباشرة إلى المسيح وانظر !! .. لقد أخلى فيلبس نفسه من الاقناع بيسوع المسيح ، وترك الميدان للقاء المباشر بين نثنائيل والسيد ، وكان ذلك أفضل علاج للتعصب الذى بدأ به الرجل فى تصوره عن سيده !! ..

نثنائيل والاعتراف المجيد :

كان نثنائيل من ذلك النوع الحالم النفاذ البصيرة الممتد الرؤيا ، .. ومن الواضح أنه جلس تحت التينة بعيداً معزولا عن الناس يتأمل ويصلى ، ومن الواضح أن خياله عاد إلى أبيه يعقوب فى تلك الليلة التى خرج فيها شارداً من بيته وقد رأى حنان الله على الصورة المذهلة العظيمة ، .. فمع أنه خدع أباه وأخطأ فى حق أخيه ، ومع أنه كان ولاشك يلوم نفسه أعمق اللوم على ما فعل ، إلا أن الله ظهر له فى ذلك المكان : « ورأى حلما وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله اسحق . الأرض التى أنت مضطجع أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالا وجنوباً . ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض . وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض لأنى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به . فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً إن الرب فى هـــذا المكان وأنا لم أعلم . وخاف وقال ما أرهب هذا المكان ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء » (تك ٢٨ : ١٢ – ١٧) .. ومن المثير أن المسيح بدأ معه من هذه النقطة ، بل ربما نكون أدق وأصدق إذا قلنا إن المسيح جعـــل نثنائيل فى نفس المكان الذى بدأ منه يعقوب رحلته مع الحياة ، وما فعله السيد فى العهد القديم مع يعقوب عاد ليعمله بصورة أعمق وأكمل فى العهد

الجديد مع نثنائيل واخوته التلاميذ !! .. كان يعقوب فى عزلة ، وكان نثنائيل أيضاً ، ولم يكن يعقوب يتوقع قط أن يرى رؤياه العجيبة ، بل أنه خاف بعد هذه الرؤيا ، وقال « حقاً إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم » !!. ونفس الشيء كان مع نثنائيل إذ كان الرب فى المكان المنعزل يراه وهو لا يعلم ، ولأجل ذلك ذهل عندما حدثه المسيح عما كان يجرى فى أعماقه وسريرته ، .. كان الرجل من الرجال الذين يحسنون التأمل، وقد أشبع المسيح فيه هذه الرغبة العظيمة ، فقاده فى بحر التأملات العظيمة ، .. وهو يرى نفسه الآن لا مع نجار الناصرة ابن يوسف بل مع شخص عجيب هو ابن الله وملك إسرائيل !! ..

وفى الحقيقة إن الذين يسيرون مع المسيح ، لابد لهم من أن ينتقلوا من عالم المنظور إلى ما وراء المنظور ، حيث يقودهم السيد فى عوالم بعيدة بعيدة تتجاوز كل خيال بشرى ، وتمتد فى غير المنظور إلى ما لا يخطر على بال انسان ، وليس هذا من باب الوهم أو التمنى أو الخيال ، فإذا كان يعقوب قد رأى فى حلمه سلم السماء ، والملائكة تصعد برغبات الانسان إلى الله ، وتنزل بجواب الله على انتظار أبنائه وأحبائه ، .. فإن المسيح لم يعطنا أن نحلم ليلة واحدة بمثل هذا الحلم ، بل قد جاء متجسداً ليربط السماء بالأرض رباطاً دائماً ، ومن ثم فالرؤيا الجديدة أعظم وأجل من الرؤيا القديمة ، .. واتصال الله بالإنسان لم يعد حلماً متقطعاً بل حقيقة عظيمة واقعة وراسخة ومستمرة ! . وإذا كان يعقوب أمام الرؤيا القديمة قد استولت عليه الرهبة وصاح خائفاً : « حقاً ان الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم » ، كما تبين أن السماء ليست بعيدة عنه ، بل أنه فى المكان الرهيب على باب السماء ، فإن نثنائيل قد رأى المسيح ابن الله والملك العظيم الذى عاش اليهود فى كل أجيالهم يتطلعون وينظرون إليه !! ..

لم تعد قصة يعقوب إذاً مجرد قصة تاريخية يمكن أن يقرأها الانسان ويعجب بها أو يتسلى بما تثيره من خيال فى ذهنه ، أو نشوة فى مشاعره ، بل هى القصة التى أدرك فيها نثنائيل أن التاريخ يتكرر على صورة أمجد وأعمق ، فكما كان السيد ليعقوب — وهو هو أمسا واليوم وإلى الأبد — سيكون لنثنائيل أيضاً ، .. ونخطىء كثيراً إذا حسدنا يعقوب على بركة الله له فى فينئيل ، وننسى أن الخمر الجيدة هى التى تأتى فى الآخر ، وهو على استعداد أن يبارك نثنائيل ،ويباركنا ببركات روحية أعظم وأجل وأكمل من التى رآها يعقوب نفسه طوال حياته على هذه الأرض !! ..

عندما صاح نثنائيل : « أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل » ، وعندما توجه ملكاً على حياته ، وركز تاريخه وخدمته ومشتهياته فيه ، لم يعد جالساً تحت التينة يحلم بسعادة أبيه القديم ، بل تحول هو حركة نشطة مباركة فى خدمة يسوع المسيح ، وليكتب اسمه على السور العظيم لمدينة الله الخالدة أورشليم السماوية ، .. وأخذ من البركات ما يجل عن الوصف ويسمو على التصور .. قال أحدهم إن المسيح هو سيد المفاتيح « الماستركى » لخزائن الملك فإذا كان فى بيتى مفتاح خاص لكل قفل فيه ، .. فإن المسيح وحده هو سيد المفاتيح الذى يفتح كل قفل ، وأنت لا تستطيع أن تصل إلى كنوز الله الكاملة إلا بيسوع المسيح «الذى يفتح ولا أحد يغلق ويغلق ولا أحد يفتح ».(رؤ٣: ٧).. من المؤكد أن نثنائيل لم يعرف الثروة الطائلة التى عرفها جده القديم يعقوب والتى كان حريصاً عليها كل الحرص ، .. لكن نثنائيل أدرك فى المسيح الغنى الذى لا يستقصى ، وقدم للكثيرين وليمة أعظم من تلك التى قدمها سير رتشارد وتنجتون لهنرى الخامس ملك انجلترا ، .. كان الوقت شتاء وقد عاد هذا الرجل الملك إلى حفل عظيم ، وكانت المدافىء تتقد بالأخشاب العطرية التى يفوح منها الأريج العطر يملأ المكان ، ولكن أجمل رائحة كانت

من شيء آخر ، عندما طرح صاحب الوليمة سندات دينه على الملك ، وكانت قيمتها ألوفاً كثيرة من الجنيهات الاسترلينية ، .. لقد قيل إن الملك عندما أبصر هذا المنظر بكى تأثراً وذهولا ! فإذا كان الكثيرون لا يملكون ثروة ابراهيم واسحق ويعقوب المادية ، .. لكننا لسنا أقل ثروة منهم فى غنى عفوه إذ محا الصك الذى كان علينا ، والذى خرج تلاميذه ورسله وخدامه فى كل الأجيال ليبشروا به ، . بغنى المسيح الذى لا يستقصى !! .. ولذلك قد يكون غريباً أن تحتفظ الكنائس التقليدية بسيل لا ينتهى من التقاليد عن نثنائيل أو برثولماوس ، فتزعم بعضها أنه الوحيد بين التلاميذ الذى كان يجرى فيه الدم الملكى ، وهو ينسب مرة إلى تلماى ملك جشور الذى ولد معكه أم أبشالوم بن داود ، وهناك من رده إلى البطالسة ملوك مصر ، ولكن ذلك ينفيه قول المسيح : « إسرائيلى حقاً لا غش فيه » .. ولسنا نظن أنه فى حاجة إلى نسب الملوك ، وقد كان مجده الأعظم أن يضحى ملكا وكاهناً وتلميذاً ورسولا من رسل المسيح الاثنى عشر ، كما أنه ليس من السهل أن نحدد الأماكن التى نادى فيها برسالة المسيح ، فهى تمتد جريا وراء التقاليد من ليبيا إلى مصر إلى فريجيه إلى أرمينية إلى فارس إلى الهند ، .. والكنيسة الأرمنية تؤكد أنه مؤسسها وبانيها ، وقد قيل إنه كان بهى الطلعة جميل المنظر ، وإنه مات — فى عرف البعض — مسلوخاً فى أرمينيا ، وفى عرف آخرين مصلوباً كبطرس رأسه إلى أسفل وقدماه إلى فوق !! .. والكنيسة اللاتينية تجعل له عيداً سنوياً فى ٢٤ أغسطس ، واليونانية فى ١١ يونيو ، ويقولون إن رفاته تنقلت فى أماكن عديدة حتى انتهت إلى جزيرة على نهر التيبر ، حيث تثوى هناك ، .. ونحن لا نشغل أبداً بمثل هذه الصور التى تتحدث عن النسب أو الشكل أو المصير الأرضى ، لأننا على حد قول الرسول بولس : « إذاً نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد . وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد » (٢ كو ٥ : ١٦) ..

كانت مذبحة سان برثولميوانى التى قتل فيها عشرات الآلاف من الهوجونوت البروتستانت — وهى من أكبر جرائم التاريخ الفرنسى — قد تمت فى يوم العيد الذى يحمل اسمه ، وقد ظن القتلة بهذا العمل أنهم يقدمون خدمة لله ، .. الأمر الذى يقف ضده نثنائيل على طول الخط ، والذى يقف ضده كل مسيحى حقيقى يؤمن بيسوع المسيح لأن ابن الله وملك اسرائيل الذى هتف له نثنائيل ، هو السيد الذى لم يأت ليدين العالم بل ليخلص به العالم !! .. السيد الذى — صدق أحدهم وهو يقول عنه — : عندما تتوجه على عرش قلبك ، لا تسمح لآخر أن يجلس على العرش الذى شرفه هو بالجلوس عليه .. وهذا صدق وحق .. ليتنا جميعاً نفعل هكذا لملك الملوك ورب الأرباب الذى له المجد الدائم من الدهر وإلى الأبد آمين ..

٩٣
متى

« وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى انسانا جالسا عند مكان الجباية اسمه متى . فقال له اتبعنى » (مت ٩ : ٩)

ربما لا يجد المرء كلمات أروع مما كتب جون رسكن عن متى عندما قال : « لو طلب إلينا أن نختار كتاباً واحداً من بين أسفار الكتاب المقدس للصديق السجين أو المنعزل فى الصحراء ، فإنى أفضل أن أعطيه إنجيل متى ، إذ أنى أعتقد بأننا لم نفكر بما فيه الكفاية فى طبيعة الرجل الذى درج على كتابة إيصالات التحصيل ، ليتركها إلى كتابة هذا الكتاب النادر » .. لقد صوره كارباكسيو المصور البارع وهويترك ايصالات الجباية مستجيباً لدعوة المسيح رمزاً للدعوة العامة القائلة لكل مؤمن : « فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذاً » (لو ١٤ : ٣٣) .. وإذا قابلنا متى بغيره فإنه يتضح لنا من المقابلة صعوبة موقفه ، إذ من السهل إذا وجهت إلينا دعوة من سيد لطيف لنترك شباكاً قد تكون فارغة أغلب الوقت

وليالى متعبة ومضنية فى الصيد ، ونتحول لصيد الناس ، .. فمن السهل أن نسرع الخطى نحو هذه الدعوة ، فيعقوب ويوحنا لا يبذلان جهداً كبيراً فى الاستجابة ، وبيتهما ليس أغنى كثيراً من بيت المسيح ، وتوما وفيلبس اللذان ربما سمعا المعمدان ، وكانا يفكران ويتأملان ، ربما جاءت إجابتهما نتيجة التأمل والتفكير العميق ، .. لكن هذا الرجل الجالس عند مكان الجباية ، والمنهمك فى التحصيل ، والمنشغل بخدمة الحكومة الأجنبية ، يسمع دعوة السيد القائلة : « اتبعنى » . وإذا به فى سرعة البرق ، يمد يده إلى السيد ، ويقول له : معك حتى الموت ، ويترك دفاتر التحصيل ومركزه المرموق عند السلطات الرومانية إلى غير رجعة ، مثل هذا الرجل تصلح قصته أن تعاد وتروى !! .. وها نحن اليوم نتابعها كمثل متميز ظاهر بين تلاميذ المسيح !! .

متى العشار :

لقد ألفنا قراءة كلمة « عشار » ، حتى أضحت الكلمة كالعملة الباهتة التى لا تظهر معالمها من كثرة الاستعمال ، لكننا نستطيع أن ندرك وقعها على الناس من مجرد مقارنتها أو مقابلتها بغيرها من الكلمات التى كانت تستعمل فى أيام السيد المسيح ، .. وقد يكون أعمق وأدق أن نرى متى نفسه يستخدم الكلمة ، ويقارنها بالمألوف فى أيامه ، فهو يذكر مثلا فى الموعظة على الجبل قول السيد : « فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم . أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك وإن سلمتم على اخوتكم فقط فأى فضل تصنعون . أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا ؟ » (مت ٥ : ٤٥ — ٤٧) .. وعندما أقام حفلا للمسيح قال : « وبينما هو متكىء فى البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه . فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة . فلما سمع يسوع قال لهم لا يحتاج الأصحاء

إلى طبيب بل المرضى » (مت ٩ : ١٠ — ١٢) .. وفى حديث المسيح إلى التلاميذ قال : « وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار » (مت ١٨ : ١٧) .. وإلى رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب : « قال لهم يسوع الحق أقول لكم إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله . لأن يوحنا جاءكم فى طريق الحق فلم تؤمنوا به . وأما العشارون والزوانى فآمنوا به » (مت ٢١ : ٣١ ، ٣٢) .. فإذا جمعنا هذه المقارنات والمقابلات ، يتبين لنا مدلول كلمة عشار عند اليهود فهو ذلك الإنسان الشرير الظالم الخاطىء الذى يمكن أن تضعه مع الوثنى أو الزانى على حد سواء ، ولسنا نظن أن هناك صورة أبشع من هذه الصورة فى ذهن الناس ، .. فإذا عدنا إلى متى بالذات ، يمكن أن ندرك أن اسمه الأصلى « لاوى بن حلفى » ، وقد دعا هذا البعض ليعتقد أنه أخو يعقوب بن حلفى ، وأنه ذو قرابة للمسيح ، ولكن ليس هناك من دليل على ذلك ، .. وإن كان من المتصور أن الاسم « لاوى » يشير إلى أنه كان أساساً من سبط لاوى ، وأن أبويه كانا تقيين وأطلقا عليه هـذا الاسم ، وهما يأملان أن ابنهما سيصبح كاهناً أميناً لله فى يوم من الأيام ، بل من المعتقد أن هذا الرجل بدأ بداءة طيبة ، فهناك ظاهرة تدعو إلى العجب ، وهى أنه لا يوجد بين جميع كتبة الوحى فى العهد الجديد من اقتبس من العهد القديم مثله ، أو كما يقول كامبل مورجان : إن اقتباساته لم تزد فقط عن مرقس ولوقا ويوحنا كل على حدة ، بل هى أكثر منهم مجتمعين ، .. وقد جاء فى انجيله ما لا يقل عن تسعة وتسعين اقتباساً من العهد القديم ، ومهما يقل البعض من أن هذا يمكن أن يكون من دراساته المتعمقة بعد تجديده ، إلا أن هذا قد يعطى إشارة إلى أن الرجل فى مطلع حياته ، لم يكن مقطوع الصلة بكتابه المقدس ، .. على أى حال ، إن المحلل لشخصيته لا يمكنه إلا أن يعود إلى ماضيه ، وإلى آمال أبويه أو ربما آماله هو فى حياة سامية نبيلة كريمة

عرف مدلولها ومعناها من القراءة المستمرة لكلمة الله !! . لكن هذه الخلفية العظيمة لقصة حياته ، تحولت مأساة كبرى ، عندما شق الطريق العكسى فى الاتجاه الآخر . وقد أدرك بحق ما دونه فى انجيله من أقوال المسيح فى الموعظة على الجبل : « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » (مت ٦ : ٢٤) .. ونحن لا نعلم كيف وقع هو فى هذا الفخ ، وكيف نصب له الشيطان هذا الشرك المخيف ، فتحول عن أن يكون كاهنا لله العلى ، إلى معبد الشيطان ليعبد المال ، .. وناهيك عن الفساد والظلم اللذين ارتبطا بهذه العبادة ، .. ولقد قيل إن الامبراطورية الرومانية صنعت تمثالا لعشار لأنه ثبت أنه الوحيد الذى لم يكن يتقاضى أكثر من المطلوب ، .. وذلك لأن الانسان عندما يصاب بسعار الغنى ، فإنه يتحول إنساناً وحشياً : « لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة » (١ تى ٦ : ١٠) .. مثل هذا الانسان يكون على أتم استعداد لأن يرتكب كل موبقة وشر فى سبيل الحصول على المال ، وهو فعلا مريض كما ذكر السيد المسيح فى حفل متى قائلا : « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى » (مت ٩ : ١٢) .. وهو لا يفرق شيئاً عن الكلب المسعور الذى يسيل لعابه ويعقر من يقترب منه ، .. وبالنسبة لليهودى قد جعل قريناً « للوثنى » لأنه خروج من الصف اليهودى إلى الصف الوثنى المضاد ، إذ أن العشار يتحول فى الواقع وثنياً فى خدمة الامبراطورية الرومانية دون أن يبالى بأى عقيدة أو دين ، .. لأن دينه أضحى المادة التى يعيش من أجلها ، ومن يعيش من مال الكافر ، فليحارب بسيفه ، كما يقولون ، وهو أدنى إلى الزانى ، منه إلى أى انسان آخر ، لأنه باع شرفه ، كما تبيع الزانية شرفها من أجل المال ، وهى على استعداد للخيانة وارتكاب

فى نظره تأخذ الانسان من العالم الغنى بمسراته وشهواته ، لتقوده إلى حرمان بالغ ، هو – فى نظره – والموت شيء واحد ، وهذه أكبر أكذوبة يضعها الشيطان أمام الانسان فى كل العصور ، وهى الأكذوبة التى أدركها أوغسطينوس فيما بعد ، كلما رأى أمه تصلى من أجله ، وكان خائفاً من أن يستجيب الله لدعواتها ،فيحرمه مما هو فيه من متعة وشهوة وانطلاق واباحية ، إلى أن تبين فيما بعد حماقة هذا التفكير وضلالته وبعده عن الحقيقة ، وعاد يندم على السنوات الأولى من حياته التى امتصها العالم ، وعاشت على خرنوب الخنازير وصاح : « يؤلمنى أننى أحببتك متأخراً أيها الحبيب الجميل القديم الأيام !!.. » وقد أدرك متى هذه الحقيقة ، إذ تمتع بغنى المسيح الذى لا يستقصى لقد رأى متى فى دعوة المسيح المباركة :

غنى النعمـــة :

عندما دون متى اسمه فى قائمة الرسل فى الأصحاح العاشر من انجيله ذكر : « توما العشار » .. والاسم « متى » أو « عطية الله » هو الاسم الذى أعطاه له المسيح – على الأرجح .. وكان يمكن أن يتحدث عن اسمه دون أن يلصق به اللقب القديم ، .. ولكن الرجل أدرك النعمة الغنية المتفاضلة ، والتى هى عطية الله المجانية التى أسبغت على العشار الذى وضعه العالم فى مرتبة الزناة الأثمة الفجار المحتقرين !! .. كان متى ولا شك من أعمق الرسل الاثنى عشر إحساساً بغنى النعمة التى نقلته من وضعه المهين الآثم إلى مركزه الجليل العظيم ، . ولم يستطع الرجل أن يتجاوز الصفحة الأولى من انجيله قبل أن يسجل نسب المسيح وارتباطه براحاب الزانية ، وثامار الملوثة ، وبثشبع بواقعتها الرهيبة ، ولعله قصد بذلك أن يكشف عن غنى نعمة المسيح التى تمتد إلى أشر الخطاة والفجار والأثمة !! .. أجل إن الكثيرين من المؤمنين وخدام الله سيجدون – على الدوام – متى أقرب إليهم فى حياتهم وخدمتهم ورسالتهم من بطرس

ويعقوب ويوحنا، .. ألم يكن أوغسطينوس الفاسق أقرب إلى هذا العشار الآثم من بقية التلاميذ؟ وألم يكن يوحنا نيوتن الذى انطلق وراء شهواته العارمة بلا حدود أو قيود فى السفينة التى كانت تصطاد العبيد وتسرقهم للبيع والاستعباد، أدنى إلى العشار القديم من سائر تلاميذ المسيح !! .. نعم سأقرأ هذا الانجيل وأرى فيه وفى كاتبه نعمة المسيح الغنية المتفاضلة التى فتحت الباب أمام الأحمق والملوث والمستبيح والشرير والدنس والخاطىء، .. وسأغنى، لكل خاطىء، كما غنيت لنفسى مع الرسول العظيم: « صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا » (١ تى ١ : ١٥) .. اضطجع جون كوتس — أحد جبابرة البحار — فى غرفته الخاصة بالباخرة، وقد عاش حياته بأكملها كما يعيش البحارة الآثمون، وقد أوغل فى الفساد إلى الشوط الأخير، ولكنه الآن وهو يطل على ماضيه بأكمله روع لأن النهاية تقترب بدون رجاء، .. لقد أحس فى تلك اللحظة بحاجته إلى الله، وهو لا يعلم كيف يواجه النهاية، .. طلب من أحد الضباط أن ينحنى بجوار سريره ويصلى من أجله، وأجاب الضابط: لست متديناً لذلك ليس عندى الكتاب المقدس فقال كوتس: ابحث لى عن شخص على ظهر السفينة يكون معه الكتاب المقدس فتحير الضابط وخرج يسأل عن شخص يستطيع أن يعزى القبطان ويطيب خاطره فى آخر لحظات حياته، .. ووجد بين ركاب الباخرة صبياً صغيراً يحمل معه الكتاب المقدس، فأسرع باستدعائه ليقترب من القبطان الذى قال له: اقرأ لى شيئاً يابنى فإننى أموت وأنا فى حاجة إلى سماع كلمة عن رحمة الله بخاطىء مسكين مثلى !! .. لم يعرف الصبى أن يقرأ، ولكنه تذكر ما طلبت أمه منه أن يقرأه وهو فى الباخرة وكان الأصحاح الثالث والخمسين من سفر إشعياء، فابتدأ يقرأ حتى وصل إلى العدد الخامس: « مجروح لأجل معاصينا

مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا » .. استمهله القبطان الذى كان يصغى بكل تأمل قائلا : تمهل يا بنى ، أعد هذه الآية مرة أخرى فكررها الصبى على مسمعه ، فقال القبطان : حقاً ما أطيب هذا الخبر ! فتشجع الصبى وقال : أيها القبطان لما كنت أقرأ هذه الآيات أمام أمى كانت تطلب منى أن أضع اسمى فيها فهل تسمح لى أن أقرأها كما علمتنى أمى ؟ ! وراح يقول : « مجروح لأجل معاصى وليم بلات مسحوق لأجل آثام وليم بلات ، تأديب سلام وليم بلات عليه وبجبره شفى وليم بلات » .. حينئذ أشرق وجه القبطان وقال له : « يا ابنى أعد قراءة هذه الآيات وضع اسمى فيها فقال الصبى : « مجروح لأجل معاصى جون كوتس مسحوق لأجل آثام جون كوتس ، تأديب سلام جون كوتس عليه وبجبره شفى جون كوتس ». وقال القبطان : « كفى يا ابنى ، اذهب الآن إلى مكانك وعندما دنت ساعة الانطلاق كان وجهه يفيض بالسلام وهو يردد هذه الكلمات الغنية التى لا يستطيع مال العالم كله أن يعطى ما هو أثمن منها أو أعظم ! ! .. إنها النعمة الغنية لمثى . ولجون كوتس ، ولى ، ولك ! ! .. إنها عطية الله فى المسيح يسوع ! ! ..

غنى الشركة :

فى القرن السادس عشر حدث أن بحاراً بريطانياً عاد إلى وطنه بعد أن أنفق حياته أو الجانب الأكبر منها فى سفن السير فرانسيس دريك . كان قد اجتاز البحار السبعة مع القبطان العظيم ، وعندما عاد إلى وطنه لم يكن يملك جنيهاً واحداً وقد وبخه أحد أصدقائه على ذلك ، وقال له : ماذا نلت بعد هذه السنين كلها .. وأجاب الرجل : لقد تعرضت للبرد والجوع والخوف والغرق على أنى متيقن أن عندى شيئاً واحداً : لقد كنت مع أعظم قبطان عبر البحار ! ! .. ولعل متى بمعنى أسمى وأعلى كان يمكنه الحديث عن

الرابطة التى ربطته بيسوع المسيح بعد أن مر به عند مكان الجباية وقال له اتبعنى !! ..

ربما لم يكن يملك متى المال القديم الذى كان يسيل بين يديه عندما كان عشاراً ، ولكنه وهو يعيش هذه الحياة ، لم يكن فى الحقيقة يملك المال بل كان المال يملكه ، وهو أشبه بالطائر الحبيس فى قفص من ذهب ، أو أشبه بذلك النسر الجريح الذى وجده واحد من السجناء المنفيين فى سيبريا ، فأخذه إلى غرفة السجن المظلمة اشفاقاً عليه ، وعلى جراحه ، وعندما وطىء النسر أعتاب السجن أرخى جناحيه واتخذ له ركناً ذليلا ، وابتدأ ينكمش ويذبل حتى كاد يموت من الضعف ، وإذ أبصره السجناء على هذه الحال فكروا فى تحريره ، فحملوه إلى الخارج ، وألقوا به بعيداً ، وهم يتمنون له حظاً أفضل من حظهم ، وتطلع النسر إلى الأفق البعيد والشمس المشرقة والنسيم العليل ، وانتفض من مكانه إلى سماء الله التى هى مكانه الطبيعى فى الحياة !! .. ألم يكن لاوى بن حلفى هذا النسر السجين الذى خلقه الله أساساً ليكون واحداً من تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، ولكن روما أخذته ليكون مجنداً فى خدمتها ، بعيداً عن الرسالة التى وضعها الله عليه من قبل خلق العالم : « لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها » (أف ٢ : ١٠) .. ووضعته فى قفصها الذهبي ردحا من الزمان حتى أعتقه يسوع المسيح بغنى فضله وجوده وامهاله وطول أناته !! ..

ومن المعتقد أن السيد المسيح التقى بمتى قبل هذه الدعوة ، وعلى الأغلب تحدث إليه ، أو جهزه وأعده ، كما سبق أن أعد بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا قبل دعوتهم للتفرغ للخدمة ، .. ولكن مهما كانت دعوة هؤلاء . فإنها لا يمكن أن تقارن بدعوة متى ، فهم كما سبقت الإشارة لم تكن

تضحيتهم كبيرة إذا قوبلت بتضحيته هو ، فكل ما ضحوا به هو شباك فارغة ممزقة ، وقارب أو بعض قوارب لا تكاد تساوى شيئاً ، أما هو فقد ضحى بالمال والسلطة والمركز ، وهى من أصعب الأشياء التى يمكن أن يضحى بها الإنسان فى الأرض ، .. ولا شبهة فى أن الرجل كان معذباً فى أعماقه بها جميعاً حتى جاءه ذلك الوجه الجذاب والنداء القوى ، فإذا به يطوح بها بكل ما يملك من قوة ، وقد أخذه الفرح البالغ : « وصنع له لاوى ضيافة كبيرة فى بيته . والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعاً كثيراً من عشارين وآخرين !! .. » (لو ٥ : ٢٩) .. كانت المرأة تتحدث مع زوجها على المائدة عن أصدقائهما الذين أثروا ووجدت نفسها وهى لا تدرى تقول : ونحن أيضاً سنصبح يوماً ما أغنياء !! .. وإذ سمع زوجها هذا قال وقد أمسك يدها بحنان : « يا حبيبتى نحن الآن أغنياء !! .. وسيصبح لدينا مال فى يوم ما !!.. وأدركت الزوجة للمرة الأولى أن كلمة غنى تختلف عن كلمة مال !! .. واستطرد زوجها فى القول : نحن أغنياء يا حبيبتى لأن سعادتنا تنبع من داخلنا لا مما حولنا من ثراء » .. نحن أغنياء بهذه العافية المتدفقة من وجنيتك ، وهذا الاخلاص الذى يربط حياتنا ، وهذا الطهر والبسمات التى نعيش فيها !! .. نحن أغنياء لأن المال وحب التشبه ، كما يقول برتراند راسل هما سبب شقاء الدنيا ، نحن نريد أن نبنى قصراً لأن غيرنا بنى قصراً ، ونمتلك سيارة لأن غيرنا يمتلك سيارة ، .. كان رجل عنده زوجة جميلة ، ولكنه كان حزيناً لأن كليوباترة كانت أجمل !! .. وقص الرجل على زوجته قصة الصحفى الذى زار مليونيراً وهو يحمل عشر ورقات ليملأها عن سعادة الرجل ، والخدم ، والحشم ، والمائدة الحافلة ، والأطايب التى لا حصر لها ، ..وإذا به يجد أمامه وجهاً لا يعرف الابتسامة ، بل يجلس على كرسى ، وهو مريض ومحروم من الطعام ، ولا يأكل ويشرب إلا كوباً من عصير البرتقال وقطعة

خبز بأمر الطبيب ، .. وخرج الصحفى يشكر الله أنه ليس صاحب ملايين .. إن صاحب المال كغيره من الناس له متاعبه ومآسيه وآلامه وأحزانه ، وربما هى أقسى الآلام وأشدها ! ! ..

لقد قطع متى كل علاقته بروما واستضاف يسوع المسيح وعرف الرجل معنى السعادة والفرح الصحيح فى يسوع المسيح !! ..

متى وخدمته العظيمة :

يعتقد دكتور وليم كيف فى كتابه العظيم عن الرسل أن : « الفضيلة الكبرى لمتى ربما كانت التواضع ، فهو صغير وحقير أمام نفسه ، وفى المقابلة مع الآخرين كان يفضلهم على ذاته . فإذا ذكر البشيرون الآخرون الرسل اثنين اثنين فانهم يضعونه قبل توما ، أما هو فيعكس الوضع ويقدم توما عليه ، ولأجل هذا كان من الصعب أن يبرز فى انجيله شيئاً يختص بشخصه . وليلفت الأنظار إليه ، .. وذهبت خدمته فى الكثير من تفاصيلها معلومة أمام الله أكثر من ظهورها أمام الناس ، ونحن لا نستطيع الاعتماد على التقاليد — التى تتضارب فى مرات كثيرة ، وقد ذكرت أن خدمته الأولى لمدة ثمانى سنوات كانت فى اليهودية ، ثم امتدت إلى الحبشة والعربية حتى وصلت تدمر فى الصحراء العربية. وهناك من قال إنه ذهب مع اندراوس للخدمة حول البحر الأسود .. على أنه مهما اختلف الحديث حول أماكن خدمته فإن الشىء الذى لا خلاف عليه هو انجيله . .. وإن كان الرجل قد قد اختفى نفسه ، خلف هذا الانجيل ، لكن انجيله سيتكلم حتى تنتهى الأرض وما عليها ومن عليها !! .. ومن أجمل ما قاله الكسندر هوايت أن متى وهو يستجيب لنداء المسيح عند مكان الجباية ، كان الشىء الذى أخذه معه القلم والحبر ، وسواء كان انجيله أسبق من انجيل مرقس أم العكس صحيح ، فما لاشك فيه أن الرجل قد ترك وراءه بهذا الإنجيل الثروة التى لا يمكن أن تنفد

على الاطلاق ، وهل ننسى أنه حفظ لنا التقرير الأكمل عن الموعظة على الجبل وأنه دون بمفرده عشرة أمثال ليسوع المسيح ، وأنه هو الذى تحدث عن مجىء المجوس والهرب إلى مصر ، وسير بطرس على الماء ، وخيانة يهوذا وانتحاره ، والكثير من الحقائق والتحذيرات الهامة التى وجهها المسيح إلى الآخرين ، .. كما أن هذا الإنجيل الجليل كشف عن المسيح الملك . ويمكن أن يقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهى أولا : الأيام الأولى للمسيح : (مت ١ — ٤:١٦) وثانياً : معجزات وأعمال المسيح (مت ٤ : ١٧ — ١٦ : ٢٠) ، وثالثاً آلام المسيح (مت ١٦ : ٢١ — ٢٨ : ٢٠) . . !! .

فى الواقع لا يمكننا أن نختم الحديث عن متى وانجيله دون أن نشير إلى الكلمات الرائعة التى قالها فرانسيس الأسيسى ذات يوم عندما قال : « ما أجمل هذه الدنيا إن استطعتم أن تتخلصوا مما فيها من قيود ، وما قيودكم إلا المال والسكن والمأكل والملبس . تعالوا انظروا إلى الأشياء الحقيقية فى الحياة ، تعالوا واحيوا حياة الروح ، وأنيروا كالشعلة ، وأينعوا كالزهرة ، وفيضوا كما يفيض المجرى المتدفق من الجبل !! .. وعندما تحرر متى من استعباد المال ، وعندما انطلق فى طريقه فى الأرض ينادى برسالة المسيح ، ويبشر بانجيله ، عرف الطريق إلى الخلود ، وكتب اسمه على السور العظيم لمدينة الله ، .. وعرف بعمق وجلال ومجد ، ماذا تفعل النعمة فى حياة الانسان الذى شاء الله برحمته وجوده ورعايته وإحسانه أن يجعله « عطية الله » لنفسه وللناس ، ولكل الأجيال التى ما زالت إلى اليوم تقرأ انجيله المبارك الخالد . . انجيل متى !! ..

٩٤
تومـا

« وتوما الذى يقال له التوأم » (يو ٢١ : ٢)

كان توما الوحيد بين الاثنى عشر الذى يطلق عليه التوأم !! ؟ وقد اختلفت التفاسير حول المقصود بكلمة « التوأم » والرأى الغالب أن أمه حبلت به فى بطنها مع آخر ، ظنه البعض بغير دليل متى لمجرد أنه كان يأتى فى ترتيب الأسماء سابقاً أو لاحقاً للبشير متى ، وهو قول لا يقوم على أساس ، ولا يظهر من روح الانجيل أو رؤيته أنه راجح أو دقيق ، .. وهناك تقليد قديم أن الآخر كان اختا اسمها لوسيه ، .. على أن هناك تفسيراً عجيباً يتجه إلى أنه أطلق عليه اللقب لأنه كان توأم نفسه ، أى به ذلك الأزدواج الذى يتكرر إلى حد ما فى شخصية الانسان الذى لا يستقر على حال ، فهو مرة مؤمن غاية الإيمان ، وأخرى يكاد يكون لا إيمان له ، .. وهو صورة للصراع النفسى الذى صوره الرسول بولس فى الأصحاح السابع من رسالة

رومية ، .. على أنى أود أن آخذ التوأم بصورة أخرى ، قد ترضينى وتريحنى أكثر ، .. إن هذا الرجل أخذ مركزه فى وسط التلاميذ ، وأنا وأنت توأمه الصحيح ، لقد قبله المسيح رغم التذبذب الشديد الذى يرتفع إلى أعلى الجبال أو يهبط إلى أعماق الوديان ، .. وهذه صورتى وصورتك التى لا تستقر قط على حال فى سير الحياة على الأرض ، .. وهو الرجل المحاط بالضباب ، أمام الطريق المجهول ، وهو يتساءل مثلى ومثلك « لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق » !! .. (يو ١٤ : ٥) وهو الرجل الذى ينعزل فى الأمة وأحزانه ، والدنيا كلها لا تستطيع إقناعه ، حتى يصبح أمام رؤية المسيح : « ربى وإلهى » !! .. (يو ٢٠ : ٢٨) فإذا سألك أحد بعد ذلك من هو التوأم الآخر لتوما ، فيمكنك أن تخرج له من جيبك صورتك الصغيرة ، وتقول هذا هو توأم توما ، .. أو تقدم له مرآة ينظر فيها إلى وجهه ليرى الأخ الحديث للتلميذ القديم بين الاثنى عشر ، .. وشكراً لله لأنه قبل توما القديم وما زال إلى اليوم يقبلنى ويقبلك !! ..

توما من هو :

يرد اسم توما فى الأناجيل الثلاثة الأولى مجرد اسم فى قائمة الاثنى عشر ، وهو يرد فى هذه الأناجيل مرتبطاً باسم متى ، كما سبقت الإشارة ، مع ملاحظة أن متى فى انجيله يقدم اسمه على اسمه هو ، وإن كان فى مرقس ولوقا يرد اسمه لاحقاً لمتى . .. ويظن البعض أنه كان صياداً ، دون أن يقوم الدليل الثابت على ذلك . .. وقصته تظهر فى إنجيل يوحنا فى أكثر من موضع وموقع ، .. ونستطيع أن نتعرف على خلاله وسجاياه ، بصورة واضحة ونحن نتعقب هذه المواقع . وهو يبدو أول كل شيء الإنسان الوفى العميق الوفاء والاخلاص ، .. الإنسان الذى أحب سيده حتى الموت ، وهو على استعداد كامل أن يموت معه ومن أجله ، .. ويبدو هذا عندما كان السيد

يواجه الخطر ، وقرر الذهاب إلى بيت عنيا عندما سمع عن مرض لعازر ، وكانت عداوة اليهود قد استحكمت ضده ، وحاول التلاميذ وهم فى العبر أن يمنعوا المسيح من الذهاب إلى بيت عنيا ، حتى لا يواجه الخطر الماحق الذى يواجهه ، وإذ أصر السيد على الذهاب أيقن توما أنه لابد أن يموت هناك ، فوضع قراره الثابت المؤكد : « فقال توما الذى يقال له التوأم للتلاميذ رفقائه : لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه » .. (يو ١١ : ١٦) ومهما يكن من تصوره أو احساسه بالخطر ، إلا أنه أعطى صورة الرجل الوفى العميق الوفاء والحب لسيده العظيم ، .. إنه يعطى صورة للمسيحى الصحيح فى مشاعره تجاه السيد ، .. وهو هنا صديقى وتوأمى الحلو الجميل ، وإذا كان أحد الشبان الفرنسيين وهو يصعد إلى المقصلة ، ويستمع . لمن يقول : « مسكين هـذا الشاب إذ يذهب شبابه الجميل الغض هكذا ! ! .. » وإذ يسمع الشاب هذا . يتلفت إلى الراثين له ليقول : « أيها السادة لست أنا المسكين بل أنتم المساكين الذين لم تذهبوا وراء ملككم ووطنكم وعهودكم ! ! .. » أى توما ما أكثر ما يخطىء الناس فهمك ! وما أكثر ما يعجزون عن أن يصلوا إلى أغوار قلبك ! وما أكثر ما استوقفتهم صور أخرى عنك ! ! .. لكنى مع ذلك سأذكرك أخاً توأماً شقيقاً كلما لاح فى الأفق ما يستدعى الدفاع عن اسم السيد ، أو يستدعى الشهادة أو الاستشهاد من أجل اسمه ، .. أجل أنا أعلم أنك لم تمت فى بيت عنيا ، وأن موتك تأخر سنوات طويلة بعد ذلك ، وأنه حدث على الأغلب فى الشرق البعيد ، فإذا صح التقليد ، فإنه كان على مقربة من بمباى فى الهند ، وأنك مت وأنت راكع تصلى ، بطعنة رمح ، .. ومهما يكن المكان والزمان فإنك لم تركع لأحد فى شجاعتك الكاملة فى مواجهة الخطر ، إلا لذلك الذى يحق له وحده السجود والركوع ! ! .. إن شعارك شعار المسيحى الصحيح الذى يقول : أموت حيث هناك واجبى ! ! .. لم يكن توما محباً مخلصاً شجاعاً

فحسب ، ولكنه كان إلى جانب ذلك الإنسان الصريح البعيد الصراحة ، كان المسيح يتحدث فى الليلة التى أسلم فيها عن تركة التلاميذ والذهاب إلى أبيه ، وأنه سيذهب وسيعلمون الطريق الذى سيذهب فيه ، وأغلب الظن ، أن التلاميذ لم يفهموا جميعاً المعنى المقصود من الذهاب والطريق ، و صمتوا فى حيرتهم إلا توما الذى كان صريحاً وهو يقول : «ياسيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق »(يو ١٤ : ٥) والصراحة أساسها فى الواقع الاخلاص للحقيقة حسبما تصل إلى فهم الانسان وإدراكه ، لقد كان مخلصاً للمسيح فى محبته ، وتكشف الاخلاص عن استعداده للموت مع السيد أو من أجله ، .. وكان مخلصاً لفكره وذهنه ، فهو لا يدعى علما لا يستطيع الوصول إليه ، ولا يتظاهر بمعرفة تبدو فى الحقيقة بعيدة عنه ، والله يسر كثيراً بمثل هذا الإنسان ، الذى لا يعرف الالتواء أو يتحدث بالرياء ، وما أكثر الذين يفعلون هذا بمختلف المظاهر والطرق ، فهو ينطق مثلا بحمد الله وقلبه ممتلىء بالتذمر والتمرد ، وهو يزعم الإدراك والفهم ، وهو كثير الحيرة والجهل ،.. على أن الصفة الواضحة فى توما — إلى جانب هذا كله أنه سوداوى المزاج ينظر إلى الحياة دائماً النظرة المتشائمة . هو الرجل الذى يضع دائماً على عينيه المنظار الأسود ، وينظر إلى الدنيا كلها نظرة سوداء . ومن هنا اختلفت نظرته عن بقية اخوته ورفقائه ، فإذا كانوا هم يقدرون أن ذهاب المسيح إلى بيت عنيا محفوف بالخطر ، .. فإنه يسير هو خطوة أبعد وأعمق ، إذ أن الأمر عنده ، ليس خطراً محققاً ، بل موتاً محققاً ، .. وهو سيذهب مع المسيح ، لا ليواجه الخطر ، بل هو ذاهب ليموت معه بكل تأكيد ، .. وعندما يموت المسيح على الصليب تستولى عليه الأحزان إلى الدرجة التى ينعزل فيها عن كل إنسان ولا يظهر مع اخوته فى يوم القيامة ، بل هو وحده مع آلامه وأحزانه ، ولا يستطيع أن يصدق أخبار القيامة ،

حتى ولو أكدها التلاميذ أنفسهم ومن ثم أضحى الرجل مثلا للشك وعـــدم التصديق ، وأنهالت عليه من كل جانب الأحكام القاسية فمن قائل : « إنه الرجل الوحيد الذى يلام لعدم إيمانه عندما نقارنه بجميع الذين كانوا فى العلية من تلاميذ المسيح» .. « لو أن هناك متشائماً يحسن الترنم باللحن القابض للنفس ، فإن توما هو أفضل المغنين بذلك» .. «كان توما حار القلب سوداوى المزاج » .. « له حب كبير وإيمان قليل » .. « يخضع غير المنظور للمنظور » .. وقد صوره الكسندر هوايت فى صورة الانسان الكئيب الحزين الذى تستطيع أن تغنى أمامه أجمل الأنغام إذا غنيت له لحن البكاء والألم !! .. فإذا كان التلاميذ الاثنا عشر أنماطاً مختلفة من الحياة ، اختارها السيد بدقة لكى تكون نموذجاً للتلاميذ الذين سيأتون بعدهم فى مكان العصور والأجيال ، وإذا كان لنا أن نقترب فى أفكارنا أو عواطفنا من هذه الأنماط حتى نتعرف على التلميذ الأقرب إلى حياتنا وطباعنا ، فإن الذين ينطوون على أنفسهم ، ويقتربون إلى حياة التشاؤم والنظرة الحزينة الباكية فى الحياة . والذين يترددون فى تصديق الفرح كنصيب الانسان فى الأرض ، هؤلاء جميعاً سيجدون التلميذ القديم توما هو أدنى التلاميذ إلى صفهم وأقربهم إلى حياتهم وأسلوبهم !! ..

توما ومعاملة المسيح له :

لعله من المناسب أن نلاحظ على الدوام أن معاملة المسيح لأى من تلاميذه الاثنى عشر تختلف عن الآخر ، فهو لا يمكن أن يعامل توما معاملة بطرس والعكس صحيح ، .. وقد قيل إنه لو قال لتوما : « اذهب عنى يا شيطان » التى قالها لبطرس فى يوم من الأيام ، لفقد توما إلى الأبد ، إذ أن السوداوى المزاج الذى تغلب عاطفته على عقله ، ومشاعره على فهمه ، لا يمكن أن يعالج بأسلوب الانتهار أو القمع ، بل لعل الحنان والاحسان أقرب إلى إدراكه ومشاعره ، .. وفى البيت الواحد لا يمكن أن يعامل سائر الأبناء بأسلوب

واحد ، بل لابد أن تختلف المعاملة باختلاف طبيعة كل ابن ، .. فهناك من تكفيه الإشارة ، وهناك من يحتاج إلى زجر ، .. وهناك من ينتفع بأسلوب المعاملة البالغة الرقة ، .. وآخر قد تأتى به المعاملات الشديدة القاطعة !! .. وقد عامل المسيح توما بأسلوبين واضحين هما الحنان ، والإنارة ، .. لم يقس عليه قط ، إذ يكفيه قسوة الحياة التى يتطلع إليها من خلاله منظاره الأسود للدنيا ، وكل حاجته أن يرفع عن عينيه هذا المنظار الكئيب ، حتى لا يرى الشمس مظللة بالقتام ، أو ينظر الحقيقة مدثرة بالثوب الأسود ، .. والحقيقة أساساً ليست سوداء، ولكن زجاج المنظار الأسود هو الذى غطاها بالسواد، ... قال المسيح لتوما : أنا هو الطريق والحق والحياة (يو ١٤ : ٦) ولعل هذا التعبير يعطينا الصورة المثلى للحنان والإنارة اللتين تمتع بهما توما ، ونتمتع نحن بهما إلى «أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح فى قلوبنا » (٢بط ١ : ١٩) .. ولن نملك آخر الأمر إلا أن نصيح مع الرجل القديم : « ربى وإلهى » !! ..

المسيح الطريق :

كان الضباب يلف توما ويلف سائر التلاميذ . وهو يتحدث إليهم عن آلامه ، وتسليم أحد التلاميذ له ، ونكران بطرس ، وذهابه ليعد لهم مكاناً ، ثم يأتى ليأخذ هم إليه . وكان الحديث فى مجمله أبعد من أن يفهموا مقصده ومرماه البعيد ، وإذ قال لهم : « وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق . قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق » (يو ١٤ : ٥) .. ولعل التصور الذى كان يراودهم هو أن المسيح ذاهب ليعد مكاناً أرضياً ليبدأ من هناك سلطانه . وملكوته . ومع أن جهلهم كان بالغاً ، لكن العجيب أن المسيح أكد لهم أنهم سيعلمون الطريق ، ولم يكن فى هذا أدنى مبالغة . إذ ما هى إلا فترة وجيزة من الزمن حتى وقفوا جميعهم على رأس الطريق الخالد إلى الله ، .. لقد تحدث إليهم بهذا فى الليلة التى أسلم

فيها ، وبعدها علمهم خلال الأربعين يوماً التى ظهر فيها بعد القيامة ، ارساليته العظمى ، وعندما جاء يوم الخمسين ملأهم بروحه لينطلقوا إلى أقصى الأرض فى الطريق العظيم الخالد فى الاتجاه الأبدى ، .. لقد كان المسيح لهم أولا — وبادىء ذى بدء — الطريق إلى معرفة الله ، وهو لم يأت ليشرح لهم من هو الله ، وكيف يمكن أن يتصوره ويتخيلوه ! ! ؟ لقد كان هو الله الذى ظهر فى الجسد ، ومن ثم قال لفيلبس : « الذى رآنى فقد رأى الآب» (يو ١٤ : ٩) .. وليس هناك ما يضارع النور المسيحى من هذا القبيل ، ويكفى أن نلاحظ تخبط الوثنية التى صورت الآلهة بهذه الصور المتعددة فى الوقت الذى بلغت فيه الفلسفة اليونانية ذروتها وقمتها ، .. وما زال الفكر الوثنى إلى اليوم فى تصوره العقيم عن الله ، ويكفى أن تطلع على البوذية أو الكنفوشية أو الهندوسية أو ما أشبه فى تصورها لله ، لكى ترى الحماقة الكاملة حتى فى القرن العشرين بعد الميلاد ! ! .. لقد عجز هؤلاء جميعاً عن أن يعرفوا الطريق الذى يرى الله فى وجه يسوع المسيح ربنا ! ! .. على أن المسيح لم يعط مجرد معرفة الله ، بل كشف طريق الخلاص الإلهى ، .. وما أكثر الذين يخرجون فى رحلة الحياة ، وقد ضلوا طريقهم فى البرية ، وما أكثر ما عثر الناس على هياكل آدمية قتلها الجوع والظمأ ، وكانت تظن أنها تسير فى الطريق الصحيح ، وهى على ضلال بين إذ تاهت قافلتهم ، وهى تسير منحرفة إلى هنا أو هناك ، وهم يعلمون أو لايعملون ! !.. وهكذا فى الرحلة الأبدية ، كم ضل البشر فى طريق قايين أو أحزابه من الهالكين ، .. وجاء المسيح ليحمى من كل هذا الضلال ، وهو يقول : « أنا هو الطريق » (يو ١٤ : ٦) .. فى هذا الطريق ارتفع صليب المسيح كالعلامة المؤكدة الثابتة إلى مدينة الله ، تاه الصبى الصغير فى مدينة لندن ، .. واقترب منه الشرطى ليسأله عما يبكيه ، وإذ أدرك أنه تائه عن بيته ، .. ابتدأ يسأله عن

عنوان البيت ، والولد الصغير لا يستطيع أن يعطى الإجابة الشافية . ذكر له الشرطى أسماء كثير من الشوارع ، والولد حائر ، تستبد به الحيرة ، وأخيراً قال له الشرطى ، .. هل تعرف ميدان الصليب ، وإذا بالولد يصيح : نعم قدنى إلى هذا الميدان وأنا من هناك أعرف الطريق إلى بيتى !! .. والبشرية كلها هى الولد الذى يتخبط فى الظلام ، حتى يقاد إلى هضبة الجلجثة ، ومن هناك تعرف الطريق الأبدى إلى الله ، فى الخلاص بيسوع المسيح .

على أن الطريق أكثر من هذا هو طريق الشركة مع الله ، .. إنه الطريق الظليل بأشجار الحب الإلهى ، وهو الطريق الذى علم ملايين البشر أحلى أغانى الحياة !! .. إن الحقائق التى كشف عنها المسيح لتلاميذه كانت مذهلة إلى الدرجة التى جعلت يوحنا يقول : « انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله » (١ يو ٣ : ١) ..

كان أحد المرسلين يترجم هذه الآية إلى اللغة الوطنية لقبيلة وثنية متوحشة ، وسمعه أحد الوطنيين الذين كانوا يساعدونه فى الترجمة !! .. فتوقف الرجل وهو يقول : هل هذا حقيقى !!؟ .. وقال المرسل : نعم !! .. فصرخ الرجل : وكيف تنطق بهذه الآية بدون دموع ؟! .. ولم يقف المسيح عند هذا الحد ، بل تحدث عن الطريق إلى بيت الله ، .. عندما كشف عن المنازل الكثيرة فى بيت أبيه ، المنازل التى سيذهب ليعدها لكل واحد منا ، .. أجل لقد « أبطل الموت وأنار الحياة والخلـــود بواسطة الإنجيل » !! .. (٢ تى ١ : ١٠) .

المسيح الحق :

لم ينر المسيح الطريق فحسب ، بل أكثر من ذلك تحدث عن الحق ، والحق الذى جاء وجسده فى الأرض بشخصه وحياته ورسالته ، .. وما أجمل

ما قاله السيد أمام بيلاطس : « لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق » .. (يو١٨ :٣٧) ... وقد سأل بيلاطس سؤاله المتعجل ؟!.. ما هو الحق !! ؟ . وما يزال الكثيرون – مع بيلاطس – يسألون هـــذا السؤال دون عمق أو تأمل ، .. ولو فطنوا لسألوا : من هو الحق أكثر من السؤال القديم ما هو الحق !! ؟ .. ولست أظن أننا نستطيع أن نجيب إجابة أفضل وأعمق قبل أن تعرف من أى نقطة يبدأ الانسان السؤال !! ؟ . يعتبر عمانوئيل كانت من أعظم الفلاسفة الذين ظهروا فى التاريخ الحديث ، وقد وصف جهل الانسان أبلغ وصف عندما صور الحياة فى هذه الصورة : « أننا نعيش فوق سطح جزيرة فى قلب بحر ، ونحن ملوك هذه الجزيرة ، ويمكننا أن نبحث أو ندرس أو نفكر على هذه الجزيرة بما يرضى هوانا ومع ذلك فكلما درسنا جزيرتنا كلما تبينا أننا نعرف فقط من الأشياء ما هو ظاهر دون أن نتبين حقيقة الأشياء ذاتها .. وحول هذه الجزيرة هناك بحر بغير حدود ، ونحن لا نستطيع الاقتراب من هذا البحر المغطى بضباب كثيف ، وإذ نحاول الدخول نجد قتاماً أحلك من الليل البهيم يمنعنا من الابحار فيه ، ويردنا إلى الجزيرة التى نقبع فوقها ، وقد تظهر أحياناً بعض الأشياء المبهمة ، والتى تبدو هنا وهناك دون أن نعرف حقيقتها » .. هذه هى نقطة البدء ، وأخشى أنها هى نقطة النهاية أيضاً بعيداً عن يسوع المسيح !! .. لقد ارتبط الحق بالمسيح ، ولسنا فى حاجة إلى أن نبحث عنه بعيداً عن شخصه ومبادئه وأعماله ورسالته ونهج الحياة التى طلب أن نعيشها فى الأرض!!.. ومهما تتذبذب أوضاع الناس وتتغير أفكارهم ، وتتلون عصورهم ، فإن تعاليم المسيح ستبقى وحدها التعاليم التى لا تكذب أو تخدع . ومبادئه المثال الوحيد الذى لا يمكن أن يكون له نظير أو بديل !! ..

المسيح الحيـــاة :

لم يكن المسيح الطريق أو الحق ، بل هو أكثر من ذلك ، إنه الحيـــاة وقد مد المسيح يده برفق وحنان إلى توما المتعثر ، ليريه هذه الحقيقة فى أكثر من صورة أو وضع .. لقد أرجأ المسيح زيارته لمريض بيت عنيا حتى يموت لعازر ، .. وقد كان التصور المؤكد فى ذهن توما ، أن المسيح لن يرجع من المكان حيا ، وهو يسير مع المسيح تحت هذا اليقين ، لكى لا يموت المسيح وحده ، بل يموت التلاميذ أيضاً معه ، .. وسار المسيح والتلاميذ إلى المقابر لا لكى يروا لعازر ميتاً ، بل لكى يروا المسيح سيداً على الموت ، ومعطياً للحياة ، ولست أعلم كيف نظر توما فى تلك اللحظة إلى وجه لعازر ، ثم عاد ليتأمل وجه سيده ، .. من هو هذا الذى يمكن أن يهتف بنداء الحياة فى قلب الموت على هذه الصورة العجيبة المذهلة !! .. وإذا كان اسبينوزا الفيلسوف اليهودى ، قد قال إنه على استعداد أن يؤمن بالمسيح لو أنه آمن بقيامة لعازر من الأموات !! ؟ .. فإن توما كان من المستحيل أن يحتفظ بمنظاره الأسود أمام قاهر الموت ، الذى أخرج الميت بهذا الاقتدار العزيز الرهيب !! .. وكان من الممكن أن يطوح توما بمنظاره الأسود إلى غير رجعة ، لولا الكسوف الكلى للشمس يوم الصليب ، .. إن معطى الحياة ، أسلم الروح ودفن فى القبر ، وختم على القبر بحجر كبير لا يمكن أن يزحزح من مكانه ، وضاع الأمل وذهب الرجاء ، .. ولم تعد الحياة ذاتها عند توما تحمل أى معنى للحياة !! .. أين ذهب توما ، ولماذا لم يكن مع التلاميذ يوم القيامة ؟ لقد ذكرنا أنه كان سوداوى المزاج ، يرى الظلام فى قلب النهار ، فماذا يكون حاله عندما يأتى الليل على الصورة التى جاء بها يوم الصليب ، .. لقد كره الرجل الحياة ونفسه والناس جميعاً ، وآثر ألا يرى أحداً ، أو أن يراه أحد ، .. ولعله حبس نفسه فى مكان ما يجتر فيه حزنه ، .. وإذا قدم عليه

أحدهم يبشره بأن المسيح ظهر للتلاميذ جميعاً ، وإذا جاءه ثان وثالث ليقول نفس القول ، .. فإن جوابه : لو أن الدنيا بأكملها أخبرتنى بهذا الخبر فأنا لا أستطيع أن أصدق . لقد طواه اليأس العميق ، وأسقطه فى بالوعة يرفض أن يخرج منها ، ليتنسم الهواء ويرى الشمس مرة أخرى !! .. ومع أنه كان من الممكن أن يستعيد صورة لعازر الذى قام من القبر ، ويرى فى ذلك بارقة أمل يمكن أن تشد أزره وتوقفه على قدميه ، .. لكن طبيعته السوداوية المزاج سيطرت عليه ، ورجحت كفة الشك وعدم اليقين ، .. ولعله قال لنفسه ألا يحتمل أن يكون التلاميذ قد رأوا شبحاً أو خيالا ظنوه المسيح ، .. وإذ ألحوا عليه بالقصة والرواية ، .. كان جوابه : « إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير وأضع إصبعى فى أثر المسامير وأضع يدى فى جنبه لا أؤمن » . (يو ٢٠ : ٢٥) .. كانت صدمة الرجل قاسية !! .. وقد شاء الله أن تكون كذلك ليس من أجـله وحده فحسب ، بل من أجل أجيال المتشككين فى قيامة المسيح ، والذين تصوروا أنها يمكن أن تكون أسطورة أو خيالا أو وهماً توهمه جماعة من المتحمسين لسيدهم ، ليخرجوا على الناس بهذا الحماس الوهمى منادين بالقيامة ، . لكن توما رغم عدم إيمانه ، خدم القضية أجل خدمة ،.. ولا شبهة فى أن المسيح ظهر فى الأحد التالى للقيامة ، خصيصاً من أجل توما ، ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر مع القائلين إن توما ظل أسبوعاً كاملا فريسة الشك واليأس ، لأنه لم يحضر اجتماعاً مع الأخوة ومع يسوع المسيح فى يوم القيامة ، ويوم نغيب عن اجتماعات الكنيسة مع الاخوة القديسين ، ويوم نغيب عن لقاء الرب فى يوم الأحد ، فإن العـذاب قد يطول إلى أن نحضر الاجتماع مرة أخرى !! .. على أى حال لقد اتسمت معاملة المسيح لتوما بالرقة البالغة والحنان الكامل ، وهو يكشف له أنه سيد الموت ، والقادر على أن يدخل والأبواب مغلقة لينادى توما من وسط التلاميذ

« هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدى وهات يدك وضعها فى جنبى ، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً » .. هل وضع توما إصبعه فى جنب المسيح ، كما يصوره الرسامون ؟ أنا لا أتصور ذلك ، واتفق مع كامبل مورجان ، فى أنه لم يفعل بل صرخ بصيحته المدوية « ربى وإلهى »!! .. لقد تفجر أمامه الحنان والنور معاً ، .. وفى خطوة واحدة انتقل الرجل من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين ،.. وبخطوة واحـــدة انتقل من عدم الإيمان إلى الإيمان الكامل !! .. وقد قال أحد رجال الله : إن مجد هذه الصرخة فى استعمال صيغة المفرد : « ربى وإلهى » .. وإذا كان من أفضل الأشياء وأعظمها أن ننطق بإيماننا الجماعى كمؤمنين معاً ، .. فان حلاوة الانفراد بالاعتراف بالإيمان المسيحى مرات كثيرة ما يكون أنصع شهادة وأقوى أثراً !! ..

توما وخدمتـه المجيدة :

سار توما فى خدمته المجيدة ، وقيل إن ثلاثة من الملوك آمنوا على يديه لو صحت رواية التقاليد ، وأنه عمل بين فارس والهند، وأنه احتمل الاضطهاد حتى ناداه سيده إليه ، بعد أن أكمل سعيه وأتم رسالته ، وإذا صح أنه طعن بحربة وهو يصلى ، فنحن لا نعلم أين كان موقعها من جسده ، وهل وصلت إلى جنبه ، وهل تحسس مكانها ، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ؟ .. وهل ذكر ذلك الجنب المطعون الذى أراد أن يرى موضع الحربة فيه ؟ .. على أى حال لقد حمل صليبه وراء السيد، ووقف فى كل التاريخ توأماً سباقاً فى الحب والولاء والخدمة والطاعة والشهادة والاستشهاد لاخوته الذين ساروا على نفس النهج ، وسلكوا ذات الدرب ، ليلتقوا فى مدينة الله معاً أمام السيد الذى أحبوه ، واسترخصوا كل شىء فى سبيل مجده وملكوته الأبدى العتيد !! ..

٩٥
سمعان الغيور

« سمعان الذى يدعى الغيور » (لو ٦ : ١٥ »

أبصر يوحنا نيوتن رجلا فى طريقه إلى الاعدام فقال : هناك يذهب يوحنا نيوتن لولا نعمة الله ! ! .. ولست أعلم هل قال سمعان الغيور شيئاً مثل هذا ، وهو ينظر إلى الكثيرين من الحزب الذى أطلق على نفسه « حزب الغيورين » وتحدث عنه يوسيفوس المؤرخ اليهودى ، وقد بطشت روما به على نحو مفزع رهيب ويرجح الكثيرون أن سمعان كان واحداً من هـذا الحزب أو على الأقل كان متحمساً له ولمبادئه ولذلك أطلق عليه الغيور ، ومن المرجح أيضاً أن باراباس كان من أعضائه أو من القادة الظاهرين فيه ، .. وقد نشأ هذا الحزب فى الأصل من أيام المكابيين لمقاومة التدخل الأجنبى فى الشئون الدينية ، وقد قست روما على المنتمين إليه ونكلت بهم أشد تنكيل ، وطاردتهم فى كل مكان حتى تحولوا إلى الجبال ، وإذ استبد بهم الضيق

والتعب والجوع تحولوا عن فكرتهم الوطنية وأصبحوا قطاع طرق ، وعصابات لصوص ، وأضحى القتل والسلب والجريمة منهجهم الدائم . فإذا كان المسيح قد أخذ مكان باراباس ، اللص المجرم القاتل ، لأنه يريدنى أن أتذكر أنه أخذ موضع كل واحد منا نحن الخطاة الأئمة المجرمين ، على خشبة الصليب ، فانى أعلم أيضاً أنه وقف فى الطريق ليلتقط سمعان الغيور ، حتى لا تستخدم طبيعته النارية الغيورة لخدمة الشر والخطية والاثم ، واتجه به اتجاهاً كاملا نحو الغيرة فى الحسنى ، .. والنار التى تحرق وتدمر ، يمكن إذا اتجهت فى اتجاه الخير ، أنه تأتى بأعظم الخدمات المباركة !! .. لقد سما المسيح بغيرة سمعان واستخدمها أجل استخدام ، وقصته لذلك تصلح أن تكون درساً نافعاً ومجيداً لكل مؤمن ولعلنا نتابعها بعد ذلك فيما يلى :

سمعان والغيرة نحو الوطن :

لا نستطيع أن نجزم إلى أى مدى ارتبط سمعان الغيور بحزب الغيورين الذى نهض لمقاومة العدوان الأجنبى ، والتدخل فى الشئون الدينية ، غير أننا نستطيع فهم سمعان ، إذا أمكن أن نفهم الصورة الصحيحة لهذا الحزب اليهودى ، وقد فرق ألدر كامنج بينهم وبين غيرهم من الفرق أو الشيع التى كانت فى عصرهم ، إذ أنهم وإن كانوا أقرب إلى مشاعر الفريسيين ، إلا أنهم يختلفون عنهم ، فى أن الفريسى قبل الأوضاع التى لا تتدخل فى أموره الدينية ، وسكن إلى الواقع البغيض الذى تمقته نفسه ، لكن الغيورين لم يقبلوا أبداً النير الأجنبى ، وعاشوا متمردين عليه دون أن تهدأ نفوسهم على الاطلاق ، .. كما أنهم لم يكونوا صدوقيين يقبلون التهاون واللاأدرية فى تفسير الناموس ، أو التقاليد .. ومن الطبيعى أنهم لم ينهجوا نهج الأسينيين الذين كانوا يرفضون المشاركة فى أى حركات قومية ، .. ولا يمكن أن

يكونوا هيرودسيين يتملقون روما، ويخضعون لسلطانها ، وينفذون أوامرها ، وفى الحقيقة أن غيرة الانسان على وطنه من أهم ما يميزه كانسان متحضر راق ، .. لكن هذه الغيرة شأنها شأن كل الصفات الطيبة يمكن أن تقود إلى الضياع والخراب ، متى انحرف بها صاحبها عن الطريق السوى... وربما كان سمعان الغيور أكثر من أى تلميذ آخر فى حاجة إلى فهم الموقف الصحيح فى الغيرة الوطنية ، وإلى أى مدى ينبغى أن تصل ، وما الحدود التى لا يجوز لها تجاوزها ، .. وقد تعلم من المسيح الواجب الوطنى الصحيح !! .. عندما جاء الفريسيون والهيرودسيون إلى المسيح بسؤال خبيث ماكر : « أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا » .. (مت ٢٢ : ١٧) وكان السؤال كما هو واضح يريد أن يمسك بالمسيح من أى جانب لأنه إذا أجاب : « لا تعطوا » يثير عليه الهيرودوسيين والوالى ، وإن قال « اعطوا » يثير الفريسيين والشعب ، وإن امتنع عن الإجابة لا يكون جديراً بمركزه كقائد ومعلم ، غير أن المسيح أجاب إجابته الخالدة التى وضعت المبادىء العظيمة : أولها .. إن الركن الأساسى والأول فى كل نظام وقانون هو الله ، ومع أن الفريسيين أو الهيرودسيين كان سؤالهم خلوا من الله ، لكن المسيح لم يجعل جوابه خلواً من الله ، وبذلك وجه نظرهم إلى ما هو أعلى وأسمى وأقدس ، وما أكثر الذين يحسنون أداء الواجب « لقيصر » إذ يؤدون واجبهم الذى تفرضه الدولة عليهم بقوانين اجتماعية وأدبية ومادية دون أن يتطلعوا إلى ما يطلبه الله منهم .

ثانياً : ليس هناك من تعارض بين الدين والحياة المدنية ، إذ يمكننا أن نطيع قيصر دون أن نفقد الولاء لله ، بل إننا إذ نطيع قيصر انما نطيع — فى الواقع — الله الذى وضع قيصر حيث هو على عرشه ، أليس هذا عين ما قاله الرسول بولس : « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله (رو١٣ : ١) وعلى هذا

الأساس يمكن تصور دائرتين ، إحداهما داخل الأخرى ، فالدائرة الأضيق دائما هي دائرة قيصر ، والأوســع دائرة الله .. ومهما تتسع الدائرة الأضيق ، فلا يجوز لها أن تخرج عن نطاق الدائرة الأوسع ..

وثالثاً : أما الحدود التي لا يجوز تجاوزها ، فتبدو عندما يتعارض ما لقيصر مع ما لله . فعندئذ ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس ، إذ يكون قيصر في هذا الوضع قد خرج عن الغاية التي يريدها الله منه ، ويحق للمؤمن في هذه الحالة أن يمتنع عن طاعته !! .. عندما اعتلى جيمس الأول ملك انجلترا العرش أعلن أنه يحكم بالحق الإلهي وأن كلمته قانون ، وليس لشعبه أي حق إلا ما يتفضل هو به متى يشاء ، وكيفما يريد ، وبين شعبه كانت هناك جماعة لا ترضيهم أنظمة وعبادة كنيسة انجلترا ولم يصرح لهم الملك بإقامة كنيسة خاصة تختار خادمها كما تشاء وتقوم بعبادتها كما تريد ، وعندما حاول بعضهم ذلك تعرضوا للسجن ، فما كان منهم إلا أن هربوا إلى هولندا ، وهناك أخذوا يمارسون عبادتهم كما يشاءون ، ولأنهم لم يرغبوا أن يصبح أولادهم هولنديين ، رحلوا مهاجرين عام ١٦٢٠ إلى أمريكا واستقروا هناك !!

إن حبنا للوطن ينبغي أن يكون دائماً جزءاً من حبنا لله ، والواجب الوطني لا يرجع إلى أن أجسادنا من تراب هذا الوطن وستختلط يوماً ما بتراب هذا الوطن فحسب ، بل لأن الله يريدنا أن نكون أمناء في كل شيء وأمانتنا للوطن هي بعض أمانتنا لله سر حياتنا ووجودنا على هذه الأرض !! ..

غير أن حب الوطن مهما كان لا يجوز أن يحولنا إلى الجريمة والتعصب والافساد والهدم ، والتنكر للمبادىء الخلقية والانسانية ، باسم الوطن أو حبا له ومن المؤسف أن الذين امتصوا الشعوب ، وتركوها خراباً يبابا ، فعلوا ذلك تحت العنوان البراق : « حب الوطن » والعمل على خدمته واستعاده » .

وقد وعى المسيحيون هذا الدرس فكانوا أشرف الناس حباً لأوطانهم ، وأكثرهم صدقاً وأمانة — قبل ذلك وبعده — لإلههم العظيم !!.. والذين قرأوا قصة استشهاد مارسيلوس ، يعجبون كيف أن ولداً صغيراً وقف فى ساحة المحاكمة ليعطى أعظم شهادة عن هذه الحقيقة لقد سأله القاضى : ما اسمك !! ؟ أجاب : ماركوس بولوسيرفيللى ، وما أن ذكر اسمه حتى سرت تمتمة فى وسط الجمع الغفير الذى حضر المحاكمة لأن مدينة روما بأكملها تعلم أن هـــذا الصبي ينتمى إلى أسرة من أعرق أسر الرومان .. وإذ سأل القاضى الغلام : كم تبلغ من العمر !! .. أجاب : ثلاثة عشر عاماً .. فقال له : أنت متهم بأنك مسيحى فما قولك !! ؟ أجاب : هذا الاتهام يعد شرفاً لى . أنا مسيحى وأعتبر نفسى سعيداً لأنى أستطيع أن اعترف بذلك أمام هذه الجمع الغفير .. فقال القاضى : « أيها الولد الشقى .. هل تعرف نوع التهمة الموجهة ضدك » !! ؟ . فقال الصغير : « أنا متهم بغير جريمة ، وأيمانى يعلمنى أن أخاف الله وأخدم الامبراطور ، وأطيع كل القوانين العادلة ، وقد نفذت كل هذا بضمير صالح » .. قال القاضى : « جريمتك أنك مسيحى خائن للوطن » .. قال بولا : « أنا مسيحى ولكنى لست خائنا للوطن » .. القاضى : « القانون يحرم الإيمان بالمسيح ومن يكسر القانون فعقابه الموت » .. قال الغلام : « أنا مسيحى » .. قال القاضى : « إذاً فالحكم عليك بالموت » .. قال الغلام الشجاع : « فليكن » .. وقد حاول القاضى أن يرد الغلام عن الإيمان المسيحى ولكن هيهات ، ووقف الصغير يشهد لسيده بأروع شهادة ينطق بها اللسان قبل أن يقدم للوحش المفترس ليموت شهيداً !! .. إن المسيحى الحقيقى هو الذى يجمع بين أروع ولاء لله ، وأروع ولاء للوطن !! ..

سمعان والغيرة لقائد أعظم :

فى أيام الملكة فيكتوريا كان هناك مرسل اسكتلندى يعمل فى الهند اسمه دكتور دف ، وقد ظل فى خدمة المسيح فى الهند ثلاثين عاماً ، ثم رجع إلى بلاده شيخاً ضعيفاً محطم الصحة ، وتكلم فى المحفل العام بغيرة ملتهبة ، حتى سقط من الاعياء ، وأخذوه إلى غرفة جانبية ، وأسعفه الأطباء ، غير أنهم طلبوا إليه ألا يتكلم ، إذ هو من الضعف الصحى ، بدرجة يمكن أن يموت معها لو بذل جهداً ، .. ولكنه أصر على الكلام ، حتى ولو مات ، وخرج ليقول للمجتمعين : يا أبناء اسكتلندا لو أن الملكة فيكتوريا — وكانت ملكة بريطانيا فى ذلك الوقت — طلبت جنوداً للذهاب إلى الهند ، فإنها ستجد الكثيرين يلبون النداء ، ولكن إذا طلب الرب يسوع ، فإن الكثيرين من أبنائها سيعتذرون بهذا السبب أو ذاك ، فإذا كان هذا حقاً ، فإنى — رغم انى أضعت صحتى فى تلك البلاد — مستعد أن أذهب فى الغد لأموت من أجل الشهادة لابن الله !! .. أجل لقد أدرك الرجل أن خدمة المسيح لا تقل شرفاً عن خدمة البلاد أو ملكة الانجليز بل وتفضلها !! .. لم يكن مطلوباً من سمعان وهو نار متقدة ، أن يتحول ماء بارداً ، ولسنا نظن أن المسيح يسوع عندما يجدد حياة الناس ، يقلب الطبائع التى أوجدهم عليها ، . ولكن المسيح يطهر هذه الطبائع ، ويستخدمها خير استخدام ، ومن المناسب أن نذكر كما قال أحدهم أن سمعان دعى إلى آخر حياته ، سمعان الغيور ، فلم تنته غيرته بمعرفته للمسيح ، بل على العكس تحولت ناراً مقدسة فى خدمة السيد .. نحن لانعلم أين ومتى وكيف التقى بالمسيح ، لكننا نعلم أن السيد رأى فيه أشياء يصلح معها أن يكون واحداً من الاثنى عشر ، ويكفى أنه يدعى الغيور ، . والغيرة عندما تقدس ، هى فى الحقيقة قبس من نار المسيح نفسها الذى قيل عنه : « غيرة بيتك أكلتنى » .. (يو ٢ : ١٧) ولست أظن أن

المسيح يضيق بشيء قدر ضيقه بالإنسان الذى تعوزه الغيرة ، ألم يقل لملاك كنيسة اللادوكيين : « أنا عارف أعمالك أنك لست بارداً ولا حاراً . ليتك كنت بارداً أو حاراً . هكذا لأنك فاتر ولست بارداً ولا حاراً أنا مزمع أن أتقيأك من فمي ... فكن غيوراً وتب » (رؤ ٣ : ١٥ — ١٩) .. والعكس صحيح إذ ليس هناك ما يملأ قلب السيد بهجة وسروراً ورضا قدر القلب الممتلىء بنار محبته !! ..

سمعان والغيرة لقضية أمجد :

إن الغيرة المسيحية لابد أن تكشف فى ولائها للسيد عن صور رائعة ، وهى لهذا يمكن أن تأخذ الاتجاه الآخر ، العكسى لما كانت عليه ، وقد لفت أحد الكتاب نظرنا إلى كيف تحولت كراهية سمعان إلى حب عميق ، فمثلا كان من المستحيل أن تجمع بين اثنين من التلاميذ ، هما سمعان الغيور ، ومتى العشار ، إذ كانا قبل علاقتهما بالمسيح على طرفى نقيض ، بالغى الكراهية أحدهما للآخر ، كان سمعان الغيور يمقت من أعماق قلبه الضرائب التى يفرضها المحتلون على بلاده ، وكان يكره جابى الضرائب بكل ما يمكن أن تكون عليه كلمة الكراهية من معنى ،.. لكن المسيح جمع بين الاثنين ، وسما بعواطفهما ، وارتقى بها ، ليلتقيا وباقى التلاميذ فى محبة مقدسة ممتلئة بالالتهاب والغيرة والقدسية لمجد السيد ، .. وهكذا طهر المسيح الغيرة ، لتستخدم فى قضية أنبل وأعظم وأجمل !! ..

لم يكن حب سمعان لمن كان عدوه بالأمس ، هو الظاهرة الوحيدة لتغير حياته ، وعواطفه ، .. بل إن الرجل نقل قضيته الضيقة إلى قضية أعلى وأمجد وأسمى ، . . لم يعد سمعان الغيور المتعصب الأعمى لوطنه ، بل أصبح الخادم الأمين ليسوع المسيح بغيرة ملتهبة ، .. ولقد انحدرت الغيرة المتعصبة فى قصة باراباس إلى الفتنة والقتل والاهلاك والتدمير ، ..لكن الغيرة المسيحية فى

سمعان أعطته أجمل قضية يمكن أن يكرس حياته من أجلها ، .. وشتان بين رجل العالم وانسان المسيح ، .. كان يحلو لمودى أن يردد قصة فالنتين برك ، ذلك السجين الذى أمسك مرات فى قضايا سرقات ، وحوكم وأودع السجن ، وكان مجبولا على الشراسة وعلى وجه الخصوص مع سجانيه ، وكلما ازداد شراسة ازدادوا قسوة عليه ، .. وكان مودى يقيم اجتماعات انتعاشية فى مدينة سانت لويس ، وقد وعظ عن سجان فيلبى ، وكيف أمسكت به نعمة المسيح ، .. وكتبت الجرائد العظة تحت عنوان « كيف أمسك سجان فيلبى » وقد سره العنوان إذ تصور أن الأمر يتحدث عن سجان فيلبى بولاية الينوى ، وأراد أن يقرأ من باب الشماتة ، فإذا بها عظة تمسك به هو وتأتى به إلى يسوع المسيح وتاب برك وسلم حياته للمسيح ، .. وخرج من السجن ليجد الأبواب جميعها مغلقة فى وجهه بالنسبة لماضيه ، لكنه لم ينحرف قط عن الأمانة ، .. ورجع إلى مدير السجن ليخبره عن متاعبه ، .. وقال له المدير : أنا أعلم جيداً ماذا عانيت ، وكم كنت أميناً لأنى وضعتك تحت المراقبة طيلة هذه الشهور التى قضيتها خارج السجن ، .. وتوسط له المدير ، ومن العجيب ، أنه أصبح حارساً لمحل كبير للمجوهرات ، .. وكان يردد دائماً : « ما أعجب النعمة التى تجعل من كان لصاً وسارقاً حارساً للمجوهرات والكنوز » ، .. إنها النعمة العجيبة التى نقلت بطرس الصياد ، ومتى العشار ، وسمعان الغيور ، من الحياة التافهة أو المؤذية أو الشريرة ، إلى الخدمة الخالدة التى جعلت من العالم كله حقلا لها ، ومجدها التاريخ والأبدية !! ..

لماذا لا تكسب المسيحية اليوم رغم الامكانات الهائلة التى تحت يد الملايين من أبنائها ، ما كانت تكسبه فى القرون الأولى رغم قلة عدد أبنائها ، وضآلة امكانياتهم المادية فى تلك العصور ؟ ! . إن السر يرجع – بالدرجة الأولى – إلى روح الغيرة والحماس التى ملأت روادها الأوائل ، وشهدائها

الأبطال ، .. ومن الثابت أن الغيرة تأتى دائماً فى المقدمة بين أسباب النجاح فى شتى قضايا الحياة ، . قيل إن قائداً حربياً كان على رأس خمسمائة مقاتل ، فى القرن التاسع الميلادى ، وهاجم ملكاً كان عدد جيشه ثلاثين ألفاً من الجنود ، وإذا سمع الملك بقصة المهاجم ومن معه من الجنود أرسل إليه يقول إنه إذا سلم فسيعامله وجنوده بالرأفة . . فما كان من القائد إلا أن دعا — جواباً على ذلك — واحداً من الجنود وأمره أن يغمد خنجراً فى قلبه وفى الحال أطاع وسقط قتيلا ، .. وقال الأخر أقذف بنفسك من أعلى الجبل ، فلم يتردد وهوى إلى الأعماق !! .. ثم قال لرسول الملك إن معى من هذا النوع خمسمائة جندى على استعداد أن يموتوا دون أن يسلموا ، وعلى الملك أن يعلم أنه فى خلال ثمان وأربعين ساعة سيكون أسيراً مقيداً فى يدى !! .. وقد ارتعب الملك إذ سمع هذا وأصابه وجنوده الفزع ، .. وتحقق للمهاجم ما أنذر به !! .. قال لصحابه ورفاقه ليذهب خمسون غريبا لدى ظلمات السجن ولتبق روما حرة !! ..

قال دكتور تايلور : إن غيرة رسل المسيح ظهرت على هذا النهج فى أنهم كرزوا جهراً وسراً ، وقد صلوا لأجل جميع الناس ، وبكوا أمام الله من أجل قلوب الناس القاسية ، كانوا كل شىء ، لكل الناس ، ليربحوا على كل حال قوماً ، وسافروا فى البحر وفى الصحراء واحتملوا حر الصحراء اللافح ، وزوابع الأوروكليدون ، والرياح ، والعواصف ، والبحار ، والسجون والسخرية ، والجلد ، والصوم ، والفقر ، والعمل ، والسهر ، احتملوا الجميع ، ولم يخطئوا فى حق أحد ، ، صنعوا كل خير ، واحتملوا كل شر ، وفى رجاء الامساك بالنفس البشرية ، جاهدوا بكل وداعة ، واحتملوا بكل اتضاع ، وأقنعوا بكل قوة ، وسهروا على صالح الغير دون

أثرة أو أنانية ، وهذه هي الغيرة المسيحية ، غيرة الوداعة ، وغيره الحب وغيرة الصبر » !! ..

ليس من السهل أن نعرف كيف امتدت خدمة سمعان الغيور ، فالتقاليد تتعدد وتتضارب ، إذ تصوره فى رحلات متعددة بين بريطانيا وبلاد الفرس ، وهناك تقليد يقول إنه مات منشوراً بالمنشار فى بلاد فارس ، .. ومهما يكن فإن الرجل قد انتشلته نعمة الله من الضياع والانحراف ، وأخرجته من الغيرة التى كان يمكن أن توررده موارد الهلاك والحتوف ، لتأتى به إلى الغيرة فى الحسنى ، وليصبح واحداً من الخالدين الذين كتبت أسماؤهم على سور مدينة أورشليم السماوية النازلة من عند الله ، والمهيأة كعروس مزينة لرجلها وسيدها ربنا يسوع المسيح الذى له المجد الدائم إلى أبد الآبدين آمين !! ..

٩٦
يهوذا الاسخريوطى

« فذاك لما اخذ اللقمة خرج للوقت . وكان ليلا » (يو ١٣ : ٣٠

فى جمع من الأدباء طرح سؤال ذات مساء : لو أن الله أتاح لك إعادة شخصية إلى الحياة مرة أخرى ، فما هى الشخصية التى تود أن تراها .. وقد اختلفت — ولاشك — الإجابات بحسب الشخصية المفضلة عند الانسان ، ولكن تشارلس لام أذهل الجميع لأنه فضل أن يرى — أكثر من الكل — يهوذا الأسخريوطى ، وإذا تجولوا إليه وسألوه عن السر فى ذلك ، أجاب : « لأنى أود أن أرى الشخص الذى حدق فى وجه المسيح ومع ذلك استطاع أن يخونه » .. أجل تلك غريبة الغرائب فى كل ما عرف الجنس البشرى من قصص وحقائق ورؤى ، .. لقد ارتكب البشر ما لا ينتهى من الآثام والجرائم ، وما زالوا إلى اليوم يرتكبون ، ولكن واحداً منهم لم يستطع أن يرتكب جريمة تدنو أو تقترب ، من أبشع جريمة فى التاريخ ، جريمة يهوذا الأسخريوطى فى تسليم يسوع المسيح !!..

قبل أن يرتكب يهوذا جريمته الكبرى ، كان اسمه أحب الأسماء إلى اليهود ، إذ كان اسم الرجل ، الذى خلف السبط الملكى ، واسم يهوذا أخى المسيح ، يهوذا غير الأسخريوطى ،.. لكن فعلته الشنعاء جعلت هذا الاسم مشبوهاً ومكروهاً ، حتى إنك لا تكاد ترى بين المسيحيين من يرغب أن يطلق على ابنه اسم يهوذا ، .. وقد أضحت شخصية الرجل الخائن ، مادة للشعراء والكتاب والروائيين والمصورين والمثالين فى كل ما يمكن تصوره عن الخسة والانحطاط والدناءة والحماقة والتعاسة والبؤس ، .. إنه ظاهرة رهيبة للشر يلزم دراستها كما يدرس الميكروب أو الجريمة أو الشيطان نفسه ، تحذرا وتوقياً وفزعاً وإدراكاً لما يمكن أن تفعل الخطية فى حياة الناس ، وها نحن أولاء سنرى قصته فيما يلى :

يهوذا التلميـــذ :

لماذا اختار المسيح يهوذا واحداً من الاثنى عشر ؟ هذا هو اللغز المحير ، وعلى وجه الخصوص ، أن السيد كان يعلم من البدء ما سيفعله : « لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذى يسلمه » (يو ٦ : ٦٤) على أن هذا اللغز إذا كان محيراً ، فإننا قد لا نجد إجابة أفضل من إجابة الواعظ المشهور جوزيف باركر عندما سئل : « لماذا اختار يسوع يهوذا » فقال : « إن ما يحيرنى أكثر هو لماذا اختارنى أنا ! ! ؟ ..

لقد تضاربت الآراء صعودا ونزولا فى فهم شخصية يهوذا ، إلى الدرجة أن بعض الكتاب أمثال توما الأكوينى وقفوا للدفاع عنه قائلين إنه ظل للنهاية مخلصاً لسيده ، وإن ما فعله لم يكن بدافع خسيس أو نية شريرة ، بل كان يقصد بتسليم المسيح ليد اليهود ، اجباره على أن يظهر سلطانه ، ويهلك أعداءه ، ولما فشل فى ذلك مضى وخنق نفسه ، .. على أن التعسف فى هذا

التفسير واضح من كل وجه ، وعلى وجه الخصوص بما طلب من مقابل للتسليم ، كما أن قول المسيح عنه أنه خير له لو لم يولد ، يؤكد أن الدافع الذى استولى على التلميذ الخائن لم يكن فيه أدنى صورة من صور الجلال والنبل ، ..
على أن هناك من اعتقد أن المسيح أبصر فى أغوار يهوذا بعض النزعات الشريرة ، التى إذا نمت يمكن أن تقضى عليه وتدمره تدميراً ، فأراد أن يعطيه الفرصة لينتصر على هذه النزعات بمصاحبة المسيح ، والإنصات إليه ، والتعلم منه ، والاقتراب إلى الحب والجمال والحق والخير فيه ، . ومن المؤكد – على أى حال – أن يهوذا لم يكن مكرهاً على فعل الشر ، وأنه كان يمكن أن يسعى إلى الخير أو يسلك فيه ، لولا أنه سمح للعناصر الشريرة المدمرة أن تسيطر عليه !! ..

ومهما تختلف الآراء حول دوافعه ونوازعه التى دفعت به إلى تسليم المسيح ، فإن مما لا شك فيه ، أنه كان يحمل وزنات وملكات لو أنه أحسن استخدامها لربما أصبح واحداً من أفضل تلاميذ المسيح ، .. لسنا نعلم من أبوه وأمه ، ولا نستطيع أن نصدق التقاليد التى آمن بها اليهود ، وزعموا أن مرثا وسمعان كانا زوجين ، وأن يهوذا سمعان الأسخريوطى كان ابنهما ، فرواية الانجيل لا تشجع على ذلك بتاتاً ، .. وإن كنا لا نستبعد أن أبوى يهوذا كانا تقيين ، وأنهما أطلقا هذا الاسم على يهوذا على أمل أن يحمدا الله على الابن ، كما فعلت ليئة عندما ولدت ابنها يهوذا وهى تقول : « هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهوذا » (تك ٢٩ : ٣٥) .. ولو صح هذا ، فما أكثر ما تخيب الأحلام التى يحلم بها الآباء عن أبنائهم ، .. بل ما أكثر ما يحدث العكس تماماً من هذه الأحلام ، ولهذا كان بين تلاميذ المسيح اثنان تم التفريق بين اسميهما فدعى أحدهما يهوذا الأسخريوطى ، والآخر يهوذا ليس الأسخريوطى ، على أنه من المؤسف حقاً أن يخرج يهوذا الأسخريوطى ، من ذات السبط الذى طلع

منه ربنا ، إذ أنه هو الوحيد بين التلاميذ الذى ولد فى اسخريوط أو « قريوت » الواقعة إلى الجنوب الشرقى المتاخم لأدوم فى أرض يهوذا ، وكان جميع التلاميذ ما خلا يهوذا جليليين من أقصى الشمال من فلسطين ، .. ولا شبهة فى أن المسيح وقد اختار تلاميذه بعد ليلة قضاها فى الصلاة ، لم يختره اعتباطاً ثم يدفع به إلى الصف الأول من التلاميذ حتى ولو جاء فى آخر الصف ، بل لابد أنه كان يملك وزنات أعطيت له ، وأحاطها السيد بكل ما يمكن أن تحاط به الوزنات ، لعلها تنمو وتستخدم على أفضل صور الاستخدام ، .. ولكنه للأسف العميق دفنها ، ونظر إلى سيده . كما نظر صاحب الوزنة الواحدة ، واتهمه بالشدة والقسوة والصرامة ، من غير حق !! .. وليس من السهل مع ذلك أن نتصور ، أن يهوذا بدأ من اللحظة الأولى خائناً ، بل لعله بدأ ملتهباً غيوراً ، ربما سمع المعمدان يتكلم عن المسيح ، أو ربما سمع المسيح نفسه ، وأبصر معجزاته ، والتقى به فى مكان ما وهتف له ، وكان مخلصاً فى هتافه ، ولم يكن يخطر له ببال على الاطلاق أنه سيكون يوماً الخائن ، ومسلم سيده ، .. وهنا يعود السؤال مرة أخرى لماذا اختاره المسيح !! ؟ .. ومع أننا نبحر فى البحر العميق ، إلا أنه مع ذلك يمكن أن نقول : إنه اختاره لأن : « كل ما شاء الرب صنع فى السموات وفى الأرض فى البحار وفى كل اللجج » (مز ١٣٥ : ٦) .. والمسيح يقول : « أن أفعل مشيئتك يا إلهى سررت. وشريعتك فى وسط أحشائى » (مز ٤٠ : ٨) .. استطعنا تخيل مدى سرور المسيح فى إتمام المشيئة الإلهية مهما يبذل من جهد أو يدفع من ثمن ، لأدركنا كم كان ترحيبه بالخائن رغم علمه بالخيانة البشعة التى كان مقدماً عليها ، .. لقد سار المسيح فى الأرض يتمم كل نقطة وحرف فى البرنامج الإلهى بحب عميق وشغف كامل . ولعله وقف مرات عديدة يتأمل حى صادق أمام جميع النبوات المتحدثة عن صليبه وآلامه : « أيضاً رجل سلامتى الذى وثقت به

آكل خبزى رفع على عقبه » (مز ٤١ : ٩) . . « حين كنت معهم فى العالم كنت أحفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى حفظتهم ولم يهلك منهم أحـد إلا ابن الهلاك ليتم الكتاب » (يو ١٧ : ١٢) . . « أيها الرجال الأخوة كان ينبغى أن يتم هذا المكتوب الذى سبق الروح القدس فقاله بفم داود عن يهوذا الذى صار دليلا للذين قبضوا على يسوع . . لأنه مكتوب فى سفر المزامير لتصر داره خراباً ولا يكن فيها ساكن وليأخذ وظيفة آخر » (أع ١ : ١٦-٢٠)

كما أن المسيح قد اختاره وهو يعلم تماماً ماذا سيفعل ، وأعطاه كل فرصة كاملة ، كما يعطى لأى إنسان شرير فى الأرض ، لأنه لا يعاقب على شىء قبل حدوثه ، ولا يمنع إنساناً من فرصة طيبة يمكن أن يقتنصها ، حتى يستد بعد ذلك كل فم ، ولا يحتج أحد أمام الله بأنه لم يعط فرصته الكاملة فى أرض الأحياء ! ! . . وهنا يمكن أن نقف بارتعاب على الأرض الرهيبة ، إذ كيف يحب المسيح الخائن ، ويطعمه ويأويه ، وهو يعلم أنه يقترب من الخيانة يوماً بعد يوم ، . . ولكن يهوذا أختير ليكون أرهب نموذج على صبر المسيح وحنانه وحبه واشفاقه على أشر الخطاة وأحط الأئمة ! ! . .

على أن الاختيار مع ذلك يمكن أن يرجع إلى أن المسيح يريد أن يذكر جميع الأجيال بأنه لا يستبعد أن يدخل فى الخدمة غير المولودين من الله ، وغير المجددين ، ممن قد يشقون الصفوف حتى يصلوا إلى الصف الأمامى منها ، ويصبح الواحد منهم راعياً أو أسقفاً أو بطريركاً أو بابا – على ما درج الناس من مألوف الألفاظ والألقاب – وفى الوقت عينه هو يهوذا الذى لم تؤثر فيه النعمة ، أو تذكره بالامتياز العظيم الذى سينقلب عليه فى يوم الدين بأقسى مسئولية وأرهب دينونة ، فإذا احتج البعض أو تعثروا فليذكروا أنه من البدء كان هناك يهوذا الأسخريوطى ! ! . .

على أن الاختيار يمكن أن ينبه أيضاً إلى خطورة أمرين بالغى الأهمية فى حياة يهوذا الأسخريوطى ، ويمكن أن يكون فيهما نموذجاً قصد المسيح أن يضعه أمام الأجيال ، ونعنى بهما الطموح البشرى وحب المال ، أو فى لغــة أخرى المركز ، والمال ، . . وهما الأمران اللذان يقفان فى كل التاريخ كأرهب طريق يستخدمه الشيطان لتدمير الخدمة ، فكم دمر الصراع من أجل المركز والنفوذ – فى كنيسة المسيح – أروع الوزنات وأعظم الخدمات ! وكم حول المؤمنين إلى شيع وطوائف ومذاهب يقاتل بعضها بعضاً كما يتقاتل المحاربون فى ساحات الحروب ، وهم يسلمون – يدرون أو لا يدرون – ابن الله للخيانة والصلب ! .. وناهيك عن محبة المال التى هى أصل لكل الشرور ، .. وماذا فعلت بالكنائس ومجد ابن الله فى الأرض ، .. وكم حولت من بيوت الله إلى مغارات اللصوص !! .. ومهما يكن من أمر فإن اختيار يهوذا كان البرهان العظيم على الألم الذى كان على رئيس الكهنة العظيم أن يتحمله : « لأنه لاق بذاك الذى من أجله الكل وبه الكل وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام . . من ثم كان ينبغى أن يشبه اخوته فى كل شىء لكى يكون رحيما ورئيس كهنة أميناً فيما لله حتى يكفر خطايا الشعب لأنه فيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجربين » (عب ٢ : ١٠ ، ١٧ ، ١٨) ..

ومن الملاحظ أن هذا الاختيار لم يكن مجرد اختيار شكلى ، يمكن يهوذا من الاحتجاج بأنه وضع « صورة » دون أن يمارس فعلا أو يتحمل مسئولية ما ، على نحو ما يفعل القادة والرؤساء عندما يضعون شخصاً فى وظيفة شرفية من غير نفوذ أو سلطان ،.. لكن المسيح فعل الشىء العجيب ، إذ اختار الخائن أميناً للصندوق ،.. ومن الجائز جداً أنه كان أقدر تلميذ من الوجهة المالية ،

وأنه ربما كان أقدر من متى العشار نفسه ، أو لعل المسيح أراد أن يؤكد له أنه على استعداد أن يمنحه كل ثقة ، وأن يشجع التلاميذ أيضاً على الثقة به ! ! ؟

على أى حال مهما يكن الباعث على اختيار يهوذا ، ومهما يكن البحر العميق الذى نبحر فيه ونحن نبحث عن سر هذا الاختيار ، فان اللغز الأبعث على الحيرة هو لماذا اختارنى يسوع المسيح أو اختارك لملكوته الأبدى العتيد ؟ ! . لست أعلم ، وإن كان لى أن أصرخ الأبدية كلها صرخة بولس : « وتفاضلت نعمة ربنا جداً مع الإيمان والمحبة التى فى المسيح يسوع ، صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا . لكننى لهذا رحمت ليظهر يسوع المسيح فى أنا أولا كل أناة مثالا للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية (١ تى ١ : ١٥ — ١٧) .

يهوذا وثمن المسيح :

وصف شكسبير يهوذا بأنه « اليهودى المنحط الذى باع لؤلؤة أغلى من كل سبطه » وليس سبط يهوذا وحده ، أو أمة إسرائيل ، بل السموات والأرض جميعاً ، لا تساوى سيد الكل ، وصانع الكل ، .. ولكنها الحماقة والجنون والخطية التى تفعل هذا ، .. قال يهوذا لليهود : « ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه إليكم . فجعلوا له ثلاثين من الفضة » (مت ٢٦ : ١٥) . وإذا رجعنا إلى نبوات العهد القديم نجد أن النبيين زكريا وأرميا تحدثا — بالنبوة — عن هذا البيع ، .. ولقد تعمقنا فى نبوات زكريا نجد أن الله بصفته معلما وراعياً يسأل شعبه ماذ يقدمون من ثمن لرعايته وتعليمه ، وهم أحرار فى تقدير الثمن غالياً كان أم رخيصاً ، وإذا بهم يقدرونه بثلاثين من الفضة ! ! .. ولقد قدر يهوذا واليهود المسيح بهذا الثمن ، أى بما يزيد قليلا عن ثلاثة جنيهات ، .. ومن المحزن أن المسيح إلى اليوم ما زال يقف أمام كل إنسان بهذا السؤال :

بما تقدرنى ! ! ؟ .. ولئن كان يهوذا لم يصل إلى حدسه وعلمه، أنه يبيع الله بهذا الثمن الخيف .. إلا أن الكثيرين ما زالوا إل اليوم يفعلون هذا !! .. عندما دخلت جان دارك على ملك فرنسا ، وكان متخفياً فى وسط الجميع بثياب عادية، أطالت النظر فيهم جميعاً، ثم توقفت عنده، وعندما سألها كيف عرفته ، أجابت : إنك تحمل بهاء الملك مهما ارتديت من ثياب، .. كان يهوذا الأسخريوطى يطلب ثمن ذاك الذى قال عنه الرسول : « الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس وإذ وجد فى الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب » (فى ٢ : ٦ — ٩) .. على أن المسيح المبـاع أيضاً لم يكن مجرد الخالق ، بل كان الصديق المعتنى ، أليس هو الراعى الصالح ، الذى نغنى فى حضرته مع داود المزمور الثالث والعشرين ، بل نغنى أمامه طوال الحياة بكل ما نتمتع به من خير ودسم وشبع وكرامة وحياة ومجد !! .. هل سمعتم عن برادلى الولد الصغير الذى كلفته امه ببعض الأمور الصغيرة ، وتذمر فى أول الأمر ، لكنه عاد فأتمها ، وأعطى فى المساء فاتورة الحساب لأمه يطالبها بمقابل ما قام به من جهد وتعب ، الأم وهى تجهز له فاتورة أخرى قائلة : أعطنى يا ابنى الثمن ، لقد حملتك فى بطنى تسعة شهور ، وحملتك فى الحياة وأنا أرضعك من ثديىي ، وسهرت الليالى الطوال ، وأنت فى سرير المرض دون أن آكل أو أمل ، .. كم تقدر يا ولدى ثمن هذا كله !! ؟ ..

ثم بماذا نقدر المسيح المعلم ، .. لقد عاش معه يهوذا الأسخريوطى ثلاث سنوات ، واستمع إلى أروع تعاليم سمعتها الأذن البشرية ، ويقدمها الانجيل تراثاً خالداً لكل الأجيال ، .. بكم نقدر هذه التعاليم وكم ندفع فى سبيلها !! ؟ .. بل بكم نقدر المسيح الفادى الذى بذل حياته من أجلنا :

« أنكم أفتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب » .. (١بط ١ : ١٨و١٩)

بكم نقدر حب المسيح الذى ظهر على الصليب .. قال الكسندر مكلارن الواعظ العظيم وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وهو يتأمل هذا الحب العجيب : « إنى أغرق كل أعمالى وصلواتى وخدمتى ومواعظى ، وأسبح إليه محمولا على خشبة صليبه ، على النعمة !! » ..

إن الشيء الرهيب ، والذى يتجاوز كل خيال ، هذه الثلاثون من الفضة أو ما يزيد قليلا عن ثلاثة جنيهات ، والتى هى ثمن المسيح الكريم . وهى تعود بنا إلى ما جاء فى الشريعة الموسوية والتى كانت تقول : إذا نطح ثور رجلا أو إمرأة ، ابناً أو ابنة ، ومات من نطحة الثور ، كان الثور يرجم ويدفع صاحبه أى مبلغ من المال يوضع عليه من أصحاب الميت ، لكن إذا نطح الثور عبداً أو أمة يرجم الثور ، أما الفدية فتحدد بثلاثين من الفضة ، .. وقيم يهوذا — بالاتفاق مع رؤساء الكهنة — سيده هذا التقييم البخس المهين !! . والسؤال إلى هذا الحد يبخس ثمن المسيح !! ؟ .. إن أبشع ما فى الأمر ، أنه كان فى نظرهم ثمن العبد الذى لا قيمة له ، أو بعبارة أخرى هو ثمن الحقد والكراهية التى كانت تملأ قلوبهم جميعاً من نحو يسوع المسيح ، أما يهوذا فلأن المسيح لم يحقق أحلامه التى كان يطمع فيها ، عندما كان يتصور ملك المسيح ملكاً أرضياً ، ولعله سيكون وزير المالية أو الخزانة ، فى هذه المملكة ، .. ولما ضاعت أحلامه من هذا القبيل ، باع سيده بأبخس الأثمان ، .. أما اليهود فقد باعوه لأنه طارد أطماعهم وهم يحولون بيت الله إلى مغارة لصوص ، .. ومن المؤسف أن المسيح ما يزال إلى اليوم يباع بأبخس الأثمان !! . وقد لا يباع بفضة أو ذهب كما قال شاعر غربى ، .. ولكن عشرات الألوف إلى اليوم ما زالوا يبيعونه ، إنهم يبيعون رئيس الحياة بصداقة آثمة ، أو شهوة

أنانية ، إنهم يبيعونه بالعرف الزائل أو الإسم الكاذب ، .. إنهم يبيعونه فى سوق العمل أو على مقعد القوة ، .. إنهم يبيعونه فى خميلة الحظ أو فى مخدع الدنس ، .. وعين الله وحدها التى ترى المقايضة المخيفة !! .. فيانفسى هل تبيعينه !! ؟ . أيباع !! .. يا إلهى أى لحظة هذه !! .. اللحظة التى يصرخ فيها هجس الضمير !! .. أيباع !! .. اللحظة التى يبكى فيها الملاك وهو يرفع التقرير !! .. والتى فيها يقبض الثمن جمراً ملتهباً فى النار الأبدية !! .. باع يهوذا الأسخريوطى سيده بهذا الثمن ، فهل تفعل أنت هكذا !! ؟ .

يهوذا وقبلة الغـــدر :

هل سمعت عن الحية التى كادت تتجمد من البرد ، فضمها مشفق رحيم إلى صدره لتدفأ ، وما أن دفئت حتى لدغته لدغة قاتلة ، .. هل سمعت عن العقرب التى توسلت إلى ضفدعة أن تعبر بها النيل على ظهرها ، .. وقالت الضفدعة ولكنى أخشى أن تلدغينى ، فأجابت العقرب : ولكنى أموت غرقاً إذا فعلت هذا ، وحملتها الضفدعة وفى منتصف النهر لدغتها ، .. وعندئذ صرخت الضفدعة لماذا تفعلين هكذا !! .. فقالت العقرب : إنها طبيعتى ولو إلى الموت !! ؟ . كان يهوذا الأسخريوطى أشنع من الحية والعقرب وهو يقبل يسوع المسيح !! ..

كانت علامة الغدر المتفق عليها بين يهوذا والذين قبضوا على المسيح ، هى القبلة ، وأى علامة هذه ؟ إنها تحمل أقسى صور الاسفاف والغدر ، .. إن القبلة هى رمز الانسان فى حبه العميق لآخر ، هى التعبير الذى تطبعه الأم على وجنتى صغيرها والمحب على ثغر حبيبه ، والمشوق لمن يريد أن يعبر له عن شوقه !! .. لكنها تحولت عند يهوذا إلى خنجر حاد اغمده فى قلب السيد !! ..

وكانت أبشع مظهر للجمود والنكران ، .. قال المسيح ليهوذا .. «يا صاحب لماذا جئت »، وأنت تستطيع أن تسمع صرخة الألم العميق فى هذا التعبير ، بل تستطيع أن تفهم معنى النبوة القديمة القائلة : «آكل خبزى رفع على عقبه » (مز ٤١ : ٩ ، يو ١٣ : ١٨) لم يدهش الناس وهم يرون بليساريوس القائد العجوز الأعمى يصرخ من معاملة جستنيان له بعد خدماته العظيمة له فى المعارك والحروب ، .. ولم يتعجب الكثيرون عندما رأوا روبرت موفات يتوجع فى الكثير من لحظات الظلام القاسية التى ألمت به عندما تنكر له الكثيرون فى خدمته العظيمة فى أفريقيا !! ؟ .. ولم يره الناس أمراً غريباً أن تفزع مستر دورا التى تركت الحياة الارستقراطية الرفيعة ونزلت إلى ميدان الخدمة لتلاقى بالجحود الكثير !! .. فإذا كان هؤلاء وغيرهم قد صرخوا صرخة الألم من الجحود والنكران ، فماذا نحن قائلون عن يسوع المسيح وهو يرى يهوذا يطبع قبلة الغدر الخسيسة على وجنتيه المباركتين !! .. لم يكن له إلا أن يصرخ : « أبقبلة تسلم ابن الانسان » (لو ٢٢ : ٤٨) ! ؟

هل يمكن للانسان مهما كان أمره أن يصل إلى هذا الحد من الاسفاف والانحطاط ؟ ! .. ان الانسان من حيث هو انسان لا يمكن أن يبلغ هـــذا المبلغ ، .. لكن الانسان يمكن أن يصل إلى هذا الوضع إذا أضيف إليه الشيطان : « فبعد اللقمة دخله الشيطان » (يو ١٣ : ٢٧) .. أيها الإنسان عندما تقبل آخر .. تأمل القبلة ، هل هى قبلة الحب المقدسة أم قبلة أبشالوم قبلة الخداع والمكر أم هى قبلة يهوذا الخيانة والغدر ؟ ! ..

يهوذا والليل الأبدى :

ذهب رجل إلى إحدى الولايات الأمريكية ، وأقام معرضاً للشخصيات التاريخية المشهورة من الشمع ، .. وفى إحدى غرف المعرض غرفة تمثل المسيح وتلاميذه ،فى ساعة الفصح فى الليلة التى أسلم فيها ، .. ودخل شاب

أمريكى إلى هذه الغرفة وما أن اقترب من تمثال يهوذا الاسخريوطى حتى انهال عليه باللكمات والركل ، حتى حطمه تحطيماً فأسرع صاحب المعرض وهو يصرخ : أيها المجنون لماذا تفعل هكذا !! ؟ .. وأجاب الشاب : إن يهوذا الأسخريوطى لا يمكن أن يدخل ولايتنا دون أن ينال النصيب الذى يستحقه !! .. ومن المحزن أن الأجيال كلها ما زالت تركل يهوذا فى كل زمان ومكان ، .. ألم يضعه دانتى – فى الكوميديا الإلهية – فى أسفل دركات الجحيم إلى جوار الشيطان نفسه ، .. وقد وضعه السيد المسيح بالوصف البالغ الأسى : « ابن الهلاك » وقد ترجم لوثر هذه العبارة « الابن الضائع .. أو يمكن أن نطلق عليه التلميذ الضائع .. التلميذ الذى قال الرب عنه أيضاً : « كان خيراً لهذا الرجل لو لم يولد » .. كيف لا وقد خرج من حضرة المسيح ليواجه ليله الأبدى : « فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت ، وكان ليلا » (يو ١٣ : ٣٠) .. لم يكن ليله مجرد ليل الطبيعة الذى أرخى سدوله على كل مكان ، بل كان الليل الأعمق فى داخله الذى حل فيه الشيطان وملأه ظلاماً ، لقد ندم على فعلته ، وقال لليهود : « قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً » (مت ٢٧ : ٤) .. ولكن هذا الاعتراف بالخطيئة أشبه باعتراف فرعون الذى قال لموسى « أخطأت » ، وأشبه باعتراف شاول عندما قال لصموئيل : « أخطأت لأنى تعديت قول الرب » (١ صم ١٥ : ٢٤) .. أو عندما قال لداود : « قد أخطأت : أرجع يا ابنى داود » (١ صم ٢٦ : ٢١) .. كانت النقطة القابلة فيه أنه إحساس بالجرم دون الاتجاه إلى رحمة الله !! .. ومن الغريب أن اوريجانوس اعتقد أن الحزن البالغ عند يهوذا أفقده سلامة التصرف فقرر الانتحار حتى يقابل السيد فى العالم الآخر ، ليعترف له بخطيته الرهيبة الشنيعة ، ونحن لا نعلم علام اعتمد أوريجانوس فى هذا التصور ، .. إن الحقيقة هى أن يهوذا ذهب إلى الليل الأبدى بدون رجاء !! .. لقد خرج

من حضرة النور ليغرق فى الظلام . وحتى الثمن النجس الذى أعطوه له ، تحول ناراً فى يده ، فطرحه فى الهيكل ، ومضى وخنق نفسه ، .. كان الشيء الوحيد الذى أخذه من الثلاثين فضة ، المقبرة التى اشتروها ، والتى قبر فيها كل شيء .. وهكذا كل من باع يسوع المسيح أو استبدله بمتاع أو شهوة أرضية ، لن يجد أمامه إلا الموت والمقبرة المخيفة ، والظلام ، والليل الأبدى وكلمات الرسول بطرس القائلة : « أيها الرجال الأخوة كان ينبغى أن يتم هذا المكتوب الذى سبق الروح القدس فقاله بفم داود عن يهوذا الذى صار دليلا للذين قبضوا على يسوع إذ كان معدوداً بيننا وصار له نصيب فى هذه الخدمة . فإن هذا اقتنى حقلا من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها . وصار ذلك معلوماً عند جميع سكان أورشليم حتى دعى ذلك الحقل فى لغتهم حقل دماً أى حقل دم . لأنه مكتوب فى سفر المزامير لتصر داره خراباً ولا يكن فيها ساكن وليأخذ وظيفته آخر » (أع ١ : ١٦ – ٢٠) !! ..

٩٧
نيقوديموس

« لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدا من فوق » (يو ٣ : ٧)

سأل مودى ذات مرة إحدى السيدات وقال لها : « أنت مسيحية ! ! ؟ ». فأجابته : « بالتأكيد إنى مسيحية » .. فقال لها : « متى صرت مسيحية ! ! ! ؟ فاندهشت وهى تجيب : « لقد ولدت فيها يا سيدى » .. فقال لها : « آه انى أهنئك يا سيدتى فأنت سعيدة الحظ لأنك المرأة الوحيدة التى قابلتها وولدت مسيحية ! ! .. إن كل من قابلتهن ولدن بنات آدم ! ! .. لا لا يا سيدتى إنك لست مسيحية لأنك ولدت فى انجلترا فى بلد مسيحى ! ! .. أو لأنك ولدت من أبوين مسيحيين .. إنك لا يمكن أن تكونى مسيحية ما لم تولدى الميلاد الثانى » .. بشىء من هذا المعنى وأعمق منه جرى الحديث بين المسيح ونيقوديموس ، .. ربما كان نيقوديموس فى وقته أشبه ، وهو رئيس لليهود ، بالبابا أو البطريرك أو الرئيس الدينى فى أيامنا هذه ، .. وهو لا يعتقد أنه

مؤمن فحسب ، بل أكثر من ذلك ، هو قائد للمؤمنين أيضاً !! .. ومع ذلك يجد صاحب الملكوت يقول له : قف مكانك !! .. أين جواز الدخول !!؟ .. ويسمع أن كل مولود لامرأة مخلوق ومعجون بالخطية ، حتى يأذن له السيد بأن يولد مرة ثانية من السماء ، قبل أن يستطيع الدخول إلى ملكوت الله .. « لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » !!؟ ان قصة نيقوديموس تثير قضية هى أخطر قضية يلزم أن يتنبه إليها كل إنسان ، والدين كله ، والحياة كلها يقومان أو يسقطان بناء على الأخذ بهذه النظرية أو اهدارها والتجاوز عنها ، وهى لهذا ينبغى أن تأخذ من تفكيرنا وتأملنا وجهدنا ، ما يأخذه من المحامى الذى يدافع عن متهم فى قفص الاتهام ، يطالب الادعاء بالحكم عليه بالاعدام !! .. أو بعبارة أخرى ، إن حديثنا عن نيقوديموس ليس من باب الترف أو التسلية أو قتل الوقت ، بل من باب الجد الخطير الذى تتعلق فيه الحياة فى حبل المشنقة فوق الهاوية ، حتى يأتى العفو الأبدى عن المجرم الذى يتهدده الهلاك الأبدى ، .. ولذا يحسن التأمل بالعمق الكامل فى هذه القضية :

نيقوديموس والحاجة إلى الولادة الجديدة :

إن قضية الولادة الجديدة قضية من أعجب القضايا التى لم تنل الاهتمام الكافى عند الملايين من المسيحيين ، وكما أثارت نيقوديموس ، فإنها ما زالت إلى اليوم تثير الفكر المسيحى إلى أبعد الحدود .

رسم أحد المصورين السيد المسيح ، ونيقوديموس ، وقد جلسا فى العلية التى يظنها البعض فى بيت يوحنا فى أورشليم أو ربما فى بيت يوحنا مرقس ، أو فى بيت عنيا على تصور آخرين ، وكان الوقت ربيعاً ، بعد الفصح ، وقد هبت نسمات الربيع ، وهفت على أوراق الشجر ، وداعب

النسيم كل شيء ، .. وقد غرق نيقوديموس فى تأمل عميق ، ولاح على وجهه التعجب ، ومن ثم قال له السيد : « لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » .. وموطن العجب أن هذا أول حديث مفصل يذكره المسيح فى بدء خدمته الجهارية ، وكان لابد أن يكون هكذا ، لأن الولادة الجديدة ، هى ألف باء المسيحية ، وإذا كان تاريخ أى إنسان يبدأ بداهة بولادته فى الأرض ، فإن تاريخ أى مؤمن يبدأ بولادته الولادة الجديدة وإذا كنا نهتم فى أى بناء يقيمه الانسان — أولا وقبل كل شيء — بالأساس الذى يقام عليه ، فإن الولادة الجديدة هى الأساس الذى تبنى عليه الحياة المسيحية ، .. والذين لايهتمون بالولادة الجديدة ، كمن يقيمون قصورهم على أساس من رمال أو يبنونها فى الهواء .. وقد يأتى العجب لأن الولادة الجديدة حادث خفى روحى فى أعماق الانسان ، فهى ليست شيئاً منظوراً يلمسه المرء أو يراه بالعين المادية ، ولكنها حقيقة روحيه يمكن رؤياها بالبصيرة ظاهرة فى آثارها المختلفة فى حياة الانسان ، وهى فى الواقع أشبه بالأساس فى البناء ، والأساس فى العادة مختف فى أعماق الأرض ، ولكنه يحمل كل البناء على كاهله ، وأنت تستطيع أن تتعرف على عظمة الأساس وعمقه وقوته من شموخ البناء المرتفع فوقه وسموه وعلوه ، .. وستتأكد عندما ترى ناطحات السحاب — من ذلك الأساس الخفى الذى يمد أصوله فى العمق البعيد !! ..

وقد يأتى العجب أيضاً من مدى الأهمية التى يوليها المسيح للموضوع ، فها نحن نرى زائراً يأتى إلى المسيح ليلا ، ومهما اختلف المفكرون فى سر مجيئه ليلا ، .. فبعضهم رده الخوف ، إذ أن المسيح نجار الناصرة الذى بدأ يظهر فى الأفق من خارج النطاق الفريسى ، وجماعاتهم ، ومدارسهم ، ويلوح كما تلوح الأنوار الأولى للشمس ، وقد بدا يثير كراهيتهم ، لا لأنه اقتحم عليهم الصفوف ، بل لأنه أقدم على شيء مفزع رهيب ، إذ طردهم من

الهيكل بسوط من حبال ، ومن هو هذا الذى يجرؤ على زحزحة مركزهم الدينى أمام الشعب !! ؟ .. وقال آخرون بل أنه ذهب إليه مأخوذاً بالاعجاب وذلك لأن المسيح إن كان قد طرد الكتبة والفريسيين ، فإنه فى الواقع كان أشد فى حملته ضد الصدوقيين الذين كانوا يمسكون بزمام الأمور ، وكان منهم رؤساء الكهنة بالتعاون مع الرومان ، .. وأن الفريسيين وان كانوا يكرهون ما يفعل الصدوقيون ، إلا أنهم أعجز . عن مقاومتهم ، وأنه يسرهم أن يروا مقاوماً عتيداً يحمل عنهم العبء ، ولأجل ذلك فهم مسرورون لأن الناصرى قام بالعمل دون أن يكلفهم مشاركته فيه .. على أنه وجد من قال إنه ليس الخوف أو الإعجاب بل الحذر ! فالرجل يريد أن يتعرف على طبيعة هذا الشخص الجديد ، ، وهو يريد أن يحكم عليه حكماً مستقلا صحيحاً يزن فيه الأمور بالدقة ، قبل أن يحكم له أو عليه ، .. ووجد من قال : إن نيقوديموس ذهب إلى المسيح ليلا لتكون له فرصة الاختلاء بالسيد دون معوق أومزاحم أو مقاطعة ، وهو يريد أوسع فرصة يمكن أن تتاح له ، حتى يستمتع بالشركة مع الناصرى العجيب !! .. على أى حال مهما يكن الدافع لذهابه إلى السيد ، وهل هو واحد من هذه ، أم جميعها مختلطة متشابكة معاً فانه من الثابت أنه ذهب إليه ، محيياً إياه بالتحية الرفيعة الخالية من كل رياء أو حسد : « يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلما لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التى أنت تعمل إن لم يكن الله معه » (يو٣ : ٢) .. وكان من البديهى أن يرد المسيح التحية بمثلها أو يعبر بصورة ما عن تقديره لمجىء الرئيس الفريسى إليه ، .. لكن من المدهش أن المسيح لا يظهر من الحديث أنه فعل شيئاً مثل هذا ، .. لأن عند المسيح شيئاً هاماً جداً ، يسبق كل تحية أو مجاملة ، .. وهو الحديث عن الولادة الجديدة ، .. وهل قصد المسيح بذلك أن نرفع الحديث عن الولادة الجديدة فوق كل مجاملة فيمكن أن نواجه

بها الانسان مهما علا أو انخفض مركزه ،.. إذا أبصرت انساناً تشتعل فيه النيران ، وقد أخذت بتلابيبه ، وتحول هو إلى كتلة من نار ، وركضت إليه لتسعفه ، وأخذ هو يشكرك ويثنى عليك ، فمن المتصور أنك لا تهتم بما يقول أو يعبر ، وإنما تعمل على إنقاذه أولا قبل مبادلته التحية أو الرد على الإعجاب ، .. لقد أمسكت الخطية ، وهى تقود إلى النار الأبدية بتلابيبنا ، والمسيح يهتم بأن نخلص أولا من النار ، قبل أن نغنى له أو نتحدث عنه ، .. على إن الأمر أعمق من ذلك كثيراً ، فإن المسيح اختار نيقوديموس بالذات ، ليتحدث عن الولادة الجديدة ، ولم يختر المرأة السامرية أو المرأة التى أمسكت فى زنا أو العشار أو غيرهم من الخطاة الأثمة ، الذين من الواضح أن الخطية ظاهرة فى حياتهم ، وهم فى حاجة إلى التغيير والتجديد ، .. لكن الشيء العجيب أن المسيح يتحدث إلى السامرية الخاطئة عن أرق وأعلى لون من ألوان العبادة ، التى كان يجمل أن يتحدث بها إلى نيقوديموس ، .. ويتحدث إلى نيقوديموس عن الحاجة إلى التحرر من الخطية بالولادة الجديدة ، .. وهنا موطن العجب ، كان نيقوديموس يتصور أنه آخر انسان على الأرض يجوز الحديث معه عن الولادة الجديدة ، ولكن المسيح قلب الأوضاع ، وتحدث عن العبادة للخاطئة الآثمة ، .. وعن الولادة للرئيس العظيم ، .. إنه يذكرنى بقصة حدثت فى إحدى كنائس الغرب ، إذ أن قاضياً من أعضائها — حكم على مجرم بالسجن سبع سنوات ، وتاب المجرم فى السجن ، وبعد خروجه انضم إلى نفس الكنيسة التى كان القاضى عضواً فيها ، وفى ساعة الفريضة الربانية ، ركع الإثنان معاً جنباً إلى جنب فى حضرة الله ، .. وبعد الخدمة سأل القاضى الراعى : « هل رأيت المنظر » .. !! ؟ فأجابه : « نعم » .. ثم سأله قائلا : « هل نعمة الله كانت أكثر له أو لى !! ؟ .. » فقال : « كانت له النعمة أكثر ولا شك » .. فقال القاضى له : « لا أعتقد هذا إذ من السهل

على المجرم أن يدرك أنه مجرم . . أما أنا فقد نشأت فى بيت مسيحى ، وكنت فى حاجة إلى نعمة أعظم لكى أدرك حاجتى إلى الخلاص ، . . » أجل وهـذا حق : أنك من السهل أن تعرف الفرق بين الأسود والأبيض من أول دقيقة.. وتحتاج إلى نظرة أعمق وأوفى لكى ترى الفارق بين الرمادى والأسود ، .. ومن أصعب الأشياء هو أن يدرك المتدين حاجته إلى الخلاص ، .. كانت هناك ثلاثة أشياء يملكها نيقوديموس ، وهو خارج ملكوت الله ، .. المنصب الدينى ، والمعرفة الكتابية ، والأخلاق الحميدة ، ولم يشفع فيه واحد منها ، ..كان هو أولا « رئيس لليهود » كان عضواً بارزاً فى السنهدريم ، والبعض يضعه فى القمة بين الفريسيين فإذا كان الرئيس أونائب الرئيس — حسب السياسة الموضوعة فى ذلك التاريخ — يتحتم أن يكون من جماعة الصدوقيين ، فالرئيس أو المعلم كان الثالث ، وهو أشبه — فى هذه الأيام — بأعلى المناصب الكنسية ، .. ورغم ذلك فإنه لا يعفى من القول : « لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » .. ومع أنه ليس المجال هنا أن نتحدث عن الأوضاع المختلفة للتدرج الكنسى ، مدى مطابقته لكلمة الله ، . . إلا أنه من واجبنا أن نقول إن يهوذا الأسخريوطى كان واحداً من الدائرة المميزة بين التلاميذ ، ومع ذلك ذهب إلى هلاكه الأبدى ! ! .. وكل رئيس دينى ، أو قائد كنسى ، مهما اتسع نفوذه وامتد سلطانه ، .. فإنه مع هذا المنصب الخطير ينبغى عليه أن ينصت إلى قول السيد : « ينبغى أن تولدوا من فوق » ! . ومن الأمانة أن ننادى بأعلى أصواتنا ، لكى نذكر بأن الجحيم سيمتلىء بالكثيرين من أدنى الرتب الكنسية إلى أعلاها ، ممن لم يختبروا الولادة من فوق ، .. وممن حجزهم المنصب الدينى عن فحص النفس ، والتعرى من الثوب الكنسى ، لمعرفة حقيقة الحياة ، ونوال هذا الاختبار المبارك ، اختبار الحياة الجديدة بفاعلية الروح القدس ! ! .. على أن السيد المسيح يضيف

شيئاً آخر ، إلى المنصب الكنسى ، ونعنى به المعرفة الكتابية وقد كان نيقوديموس مبرزا فى ذلك ، أنه لا يعلم فحسب ، بل هو معلم إسرائيل ، .. أو هو الرجل الذى يذهب إليه الجميع ليستقوا من نبعه المعرفة والعلم ، وهو رجل المشورة والفتوى ، وهو الذى قرأ الكتاب المقدس والتقاليد وتفقه فيها ، .. ويستطيع أن يحل عقدها ، .. لكن هذا العلم مهما سما وعلا ، مبتور ناقص ، لأنه لم يبلغ قمته فى المسيح ، وهو لا يعرف عن المسيح أكثر من أنه « معلم » جاء من الله معلماً ، وهو يصنع آيات ومعجزات ، مهما سمت وارتفعت فإنها إنما تشهد له أن « الله معه » .. إن علمه مهما امتد ، فإنه يقصر عن إدراك حقيقة المسيح ، الذى هو أساس الولادة الجديدة ، .. ولا شبهة فى أن هذا الرجل وقف قبل ذلك يعظ الكثيرين ويتحدث إليهم ، ويثير دهشتهم وتعجبهم ببحر علمه الغزير ، ومع ذلك فإنه الشخص الذى يمكن أن يقال له : « لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » .. ان المسيحية أكثر من أن تكون علماً ، إنها — أولا وأخيراً — حياة .. لقد قال وهو أصدق القائلين : « كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحينئذ أصرح لهم إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم » (مت٧ : ٢٢و ٢٣) . لست أدرى لماذا يخطر ببالى دائماً فكرة الحساب التليفزيونى ، وسيرى كثيرون المنابر التى وقفوا عليها ،والكلمات والعظات التى نطقوا بها ومع ذلك فبدون اختبار الولادةالجديدة هم فى أعماق الجحيم ، حتى ولو عاشوا حياتهم كلها يعظون الناس ، ويعلمون الآخرين ! ! .. أيها اللاهوتى ! ! .. أيها الواعظ ! ! .. يا معلم العقيدة والكتاب : « لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » ..

على أن شيئاً مثيراً آخر يمكن أن يضاف هنا وهو أن نيقوديموس كان على اسمى ما تكون الأخلاق الحميدة ،.. ورغم هذه الأخلاق العالية ، كان خارج باب الملكوت ،.. كان متديناً على أدق ما يكون التدين ، كان فريسياً مدققاً ، لا تغيب عنه الوصايا والفرائض ، الناموس الأدبى ، والناموس الطقسى ، وقد تحلى إلى جانب ذلك بالوداعة التى تجعله يقصد السيد ، وهو مشوق إليه ، يعطيه لقب المعلم مهما اعترض الفريسيون على ذلك ، ، ويشهد له ، بأصالة الانسان المتأمل الذى يدرك أن هذا الشخص لابد أن يكون من الله ، وإلا لما أمكنه أن يعمل الآيات التى يعملها إن لم يكن الله معه ، .. ليست عليه شائبة فى خلق ، أو ما يستدعى اللوم ، بل هو من أعلى رجال عصره سمواً فى الأخلاق الحميدة ، .. ومن الغريب أن هذه الأخلاق لم تشفع له أو تغنيه عن الولادة الجديدة ، يظن البعض أن الدين هو الأخلاق ، وأنه يكفى أن يكون الانسان على خلق عظيم كريم ليكون مقبولا أمام الله ، ويفتح له باب الملكوت ، وأظن أن هذه من أكبر الخدع التى يسقط فيها الانسان — يدرى أو لا يدرى ، .. وحتى لا تبدو شبهة فى هذا الكلام ، من حقنا أن نضع الانسان فى مقارنة مع الحيوان أو الطير الذى يسير فى الحياة بالغريزة ، وليس عن خلق ، .. وهل يستطيع الإنسان أن يقارن بين شجاعة الأسد ، وشجاعة الانسان ، أو بين وفاء الكلب ووفاء البشر ، أو بين وداعة الحمام ووداعة أبناء آدم !! .. ولسنا نظن أن أحداً يمكن أن يفضل الطير أو الحيوان لمجرد أنه يملك غريزة أفضل وأجمل مما فى الانسان ، .. فإذا سرنا فى اتجاه هـــذا المنطق للمقارنة بين الناس بعضهم بعض لوجدنا مرات كثيرة أنه يوجد بين الملحدين والوثنيين من تفوقوا فى خلالهم أو صفاتهم من هذا الجانب أو ذاك على المؤمنين أنفسهم !! .. فهل يعتبر الملحد والوثنى أفضل أمام الله وهو يعتبر الحيوان أفضل لأن عنده من الصفات ما لا يوجد فى الانسان ؟ .

قطعاً لا !! .. لأن الفضيلة الأولى عند الانسان هى معرفة الله ، واحساسه بأن كل فضيلة فيه نابعة من نعمة الله ، وينبغى أن تكون لمجد الله ، .. وهذا ما يعوز الحيوان والوثنى والملحد ، .. فإذا نظرت من وجهة أخرى إلى مفهوم الأخلاق الحميدة ، وهل تتحقق لأى إنسان بعيد عن الله ، .. لأجبنا بكل تأكيد بالسلب لأن أصحاب هذه الأخلاق هم قطعاً داخل الدائرة التى تلف الجنس البشرى كله : « والجميع زاغوا وفسدوا معاً ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد » ..(رو ٣ : ١٢) وأن الأخلاق الحميدة ليست هى ما يتصوره الإنسان عن الأخلاق ، بل هى حقيقة الأخلاق كما يكشفها الله ، .. وعندما يقف الانسان فى حضرة الله القدوس ، سيتبين أن أعمال بره كثوب عدة ، .. وأنه أمام الجلال السرمدى ، وأمام هتاف الملائكة : قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض !! .. (اش ٦ : ٣) نسمع صرخة واحد كان دون أدنى شبهة من أعظم رجال عصره أخلاقاً وسموا : « ويل لى إنى هلكت لأنى انسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين » (اش ٣ : ٥) .. وما يطلق عليه الناس بعد ذلك الأخلاق الحميدة ، ليس إلا مستنقعاً من الأوحال والدنس والنجاسة ، .. كان نيقوديموس — مهما بلغ من السمو الخلقى ، والأخلاق الحميدة — خارج باب الملكوت يسمع القول : « لا تتعجب انى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » .. فإذا كانت السماء ليست بطاهرة أمام عينى الله ، وإلى ملائكته ينسب حماقة » (أيوب ٤ : ١٨) فما قولنا بالانسان الذى هو دودة ورمة !! ..

على أن كل ما ذكرنا لا يعدو شيئاً مهما كان عجيباً بالنسبة للحقيقة الأخرى التى ذكر فيها المسيح كلمة « ينبغى » مرة أخرى إذ أن الولادة الجديدة تستحيل على أى إنسان لم يؤسس خلاصه على فداء المسيح : « وكما

رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الانسان » (يو٣ : ١٤) . لقد أفرغت الحية القديمة كل سمها فى الجنس البشرى ، وأضحى هذا الجنس مسموماً ، ولا ترياق له إلا الصليب ، .. ومعادلة الخطية الصعبة ، لا علاج لها إلا فى الصليب ، .. وفى الحقيقة ان السماء جعلت الولادة الجديدة ممكنة على أساس دم يسوع المسيح مخلصنا ، أو فى عبارة أخرى إن الأمر يتوقف اطلاقاً على مجرد الأخلاق الحميدة ، مع فرض المستحيل من أن هناك أخلاقاً حميدة بالمعنى الإلهى الصحيح والمطلق ، .. إنما الأمر كله يتوقف على كفارة المسيح ، والتى هى أساس كل ولادة جديدة ، وخلف كل ولادة جديدة !! .

نيقوديموس وطريق الولادة الجديدة :

وقف نيقوديموس مذهولا أمام الحديث عن الولادة الجديدة ، وأثار سؤالا : « كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ . ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد » (يو ٣ : ٤) . وربما لايسهل علينا معرفة الولادة الجديدة ، قبل أن نرجع إلى مفهومها عند اليهودى أو الوثنى ، لم يكن اليهودى يفهمها إلا للدخيل الذى يرغب فى أن ينضم للرعوية الاسرائيلية ، وكانوا يقبلوه بعد إتمام مراسيم معينة هى الكفارة والصلاة ، والمعمودية ، .. فإذا أتمها فقد ولد من جديد ، وانقطعت كل صلته بالماضى ، .. وكان عند اليونانيين شىء من هذا القبيل ، ولكن بأساليب خاصة ، حيث كانت تقام مراسيم موسيقية معينة يصحبها بخور عبق ، يتحد معها الانسان بالآلهة ، بعد اطعامه اللبن ، أو ذبح ثور يستحم فى دمه ، أو ما أشبه من طقوس كانت تختلف من مكان إلى آخر ، وغايتها أن ينفصل الانسان عن ماضيه ، ويولد جديداً بابتلاعه أو اندماجه فى الآلهة !! .. على أن الشىء الذى لم يكن مفهوماً لنيقوديموس كيف يمكن له وهو شيخ يهودى — على ما وصفناه من خلال وصفات — كيف يمكن أن يولد من جديد ، .. أو يولد ثانية .. إن الكلمة

اليونانية المترجمة « من فوق » أو فى بعض الترجمات الانجليزية « ثانية » هى كلمة غنية فى أصلها وهى تفيد « الكلى أو الجذرى أو الأصلى أو من فوق » .. فإذا ربطنا هذه المعانى معاً ، أدركنا معنى الولادة ، إذ هى التغيير الشامل الكامل الجذرى الإلهى الذى يحدث للانسان ،.. أو هى فى لغة ولد صغير سأله أحدهم وكان يقرأ الأصحاح الثالث من يوحنا : ولكن ما هى الولادة الجديدة يا ولدى !! .. أجاب مشيراً إلى قلبه : معناه تغيير عظيم هنا !! .. وقد صورها آخر فى لغة السياسة : أنها تغيير الجنسية ، عندما يترك الانسان وطنه القديم ، وينتمى إلى وطن جديد ، أو جنسية جديدة ، فتنقطع كل الربط التى كانت تربطه بوطنه الأول ، ويأخذ جميع الامتيازات والمسئوليات التى لوطنه الثانى الجديد ، .. وقد صورها أحدهم بصورة سفينة كان يستخدمها القرصان فى السلب والنهب ، وتحولت إلى سفينة للخير والمعونة والمساعدة إذ أخذ يدير دفتها سيد كريم محب !! ..

ولعلنا نستطيع أن نرى الأمر بوضوح أكثر ، إذا تأملنا الفرق بين فكر المسيح وفكر العالم عن الانسان واصلاحه ، .. ان العالم يسلك الطريق العكسى فى الوصول إلى الانسان المثالى ، إنه يحاول إصلاح الانسان بالاتجاه من الخارج إلى الداخل ، على العكس من فكر المسيح الذى يبدأ بإصلاح الداخل ليصلح الخارج ،.. يقول العالم إننا نستطيع أن نصل إلى الانسان المثالى، عن طريق القانون مثلا ، فالأمم المتحضرة هى التى يسيطر عليها القانون، وكلما حافظت الأمة على سيادة القانون ، رأينا الانسان المتحضر ، .. وقد يكون هذا إلى حد ما صحيحاً ، فهناك فرق بين أمة بلا قانون ، .. وأمة تحترم قوانينها ، .. ولكن النتيجة العامة التى يشهد بها التاريخ — سواء على الأفراد أو علاقات الأمم بعضهم ببعض — هى أن الانسان ما زال إلى اليوم عاجزاً عن كبح جماح الشر الذى فيه رغم شتى القوانين التى تحكم الأفراد أو الأمم

على حد سواء !! .. وأن الحروب والصراع والمجازر البشرية فى الأمم البدائية أو المتحضرة ما زالت تشهد بخيبة الانسان رغم القوانين والمبادىء التى تتشدق بها ! وتحول البعض إلى العلم ونادوا به كملاذ البشر للحياة الأفضل والأكمل ، .. ورغم ما وفر العلم من معونات ومساعدات ، فإنه لم يستطع أن يخلق الانسان السعيد الذى يحترم حقه وحقوق الآخرين ، بل صنع له وسائل الراحة ، ووضع معها القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية المرعبة ، .. وعاش الناس فى القرن العشرين ليصلوا إلى ما لم يصلوا إليه من قبل ، وهو أن الحروب تحولت إلى الحروب العالمية الأولى والثانية على نحو من الهول لم تعهده البشرية من قبل ! .

كما أن الناس ظنوا أنهم يستطيعون أن يخلقوا إنساناً جديداً إذا خلقوا له ظروفاً اقتصادية أفضل وأكرم. وها هى الشيوعية التى بشرت الانسان بالفردوس ، تخلق نيرا لم يعرف التاريخ له مثيلا ، تطوق به أعناق الموهومين المخدوعين بفردوسها الأرضى الموعود !! ..

وهناك محاولات التهذيب الأخلاقى بوسائل الأعلام المختلفة ، .. ولكن المحن الأخلاقية والإفلاس الأدبى يلفان الكرة الأرضية من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، ويعلنان أن الاتجاه الخاطىء الذى ينشده العام لاصلاح الإنسان ينبغى أن يغير مساره بالكلية نحو التغيير الداخلى العميق فى القلب البشرى ، ومتى صلح المنبع ، فاض المجرى بالماء الحلو العذب الرقراق !! .. وهذه هى الولادة الجديدة !! ..

والولادة — من حيث أطلق عليها السيد المسيح ولادة — لابد من مقارنتها بالولادة الطبيعية ، فالولادة الطبيعية دخول انسان إلى العالم بالحياة فيه ، بعد أن تتمخض به أمه ، وبعد أن يخرج من بطنها فى لحظة ، .. والولادة الثانية هى دخول إنسان إلى مملكة الله ، بالحياة فيها ، .. ويتم ذلك فى لحظة ،

يتغير فيها كل شيء فى حياته ، .. والانسان المولود ولادة طبيعية ، فيه كل عناصر الحياة التى تنقله من الطفولة إلى الشباب وإلى الشيخوخة ، فهو لا ينزل من بطن أمه ليجرى ويتحرك ويتحمل المسئوليات فى يوم واحد ، بل تمتد به السنون حتى يصل إلى ذلك ، وكذلك المولود ولادة روحية ، فهناك فرق واضح بين الولادة والنضج فى حياته ، بين حداثة الإيمان والتعمق والالتزام بالمسئوليات الجسيمة !! ..

وإذا كانت الولادة الطبيعية عمل الله ، وليست جهداً بشرياً، فالولادة الثانية هى كذلك أيضاً ، هى من فوق ، وليست أمراً يتحكم فيه بشر ، أو يقدر أسلوبه أو رقته . وهنا لابد أن ندقق ونصحح المفاهيم المرتبطة بالولادة . يقول السيد المسيح : « إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » . . وقد ظن التقليديون أن المقصود بالماء المعمودية فلها فى حد ذاتها فاعلية التأثير ، عندما يجريها الكاهن على حد قولهم ، .. وهو مفهوم غير صحيح إذ الثابت من الكتاب نفسه أن سيمون الساحر اعتمد : « وسيمون أيضاً نفسه آمن . ولما اعتمد كان يلازم فيلبس . وإذ رأى آيات وقوات عظيمة تجرى اندهش .. ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدى الرسل يعطى الروح القدس قدم لهما (أى لبطرس ويوحنا) دراهم قائلا أعطيانى أنا أيضاً هذا السلطان حتى أى من وضعت عليه يدى يقبل الروح القدس . فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم . ليس لك نصيب ولا قرعة فى هذا الأمر لأن قلبك ليس مستقيما أمام الله » .. (أع ٨ : ١٣ — ٢١) ولو أن المعمودية تفعل مثل هذا ، لأعطاها الرسول بولس مكانتها الكاملة فى حياته ، ما دامت تغير حياة الناس ، وتأتى بهم إلى الله ، ولما قال لأهل كورنثوس : « أشكر الله أنى لم أعمد أحداً منكم إلا كريسبس وغايس حتى لا يقول أحد إنى عمدت

باسمى . وعمدت أيضاً بيت استفانوس . عدا ذلك لست أعلم هل عمدت أحداً آخر لأن المسيح لم يرسلنى لأعمد بل لأبشر » (١ كو١ : ١٤ – ١٧) .. وهل يشكر الرسول بولس لأنه لم يضنع أهمية للمعمودية إلى جانب التبشير وبالمقارنة معه ، لو أن لها القاعلية فى ولادة الانسان ولادة جديدة ؟ ! .. كما أن الواقع الذى نراه فى كل جيل وعصر هو أن هناك ملايين من الذين عمدوا ، ولا تشهد حياتهم بهذا الأثر للمعمودية على الاطلاق ، على ما يزعم القائلون بأنها تعطى الانسان الولادة الجديدة ، .. فضلا عن أن المعمودية تأتى لاحقة ، وليست سابقة للايمان بالنسبة للكبار الذين يتعمدون ، لأن الكتاب يقول : « من آمن واعتمد خلص » .. وليس من اعتمد وآمن خلص !! .. ولم يعلق السيد المسيح الفردوس بالنسبة للص التائب على معمودية !! .. إن المعمودية قصد منها الرمز كالختان سواء بسواء ، .. ومن واجب الانسان أن يتمم هذه الفريضة ، ولا يتردد أو يتقاعس عنها ، .. ويزداد هذا الأمر تأصلا ورسوخاً إذا ذكرنا أن الرسول بولس كشف عن هذا العمل الإلهى : « لا بأعمال فى بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس » (تى ٣ : ٥) .. والرسول يعقوب يقول : « شاء فولدنا بكلمة الحق لكى نكون باكورة من خلائقه » (يع ١ : ١٨) .. والرسول بطرس يقول : « مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد » (١ بط ١ : ٢٣) .. ولو أن الولادة الجديدة مرهونة بالمعمودية كما قال السيد المسيح – وهو يراها عملية الروح القدس –: « الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتى ولا إلى أين تذهب . هكذا كل من ولد من الروح » (يو ٣ : ٨) . وهنا نرى حرية الروح وأسلوبه ، فى تجديد النفوس . ويعتقد كاسن ليدون أن المسيح استخدم هذا التعبير – على الأغلب – لأن ريح المساء التى هبت على وادى قدرون

وداعبت الأغصان ، وتركت أثرها فى كل مكان هناك ، تشبه عملية الله غير المنظورة ، ولكنها تترك الأثر الواضح فى حياة المؤمنين !!..

من السهل على البعض أن يحدد اللحظة التى ولد فيها ولادة ثانية ، .. لكن آخرين قد لا يستطيعون تحديد ساعة ولادتهم الروحية ، ويقولون مع كامبل مورجان : « أنا أعلم أنى تجددت ، لكنى لا أذكر متى حدث هذا ، .. لأنى تجددت على الأغلب قبل أن أدرك تماماً معنى التجديد ، فقد كان الكتاب المقدس هو كتاب بيتنا ، والصلاة ، وقراءة الكلمة ، والترنيم ، كانت جميعها جزءاً من حياتنا ، .. كان الدين هو صلب الحياة البيتية عندنا».. أكد كامبل مورجان من حياته المجددة من الشركة العميقة التى تربطه بالله ، .. سقط ولد صغير اسمه يوحنا فى بئر عميقة ، وسارع جده صارخاً : يا يوحنا هل مت !! .. وجاءه الجواب : نعم مت يا جدى !! .. ومع أن الولد لا يفهم الفارق بين تغيير الموت أو الحياة ، لكن جوابه كان اعلان الحيـــاة ، وليس دليل الموت !! ..

إن لله وسائل عديدة فى تجديد الحياة وتغييرها ، .. لقد احتاج الأمر إلى زلزال لتغيير سجان فيلبى ، .. ولم يحتج إلى ذلك عندما فتح قلب ليدية بياعة الأرجوان ، .. واحتاج إلى نور أبهى من الشمس لاسقاط بولس عند قدميه وتركه أعمى ثلاثة أيام ، .. ولم يحتج إلى الشىء عينه فى حالة وزير كنداكة الجالس فى مركبته يقرأ كلمة الله ، .. كان تجديد بولس يختلف عن تيموثاوس وكان الجوع فى الكورة البعيدة سبب عودة الابن الضال إلى بيت أبيه ، .. وقد يكون الحب هو الذى يغير انساناً لم يبارح قط بيته ، ويذهب إلى المكان البعيد !! .. ذكر مودى فى إحدى عظاته أن معلمة مدرسة أحد عودت أطفالها أن يأتوا بأطفال آخرين ، وقد حاولت طفلة صغيرة أن تأتى بأخرى ، ولكن أباها منعها ، وفى ذات صباح كان هذا الأب سائراً فى الشارع ،

فرأته الطفلة الصغيرة ، وجرت وراءه وقالت له ببساطة الطفولة : لماذا لا تحب يسوع !! ؟ فنظر إليها الرجل وسار فى طريقه .. فأسرعت وراءه قائلة : لماذا لا تحب يســـوع !! ؟ .. فدفعها بلطف وسار .. غير أنه نظر إليها ورآها والدموع فى عينيها تكرر القول : من فضلك قل لماذا لا تحب يسوع !! ؟ فدفعها الرجل بعنف ومشى فى طريقه .. ودخل مكتبه !! .. ولكن السؤال برز أمامه بأحرف من نار !! .. حاول أن يتخلص منه فلم يستطع فأخذ يقرأ فى انجيل يوحنا ، وقادته كلمة الله إلى الخلاص !! .. « وصبي صغير يسوقها » (إش ١١ : ٦) !! .

وراء كل ولادة جديدة هناك الله المثلث الأقانيم : «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية ،لأنه لم يرسل الله ابنه ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (يو٣:١٦و١٧) لقد أحب الآب العالم ، النفوس الهالكة وجاء الابن المبارك لينفذ خطة الخلاص أو كما يقول شيلنج : « ليس هو المعلم فقط كما يقول البعض ولا هو المؤسس بل هو المسيحية ذاتها » .. مات المسيح على الصليب ليجعل الولادة الجديدة امكانية قائمة فى يد كل واحد أن يأخذها ، .. ويتدخل الروح القدس بفاعلية النعمة لكى يقبل المؤمن الخلاص المجانى الإلهى ، والولادة الجديدة !! .

نيقوديموس وحياة الولادة الجديدة :

خرج نيقوديموس فى تلك الليلة دون أن نعرف أثر الحديث بينه وبين المسيح ، ولو أنه استجاب سراعاً ، لربما دخل فى زمرة الاثنى عشر ، ولربما كما يقول الكسندر هوايت كان له رسالة يمكن أن تكون رسالة نيقوديموس كرسائل بولس وبطرس ويوحنا ، إلى المؤمنين هنا أو هناك !! .. لكنه خرج فى صراع ظاهر بين الليل الذى جاء متستراً به وبين النور الذى

بدا يغزو قلبه . وفى الاصحاح السابع نسمع صوته واقفاً بين النور والظلام ، إذ يدافع عن المسيح : « قال لهم نيقوديموس الذى جاء إليه ليلا وهو واحد منهم . ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولا ويعرف ماذا فعل » (يو ٧ : ٥٠ و ٥١) . على أننا نراه آخر الأمر ، يظهر عند الصليب مع يوسف الرامى : « وجاء أيضاً نيقوديموس الذى أتى أولا إلى يسوع ليلا وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة منا » (يو ١٩ : ٣٩) .. ومن المعتقد أنه وهو يحمل جسد السيد بين يديه ، تذكر قوله الصادق : « وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الانسان » (يو ٣ : ١٤) ولعله أدرك المعنى العميق الذى تجلى فى الصليب ، .. وانبلج النور أمام عينيه فتحول من الظلام إلى النور ، ومن الليل إلى النهار ، .. وجاءته لمسة الحياة المباركة من ذاك الذى قال وهو أصدق القائلين : « لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق » ..

٩٨
خـادم الملك

« قال له خـادم الملك ياسيد انزل قبل أن يموت ابنى » (يو ٤ : ٤٩)

من هو خادم الملك هذا !! ؟ يعتقد البعض أنه خوزى وكيل هيرودس ، وزوجته يونا التى اشتركت مع غيرها من النساء فى خدمة يسوع المسيح من أموالهن (لو ٨ : ٣) !! .. ويعتقد آخرون أنه مناين الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع وكان من قادة الكنيسة فى أنطاكية،... (أع ١٣ : ١) .. وهو يظهر هنا أمامنا كواحد من البلاط الملكى ، وكان يعيش فى كفر ناحوم ، وكان ابنه مشرفاً على الموت ، وإذ سمع أن المسيح فى قانا الجليل ذهب إليه مسرعاً ، والمسافة بين قانا وكفر ناحوم تقدر بخمسة وعشرين ميلاً ، وكانت معجزة شفاء ابنه هى المعجزة الثانية بعد تحويل الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل ، .. ولعل المعجزتين تشيران إشارة عميقة مباركة إلى المسيح مخلص العالم ، وهو يقترب إلى الناس فى أفراحهم وفى أحزانهم على حد سواء !! ..

فإذا ربطنا بين المعجزتين تبين لنا أن الفرح الحقيقى مرتبط دائماً بيسوع المسيح ، .. لقد أنقذ المأزق فى العرس عندما نضبت خمرهم ، وهو ينبوع أفراحنا العميقة عندما ينضب من حياتنا فرح العالم أو ينتهى إلى مأزق ،.. وهو وحده نبع الفرح عندما تأتى الآلام والتعاسات والأحزان،.. ومن الجدير بالملاحظة ، أن الأساس هو الفرح عند المسيح ، فهو السيد الذى جاء ليبدأ المعجزة الأولى بالفرح ، وهو لن يكون المخلص الحقيقى ، إذا اهتم بأفراحنا ، ثم نسى أو تناسى متاعبنا وآلامنا وأحزاننا ومن ثم كانت معجزته الثانية صورة للفرح الصحيح ، عندما تدور الدائرة وتتبدل أوضاع الحياة ،ويطرق بابنا الحزن أو الضيق أو الخوف أو التعاسة أو الشدة ! ! .. ومن ثم يحسن أن نتابع قصة خادم الملك فيما يلى :

خادم الملك وأحزانه :

إن خادم الملك يعطينا الصورة الدقيقة الصحيحة للحياة البشرية ، فهى الحياة التى يدخل فيها الحزن إلى قصور الملوك وأكواخ الفقراء ، لقد كان هذا الرجل غنياً ، له العديد من الخدم والعبيد ، وكلهم رهن إشارته ، .. وهو لم يكن صاحب مال فحسب ، بل هو فوق ذلك صاحب نفوذ أيضاً ! ! .. ولكن الحزن والألم والضيق يأتى إلى الوسادة الناعمة مثلها للوسادة الخشنة سواء بسواء ، .. وقد أعطتنا قانا الجليل هذه الصورة الحقيقية الصحيحة دائماً فى الحياة البشرية ، .. لقد ذهب المسيح ، إلى عرس قانا الجليل ، وأغلب الظن أن صاحبه كان من الفقراء البسطاء لا يستطيع أن يفى بحاجة العرس من الخمر ، أو أنه أراد أن يؤكد أن أفراح البشر دائماً ناقصة ، أو متقلبة ، لا يمكن أن تكون كأسها من الأفراح كاملة ، فالفقير الذى يحف بفرحه الاحتياج سيجد دائماً مأزقاً فى وسط الفرح من هذا الوجه أو ذاك من ألوان الحياة ، .. وسيبقى الفرح على أى حال ناقصاً من زاوية ما ، أو مفقوداً فى

واحد من أركانه المتعددة ! . . فإذا نظر الناس نظرة الحسد إلى بيوت الأغنياء أو قصور المترفين ، وإذا أطلوا من الخارج على هذه القصور ، وامتلأ خيالهم بألوان السعادة الرابضة فيها ، . . فإنهم لا يتصورون أنه قد تكون هناك ضربة قاسية تحول كل المباهج إلى آلام وتعاسات وأحزان ! ! .. فقد يكون هناك ابن عزيز فيها مشرفاً على الموت ، أو قد تكون هناك مأساة تغطيها الجدران ، . . أو قد يكون هذا أو ذاك من ألوان الحياة الباكية الشاكية فيها ! !.. وقد جاء المسيح مخلصنا إلى البيوت الباحثة عن الفرح سواء فى عرس أو فى مرض على حد سواء ! ! . .

ومن اللازم أن نقترب إلى الأحزان ونحن ندرك أنها ليست صماء أو بكماء فى الفلسفة الإلهية فى حياة الناس ، ومع أن الأحزان من أعقد ألغاز الحيـــاة وأقساها على الدوام ، لكنها مرات كثيرة ما تكون وسيلة الله لقيادة البشر إلى يسوع المسيح المبارك ، .. كان خادم الملك فى كفر ناحوم ، ولا شبهة فى أنه جاء بالأطباء إلى ابنه ، الطبيب تلو الآخر ، وبذل ما بذل ، وهو يرى صحة الولد تتدهور باستمرار ، وإذا بقائل يقول له وهو فى كفر ناحوم إن يسوع المسيح صنع معجزة فى قانا الجليل ، وهو هناك الآن ، وشد الرجل رحاله إلى قانا باحثاً عن المسيح . والظاهر من القصة أنه لم تكن له أدنى صلة سابقة بالمسيح ، .. ولكن الألم هو الذى أوصله إلى السيد ، . . وهنا تبدو المفارقة إذ أن بعض الناس يدعون المسيح إلى العرس ، كما قيل : « ودعى يسوع وتلاميذه إلى العرس » . . لكن الكثيرين مع ذلك لا يتنبهون إليه فى أفراحهم ، . . فمتى جاء الحزن ، فإليه يركضون ، . . ومع أنها المأساة فى حد ذاتها أن الناس لا تعرفه إلا فى المأساة ، . . لكنها على أى حال هى طريق الله التى يسلكها الناس فى قلب الدموع والأحزان ، ألم يقل الكتاب عن منسى الملك الشرير : « ولما تضايق طلب وجه الرب إلهه وتواضع جداً أمام إله

أبائه » (٢ أى ٣٣ : ١٢) .. وقال الله على لسان إرميا : « وأضيق عليهم لكى يشعروا » (إر ١٠ : ١٨) .. وألم يعد الابن الضال من الكورة البعيدة عندما أشرف على الهلاك جوعاً !! .. هذه الطريق هى أشبه الكل بثمرة جوزة الهند التى تبدو من الخارج خشنة جافة قاسية ، لكنها لا تلبث عندما تكسر أن تخرج من لبها الشراب الحلو والطعام الجميل !! ..

على أن الحزن يكشف شيئاً أخر ، وهو أنه لا علاج له فى قصور الملوك فخادم الملك لم يذهب إلى هيرودس انتيباس ليجد هناك العلاج ، ونحن لا ندرى هل كان هيرودس على علم بمرض الولد أم لا ، فإذا كان قد علم ، فربما سمع منه الأب بعض التمنيات أو ربما أرسل الملك أطباوه ، أو ربما زوده بهذا أو ذاك من الوسائل أو الأدوية ، .. لكن الملك كخادمه يقف على خط الافلاس عندما تشتد العلة أو يقترب الموت ، .. وهو لا يملك أكثر مما فعله ملك أرام عندما أرسل نعمان السريانى إلى أليشع ليجد هناك العلاج ، .. إن خادم الملك كان فى حاجة إلى ملك آخر يتجه إليه ، .. وهو الملك الذى يعدنا بالعون عندما يفلس جميع ملوك العالم ، إذ هو رئيس ملوك الأرض ، والمتسلط فى مملكة الناس ، وبيده وحده مفتاح الحياة والموت والمصير الذى يواجه كل إنسان على هذه الأرض !! ..

خادم الملك وإيمانه :

جاء الرجل مسرعاً من كفر ناحوم إلى قانا الجليل ، وكان المسيح قد اجتاز فى السامرة ، ولاشك أنه وجد فرقاً شاسعاً بين السامريين والجليليين ، فالسامريون لم يطلبوا منه آية ، ومع ذلك آمنوا ، عندما رأوا شخصه وسمعوا تعاليمه ، أما الجليليون ، ومن البديهى أنهم كانوا يهوداً ، وأقرب إليه ، لكنهم مع ذلك حق فيهم القول الذى قاله السيد لخادم الملك : « لا تؤمنون

إن لم تروا آيات وعجائب » (يو ٤٨:٤) . ومن الملاحظ أن الكلمة « عجائب » لم ترد فى الأصل اليونانى لانجيل يوحنا إلا فى هذا المكان ، .. والمسيح لو أنه صانع العجائب والمعجزات ، لكنه يهتم أساساً بألا تكون العلاقة التى تربطه بالناس مصدرها العجائب والخوارق ، .. إن الكثيرين فى الحياة أشبه بهيرودس الملك الذى : « لما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تصنع منه وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشىء » (لو ٢٣ : ٨ ، ٩) .. إن الآيات فى حقيقتها لم تكن إلا برهاناً على شخص المسيح وحبه وإحسانه وجوده وطبيعته ، والمسيح يرفض كل الرفض أن تكون ملهاة أو تسلية أو نوعاً من الاثارة ، لا تتجه بصاحبها إلى عمق الشركة مع الله ، .. وهو يفضل دون أدنى شك أن تكون حافزاً أو موجهاً للحياة نحو شخصه الكريم المبارك ، فإذا ما أدت عملها ، لم يعد الإنسان يفكر فيها ، بقدر ما يفكر فى صانعها ومبدعها ، ومن واجبه أن يتحول عنها إلى تعاليم المسيح ، ثم يصعد — من هذه التعاليم — إلى الحياة التى تربطه بالسيد ، .. وقد يعطى هذا تفسيراً لماذا كان يرفض المسيح إذاعة أو إشاعة المعجزات أو العجائب ، إذا كانت هذه الإذاعة تثير المشاعر أو تجلب التعجب ، دون أن تقود سامعها إلى الحياة الصحيحة الممتلئة بالإيمان ، .. كما كان يحزنه أشد الحزن أن ينتفع الانسان بالأعجوبة دون أن يعود إليه بالامتنان والشكر ، .. ونحن نعلم أنه عندما طهر العشرة البرص ، ولم يرجع سوى واحد منهم قال : « أليس العشرة قد طهروا . فأين التسعة . ألم يوجد من يرجع ليعطى مجداً لله غير هذا الغريب الجنس . ثم قال له قم وأمضى إيمانك خلصك » !! (لو ١٧ : ١٧ — ١٩) .

على أنه من الملاحظ مع ذلك أن الإيمان مهما يكن ناقصاً أو ضعيفاً ، فإن السيد لا يمكن أن يرفضه أو يتجاهله ، اذ قصبة مرضوضة لا يقصف

وفتيلة مدخنة لا يطفىء ، ولاشبهة فى أن إيمان خادم الملك كان معنياً فقط بابراء الغلام المشرف على الموت ، دون الاهتمام بالعلاقة التى يمكن أن تتبع ذلك ، ولهذا نرى الرجل يكاد لا ينتبه إلى قول السيد : « لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب » .. ومن ثم نجده يتجاوز هذا التعبير دون أن يرد عليه ويقول : « يا سيد أنزل قبل أن يموت ابنى » .. على أنه مهما يكن قوله ، فإنه فى الواقع كان صرخة ملهوف يستنجد بالسيد ، وهو لا يمكن إلا أن يستجيب للنداء الضارع الصارخ ، .. من الحق أن المسيح كشف القصور فى هذا الايمان الذى يريد إلا أن يرى الآيات والعجائب ، .. ومع ذلك فهو إيمان يتعلق ويضع رجاءه فيه ، وهو لا يمكن أن يخيب مثل هذا الرجاء ! ! .. عجيب هذا السيد العظيم الذى يبحث عن النقطة البيضاء فى قلب السوداء ، وعن الأمل المرتقب فى دافع اليأس القاسى ، وعن النبتة الخضراء فى البرية القاحلة ، وحتى من فوق الصليب كانت طلبته : « اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » (لو ٢٣ : ٣٤) . والحقائق .. لا تختلط عنده أو يحف بها الغموض ، فهو يضعها فى وضعها الدقيق ، ومع ذلك يتعامل معها بنوره وحبه ، بصدقه ورقته ، بأمانته وجوده ، برحمته وعدله معاً ! ! ..

خادم الملك ونجدته :

كانت طلبة الرجل الاسراع : « انزل قبل أن يموت ابنى » وكان رد المسيح الهدوء ، إذ أنه قال للرجل : « إذهب ابنك حى » .. كان موقف الرجل موقف القلق ، وكان موقف المسيح موقف اليقين والاطمئنان ، .. نحن نخشى فى العادة دورة الزمن . .. وهو يضع بقدرته هذه الدورة بين يديه ، .. نحن نقول ما قالته الأختان عندما تصورتا أن الزمن تغلب : « لو كنت ههنا لم يمت أخى » (يو ١١ : ٢١ و ٣٢) .. أما هو فيجيب : « ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله » (يو ١١ : ٤٠) ... كان الأمير إدوار الأسود قائداً

الجيش فى المعركة ، وكان أبوه الملك يقود — فى المؤخرة — جيشاً آخر ، .. وحدث أن المعمعة اشتدت على الابن ، فأرسل يستنجد بأبيه ، ولكن الأب تأخر فى إرسال المدد ، فأرسل الشاب رسولا ثانية وثالثة وأخيراً أرسل أبوه إليه يقول : « ذكروا ابنى أننى لست قائداً عديم الخبرة حتى لا أعرف واجبى فى إرسال النجدة فى أوانها ، وذكروه أنى لست أبا غير مكترث بابنه حتى لا أسعفه !! .. فإذا صح أن إنساناً يقول لآخر مثل هذا القول ، فإنه أصح دائماً بالنسبة ليسوع المسيح سيدنا ومخلصنا ، إذ أنه يعرف ما نحتاج إليه ، وكيف يواجه هذا الاحتياج على أكمل وأجمل الأوضاع وأنسبها !! .. وعلينا أن نذكر أن البشر قد يخطئون التوقيت ، وأنهم قد يصلون متأخرين ، للمعونة والمساعدة ، أما هو فهيهات أن يفعل ذلك ، .. فإنه يحكم كل شيء بالدقة المتناهية : « أليس عصفوران يباعان بفلس . وواحد منها لا يسقط إلى الأرض بدون أبيكم . وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة ، فلا تخافوا أنتم أفضل من عصافير كثيرة » (مت ١٠ : ٢٩ — ٣١) ..

على أن الأمر أكثر من ذلك ، فالرجل يتصور ضرورة ذهاب المسيح بأقصى سرعة إلى كفر ناحوم ، قبل أن يحدث ابنه ، « يا سيد أنزل قبل أن يموت ابنى » .. أما المسيح فإنه يملك من الاطمئنان والقوة بحيث يقول للرجل : « اذهب ابنك حى » .. وبين « إنزل » ، و« إذهب »، مسافة طويلة نفسياً وروحياً تبين الفرق الواسع بين قصور الفكر البشرى ، وكمال السلطان الإلهى ، .. وهنا نعود مرة أخرى لنرى ضعف الإيمان ، وعلى وجه الخصوص إذا قارناه بإيمان قائد المئة الذى أراد المسيح أن يذهب معه ، ولكنه قال للسيد « لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفى . قل كلمة فقط فيبرأ غلامى » (مت ٨ : ٨) لقد كان على خادم الملك أن يعلم أن المسيح لا يسيطر على الزمن فحسب بل على المكان أيضاً ، وهو يعمل تاريخياً وجغرافياً وفق مشيئته

الصالحة ، لايخرج فيها الزمان أو المكان عن سلطانه ، وأنه كما فى قانا الجليل كذلك هو فى كفرناحوم سواء بسواء ، .. وأنه فى الأرض أو السموات هو القادر على كل شيء ، وبأمره يكون الكل ، وأنه القريب والبعيد معاً ، وأن ذراعه تصل إلينا فى كل مكان ومجال ، . . هذا اليقين الذى بدا من كلام المسيح ترك انطباعه العميق فى خادم الملك ، .. فهو لا يلح قط على السيد بالذهاب ،.. بل قد امتلأ سكينة واطمئناناً ، فهو لا يسرع بالذهاب مسابقاً الريح كما يقولون ، بل لايذهب إلى كفر ناحوم إلا فى اليوم التالى ، وعندما يخبره عبيده عند استقبالهم له ، عن شفاء ابنه ، يسأل فقط عن الساعة التى تركته الحمى فيها ، ليربط بينها وبين التوقيت الزمنى للقائه بالمسيح ، ولعل هذا يقف بنا وقفة صحيحة أمام مفهوم الصلاة والجواب عليها ، .. قال السيد المسيح : « وأنا أقول لكم اسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم » (لو ١١ : ٩) .. كان مستر مودى يفرق بين استجابة الصلاة ، وبين المتفلسفين الذين تتلخص فلسفتهم فى أن الصلاة تمرين صحى روحى لأنها تعلمنا الخضوع لله ، لأن الله لا يتغير قصده بالنسبة لنا ، . . وأننا لن نحصل منه على شيء مهما طلبنا ، ولكن لا بأس ، فإنه تمرين صحى ، . . فالأم التى يموت ابنها ، ويعرف آخرون ذلك ، ومع ذلك يقولون للأم أن تصلى لأن هذا يفيد حالتها النفسية ، أو لنفرض أننا فى قلب الشتاء ، وقد هبطت درجة الحرارة إلى ما دون الصفر ، وسقط أحدهم فى الثلج لمدة أربع وعشرين ساعة ووصل إلى بيتى — كما يقول مستر مودى — فى نصف الليل وهو يدق الجرس وأنا أتجه إلى النافذة وأقول من هناك ! ! ؟ .. أنا يا مستر مودى . . لقد كنت لمدة أربع وعشرين ساعة على شاطىء جليدى وأنا الآن أموت فهلا ساعدتنى ؟ وأنا أجيب : أن عندى قانوناً محدداً هو أن لا أفتح بابى إلا فى الصباح ، ولكنك تستطيع أن تستمر قارعاً على الباب ، فإن ذلك يعطيك

تمريناً صحياً ، .. إن هذا مثل جميل عن الكيفية التي يريدنا البعض أن نفهم بها الصلاة ، ولكنها فلسفة لا نؤمن بها ! ! ..

إن المسيح قال اسألوا تعطوا ! ! .. جاءني جندى ضخم الجثة يصرخ كما لو أنه أصيب بخبال ، وقال لى اقرأ .. كان خطاباً من أخته تخبره أنها فى كل يوم عند غروب الشمس كانت تجثو على ركبتيها وتصلى : « اللهم احفظ أخى ونجه » .. وقال الجندى : لقد حاربت فى العديد من المعارك وكنت أمام فوهة المدفع دون أن أضطرب ، لم اضطرب قط قدر اضطرابي عند قراءتى لخطاب أختى » .. ان الجندى نجا بفضل صلوات أخته على بعد ستمائة ميل من المكان ، .. إن الصلاة ليست إيحاء نفسياً يروض المتعب أو يسكنه عن آلامه ، بل هى فى الحقيقة كما قال المرنم فى مطلع المزمور المائة والعشرين « إلى الرب فى ضيقى صرخت فاستجاب لى» .. وما أكثر الذين اختبروا جواب الله على صلواتهم. قال أحدهم : « وصل ابنى الأكبر إلى آخر نسمة ، وقال الطبيب إنه لن يعود إلى وعيه ، وإذ ذاك أرسلوا إلى فوجدت الولد ممدداً فى حجرة جدته ، وكان كهيكل عظمى » .. صليت بحرارة إلى الله لكى يحفظ حياته ، وعقب الصلاة قمت من جثوى وقلت لزوجتى : لا داعى للانزعاج من أجل الصبى فقد حقق الله لى أنه سيشفيه ! ! .. وفى الصباح استيقظ الولد وهو فى حالة جيدة ، ولم تظهر عليه أى علامة من علامات التعب ، .. وهو الآن شاب فى ملء القوة والعافية ! ! .. وعظ أحد خدام الله على مدى أسبوع كامل عدة مواعظ تحت عنوان : « هل انقضت أيام المعجزات» .. وقد التفت حوله مجموعة من السيدات فى غرفة جانبية وقلن له : انهن — نتيجة اقتناع حقيقى — قد تعاهدن على الصلاة من أجل أخت فى مستشفى الأمراض العقلية قطع الأطباء الأمل فى شفائها ، وهى أخت ذات أهمية كبيرة لكنيستها ، وهن لذلك لن يكففن عن الصلاة من أجلها إلى أن

تشفى » .. وفى نفس ذلك الأسبوع عاد إليها عقلها .. وقال الطبيب إنه لا يستطيع أن يجد تعليلا لذلك !! .. مثل آخر عن شاب يقول : « جاءتنى البرقية بأن أختى التى تقيم على مسافة ٥٠٠ ميل منى ستجرى لها عملية جراحية خطيرة وأن الأمل فى نجاح العملية لا يزيد عن واحد فى المائة وصليت لله من أجلها ثلاث ساعات متوالية وقمت من صلاتى وكلى يقين أنها ستعيش .. وفى اليوم التالى دعيت إلى مكالمة تليفونية وقال العامل : إنها إخطار بوفاة ، ولكنى رفضت أن أصدق ذلك كانوا يطلبون منى أن أحضر فى القطار التالى فقد تحسنت الحالة وأختى تطلب أن ترانى ، .. وكتبت أمى لى كتاباً تقول إنه فى الساعة الخامسة والنصف من اليوم الذى صليت فيه فتحت أختى عينيها وقالت : أماه لقد صلى أخى من أجلى والله أخبره أنى سأشفى ثم غاب عن الوعى . وقال الطبيب : « إن حديثها نوع من هذيان الحمى . كنا ننتظر طوال الليل أنها ستموت بين لحظة وأخرى .. وفى الساعة السادسة صباحاً فتحت عينيها مرة أخرى ، وطلبت ماء ثم قالت لهم : اكتبوا إلى أخى أنى شفيت ، ومرت سنوات طويلة بعد ذلك ، والأخت فى كامل الصحة والعافية !! ..

خادم الملك ومكافأة المسيح له :

لم يذهب معه المسيح إلى بيته ، لكنه هو ذهب مع المسيح بعد ذلك إذ تبعه هو وبيته ، وصاروا من المؤمنين بالسيد فإذا كان هو خوزى وكيل هيرودس ، وإذا كانت امرأته هى يونا ، أو إذا كان أحداً آخر ، فإن النتيجة واحدة ، إنه يوجد عند المسيح ما هو أهم من شفاء الجسد ، ونعنى به خلاص الروح ، وهذا ما ينبغى أن نركز عليه دائماً فى الحديث عن معجزات المسيح ، وعجائبه ، .. إذ أن الأعجوبة لا ينبغى أن تكون قط نشوة عاطفية يسكر بها الانسان لحظة من الزمان ثم تذهب مع الأيام ، .. إن المعجزة ليست فى حد ذاتها غاية ، بل هى البذرة التى تزرع فى تربة الحياة الدينية ، حتى تؤتى ثمارها

الطيبة ، . إن قصة خادم الملك تذكرنا بقصة نعمان السرياني ، وكيف كان هدف الله ألا يخلص نعمان من برص الجسد فحسب بل برص الروح أيضاً قبل وبعد كل شيء !! وقد أدرك نعمان هذه الحقيقة ، فلم يعد يتعبد إلا لإله إسرائيل ، وكان يعتذر عن دخوله مع الملك إلى بيت رمون حيث يتعبد الملك هناك ، .. وكانت تلك مشكلته الحقيقية بعد الإيمان !! .. وأنا لا أعلم ما هي المشكلة أو المشاكل التي كانت تواجه خادم الملك بعد الإيمان بالمسيح ، لكني أعلم بكل يقين ، أنه تحول إلى خادم لملك أعظم وأسمى وأجل ، فأصبح خادماً للسيد ملك الملوك ورب الأرباب ، وأكثر من ذلك لم يتعبد وحده ، بل آمن هو وبيته كله ، .. وهو يهتف هتاف يشوع : « أما أنا وبيتي فنعبد الرب » (يش ٢٤ : ١٥) ..

وأنت تسير في موكب الأجيال ، ركز نظرك فقط على العلاقة التي تربطك بالسيد والإيمان العظيم الذي يعطيك أن تتمتع به ، فالإيمان في حد ذاته معجزة المعجزات التي يلزم أن تنفجر في حياتك أو بيتك على حد سواء لتكون بحق « خادم الملك » الذي وحده يستحق كل سجود وإكرام وشكر وتعبد من الآن وإلى أبد الدهور آمين فآمين !! ..

٩٩

مريض بركة بيت حسدا

« هذا رآه يسوع مضطجعا وعلم أن له زمانا كثيرا فقال له أتريد أن تبرأ » (يو ٥ : ٦)

جاء فى قصة خيالية ، أن رجلا أدنى إلى أذنه بذرة من بذور أشجار البلوط ، وسمعها تقول : يوماً من الأيام سأكون ألواحاً قوية تمخر عبـــاب البحر ، ولا تبالى بالأمواج العاتية ، أو أكون سقفاً يحمل الثقل فوقه بصلابة كاملة ، أو سأدخل فى إقامة الكثير من المؤسسات والمنشآت وغيرها مما يحتاج إليه الانسان ، .. وقال لها الرجل السامع : ما هذا الذى تقولين أيتها الحبة الصغيرة ، وكيف يمكن أن يكون هذا ؟ وجاء الجواب : أنا والله نفعل هذا كله !! .. هذه هى الحقيقة التى نبصرها كبشر وهى جديرة بالتأمل العميق الصحيح !! .. إن الانسان فى حد ذاته ، لا يزيد عن بذرة البلوط ، التى لا تستطيع أن تصنع شيئاً من ذاتها ، حتى ترتبط بالقدرة الإلهية التى تصنع كل شىء ، أو هو فى لغة أخرى أشبه بعصا موسى التى ظلت حتى بلغ الثمانين من

عمره لا تصنع إلا ما يصنعها الإنسان العادى، لكنها تحولت مع القدرة الإلهية إلى عصا المعجزات ، ... وأضحت هى موسى ، الذى أصبح عصا الله وأداته فى العمل الجبار العظيم ، .. ولعل موسى أدرك فى كل ما فعل ، أنه لا يزيد عن كونه العصا التى تحركها اليد الالهية ، .. عندما نذكر هذه الحقيقة ، يظهر أمامنا سؤال من أضخم الأسئلة التى تواجهها الحياة البشرية ، وهى ما هى الرابطة بين إرادة الله وحرية الانسان ، .. وكيف نربط هـــذه بتلك !! ؟ ... إذا أردنا أن يأتى انسان إلى العالم ، .. إن هذا لا يمكن بأى حال من الأحوال بغير الإرادة الإلهية !!؟ .. لكن هذه الإرادة فى جلالها ومجدها العظيم لا يمكن أن تحقق هنا الأمر دون أن يكون هناك رجل وامرأة تربطهما الإرادة الإلهية معاً ، وتحقق بهما ومعهما هذا !! .. هنا مريض وجه إليه السيد المسيح السؤال — وهو يرغب أن يصنع المعجزة العظيمة فى حياته — : « أتريد أن تبرأ » !! ؟ وقد أراد السيد بذلك أن يربط الإرادتين معاً ليصنع المعجزة والأعجوبة !! .. وقصة الرجل — من هذه الزاوية — تعطينا ثراء كبيراً لو أحسنا التأمل فيها .. ولعلنا نستطيع أن نراها فيما يلى :

المسيح يثير فى الرجل إرادة الشفاء :

قال المسيح للرجل : « أتريد أن تبرأ » !! ؟ وهو سؤال يبدو غريباً عجيباً إذ أن وجود الرجل فى ذلك المكان دليل على رغبته فى أن يبرأ !! .. غير أن السيد المسيح أثار هذا السؤال لأنه أهم سؤال كان الرجل يحتاج إليه ، ويلزم أن يتبلور فى ذهنه ، ويشد أعصاب إرادته بكل ما يمكن أن تكون عليه هذه الأعصاب من قوة وتحفز !! .. قد نقول إن كل مريض يرغب أساساً فى الشفاء ، وكل مريض يتمنى أن تنتهى آلامه وتعاساته ومتاعبه التى تأتى من المرض الذى يعانيه ، .. ولكننا نحب أن نفرق بين « الإرادة » وبين « الرغبة » أو « التمنى » أو ما أشبه .. كل انسان يرغب أن يكون غنياً

أو قوياً أو مبتهجاً أو سعيداً ، ولا نظن أن إنساناً يرغب العكس أو يتمنى أن يعيش على ماهو عليه من آلام ومتاعب ، .. ولكن شتان بين الرغبة والإرادة ، .. إن الرغبة فى الخيال البدائى ، هى الصور التى ترسمها أحلام اليقظة ، والتى تقص على الأطفال ، أو يقرؤها المعذبون فى خيالات ألف ليلة وليلة ، .. هى ذلك الخاتم السحرى الذى يدعكه الانسان ، فإذا بالعبد العملاق الجبار طوع البنان ورهن الإشارة ، ينقل الطالب فى دقيقة واحدة إلى آخر الدنيا أو يأتى له بالمائدة الحافلة ، أو ينجز طلباته بيسر ما بعده يسر ، . وهى خيالات فى الحقيقة يمليها عذاب الانسان الذى أسره الواقع البغيض ، والذى لا يجد منه نجاة أو فكاكاً ، .. أما الإرادة فهى شىء آخر ، هى الخيال والأمل والرغبة مضافاً إليها الجهد والحركة وبذل كل ما يمكن عمله ، حتى يتحول الخيال إلى واقع ... والتمنى إلى حقيقة ملموسة فإذا حللنا مريض بركة بيت حسدا ، تبين لنا أنه كان يملك الرغبة ، ولكنه لم يكن يملك الإرادة ، وكان لابد أن يسأله السيد : أتريد أن تبرأ ! ! ؟ .. كانت أول صفة — على الأغلب — عند الرجل ، أنه الانسان الذى لا يبالى ، هو بعض أولئك الذين يعيشون فى الحياة ولا فرق عندهم أطابت أم ضاعت .

بدأ الرجل حياته بخلاعة وتهتك لا يعرف شيئاً اسمه الاعتدال ، وقد جاء مرضه نتيجة إدمانه الشر وعدم الاحتراس منه ، ومن ثم احتاج إلى قول السيد : « ها أنت قد برئت فلا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشر » (يو ٥ : ١٤) وهى كلمات لا يمكن أن تقال إلا للمستهتر الذى لا يبالى بالنتائج على الاطلاق ، ويظهر هذا بوضوح فى موقف الرجل من المسيح ، الذى شفاه . ومع ذلك قيل عنه : « أما الذى شفى فلم يكن يعلم من هو . لأن يسوع اعتزل إذ كان فى الموضع جمع » (يو ٥ : ١٣) . وشتان بين هذا الرجل ، وبين المقعد الذى شفاه بطرس عند باب الجميل : « وبينما كان الرجل الأعرج الذى شفى

متمسكاً ببطرس ويوحنا تراكض إليهم جميع الشعب إلى الرواق الذى يقال له رواق سليمان وهم مندهشون » (أع ٣ : ١١) .. كلا الرجلين نال الشفاء ، ولكن مريض بيت حسدا نال الشفاء دون أن يتمسك أو يتعلق بشافيه ، ومهما كانت رغبة المسيح فى الاعتزال إلا أن المخلص الذى أنقذه بعد ثمان وثلاثين سنة ، كان لا يمكن أن يفلت بعيداً عن عينيه ، لولا أنه كان من الصنف الذى لا يبالى بالمنقذ أو المخلص أو الصديق ، .. بعد أن نال الشفاء وقام إلى الحياة والحركة بين الناس ، .. كان من أبسط ما نتوقعه أن يتمسك هــذا الرجل بالسيد كما تمسك الآخر بالرسولين !! .. بل من المتصور جداً أن الرجل كان وصولياً ، وعندما عرف المسيح ذهب وأخبر عن السيد لا لأنه يريد أن يعطيه مجداً بل لعله كان خائفاً من كسر السبت ، ويريد أن يحمل المسئولية كلها ليسوع المسيح !! .. وهو رجل يمكن أن تضيف إلى هذا كله أنه ربما أيس من فرط المرض الطويل الذى استمر ثمانى وثلاثين سنة ، وهو رقم مخيف ، ليس من السهل تصوره ، وهو مثل لتعاسة الانسان فى الأرض ، .. هذا المرض كان لابد أن يترك أثره العميق الغائر فى ذهن الرجل وطباعه ، إذ يقتل فيه الإرادة الحرة المتحركة النشطة ، ويستبدلها بذهن متبلد ، يركن إلى التواكل والضعة ، فهو يعيش على الفتات الساقط من أيدى المحسنين ، أو الذى يرونه إلى جانب المرضى الآخرين ، .. بهذا نجد لقمته التى تمسك عليه رمق الحياة ، إن كان وجوده فى الدنيا على هذا الوضع يمكن أن يوصف بالحياة ، .. وفى الأغلب إن عذابات الرجل جعلته يضيق بالحياة نفسها أو يعيش حاقداً على كل شىء ، على الحياة ، والناس ، والنفس فهو منبوذ مكروه من الناس ، وهو يكره الناس جميعاً ، ولا سيما عندما يرى غيره يهبط إلى البركة مغتنماً تحريك الماء ، وهو ليس له إنسان يلقيه فيها ، إذ هو المشلول الذى فقد الحركة فلم يستطع منافسة الآخرين فيها ، .. مثــل

هذا الانسان الذى ران عليه صدأ الحياة ، وانهال عليه ترابها من كل جانب . كان حاجته الأولى الملحة ، قبل الشفاء ، إيقاظ معنى الشفاء فى نفسه ، .. إذ كان لابد أن يكون السؤال الصحيح : أيها التعس المريض ، هل تحولت تعاستك إلى « عادة التعاسة » ان صح التعبير ، وهل بكيت فى الحياة ، إلى أن يتحول البكاء « نغمة الحياة » عندك ، وهل ركنت إلى الأرض ، إلى أن أصبحت الأرض فراشك الذى لا يتغير ، ولا تروم عنه تحركاً أو بديلا ، .. أو بعبارة أخرى هل تجمدت الحياة عندك ، فأصبحت كتلة جامدة فى الحياة انتزعت منها إرادة الحياة ، فلم تعد سوى الوجود بلا إرادة !! .. نحن لا نستطيع أن نعرف حقيقة الرجل قبل أن ندرك أنه الصورة المخيفة التى تفعلها الخطية ، عندما تميت الحياة وتترك صاحبها بليد الذهن والعاطفة والإرادة ، ..

رسم هوجارت المصور صورة أطلق عليها « البيت اللاعب » وفيها نرى جماعة من الناس جالسين بوجوه كالحة يلعبون القمار حول المائدة الخضراء ، بعضهم أخذته سكرة الربح ، والبعض الآخر يأس الخسارة وقنوطها ، وإذا بالنار تشب فى المنزل ، وترتفع ألسنتها إلى السقف ، وإذا بحارس الليل يقول : النار النار !! وإذا بهم جميعاً — مع ذلك — لا يرعوون أو يتحركون !! .. أيتها النفس التى استبد بها المرض ، وسيطر عليها اليأس ، إن سؤال المسيح الأول لك : « أتريد أن تبرأ » !! ؟ . أم أنت مستكين إلى وضعك ، كما يستكين الميت إلى حفرة فى الأرض ، لا ينتقل أو يتحرك منها لأنه لم يعد يعرف معنى كلمة الانتقال أو الحركة ، بل لم يعد يسمعها !! ..

المسيح يبين للرجل استحكام الداء :

لم يكن المسيح يقصد فقط تحريك إرادة الرجل نحو الشفاء ، بل أراد أيضاً أن ينهض أمام ذهنه وخياله استحكام الداء : إن الرجل تحول بسنواته

الثمانى والثلاثين إلى صورة مرعبة لما يمكن أن يفعله المرضى فى حياة أى انسان ، .. بل لعل الرجل فى هذه السنوات الطويلة أضحى رمزاً ناطقاً فى كل التاريخ شاهداً على ما يفعله الشر ، وقدرة السيد الظاهرة عليه ، .. ومن ثم أخذ بعض المفسرين الذين يعمدون إلى الرمزية لايرون فى مرضه رمزاً لما هو أعتى وأقسى وأشد ، .. وقيل إن الرجل كان يمثل الأمة الإسرائيلية بأكملها ، والأروقة الخمسة فى بيت حسدا ، هى أسفار موسى الخمسة ، أسفار الناموس ، وفى هذه الأروقة ينطرح المرضى المعذبون المفلوجون العاجزون ، وهم لا يجدون فى الناموس شفاء من ضربة الخطية ، ولعنة الاثم لأن بالناموس معرفة الخطية ، ولكنه لا قوة فيه على الشفاء من ضربة القلب ، إن الناموس فى الواقع أشبه بالقانون فى الأمة ، .. ولا يمكن لأمة أن تعيش بغير قانون ، وكلما كان القانون صادقاً وعادلا ودقيقاً كلما كان أقل الناس فى الحياة أجمل وأكمل وأقوى ، لكن القانون فى أى مكان فى الأرض لم يمنع الجريمة يوماً من الأيام ، فالناس رغم علمهم بالقانون ، يكسرونه ، ورغم معرفتهم بالعقوبة يرتكبون الجريمة !! .. ويذهب المفسرون الرمزيون أيضاً إلى أن الثمانى والثلاثين سنة ، تشير إلى السنوات التى قضاها الاسرائيليون فى البرية بعد خروجهم من أرض مصر ، أو لعلها تشير إلى عدد القرون التى انتظرتها البشرية حتى يأتى المسيح مخلص العالم !! ..

وعلى أى حال لسنا نظن أنه كان بين المرضى الموجودين عند بركة بيت حسدا من يصلح أن يكون نموذجاً لقسوة المرض والداء ، مثل هذا الرجل ، .. وقد أخذه المسيح كأسوأ مثل لما يمكن أن تتركه الخطية فى حياة الناس ، وأتعس حالة تحتاج للعلاج ، ومن عادة المسيح أن يكشف للضعيف ضعفه العميق ، قبل أن ينقذه مما به من وهن وضعف وشقاء ، .. فالمرأة المنحنية من ضعفها قال لها السيد : « يا امرأة إنك محلولة من ضعفك » ،

(لو ١٣ : ١٢) والولد الذى جاء به أبوه فى أسفل جبل التجلى سأله المسيح عن مدة المرض ، لكى يوقفه أمام الحقيقة الرهيبة حقيقة استحكام الداء ، ..

على أن ما هو أسوأ من العجز نفسه ، أن الرجل فقد الناس والملائكة معاً : « أجابه المريض يا سيد ليس لى إنسان يلقينى فى البركة متى تحرك الماء بل بينما أنا آت ينزل قدامى آخر » (يو ٥ :٧) .. وليس المجال الآن بحث الماء المتحرك الشافى الذى يحركه الملاك متى نزل ، وقد تمكنت هذه العقيدة من الذين يذهبون إلى المكان لنيل الشفاء ، ومن المتصور أن حوادث معجزية كثيرة حدثت فى بركة بيت حسدا أو « بيت الرحمة » .. وكان الناس يسرعون بمرضاهم إلى البركة متى تحرك الماء ، ولكن هذا البائس لم يكن له « إنسان » ليلقيه فى البركة متى جا « الملاك » فلا انسان ليسنده ، ولا ملاك ليسعفه ، .. وفقد الرجل رجاءه فى الناس والملائكة معاً ، .. ولعله فقد الرجاء فى الله أيضاً تحت وطأة المرض القاسى الطويل ، .. ويعتقد أن الرجل عندما استمع إلى كلام المسيح ، .. كان أقصى ما يتصوره ، أن الشخص الرحيم الذى يناقشه بلواه وشكواه ، يمكن أن يكون هو الرجل الذى يهتم به ، عندما يأتى الملاك إلى البركة !! .. إنها مأساة قاسية يمر بها ملايين الناس فى هذه الأرض ، فى رحلتهم المجهدة تجاه الأبدية ، .. وإنها لمأساة محزنة ولا شك أن لا يجد الانسان على الدرب الممتد الطويل إنساناً أو ملاكاً يمد له يد المعونة والمساعدة والتعضيد ، ولكن الطريق الخالى من الإنسان والملاك نجد فيه صديق البؤساء ورفيق المتألمين الرب يسوع المسيح !! ..

إن السؤال الذى ما يزال يطوف بالذهن ، لماذا طال المرض إلى هذا الحد من الزمن !! .. ولماذا خلت طريق الرجل من الناس أو الملائكة !!؟. هل يرجع الأمر إلى الارتباط الدائم بين الشر والجزاء ، .. وأن الرجل يمكن أن ينهض مثالا حياً لنفسه وللآخرين ، ليؤكد أنهم لا يمكن أن يجتنوا

من الحسك أو الشوك تيناً أو عنباً ؟ .. وأن آلام البشر الدائمة لمن يدرك أو يتأمل . هي العظة الشاهدة بهذه الحقيقة فى كل الأجيال والعصور ، وأن منبر الله ليس فى داخل الكنائس وحدها ، بل أنه ينتصب فى كل منعطف وطريق وموقف ومكان صارخاً فى الجميع : هذه هى نتيجة الخطية ! ! ..

أم يمكن أن تكون هناك الصورة الأخرى التى رسمتها بركة بيت حسدا ، فى تزاحم الناس وتسابقهم إلى الشفاء ، وكيف يمكن أن يدوس بعضهم بعضاً فى حلبة هذا السباق : « بل بينما أنا آت ينزل قدامى آخر » .. ! ! ؟ .. عندما يركض الراكضون ، ويتسابق المتسابقون مهما بذلوا من الجهد ، فإن الكثيرين سيخرجون من الجهاد ، وقد قالوا الكلمة المؤسفة التى قالها مريض بيت حسدا ! .. لقد سبقنى آخر ! ! ؟ .. يستعد الشاب للوظيفة التى يحلم بها ويجهز كافة مؤهلاته وأوراقه لها ، .. وفى اللحظة الأخيرة يعود محطم القوى زائغ البصر ، وعندما يسأل لماذا هو هكذا ! ! ؟ يقول : لقد سبقنى آخر ! ! .. يخترع المخترع اختراعه الذى يجند له كل ما عنده من جهد ومال ، .. وقبل أن يعلن عن هذا الاختراع أو يظهره للناس ، يأخذه الرعب أو الضيق ، وعندما تسأل عن السبب يقول : « لقد سبقنى آخر » .. يذهب الشاب المحب مدفوعاً بالأمل وقد عقد رجاءه على خطبة فتاة ، هى غاية أحلامه ومناه ، ثم يرجع ممتلئاً بالأسى والأحزان ، يكاد يبكى وينتحب ، وعندما يسأل لماذا يفعل هكذا .. يأتى الجواب : « لقد سبقنى آخر » .. كانت الصورة المروعة التى أبصرها الكابتن سكوت ودونها فى مذكراته عن رحلاته إلى القطب الجنوبى ، وأفزعته أيما فزع ، أن أبصر من على بعد فى التيه البعيد علما فذهب ليرى هناك علما أسود لمجموعة قد سبقته ، وهلكت فى التيه العظيم ، .. وكان العلم الأسود صورة لضياع انسان قد سبقه إلى المكان وما أكثر ما يرفع الرافعون هذا العلم عند الفشل والحاجة والضياع والهلاك ،

وهم يشبهون المريض القديم فى بيت حسدا وقد ذهبت أمالهم على كر السنين ، وفوق سريرهم ومضطجعهم العلم الأسود : « لقد سبقنى آخر » ..

على أن الأمر قد يكون مرده إلى صورة أخرى هى أن اليأس قد يطول حتى لا يلتفت الانسان إلى انسان أو ملاك مهما كان صديقاً أو رحيما ، ولم يعد له رجاء فى آخر غير الله ، . لقد إنحنى الشاعر هوتيمن على الأبطال المتعثرين فى الطريق وهو يقول : هناك الأغانى الكافية للناجحين ، والذين لمعت أسماؤهم أمام العيون ، ولكنى أريد أن أغنى للمصدوم والساقط ، الذى لم يبلغ حظه أو ينته إلى مناه ، .. وهو عند الشاعر يستحق أن نقف لنبكى معه حظه العاثر وصدمته القاسية ، .. وما أكثر الذين يبلغون بيت حسدا بعد الجهد النبيل ، والصبر القاسى ، ليصرخوا الصرخة المؤلمة القاسية لقد بذلت أكثر مما فى طوق الانسان ، وها أنا مقطوع الأمل فى النجاح لأنه ليس لى انسان أو ملاك !! ..

لست أعلم بأية صورة نطق مريض بيت حسدا بقوله للسيد المسيح ، ولكنى أود لو أن موسيقيا حول كلماته إلى لحن بكل ما يشتمل عليه اللحن من الحزن والمرارة والتعاسة والبكاء !! ..

المسيح يعطى للرجل الشفاء الكامل :

لم يكن يعلم الرجل عندما فقد « الانسان » و « الملاك » أنه أمام ابن الانسان ، ابن الله ، .. وهى الحقيقة التى تعطيها لنا القصة لنهتف بها فى أذن المتألمين والتعساء والمرضى والمقطوعين والمنكوبين ، ولعله من اللازم أن ندرك أن الرجل لم يذهب إلى المسيح ، بل المسيح هو الذى ذهب إليه ، .. وأنه عندما تضعف إرادتنا أو تتلاشى ، فإن السيد هو الذى يأتى إلينا لكى ينهضها ويحركها ، وكلنا أشبه ببطرس النائم فى سجنه ، ويداه مقيدتان

بالسلسلة ، وهو غائب عن نفسه ، وما قد يواجهه فى الغد من مصير ، ولكن السيد يرسل ملاكه ليضرب جنب بطرس ، ويسقط السلسلتين ويفتح أبواب السجن ، ويدفعه إلى الطريق ، قبل أن يثوب بطرس إلى رشده ، ويعرف ماذا فعل الرب به ، .. وكلنا فى وهن إرادتنا وضعفها وترددها ، تأتى دائماً الإرادة الأقوى والأعظم والأقدر ، لتنتصر على كل شىء ، وتأسر كل شىء لطاعة المسيح !! ..

قال السيد للرجل : قم . إحمل سريرك وإمش » ، ولم يقف الرجل ليناقش الأمر ويسأل كيف يمكن أن يكون هذا ، وأنا لا أستطيع الحركة . ولم يتردد ليزن الأمر بالموازين الذهنية التى يمكن أن تقول له إن الفراش هو الذى يحمله ، .. وهو لا يستطيع أن يحمل الفراش ، كما أنه لم يجادل فى أن البركة لم يتحرك ماؤها ، وبالتالى لم يأت ملاكها ، وكيف يمكن أن ينال الشفاء بعيداً عن المعتقد أو المتعارف عليه بين المرضى ، .. إن الوجه الكريم الذى أطل عليه ، والابتسامة المشجعة والأمر القاطع ، كلها تخرج به خارج حدود المفهوم البشرى ، أو الحقيقة المنظورة بين الناس ، .. إذ أنها فى الواقع تفتح قلبه وذهنه إلى عالم آخر غير منظور ، يتحكم فى كل ما هو ظاهر ومنظور ، .. إنها تفتح له باب القدرة الإلهية التى تحكمها نواميس أعلى من النواميس المعروفة للانسان ، وهى تدعوه إلى الإيمان بهذا الباب والدخول منه إلى الصحة والقوة والحياة !! ..

لقد أدرك الرجل أن غير المستطاع عند الناس مستطاع لدى الله ، وأن المفتاح الوحيد للوصول إلى ما يراه الناس مستحيلا على الاطلاق ، هو الايمان ، ولم يتردد فى استخدام هذا المفتاح ، وانتقل به إلى عالم جديد يختلف تماماً عن عالمه القديم الملىء بالعجز والضياع والكساح والمأساة والشقاء !! ..

هل انتهت قصة مريض بيت حسدا !! .. وهل لا توجد نماذج أخرى يمكن أن تنهض فى كل العصور والأجيال لتؤكد أن يسوع المسيح هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد !! .. إن كتب الدنيا لا تتسع لعمل المسيح المتكرر مهما اعتقد الناس أنه من المستحيل أن يبرأ هذا الانسان أو ذاك من المرض الذى أقعده وأشله وقتل حياته وآدميته ، طالما أن لنا الايمان بمحبة السيد الذى يطل على آلام الناس ، وبقدرته العجيبة فى إبرائهم وشفائهم !! .. وربما نستطيع أن نعطى صورة أو نموذجاً من واقع قارتنا الأفريقية ، .. عندما جاء روبرت موفات المرسل العظيم إلى هذه القارة ، امتلأت حياته بالمعجزات التى صنعها المسيح على يديه ولعل قصة : « أفريكانر » تعد من أعظم الصور للقدرة الإلهية !! .. قال روبرت موفات ذات يوم لأحد أصدقائه المضيفين : « إنى ذاهب إلى مضارب أفريكانر» !! .. وارتفعت صيحات السامعين إذ قال المضيف : « إنه سيجعلك هدفاً لغلمانه لكى يصوبوا اسهامهم إليك » .. وقال آخر : « ويسلخ جلدك ويصنع منه طبلا يرقصون عليه » .. وقال ثالث : « وسيصنع طاسا للشرب من جمجمتك » .. وقالت امرأة وهى تتنهد : « لو كنت طاعناً فى السن لكان الخطب هيناً ، لكنك شاب تقدم نفسك فريسة للوحش » .. ولم يعبأ موفات بكل هذا الكلام !! .. وذهب ، .. وحدثت المعجزة العجيبة ، إذ أن أفريكانر لم يسمح فقط لموفات بالعمل بين شعبه ، بل جاء هو إلى المسيح ، وتحول الوحش قديساً ، وفى سنة ١٨١٩ م ذهب موفات إلى مدينة رأس الرجاء الصالح ليرسل تقريراً إلى جمعية لندن التى أرسلته ، ويتلقى تعليمات جديدة منها ، . . ورأى أنه لخير العمل أن يصطحب أفريكانر معه ، ولكن ذاك كان طريد الحكومة وكانت الجائزة ألف ريال ، فلما عرض عليه موفات أمر الذهاب صمت ثم قال : « دعنى أفكر وألقى حملى على الرب فإنه لا يتركنى » ثم عاد وقال : « أنا

مستعد أن أذهب معك والرب معنا » .. وكانت مسألة مروره فى أرض البوير عقدة صعبة الحل ، لأن الجرائم التى ارتكبها فى الماضى ضدهم تفوق الحصر والوصف . ولكنه ارتدى شيئاً من ملابس موفات ، وذهب معه كتابع بسيط ، وإذ وصلا إلى قرية معروفة استضافهما رجل من البوير وسأل الرجل موفات : « من أنت ؟ !! » قال : « أنا موفات » .. « هل أنت خياله ؟ » .. « لست خيالا بل أنا انسان حقيقى » .. « لا تقترب منى فأنت قد قتلت وقد قتلك أفريكانر من زمن طويل كما قال شاهد عيان رأى عظامك بعينيه » .. « لست أنا فقط حياً ، بل أن افريكانر قد تجدد بحيث لا يوجد الآن رجل سلام نظيره بين كل القبائل » .. « وإن كان ما تقوله صحيحاً ، فكم أرجو أن أراه قبل أن أموت .. أنا مستعد أن أسافر إلى أية جهة بالرغم من أنه قتل عمى .. !! » .. « لا لزوم للسفر الطويل .. فهذا أفريكانر الجالس بجانبى » . فقفز الرجل من مكانه كأنه بوغت بصاعقة » .. « أحقاً أنت أفريكانر » فوقف الزعيم الأفريقى على قدميه وانحنى بكل أدب : « نعم أنا هو » .. فقال البويرى بكل خشوع : « يا إلهى ما أعظم أعمالك . وأى شىء يعجز أمام قوة نعمتك » .. وقد وصف أحد خدام الله أيام أفريكانر الأخيرة إذ قال : «لما وجد الرئيس أن النهاية قد دنت دعا إليه قومه وحدثهم : أننا لسنا كما كنا متوحشين بل نعترف أننا تعلمنا مبادىء الانجيل فلنسلك بسلام بحسبها ، ونحن نعيش مع الجميع .. اتحدوا وكونوا مخلصين لأى معلم يرسله الله إليكم . إن حياتى الماضية ملوثة بالدم . ولكن يسوع سامحنى ، وأنا الآن ذاهب إليه فى السماء .. احترزوا من أن تسقطوا ثانية فى الشرور التى تبتم عنها .. بل اطلبوا الله فيوجد منكم » ..

إن المسيح ما زال إلى اليوم يتحرك ليواجه أقسى حالات المرض الانسانى بما يصاحبها من أوصاب وأوجاع ، .. ولكن السؤال الأساسى الهام الذى يضعه أمام كل مريض أولا وقبل كل شىء : « أتريد أن تبرأ » .. !! ؟ .

١٠٠
الرجل المولود أعمى

« انما اعلم شيئا واحدا . أنى كنت أعمى والآن ابصر » (يو ٩ : ٢٥)

كانت الظلمة تحيط بالرجل الأعمى من كل جانب ، لقد ولد أعمى ، أو فى لغة أخرى إنه لم يعرف النور يوماً واحداً فى حياته ، فلم يكن كالعميان الذين فقدوا بصرهم فى الصغر أو فى الكبر ، ولكن الظلمة لم تكن تلف عينيه فقط ، بل كانت تلف حياته بأكملها ، إذ كان فقيراً يستعطى ، ولو أن مصورا أتيح له أن يراه على قارعة الطريق ، لرسم صورة للبؤس العميق الذى حفرته الحياة على غضون وجهه ، على أن ظلمة روحية أعمق من الظلمة المادية ، والاجتماعية ، كانت تكتنف نفسه ، لقد كان لا يستطيع الإجابة عن السبب الذى من أجله جاء إلى العالم ، وإلى أين يسير ، وما مصيره ، وعندما جاءه المسيح أنقذه من هذه الظلمات جميعاً ، إذ منح عينيه النور ، وأخرجه من حياة التعطل والفاقة إلى حياة الكفاح والنضال ، فلم يعد أغلب

الظن بعد ذلك يستعطى ، وأكثر من ذلك نقله من الظلمة الروحية إلى الإيمان الكامل بابن الله !!.. أجل هذه هى الصورة التى صنع عليها المسيح معجزته ، بل الصورة التى تكشف كيف أنه وهو نور العالم يستطيع أن يعطى النور من كل وجه وسبيل ، .. ولعل من المهم أن نرى كيف تختلف معاملة المسيح للأعمى عن جميع الناس ، .. وكيف يبقى السيد فريداً فى المعاملة ، دون أن يناظره أو يدانيه آخر ، ومن ثم يحسن متابعة القصة فيما يلى :

الأعمى والنظرة الفلسفية :

وهى نظرة التلاميذ التى لم تر فى الأعمى إلا موضوعاً للنقاش والتساؤل : « أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى» وقد كان حريا بهم أن يستوقفهم الرجل بتعاسته وبؤسه ، لقد كان أعمى منذ ولادته ، حرم نور البصر ، وكان إلى جانب ذلك فقيراً يستعطى ، وكان واجب التلاميذ أن ينظروا إليه بقلوبهم قبل عقولهم ، .. ولكنهم مع ذلك جعلوه مادة لنقاشهم وجدلهم ، .. ولعل موطن الغرابة فى هذا الجدل ، ليس الربط بين الخطية والألم أو العقاب ، فهذه حقيقة قديمة متغلغلة فى الفكر الانسانى ، وقد ربطها أصدقاء أيوب بالمعاناة التى كان يعانيها الرجل ، وأنه لابد قد ارتكب من الآثام ما يحصد معه النتيجة الرهيبة التى انتهى إليها : « اذكر من هلك وهو برىء وأين أبيد المستقيمون . كما قد رأيت أن الحارثين اثما والزارعين شقاوة يحصدونها . بنسمة الله يبيدون وبريح أنفه يفنون » (أيوب ٤ : ٧ — ٩) .. وقد احتج أيوب ما وسعه الاحتجاج على ذلك ، وبين أن الشر يلحق بالأبرار ، فى الوقت الذى يتمتع فيه الأشرار بالكثير من رغد الحياة ومتعها وشهواتها وعطاياها ، وفى الحقيقة إن الشر سيلحق إن آجلا أو عاجلا بالأشرار لأن هذا ناموس الله الطبيعى فى الحياة ، لكن الحجة مع ذلك ليست قاطعة فى ارتباط الألم بالخطية ، فقد يتألم البار أيضاً نتيجة تمسكه بالحق والاصرار

عليه ، وقد يكون الألم نوعاً من التدريب أو الامتحان أو التقديس أو لإظهار مجد الله ، كما ذكر السيد هنا ، .. والانسان لذلك لايجوز له القطع بهذا أو ذاك من الأحكام القاسية الشديدة ، .. لكن التلاميذ مع ذلك ألقوا السؤال بحثاً عن المجهول ، والأمل فى الوصول إلى العلة ، .. وقد كان سؤالهم فى الشطر الأول أغرب منه فى الشطر الثانى .. إذ كيف يخطىء الانسان وهو فى بطن أمه ، .. يقول البعض إن التلاميذ أرادوا أن يناقشوا المعتقد اليهودى الذى تمسك به بعضهم ، والذى يزعم أن الجنين يتعرض للخطية ، وفى بعض تقاليدهم أن واحداً سأل أحد الربيين اليهود ، من أى وقت يبدأ الشيطان عمله مع الانسان ، هل منذ لحظة تكوينه فى بطن أمه ، أو منذ ولادته . وقد أجابه الربى : منذ لحظة تكوينه ، .. واعترض للسائل قائلا : لو كان هذا حقاً لتضايق الجنين فى بطن أمه ، ويعتبر المكان سجناً ، ويبتدىء برفس ويمزق أحشاء أمه ، وربما يؤدى ذلك إلى موتها ، .. وحاول الربى أن يجد دليلا كتابياً ، وزعم أن قول الله لقايين إن هناك خطية رابضة عند الباب ، يمكن أن تشير إلى باب الرحم حيث تكمن الخطية ، وتنتظر اللحظة التى يتكون فيها الانسان ، لتلازمه طيلة فترة الحمل ، .. ومن المحتمل أن اليهود فى أيام المسيح ، تأثروا بالفكر اليونانى عن الوجود السابق للروح ، وأن جميع الأرواح موجودة من أيام الانسان الأول ، على ما يتصور أفلاطون وغيره ، وأنها تنتظر أن تلبس الأجساد لتأخذ قصتها الأرضية فى الحياة ، ومع أننا نعتقد أن التلاميذ لم يقصدوا كل هذا فى السؤال الذى ألقوه لمجرد الاستطلاع أمام السيد ، .. إلا أنهم كانوا أوفى إلى التصور اليسير السهل بأن الأطفال يرثون خطايا آبائهم على أساس القول : « افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى (خر ٢٠ : ٥) .. « مفتقد اثم الآباء فى الأبناء وفى أبناء الأبناء فى الجيل الثالث والرابع » (خر ٣٤ : ٧) ..

« بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع » (عد ١٤ : ١٨) . « لتنقرض ذريته فى الجيل القادم ليمح اسمهم . ليذكر إثم آبائه لدى الرب ولا تمح خطية أمة » (مز ١٠٩ : ١٣، ١٤) .. ولعل التلاميذ رأوا فى الرجل الذى يستعطى نوعاً من السخط الإلهى الذى كان أساسه الأبوين ، ولحق بالإبن الذى ما زال يعانى من الوراثة والغضب الإلهى ، لأنه مثل أبويه من مبغضى الله !! .. على أى حال ، إن المسيح فى جوابه لم يربط بين الخطية والنتيجة ، لا لأنه ليست هناك خطية ، .. لكن لأن الله كثيراً ما يتمهل على الخطية ، فما أكثر النتائج التى يؤجلها الله لمن يفعل الشر والإثم والدنس ، ولا شبهة فى أن هناك ناموساً مكسوراً خرج بسببه هذا الانسان إلى العالم دون أن يبصر ، .. عندما تحدث قوم إلى المسيح عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم، ولعلهم تساءلوا أليس هذا بسبب خطاياهم الكثيرة ارتكبوها. وجاءالجواب : « أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين الذين كابدوا مثل هذا . كلا أقول لكم . بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون . أو أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج فى سلوام وقتلهم أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين فى أورشليم . كلا أقول لكم . بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٢ — ٥) .. وجواب السيد يؤكد أنه توجد أسئلة كثيرة ليس من السهل على الانسان أن يجد جوابها فى الوقت الحاضر ، ويكفى أن ننظر إليها بقلوبنا أكثر من عقولنا ، وبعطفنا أكثر من نقاشنا ، .. ان المتألم الذى يتلوى من آلامه هو فى حاجة إلى أن نهتم بهذه الآلام ، أكثر من أن تشرحه لتفهم سر الألم الذى يعانيه ، أو تجعله مثار نظريات فلسفية يمكن أن تمتع الذهن على حساب تعاساته وآلامه وأحزانه !! ..

الأعمى والنظرة المتفرجة :

وهى نظرة الجيران ومن إليهم الذين اختلفوا حول شخصية الرجل ، فبعضهم أكد أنه هو والبعض الآخر ظنوا أنه شبيه به ، ولعل هؤلاء كان من الصعب عليهم أن يعتقدوا أنه هو ، إذ أن الرجل تغير تغييراً كبيراً ، لا لأنه أعطى عينين أغلب الظن أنهما أصبحتا أجمل شيء فيه ، .. ولكن لأن البؤس والشقاء والألم التى كانت تصاحب فقدان البصر قد اختفت وحل محلها الابتسام والرجاء والاشراق .. وإذ اختلف الناظرون إلى الرجل فيما بينهم ، أخذوه إلى الفريسيين !! وجميع هؤلاء الجيران والمعارف لم يروا فى قصة الرجل أكثر من ملهاة أو مسرحية تدعو إلى التفرج والتسلية .. وأليس جانب كبير من بنى البشر لا ينظرون إلى الآخرين إلا نظرة التفرج والتسلية !! .. يا لضعف الانسان وقسوته البالغة تجاه أخيه الانسان !! .. عاد الجندى من ميدان القتال وقد فقد بصره ، .. وأرادت أخته أن تحس إحساسه ، ، وتدرك مشاعره ، فعصبت عينيها لمدة أسبوع ، حتى لا ترى أحداً أو شيئاً ، وتعيش فى عالم الظلام حتى تدرك بعض ما يعانيه أخوها بعد أن ضاع بصره فى ميدان القتال ، . عندما فقد دكتور مون بصره وهو فى أوج قدرته وقواه العقلية ، كانت الكارثة أكثر من احتماله ، وكان دائماً يقول : « وما فائدة كل ما وصلت إليه » .. « وما قيمة قواى ، وقد أغلق بينى وبين العالم » .. على أنه سرعان ما تنبه إلى أنه يستطيع أن يعين العميان فاخترع طريقته المعروفة التى أضاءت الدنيا أمام نظرائه ليقرأوا كلمة الله ، وتتفتح لهم سبل المعرفة بين الناس ، .. وجاء بعده لويس بريل ، وكان قد فقد بصره منذ الصغر ، وتعلم أن يقرأ القراءة بطريقة مون التى تجسم الحروف ، وكانت طريقة متعبة ومؤلمة ، وفكر بريل فى طريقة أسهل استعمل فيها النقط بدلا من الحروف ، وهكذا ابتكر الطريقة المعروفة باسمه عام ١٨٢٩ . وبعد مرور مائة عام اجتمع عدد

من العميان فى المدينة الصغيرة التى ولد فيها بريل – وقد فقد بصره فى الثالثة من عمره – ليحتفلوا بالعيد المئوى لاختراعه المذكور ، وقد أقيم له تمثال كان يمر العميان به ، ويضعون أيديهم على وجهه ليذكروا الرجل الذى فتح أمامهم باب القراءة والنور !! .. لقد حرص كتاب الله فى نظرة العطف والألم والاشفاق تجاه الأعمى على القول: « وقدام الأعمى لا تجعل معثرة » (لا ١٩ : ١٤) « ملعون من يضل الأعمى عن الطريق (تث ٢٧ : ٨) ..

الأعمى والنظرة الخائفة :

والنظرة الخائفة هى نظرة الأبوين اللذين لا نستطيع تصور مدى غبطتهما بعودة ابنهما إليهما مفتوح العينين مبتهج القلب متسع الابتسامة ، ولكن الشىء الغريب جداً ، هو التنصل من الاعلان عن هذه الحقيقة ، خوفاً من اليهود ،.. لقد ترك الأبوان الابن ليواجه الموقف بمفرده إزاء التهديد اليهودى بالطرد ، والحرمان الدينى ، .. وقد كان عند اليهود نوعان من الحرمان : الأول الايقاف الدينى لمدة محدودة قد تصل فى أقصاها – إلى شهر كامل ،.. وهناك الحرمان أو العزل من المجمع طيلة العمر ، فى وهذه الحالة يحرم المخالف جهاراً عياناً ، ويلعن اسمه أمام الجميع . ويعزل عن الناس . وعن الله . .. وكان خوف اليهود من تلك الحالة شديداً إذ يتضمن حرمانهم من الله ، .. وإذ خاف الأبوان مما كان مزمعاً أن يحدث لابنهما ، تنصلا منه ، .. ولم يتنصل منه يسوع المسيح . .. وعلى أى حال مهما تكن الأسباب الداعية للانفصال بين الابن ووالديه فسيبقى السيد أقرب إليه من أقرب الأقربين .. عندما نبذت أم موسى ولدها ، وتركته فى السفط يبكى على حافة النهر كان الله هناك أقرب إليه من عمرام ويوكابد ومريم أخته ، .. وعندما اضطر داود أن يترك أبويه وقال : « ان أبى وأمى تركانى والرب يضمنى » ، كان الله الصديق الذى لا يتخلى عنه فى غدواته وروحاته إلى آخر لحظة من لحظات

حياته !! .. وعندما تركت خطيبة جورج ماتيسون الواعظ الاسكتلندى العظيم ، خطيبها وهو فى آخر سنيه الجامعية . عندما أصيب بمرض فى عينيه انتهى به إلى العمى ، وجد صديقه الألزق من الأخ . وخرج ماتيسون على الدنيا بأغنيته العظيمة . والتى مطلعها : « أيتها المحبة التى لا تدعنى أذهب » .. حيث وجد هناك الصدر الحنون الذى يسند إليه رأسه المتعب ، ونفسه المحزونة . وحيث يجد فى بحر الحب الغنى والسعادة التى لا يجدها فى أى مكان !! ..

الأعمى والنظرة المنتقدة :

على أن أسوأ النظرات جميعاً كانت النظرة المنتقدة ، والتى اعتبرت شفاء المسيح للرجل عملا خاطئاً لأنه حدث فى سبت ،.. فإذا كان المسيح قد تفل على الأرض، وصنع من التفل طيناً، فقد كسر وصية السبت التى كانت لا تجيز أى عمل حتى مجرد ملء طبق من الزيت أو إشعال المصباح أو إطفائه ، وكان حمل الأثقال ممنوعاً ، فإذا كان الحذاء به مسامير غليظة ، فإن لبسه فى السبت يعتبر جريمة ، بل قص الأظافر . أو نتف شعرة من الذقن يعتبر عملا غير مشروع فى السبت ، .. فإذا تعلق الأمر بالشفاء . فإن المعونة الطبية الجائزة يوم السبت هى التى يتوقف عليها إنقاذ الحياة ، ودفع الخطر فقط ، دون العلاج العادى المحظور فى السبت ، .. ومن ثم لم يكن من الضرورى أن يشفى الرجل فى يوم السبت . ولا مانع من أن يتم الشفاء أو تجرى المعجزات . ولكن فى يوم آخر غير السبت ، .. وقد نتعجب لهذا الصنف العجيب من الناس . ولا نكاد نتصور تفكيرهم وعقليتهم ، .. ولكنها للأسف الصورة المتكررة فى كل العصور لمن يشغلهم الشكل عن الموضوع ، ولمن لا يمكن أن يروا حسنات الحياة إن لم تأت عن طريقهم وأسلوبهم ، .. ما أتعس أن يصل الانسان بحقده وتعصبه وضيق فكره . إلى الدرجة التى يرى معها الجمال

قبحاً ، والخير شراً ، والحق باطلا . فيحكم على الحق بدلا من أن يحكم له ، ويعاقب الخير بدلا من أن يسر به ويهتف له !! ..

الأعمى والنظرة الحنون :

وهذا يأتى بنا آخر الأمر إلى موقف المسيح من الأعمى ، وقد لا نستطيع فهم الموقف على الوجه الصحيح ما لم نربطه بما جاء فى الاصحاح السابق فى انجيل يوحنا حيث قال المسيح : « أنا هو نور العالم من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة » (يو ٨ : ١٢) . وقد أراد المسيح أن يكشف بصورة نموذجية هذه الحقيقة أمام الجميع . فاختار المولود من بطن أمه أعمى ليبين الفرق بين من يعيش معه ، ومن يبتعد عنه . . قيل عن محام من أقدر المحامين الأمريكيين فى نيويورك أنه قضى صيفاً بأكمله فى الجبال البيضاء المرتفعة فى عزلة كاملة ، .. وعندما قالت له سيدة : يبدو أنك أطلت أجازتك الصيفية أكثر من المعتاد .. أجاب : نعم لأن الطبيب أخبرنى بأنى سأفقد البصر بعد ثلاثة شهور . ولذلك جئت إلى الطبيعة العظيمة أتملى من مناظرها التى سأفقدها بعد أن تخيم الظلمة على عينى !! .. أجل ! ولا يعرف جمال البصر على حقيقته إلا من يفقده . فإذا نظرنا إلى الأمر من الزاوية الأخرى ، فإننا نرى إنساناً خرج إلى الدنيا . وهو لا يراها سوى ظلام فى ظلام ، .. والمسيح بالنسبة لدنيانا هو النور الذى بدونه يغرق الانسان فى الظلام .. تحدث المسيح عن نفسه بأنه « نور العالم » فى عيد المظال ، وقد كان يوجد فى الهيكل المنارة الذهبية ذات السبعة الشعب لتضىء القدس ، كما كانت هناك أعداد كبيرة من المصابيح تنير المدينة كلها ، وتحولها إلى شعلة من نور ، .. وكان اليهود فى ذلك العيد يذكرون عمود النور الذى كان يقودهم فى الصحراء ، .. وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يبدو الفقير الأعمى رمزاً للعالم كله فى حاجته إلى يسوع المسيح ، وفى الحقيقة إن أى انسان لم يتعرف على المسيح بعد ، هو أعمى عن حقائق الله العظمى المعلنة فى المسيح .

كانت آلام الرجل فرصة أمام يسوع المسيح . وكان هو النور الذى يضىء فى الظلمة لم يجلس ليتفلسف حول آلام الأعمى . كما فعل التلاميذ ، أو ليتسلى بمنظره كما تسلى الجيران . أو ليخاف مما يحدث كما خاف الأبوان ولم ينتقد كما انتقد اليهود بل قال : « ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهار ويأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل . ما دمت فى العالم فأنا نور العالم » (يو ٩ : ٤ و ٥) .. أو بعبارة أخرى إن الحياة هى فرصتنا الكبرى فى الخدمة والانقاذ .. والفرصة كالشعرة على حد قول شكسبير إن لم تمسك بها ضاعت وطارت . .. وأضاف السيد ما ينبغى أن نتحذر منه بالتمام ، عن الليل الذى سيأتى حين لا يملك الانسان أن يعمل ، والعبارة الأخيرة كما يقول بروفسور جيكى : هى العبارة التى حفرها دكتور جونسون على ساعته ، والتى دونها كابتن سكوت على المزولة فى ايتسفورد ، وجعلها كارليل شعاره فيما كان يكتب من مؤلفات ، وويل للانسان الذى لا يغتنم نهاره قبل أن يأتى ليل القبر عندما تنتهى خدمته فى هذه الحياة !! ..

وقد كان المسيح عجيباً فى الطريقة التى فتح بها عينى الرجل . .. لقد تفل على الأرض وصنع من التفل طيناً . وطلى بالطين عينى الأعمى ، وأرسله ليغتسل فى بركة سلوام . .. وهناك اعتقاد عند الكثيرين من المفسرين ، بأن الرجل كان مفقود المقلتين وأن المسيح الذى صنع الانسان من التراب ، كان لابد أن يكمل المقلتين من نفس المادة التى صنع منها الانسان ، وقال آخرون إن الأمر يمكن أن نراه من جانب آخر ، إذ أن الطين فى العادة يؤذى البصر ويضره ، ولا يمكن أن تفتح عينا انسان بحفنة من التراب أو الطين توضع فى عينيه ، .. كما أن الاغتسال لو أننا أخذناه بقياسه المادى سيذيب الطين ويسقط من العينين دون أن يلصق بهما !! .. لكن المسيح ترك الرجل يسير فى الطريق متأملا ليمتحن إيمانه ويذكيه ويقويه ، وهو يفعل هكذا على الدوام ،

ومن واجبنا أن نطيع ونسلم حتى ولو بدا الأمر خارجاً عن التعارف عليه ، أو المألوف أو المدرك بين الناس ، ..

ونلاحظ أن هذا كان الفرق بين الفريسيين وبين الرجل بعد أن أبصر ، أما هم فقد كانوا غير مستعدين لقبول روايته أو لتفسير المعانى المستخلصة منها ، .. أما هو فقد تزايد إيمانه حتى بلغ الكمال آخر الأمر . ..

منذ سنوات عديدة تجدد رجل فى أوربا ، وأحب الانجيل لدرجة جعلته يفكر أنه يجب أن يذهب ويكرز به ، وفعلا قام ، واجتمعت حوله جماهير غفيرة لتسمعه من باب الفضول ، غير أنها لم تلبث أن قل عددها مع الأيام حتى لم يعد يرى أحداً . .. وفعل الرجل شيئاً غريباً إذ أذاع نشرة فى المدينة بأنه على استعداد فى يوم معين وحتى الساعة الثانية عشرة ظهراً أن يسدد ديون أى انسان يتقدم إليه فى هذه الأثناء ، .. وانتشرت الأخبار فى المدينة ، ولم يصدقها الناس ، وقال البعض إنها نكتة لا أكثر ولا أقل ، .. وفى الموعد المحدد لم يأت أحد ، سوى رجل جاء فى الساعة العاشرة وكان يتمشى أمام المكتب ناظراً هنا وهناك حتى لا يراه أحد ، ولما لم يجد أحداً دخل ، وعرض على صاحب المكتب دينه ومستنداته ، ودفع له الرجل كل الدين ، .. وجاء ثان وثالث ، .. والرجل يستبقى الثلاثة ، حتى مرت الساعة الثانية عشر ، فخرجوا ليجدوا آخرين يسألونهم هل صدق الرجل فيما قال .. وأسرعوا بالدخول عندما تبينوا أن الأمر حقيقى ، ولكن الموعد كان قد انتهى !! .. لقد طلب المسيح من الرجل شيئاً غريباً ، وفى الوقت نفسه لم يكن عسيراً ، وأطاع وعاد مبصراً ، .. ولست أعلم بأى صورة كانت عودته ، وهو يرى الطبيعة والحياة والناس لأول مرة منذ ولادته ، هل تطلع إلى الشمس وغنى ، هل قبل الأشجار والزهور فى الطريق ، هل ضحك مع الطفل ، وغنى مع الشاب ، وانهال على أبيه وأمه تقبيلا ولثما !! .. على أن القصة كانت

– بلا شك – ستكون مبتورة ناقصة لو انتهت عند هذا الحد ، .. لقد أعاد المسيح إليه البصر ، ولكن هناك البصيرة التى هى أهم وأعظم ، .. لقد أرسل الله إليه النور يبزغ فى وجدانه ، كما يبزغ نور الشمس ويتلألأ ، .. لقد رأى المسيح أولا انساناً ، ثم نبياً ، فالسيد الذى ينبغى الإيمان به والسجود له .. وقد حرم من المجمع من أجل المسيح دون أن يبالى ، وخرج طريداً ليلتقى بابن الله الذى جاء ليعطى البصيرة حتى : « يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون » (يو ٩ : ٣٩) .. والمسيح إلى اليوم ما زال يفعل هكذا .. وما زال يفتح عيون الناس بوسائل مختلفة وأساليب مختلفة لكى ترى الحق وتتبعه قبل أن يحتويها الظلام إلى الأبد ، إذا أهملته ورفضته كما فعل قدامى اليهود والفريسيين.. هناك رجل كان من أشهر الطيارين الأمريكيين اسمه جون فين وكان يعمل تحت قيادة الجنرال ماك أرثر فى الحرب العالمية الأخيرة ، وكان هذا الطيار بطبيعته شريراً مستبيحاً ، وحدث أنه كان مريضاً وكان يذهب إلى إحدى المستشفيات فى عام ١٩٤٦ للعلاج وفى الطريق إلى المستشفى كان يرى على جانبى الطريق كلمات دينة مكتوبة كالقول : « إنه وقت لطلب الرب» . الأبدية أين تقضيها » ! ! ؟ .. « بعد ذلك الدينونة » ! . وعندما وقفت عيناه على أول عبارة من هذه العبارات استاء وزمجر ضد من كتبوها ! ! .. ولما رأى غيرها وغيرها ازداد ضيقاً وغيظاً ، .. لكن هذه الكلمات كانت تطالعه فى ذهابه إلى المستشفى وفى عودته منها، وفى مساء أحد أيام السبت أحس الرجل لدهشته أن الكلمات صادقة ، وأنه هالك وضائع إذ هو بعيد عن الرب ؛ واستولى عليه رعب مخيف فركع على ركبتيه وصاح قائلا : « أيها الرب إلهى إذا غفرت لى ووهبتنى السلام ، وأعطيتنى يقين الخلاص ، فأفعل كل ما تطلبه منى » . واستجاب الله صلاته البسيطة هذه ، وسارع الرجل إلى دعوة أخيه بالتليفون طالباً منه أن يلتقيا وكانت أمهما

تعلمهما عن الإيمان بالله والثقة بيسوع المسيح ، .. وفى اليوم التالى كان كلاهما راكعاً أمام الله ، يستعيد ذكرى الأيام الحلوة ، أيام الطفولة الجميلة البريئة ، .. وتحول الطيار بعد ذلك إلى خادم يشهد للناس كيف أنار المسيح حياته وخلصها !! .. ليت كل انسان غارق فى الظلام يغنى له قائلا : « اكشف عن عينى فأرى عجائب من شريعتك » (مز ١١٩ : ١٨) .. آمين آمين .

١٠١
الأبرص

« ياسيد ان اردت تقدر ان تطهرنى »
(لو ٥ : ١٢)

رسم أحدهم صورة لشاب ممزق الثياب، مهلهل المظهر ، حافى القدمين ، وهو راكع على ركبتيه ، وكتب تحتها : بدون حذاء ، بدون مأوى ، بدون مسيح ، وقصة هذا الشاب تتحدث أساساً عن انسان كان غنياً ، وكان من بيت كريم كبير ، ولكنه أدمن المسكر ، وضيع كل شيء ، وسار فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية يضرب بقدميه فى الطرقات ، جائعاً ، لا يلوى على شيء ، .. ولكنه إذ أبصر نوراً من بعيد ورأى اجتماعاً ، وأحد خدام الله يتكلم ، دلف إلى الداخل ليسمع الواعظ يقول : « الله لا يحتقر ولا يرذل إنسانا ما » .. وأدرك أن هذا نداء الله له ، فركع فى المكان ليسلم حياته للمسيح ، وليبدأ الحياة من جديد . وليتغير كل شيء فى حياته !! ..

لقد تناولت معجزات المسيح ألوان الحياة المتعددة ، إذ أعانت من وقف على خط الحياة والموت ، والذى بقى جيلا بأكمله ، لا يجد من يعينه ويساعده ، . والذى دخل إلى العالم مظلم العينين دون أن يتمتع بجمال الله فى الوجود والطبيعة .. لكن من أهم الشخصيات التى وقف السيد إلى جوارها شخصية المنبوذ والمكروه والمعزول من الناس ، شخصية الأبرص ، الذى وهو يرى الحياة فى قسوتها وشدتها وبؤسها ، وفى عزلته الكاملة عن الجميع ، ربما قال لنفسه مرات عديدة : ألا موت يباع فأشتريه !! .. ولكن المسيح وقف إلى جانب البائس الأعزل ، ورده إلى الحياة بما فيها من طعم وحلاوة وجمال وكمال ، .. وهو يفعل هذا على الدوام لكل من يقصده ، فى بؤسه وألمه وعزلته ، .. وها نحن نتأمل القصة فيما يلى :

الأبرص وعزلته القاسية :

لا نستطيع أن نفهم قسوة البرص وعنفه وشدته ، ما لم ندرك أثره الصحى أو النفسى فى حياة الأبرص ، .. لقد كان الأبرص يعيش فى عزلة كاملة نفسية وحسية مع الله والناس والنفس ذاتها ، .. أما مع الله فقــد كان المفهوم فى ذلك العهد أن البرص ضربة من الله ، وأنه رمز للخطية والنجاسة : وأن الله يضرب الأبرص بالمرض لغضبه عليه، .. عندما أخطأت مريم النبية ضربها الله بالبرص ، .. وعندما تعدى عزيا مركزه ، وأخذ مركز الكاهن عاقبه الله بالبرص .

فإذا تحولنا إلى علاقة الأبرص بالآخرين . فإنه كان يعامل معاملة الميت ، فهو يعزل عن الناس فوراً . وتذكر شريعة اللاويين : « الأبرص الذى فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مكشوفاً ويغطى شاربيه وينادى « نجس نجس » كل الأيام التى تكون الضربة فيه يكون نجساً . إنه نجس . يقيم وحده . خارج المحلة يكون مقامه » (لا ١٣ : ٤٥ ، ٤٦) .. كان

الأبرص يعزل خارج المدينة ، وقد وضع اليهود إحدى وستين حالة يكون فيها الاتصال بالمصابين بالبرص سبباً للنجاسة . فلمس الأبرض مثل لمس الميت . وإذا أدخل الأبرص رأسه فى بيت ، صار البيت كله نجساً من الأرض إلى السقف ، ولا يجوز تحية الأبرص ولو فى مكان مكشوف ، ولا يجوز الاقتراب منه لمسافة أكثر من أربع أذرع ، وإذا كانت الريح تهب من ناحية إنسان أبرص وجب أن يقف الانسان بعيداً عنه بمسافة لا تقل عن مائة ذراع ، .. كان محرماً عليه أن يأتى إلى بيته أو يعيش مع أولاده وزوجته ، وهو لا يستطيع أن يقبل ابنه أو ابنته أو يضم أولاده إلى صدره !! .. نحن نرثى فى العصور الحديثة لكل المعزولين أو المكروهين، .. وما زال العالم يملؤه الأسى للمنبوذين فى الهند ، ولقد كافح غاندى طويلا من أجل القضاء على العزلة المضروبة بينهم وبين بقية المواطنين ، .. ونحن نرى الصراع القاسى الذى يظهر فى معاملة الزنوج فى أمريكا وجنوب أفريقيا ، ولكن هؤلاء وأولئك لهم مجتمعاتهم الكبيرة ، ويوجد لهم أصدقاء فى كل مكان ، .. لكن الأبرص القديم فقد صداقة المجتمع . كان عليه أن يعيش كالنائح ممزق الثياب مغطى الوجه ، وإذا اقترب منه أحد ، أو اقترب هو من أحد كان عليه أن يصيح : « نجس نجس » ، وكان الربيون يقسون عليهم قسوة بالغة ، إذ قال واحد منهم إنه يرفض أن يأكل بيضة فى شارع يوجد فيه أبرص ، وكان آخر يضرب أى أبرص يقترب منه بالحجارة ليبعده عنه ، .. ومن المتصور أنه بسبب هذا أو لكل هذا ، يفقد الأبرص معنى الحياة ، أو يكره نفسه ، إن جاز التعبير ، .. إن البرص فى العادة يبدأ بأورام صغيرة فى الجسد ، ثم تتقرح وتتقيح ، ويسقط شعر الحواجب ، وتجحظ العيون ، وتتقرح الأوتار الصوتية ، ويصبح الصوت خشناً أجش ، وتتقرح اليدان والقدمان . ويصبح الانسان مجموعة من البقع المتقرحة ، ثم يتلو ذلك

الضعف العقلى والانحلال الجسدى ، وفى بعض أنواع البرص يفقد المريض الإحساس فى الأجزاء المصابة من جسمه إذ تتأثر خلايا الأعصاب . وتضعف العضلات ، وتصير الأيادى أشبه بالمخالب . وتسقط والأظافر والأصابع تدريجياً ، وقد تستمر الحالة سنوات يموت فيها الانسان جزءاً بعد جزء !! ..

وفى هذه الحالة البطيئة القاسية المستمرة ، كم يتمنى الأبرص لو أن حياته تنتهى مرة واحدة ، فلا يظل يعانى الآلام والعذاب ! وربما يقف الناس منه موقف العداء أو اللوم أو الحنق . كما يقف الانسان من الحياة عندما يضيق بها أو تضيق به !! ..

الأبرص والاتجاه إلى المسيح :

سمع الأبرص عن المسيح . وجازف بالمجىء إليه : والجموع الكثيرة تتبعه ، ولكن لعله فى تلك اللحظة كان ضيق النفس بوضعه وألمه . .. وعندما يمتلىء الانسان ألماً أو تعباً . فهو لا يعود يبالى بما يمكن أن يصنعه الناس معه من مضايقات أو منع أو طرد :.. وهذه إحدى بركات الألم . إنه يوجهنا إلى الله . ويقربنا منه ..

عاش فى الهند طبيب اسمه بول براند : وقد كرس هذا الطبيب حياته لخدمة البرص ، وقد فكر ذات مرة أن يجرب وضع عضلات سليمة مكان المتآكلة ، فأرسل إلى إحدى المصحات ، أن ترسل إليه مريضاً تمكن منه البرص ، فإذا بشاب اسمه كرشنا ميرسى ، كان معذباً من آلام البرص . يعرض رغبته الكاملة فى أن يجرى عليه أبحاثه . وقال له : افعل ما بدا لك لأن الحياة لم تعد ذات قيمة عندى . ونجح الطبيب مع الشاب نجاحاً عظيما . .. وكان هذا كله بسبب عنصر المجازفة والمغامرة ، من انسان دفعته آلامه إلى أن يكون موضع التجربة والاختبار !! ..

كان القبطان العجوز يقود سفينة فيها عدد من الممثلين والممثلات نزلوا من ميناء فى اسكتلندا ، .. ولما جلسوا إلى المائدة ، وقبل أن يقدم الطعـــام صفق القبطان وهو يقول : أيتها السيدات وأيها السادة لنقدم الشكر لله ونصلى!! . وكان عمله هذا موضوع السخرية والضحك طوال مدة الطعام ، قال أحدهم : لم أعرف أن قبطاننا قسيس ، وقال آخرون شيئاً مثل هذا ، على أنه بعد بضع ساعات قامت عاصفة شديدة جداً ، لعبت بالسفينة كما تلعب الريح بالريشة الطائرة ، .. والتمس الممثلون من زعيمهم أن يسأل القبطان عن العاصفة وهل هناك أمل فى النجاة ، .. وهل سيخرجون سالمين أم لا فقال له القبطان إن الأمر خطير !! .. وكان اضطراب الممثلين لا حد له ، .. وعاد الزعيم إلى سطح المركب مرة أخرى (بعد أن أخبر زملاءه فى الكبائن) وقال للقبطان إذا كان الأمر خطيراً كما تقول فإنى أعبر عن أسفى وأسف زملائى لسخريتنا بصلاتك، ونرجو أن تصلى معنا، وكان وجه القبطان صارماً وهو يقول : إنى فى الهدوء أصلى ، وفى قلب العاصفة أؤدى واجبى !! ..

إن الآلام لم تولد الشجاعة فحسب فى قلب الأبرص بل علمته الاتضاع والانسحاق ، .. لقد جاء إلى السيد وقد خر على وجهه ساجداً له ، .. لقد سحقه الألم ومنعه عن الوقوف أو الركوع ووصل به إلى الانبطاح الكامل على وجهه ، ونحن لا نعلم هل كان من الممكن أن يفعل ذلك لو لم يمتلىء من المذلة التى جاءته من برصه !! .. إنه على أى حال أشبه بتلك القصة الرمزية التى تحدثنا عن عود من الغاب كان فى بستان جميل ، وكانت المياه تنساب من تحته ، وكان النسيم العليل يداعب أوراقه فتمتزج موسيقاه بشدو الأطيار وكان لذلك يستمتع بحياة سعيدة بهجة. على أنه فى أحد الأيام العابسة بألم حاد ، إذ كانت سكين حادة تجتثه من أصوله . وأحس أنه يحمل من مكانه ويطرح إلى جانب الطريق ، فظل فى مكانه يندب حظه التعس ، ويبكى بدموع

من ذوب قلبه حتى جفت عيناه بل جف قلبه ، .. وكأنه لم يكفه كل هـذا فإذا بالسكين تعمل فيه مرة أخرى ، ظلت تقطع منه أجزاء ، وبعد ذلك جعلت تثقب ثقوباً كثيرة فيه ، وعندما انتهت العملية المؤلمة فيه ، صاح العود : لقد انتهيت . على أن الرجل الذى مزقه هذا التمزيق الشنيع ، وضعه فى فمه وجعل يخرج منه ألحاناً شجية . هتف العود أو على الأصح هتف ما بقى منه : هل خرجت هذه الأنغام الجميلة منى أنا ؟ ! . وقال الرجل : نعم .. كانت هذه الموسيقى الشجية فيك ، ولكن لم يكن فى الإمكان أن تخرج منك إلا بعد أن مزقتك السكين وأطاحت بالكثير منك ! ! .. كان من المستحيل أن يشفى نعمان السريانى من برصه قبل أن تنتهى كبرياؤه ، ولهذا لم يخرج له أليشع . وعاد هو إلى أليشع منحنياً أمام عظمة الله . وجوده . وإحسانه ، ..

وكان الأبرص أكثر من ذلك واثقاً فى قدرة المسيح . ومؤمناً بسلطانه العظيم على مرضه ! ! .. وفى الحقيقة إنه لا سبيل إلى الخلاص بدون إيمان ، .. دخل الشاب غرفة العمليات ، وقبل أن يعطى المخدر قال للطبيب إنى خائف ، . فأرجعه الطبيب إلى غرفته . ودعا له براعيه ، وظل الراعى يحدثه عن الله والثقة به . حتى استرد الشاب إيمانه . وبعد ذلك أجريت له العملية بنجاح . ومهما كان نوع الإيمان الذى فى الرجل فإنه كان ولا شك إيماناً ناقصاً إذ كان يؤمن بقدرة المسيح ، ولكنه كان لا يعرف مدى رغبته وإرادته . لكن المسيح أكد له الأمرين القدرة والرغبة معاً ، على ما سنرى ، .. ونحن لا نتصور أن إنساناً عاش فى وسط الآلام يلاقى احتقار الناس فى كل مكان دون أن يضعف إيمانه أو يتذبذب أو يرتد ، .. ولكن المسيح فى العادة لا يقصف القصبة المرضوضة ، والفتيلة المدخنة لا يطفيها ! ! .. وكم جاءه الناس بإيمان ناقص ، فصححه وكمله وهو لا يحتقر ضعفنا بل يسنده ويقويه ! .

ومن واجبنا أن نتعلم منه كيف نترفق بضعفات الآخرين !! .. طلب أحـد خدام الله من فتاة فقيرة صغيرة أن تصلى ، وكانت الفتاة فى ذلك تكاد تموت جوعاً ، .. فقالت له الفتاة : إن معدتى تصرخ من الجوع ولأجل ذلك لا أستطيع أن أصلى ، .. كان يجب أن يعطيها لتأكل حتى تستطيع الصلاة ! .

الأبرص وجواب المسيح له :

كان جواب المسيح على نداء الأبرص جواب الحنان فى اللمسة التى لمسه بها ، .. كان الأبرص يقابل من الجميع بالتقزز أو الرجم بالأحجار ، .. وكان لا يجد له مكاناً عند القريب أو البعيد على حد سواء ، .. ولكنه — فيما أعتقد — عاش طيلة حياته يتحسس المكان الذى لمسه فيه المسيح !! .. أجل !! من حقنا على الدوام أن نقول :

يا ترى أى صـديق مثـل فادينا الحبيب
يحمـل الأثقال عنـا وكـذا الهم المـذيب

وكذا ... كانت ليئة مكروهة من أختها ، وكانت محبوبة من الله ، .. كان يوسف مطروداً من أخوته ، ولكنه كان فى حضن الرب ، .. نبـذ يعبيص من أقرب الناس إليه ، ولكن إله إسرائيل آتاه بكل ما سأل ،.. تنصل أبوا المولود أعمى منه ، ووجده يسوع المسيح !! .. لقد حطم المسيح الناموس الطقسى بهذه اللمسة ليحيي ناموس المحبة ، ..

كانت هناك فتاة فى مدينة ، وقد تلوثت ببرص الخطية ، وكانت تعيش منعزلة فى غرفة وضيعة ،.. وهناك أصابها الداء والجوع ، ولم يكن من يعنى بها ، وسمعت بها سيدة مسيحية ، فسعت إليها وأخذت تنظف لها غرفتها ، وتقدم لها الطعام ، .. وفى ذات يوم سألتها إن كانت ترغب فى الصلاة معها ،.

ولكنها رفضت إذ قالت بجفاء : أنت لا تحسنين الى بدافع الشفقة ، بل بدافع رغبتك فى أن تأخذى السماء مكانك الأخير !! .. وضمنت السيدة المحسنة واستمرت فى المساعدة حتى شفيت المريضة وفى آخر يوم قالت لها وقد أوشكت على استرداد صحتها وقوتها : ها أنا أزورك للمرة الأخيرة ، فهل لا تسمحين لى أن أقبلك قبل أن أمضى !! .. وإذ التقت الشفاه النقية بالشفاه الملوثة فى قبلة المحبة ، صنعت القبلة عجباً ، وجاءت الفتاة إلى المسيح !! ..

رأى ولد صغير فى الرابعة من عمره فى بروكلين بالولايات المتحدة رجلا عجوزاً يسير فى الطريق ببطء وهدوء، وتصور بخياله الصغير أن هذا الرجل هو سانت كلوز فأسرع إليه ليقول له : يا سانت كلوز أريد دباً ، وهو يقصد أن يحضر له سانت كلوز فى عيد الميلاد لعبة من لعب الأطفال على شكل دب صغير . وسار الرجل هادئاً مبتسما ، وفى يوم عيد الميلاد طرق بيت الصغير يحمل له الهدية ، وهو يقول : لقد ظننى سانت كلوز ، ولا يمكن أن أخيب ظنه ، .. وكان فى كل عيد ميلاد يحمل إليه هدية سانت كلوز ، إذ كان معروفاً فى المنطقة بطيبة قلبه !! ..

كان لابد للمسيح أن يكشف عن قلبه للرجل بهذه اللمسة الرقيقة الحانية ، .. فى الحرب العالمية الأولى ، كان هناك جنديان يقاتلان فى معركة ، وسقط أحدهما صريعاً بالرصاص ، ونجا الآخر ، غير أنه قال للضابط الذى يقودهما : أريد أن أذهب لآتى به ، .. فقال له الضابط : لا فائدة من المخاطرة إذ أنه يموت . ولا معنى لتعريض حياتك أنت للخطر ، .. ولكن الجندى ألح حتى أذن له الضابط ، وذهب ، وحمله ، وأتى به ، ولكنه مات فى الطريق ، .. فقال الضابط : ألم أقل لك لا فائدة من الذهاب .. ولكن الجندى أجاب : لقد كانت هناك فائدة مؤكدة إذ أنه قال لى : لقد كنت واثقاً من انك ستعود ولن تتركنى !! ..

كان المسيح أكثر من هذا الصديق الوفى ، وهو هنا يخطو خطوات أبعد وأعمق من خطوات أوفى الأصدقاء ، وأحب المحبين ، .. فما أكثر ما يرى الناس صور المحبة العاجزة التى تظهر بهذه الصورة أو تلك ، .. لقد تبلورت المحبة فى عيون مرثا ومريم دموعاً باكية ، وهما واقفتان أمام القبر المغلق على أخيهما ، .. لكن المسيح وحده هو الذى بكى وتقدم خطوة أخرى أبعد وأعظم عندما أقام لعازر من الموت بكلمة قدرته السرمدية !! ..

ومن المناسب أن نلاحظ أن اليد التى لمست بالحنان الأبرص ، هى أيضاً اليد المقتدرة التى شفته من برصه ، .. وكم فعلت هذه اليد ؟ ! وهى إلى اليوم تفعل ذات الشىء ، إذ تشفينا من آثامنا وآلامنا وتمنحنا الحياة والقوة والنعمة والبركة !! .. وإذا صح أن يقال عن أحد السياح ، الذى كان يسير مع دليله فوق جبال الألب ، وجاءا كلاهما إلى فجوة أسفلها هوة سحيقة ومد الدليل يده وأمسك بالصخرة فى الجانب الآخر من الفجوة ، وطلب من السائح أن يعبر فوق يده ، وإذ تخوف السائح وتردد فى العبور قال له الدليل : اعبر اعبر ، فإن هذه اليد لم تهلك أحداً قبل الآن ، فتشجع السائح وعبر بكل هدوء وأمان ، وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فإنه من المؤكد أن يد المسيح لا يمكن أن تهلك إنساناً تطلع إليها بلغة الرجاء والأمل ..

كان اليهود يعتقدون أن البرص من الله ولا يمكن أن يذهب إلا بقوة الله ، .. وجاء فى تقاليدهم أن المسيا عندما يأتى إلى باب روما ويجلس هناك ، ويجتمع إليه الناس بشقائهم وبرصهم وآلامهم ، وهناك يشفيهم إذ لا برص مع وجود المسيا ، .. وما أجمل أن ينتظر المتعب لمسته القوية المباركة ..

فى قصة كتبها دكتور فرنك لوباخ فى كتابه عن الصلاة قال : تألمت إمرأة سبع سنوات من داء مؤلم فى عمودها الفقرى ، وكانت آلامها مبرحة ، .. وقد اتصلت بمستشفى مايو وعينوا لها ميعاداً لمقابلة الأطباء : .. وبعد الفحص

أعلن الأطباء أن كل ما يستطيعون عمله . هو تخفيف الألم وقتياً . .. وذهبت المرأة وزوجها إلى مؤتمر ديني بالقرب من المستشفى حيث أقيمت صلوات كثيرة من أجلها . وقد أعلن أن جلن كلارك سيعظ فى الكنيسة فى يوم الأحد صباحاً . وصلت المرأة أن يعطيها الله القوة لتسمعه . .. وكان سفر أيوب هو أفضل الأسفار عند هذه السيدة . وإذا بها تسمع الواعظ يعظ . فى ذلك اليوم عن الآية : « هوذا يقتلنى . لا أنتظر شيئاً . فقط أزكى طريقى قدامه » (أيوب ١٣ : ١٥) .. وكما حدثت المعجزة مع أيوب . حدثت معها : إذ أحست — والرجل يعظ — أن هناك يداً تلمس رأسها وتستمر فى لمس عمودها الفقرى إلى أن وصلت اليد إلى نقطة الألم . وأزالته !! .. إن الأطباء فى أعظم مستشفى فى العالم لم يستطيعوا أن يعطوا تعليلا علمياً لما حدث : .. ولكن هناك يد الطبيب الأعظم التى لها اللمسة القادرة على كل شيء !! ..

لم تكن لمسة المسيح . لمسة الحنان . والقدرة فحسب . بل إلى جانب ذلك كانت لمسة التطهير . لم يتنجس المسيح من الأبرص. بل طهر الأبرص بلمسة السيد . .. وفى الحقيقة أن الفادى المبارك إن كان يهتم بآلامنا الجسدية إلى الحد البعيد، فإنه يهتم أكثر بآلامنا وأمراضنا الداخلية. وهل كان المسيح يقول للرجل : « أريد فاطهر » وهو يقصد فقط الطهارة الخارجية . .. كلا وألف كلا !! .. انه فى الواقع يقترب إلينا لكى نكتشف النجاسة التى تملأ حياتنا . حتى لو لم يكن جلدنا أو مظهرنا يحمل أعراض البرص أمام العيون !! .. كان إشعياء — أغلب الظن — بهى المنظر جميل الهيئة وهو يدخل فى سنة وفاة عزيا الملك إلى هيكل الله ،.. واكتشف هناك — وهو يرى السيد — أنه لم يكن عزيا وحده هو الأبرص، بل كان هو والأمة بأكملها عندما تمثل فى حضرة الله ، .. وقد بدا هذا من مطلع سفره : « كل الرأس مريض وكل

القلب سقيم . من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وأحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت » (اش ١ : ٥ و ٦) .. وكان الله يهتم بأن يطهر إشعياء من برصه وخطيته قبل أن يصبح نبياً وخادماً لله ، .. وكان الله يريد أن يخلص نعمان السرياني من برص الخطية أكثر من برص الجسد ، وقد تألم المسيح أشد الألم للعشرة الذين طهروا ، ولم يرجع سوى السامرى الغريب الجنس لينال طهارة الجسد والروح معاً .. ونحن نعتقد أن الأبرص المسكين الذى سجد للمسيح طالباً الشفاء ، فناله ، لم ينقطع عن السجود ، فلم يفعل ما قاله الشاعر العربي :

صلى وصام لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لاصلى ولاصام

لقد خرج هذا الرجل — كما تكشف القصة — ينادى برحمة المسيح وإحسانه له ، .. ومع أن السيد طلب منه ألا يذيع نبأ الشفاء حتى لا يتعطل حكم الكهنة بالشفاء ، إذا عرفوا أنه يرجع إلى لمسة المسيح .. لكن مع ذلك لم يكف عن الشهادة لمنقذه وشافيه !! ..

هل نستطيع أن نرى قصة الرجل ، وهى تنتقل من عصر إلى عصر ، فى حياتى وحياتك نحن الملوثين النجسين الذين لا نختلف عن الأبرص القديم فى شيء ، سوى أن برصنا قد لا يكون ظاهراً على الجلد ، ولكنه عميق متمكن من القلب ، حتى تأتى اللمسة المباركة التى تطهرنا روحاً وجسداً ، والكلمة المنعشة الحلوة الرقيقة التى تسمعها آذاننا : « أريد فاطهر » ..!!..



١٠٢
المفلوج

« أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك . أم أن يقال قم واحمل سريرك وامش » (مر ٢ : ٩)

فى صباح يوم من الأيام كان الأسقف لايتن عائداً إلى بيته ، فسألته أخته : هل سمعت عظة !! ؟ . فأجاب : كلا بل لقيت عظة !! ؟ .. ويقصد أنه رأى شخصاً أوحى إليه بعظة عظيمة .. ولعلنا اليوم ونحن نرى هذا المفلوج سنلتقى بعظة رائعة !! .. وكم يكون من الرائع أن نرى إنساناً يرغب فى الشفاء ، دون أن يملك القوة على السعى بقدميه إلى يسوع المسيح ، ونرى أربعة لعلهم من أقربائه أو أصدقائه ، لا يحلون له مشكلة السعى فحسب ، بل يكافحون الصعاب حتى يمثل الرجل فى حضرة المسيح ، .. وهم يكشفون بذلك عن رسالتنا فى حمل المرضى والخطاة إلى السيد المبارك ، .. وسيعطى المسيح الدرس الأعظم ، إذ يكشف عن حاجة أخرى أهم من حاجة الجسد ، لقد سعى المفلوج إليه بحثاً عن الشفاء من مرض الجسد ، .. ولكن المسيح

غاص إلى الأعماق ، ليستأصل السبب الذى كان خلف هذا المرض وسراً له . ..وهكذا ينقلنا المسيح إلى البرزخ البعيد الفاصل بين أفكارنا وأفكاره، وطرقنا وطرقه ، .. ويعلمنا على الدوام أنه فى الموازنة بين الروح والجسد ، لا يمكن إلا أن نبدأ بالروح وننتهى بالروح . .. ومهما كانت أهمية الجسد عنده . فهوليس إلا وعاء للروح ، والغلاف الذى تستقر فيه . ومن الحماقة أن نصرف اهتمامنا إلى الغلاف ، وننسى الوديعة أو الجوهرة الكامنة فيه ! ! .. وهذا للأسف ما يفعله العالم ، .. إن قصة المفلوج تعلمنا الموازنة الصحيحة . ووضع الأشياء حيث ينبغى أن توضع ! ! .. ومن ثم يحسن أن نراها فيما يلى :

المفلوج ومرضـــه :

لا نعلم كثيراً عمن هو هذا المفلوج ! ! ؟ ويبدو أنه كان شاباً فى ريعان الشباب عندما جاءوا به إلى المسيح . لأن لغة المسيح له « يا بنى .. تفيد — على الأغلب — أنه كان حديث السن . .. ولا نعلم متى وكيف أصابه هـــذا الفالج أو الشلل الكامل ، .. ولا نعلم هل كان بسبب الخطية أم لا ، .. لكن من المعتقد أن الشاب فى مطلع حياته . أوغل فى الإثم . وتمادى فى الشر ، وربما كان ذلك هو السبب المباشر فيما انتهى إليه من الشلل التام . .. على أى حال إن الشلل يرمز إلى الخطية من نواح ثلاث : أولها أن المريض بالفالج يكون عديم الحساسية أو ضعيفها ،والخاطىء عديم الحس أو كما يقول الرسول فى وصف الأمم البعيدين عن الله : « الذين إذ هم قد فقدوا الحس أسلموا نفوسهم للدعارة ليعلموا كل نجاسة فى الطمع (اف ٤ : ١٩)».. « عيناك تنظران الأجنبيات وقلبك ينطق بأمور ملتوية وتكون كمضطجع فى قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارية . يقول ضربونى ولم أتوجع . لقد لكأونى ولم أعرف . متى أستيقظ . أعود أطلبها بعد » (أم ٢٣ : ٣٤ ، ٣٥) . ثانياً : إن عدم الاحساس يصل مرات كثيرة عند الخاطىء إلى اللامبالاة

والاستهتار .. قال الشاب لمدرب الثعابين : إنى لا أخشى ثعبانك هذا الذى تقول إنه خطر جداً ؛ ثم مد يده فجأة وقبض على عنق الثعبان ، ولم يستطع الثعبان أن يعضه ، وضحك الشاب وهو يبصر جسد الثعبان يتلوى ، على أن الثعبان جعل يلف جسمه على يد الشاب ، وبعد أن أكمل عمله ضغط على اليد ضغطة شديدة جداً ، واضطر الشاب أمام شدة الضغط أن يفلت عنق الثعبان ومال الثعبان وعضه عضة قاتلة وانتهت حياته لأنه هزأ بالثعبان ،.. والأمر الثالث : أن الفالج يشير إلى عدم الحركة ، والخاطىء انسان لا يتحرك فى اتجاه الحياة الأبدية والحق والخير !! .. فهو أشل يداً ونفساً وقدماً وجميع أعضائه مصابة بعدم الحركة ، .. فهو لا يمد يده لعمل الخير ، ولا يسعى بقدميه إلى بيت الله ، وأعضاؤه عاطلة عن الخدمة ، فهو عضو أشل أمام الأبدية !! ..

على أنه إلى جانب هذا كله ، يبدو أن المريض كان معذب النفس يجوز صراعاً داخلياً عميقاً ، كشف عنه السيد المسيح فى العلاج الأهم الذى كان يحتاج إليه . دون أن يفصح عنه . مما سنتعرض له وشيكا . .. وفى الحقيقة أن الخطية هى سر العذاب النفسى والجسدى على حد سواء فى قصة التاريخ الإنسانى على هذه الأرض !! ..

المفلوج ومساعدوه على الشفاء :

لا يمكن أن ندرس قصة هذا المريض دون أن نتعرض لمساعديه الأربعة الذين تقدمو به إلى السيد المسيح ، ليشفيه ، وبخاصة لأنهم يختلفون عن غيرهم ممن انتقدوا أو تذمروا ، فبعض الكتبة الذين رأوا حادث الشفاء انتقدوا فى سرهم المسيح عندما قال للمفلوج : « يا بنى مغفورة لك خطاياك » .. وقد اتسم نقدهم بالجبن إذ لم يصرحوا به علناً بل فكروا به فى قلوبهم ، .. وما أكثر المنتقدين الذين لا عمل لهم فى الأرض ، إلا نقد الآخرين الذين

يعملون ، وأغلب الظن أنهم لا يجاهرون بتقدهم فى مواجهة من ينتقدونهم ، بل قد يلبسون ثوب الرياء ، فيمدحون فى الوجه ، ويذمون من الخلف . ومن مدح وذم — كما قال أحدهم — فقد كذب مرتين ، .. وقد وجد إلى جانب المنتقدين جماعات المتذمرين ، الذين تذمروا على الأغلب — عندما نقب الأربعة السقف ، وربما وصموهم بعدم الكياسة أو اللياقة اذ يهبطون بمريضهم من السقف ، وجماعات المتذمرين تملأ الأرض فى كل زمان ومكان وهم الذين لا تتسع نظراتهم لظروف الآخرين أو متاعبهم أو آلامهم : بل يحصرون أنفسهم فى دائرة راحتهم أو مكسبهم أو متعتهم ، .. وهم أشبه بذلك الأمير الذى قيل إنه خرج ذات صباح للصيد ، وتصادف أن رأى رجلا أعور أمامه فى الطريق فتشاءم منه وأمر بإعدامه ، .. ولم ينقذ الأعور من المصير إلا براعته فى مواجهة الموقف ، إذ قال الأمير : يا مولاى لقد خرجت فى الصباح لتصيد ، وخرجت أنا لبعض حالى ، فأينا شؤم على الآخر وأينا أسوأ حظاً !! ؟ هل أنت لمجرد أنك لن تجد صيداً !! ؟ أم أنا الذى التقيت بك لتضيع حياتى !! ؟ وسر الأمير من جوابه ، وأمر بالافراج عنه !! .. إن المتذمرين — الذين ربما سقط عليهم بعض التراب من السقف — لم يكن يعنيهم فى قليل أو كثير أن إنساناً يصح أو يشفى ، بقدر ما تعنيهم حياتهم الضيقة التى لا تهتم بالآخرين !! ..

على أنه يمكن أن نرى فريقاً آخر وهم الذين التفوا حول المسيح وتزاحموا حتى أغلقوا الطريق على الداخلين ، .. وهم يمثلون الجماعات التى تلتف حول المسيح ، ولكنهم — يدرون أو لا يدرون — يغلقون الطريق بأنانيتهم أو تغرماتهم بكيفية لا يتمكن الآخرون معها من الاقتراب إلى السيد ، .. لكن هذه المجموعات المختلفة لا يمكن أن تنسينا الأربعة الذين جاءوا بالمفلوج إلى السيد ، .. ولعله من الواجب أن نقف قليلا منهم ، ونرى كيف جاءوا

وكيف تصرفوا ، لقد بدوا أولا متعاونين ،ولو تخلف واحد منهم لما استطاعوا إتمام العمل بنجاح . فالأربعة قدموا واحداً إلى المسيح ، .. ومرات كثيرة يحتاج الراعى ، ومدرس مدرسة الأحد ، والمعلم فى المدرسة اليومية ، والأب أو الأم فى البيت ، إلى التعاون والتكاتف معاً لتقديم الشاب أو الشابة للمسيح . .. ومن اللازم أن نتبين أن الأمر لا يقتصر على التعاون فحسب ، بل إظهار روح المحبة والبذل ، .. ونحن لا نعلم من هؤلاء الأربعة وما درجة قرابتهم أو صداقتهم للمفلوج ، لكنه من الواضح أنهم أحباء وأصدقاء، فما كانوا يبذلون هذا الجهد أو يقدمون هذه التضحية لولا امتلاؤهم بروح الحنان والحب للمريض المنكوب.. والمحبة المسيحية فى الواقع تقتضينا ذلك،.. أعتقد أن الكثيرين رأوا الصورة المشهورة التى أطلق عليها « صخر الدهور » والتى ترسم صليباً مرفوعاً فوق صخرة فى قلب الأمواج وقد تعلقت به فتاة ، .. على أنه من الغريب أن فناناً آخر رسم نفس الصورة ولكنه أضاف إليها شيئاً، إذ رسم الفتاة الممسكة بالصليب ،وقد مدت يدها الثانية لتمسك بيد فتاة أوشكت على الغرق ، .. وكل محب ليسوع المسيح ، لاخوته الآخرين ، لا يمكن أن يعيش لنفسه . أو يحيا منحصراً فى شخصه وذاته ، بل هو دائم القول : « إذ الضرورة موضوعة على . فويل لى إن كنت لا أبشر » !! .. (١ كو ٩ : ١٦) .

كان يوحنا رجلا غنياً جداً ، وعنده بيوت ودكاكين كثيرة للايجار ، وكان من ضمن المستأجرين أرملة فقيرة جداً لها أربعة أطفال تعولهم بكدها وعرقها ، وذات يوم جاءها وكيل يوحنا وطلب منها أجرة البيت ، فطلبت منه أن يمهلها لأن أحوالها عسرة . وأحد أولادها مريض ، فأبى وهددها بالطرد ، فأسرعت المرأة إلى يوحنا تستعطفه أن يترفق بها ، ووقفت ومعها الصغار يتضرعون إليه أن يمهلهم ، ولكنه رفض ، وصرخ الأولاد من

أجل أخيهم المريض ولكنه لم يسمع . .. ثم تركهم ودخل حديقة ، وجلس على كرسي بقرب جدول تنساب فيه المياه ، وصار يتأمل فى غناه حسب عادته ، .. غير أنه انزعج لأنه سمع شيئاً يطرق أذنيه ، وظنه صوت الأرملة فغير مكانه . ولكن الصوت كان يتبعه . وحدث أن أرعدت السماء ، فازداد رعباً ، وذكر قصة الغنى الغبي . فأرسل وكيله إلى المرأة ، لتبقى فى البيت ، ولكنه لم يجدها . لأنها آوت مع أطفالها إلى مغارة ، ولم يعرف أين يجدها ، .. ومات الولد هناك من الضعف والحاجة والبرد ، ورقد يوحنا فى سريره . .. وقيل إنه مات أيضاً فزعاً ورعباً !!.. كم يحتاج الانسان أن يتعلم أنه خلق ليحب الآخرين ويساندهم فى آلامهم ومتاعبهم وضيقاتهم ومآسيهم !! ..

على أن الأمر الآخر الذى ينبغى الاهتمام به والتركيز عليه . هو أن هؤلاء الأربعة جاءوا إلى المسيح مؤمنين . ولا نعلم هل هم الذين دفعوا المريض إلى المجيء إلى السيد أو أنه هو الذى دفعهم إلى حمله ، .. ولكن الواضح أنه وهم جاءوا مؤمنين..

تحدثت سيدة مؤمنة فى الكنيسة عن اختبارها العميق فقالت : انها أصيبت بمرض خطير فى القلب عقب ولادتها الطفل السادس وقال الأطباء لها بصراحة أن لا فائدة من العلاج لأنها ستموت حتماً ، على أنها كانت متيقنة أن الله لن يأخذها ويحرم وليدها الصغير من عنايتها ، لذلك طلبت من زوجها أن يلتمس من الراعى أن تصلى الكنيسة من أجلها . وطلب الزوج بعد الصلاة من الراعى والشماس وامرأة تقية أن يشاركوه فى حمل زوجته المريضة إلى المسيح قال : أنا وأولادى سنحمل من جانب وأنتم تحملون الجوانب الثلاثة . وكانوا أمناء فى حمل المريضة إلى المسيح وبعد أسبوعين بدأت تتحسن ثم شفيت تماماً ، وكان عمرها ثمانين عاماً عندما كتبت آخر مرة لتخبر بهذه المعجزة ! .

ومن الواجب أن نذكر أن هؤلاء الأربعة لم يكونوا مؤمنين فحسب ، بل أكثر من ذلك ، كانوا مكتشفين ، فعندما لم يجدوا فى الزحام سبيلا إلى المسيح ، اخترعوا الطريق ، واكتشفوا السبيل ، إذ دلوا المريض من السقف بعد أن نقبوه .

لم يكن مع يوحنا بنيان ورق ليكتب عليه فى سجنه ولكنه كتب كتاب سياحة المسيحى على كل ورقة يغلف بها الطعام الذى يصل إليه !! .. وقد تحدى الأربعة الصعاب التى وقفت فى طريقهم ، ولم يفشل إيمانهم عند أول صعوبة ، بل تخطاها . . وقفت أم وابن شرير لها أمام القاضى المسيحى فى تهمة جديدة ، وكان هذا القاضى قد سبق فترفق بالفتى دون جدوى ، وقال القاضى للأم : لن أستطيع أن أعمل شيئاً لهذا الولد ، بعد أن بذلت معه كل جهد ، وليس عندى معونة أستطيع أن أقدمها .. وأنصحك أن تفعلى نظيرى إذ لا فائدة منه . . ولكن الأم رفعت عينيها الباكيتين وقالت : آه يا سيدى القاضى أنا لا ألومك لقد عملت أكثر مما ينتظر إذ كنت أكثر شفقة وعطفاً ، مما آمل ، وأنا لا ألومك لأنك ستنفض يدك من الموضوع ، أما أنا فلا استطيع أن أفعل نظيرك ، إذ لا يمكننى أن اتخلى عن هذا الولد ، لقد أعطيته الحيـــاة . واعتنيت به وربيته ، .. فهو ابنى !! .. كان عندها الإيمان الذى ينتصر على كل الصعاب ، .. وهكذا كان الأربعة ، وهكذا كانت وتكون رسالتنا فى معونة الآخرين !! ..

المفلوج والمعجزة المنشودة :

كان هم المفلوج ومساعدوه الأربعة الخلاص من الفالج ، وكانت تلك غايتهم الأولى والأخيرة ، .. لكن المسيح كان يرى شيئاً آخر أهم من الجسد ، ونعنى به الروح ، .. وهو يعكس بذلك الفرق بين فكره وفكر الانسان .. ان الانسان يهتم دائماً بالجسد ، والمسيح ، وان كان يهتم بالجسد لكنه ، يعنى

بالروح أولا ،.. عندما نذهب إلى بائع الجواهر ، ونطلب أثمن جوهرة عنده فإنه عادة يقدمها كتحفة فنية ، يمكن أن تطفىء الأنوار لتراها تلمع فى الظلام ويضعها فى العادة فى علبة من « القطيفة » الجميلة ، أو المخمل أو ما أشبه،.. ولكن مهما كان جمال العلبة ، لا يمكن أن تكون موضع اهتمامنا أكثر من الجوهرة نفسها ، .. إن مأساة الكثيرين جداً من بنى البشر ، أنهم يفعلون هكذا ، إذ يهتمون بأجسادهم دون أرواحهم ، أو أكثر من أرواحهم !! .. ألا ترى ملايين الناس يرون النعمة العظمى فى حياتهم صحة الجسد ،دون أدنى اهتمام بصحة النفس ، .. ألا تسمع الذين يعبدون الجسد ، وهم لا يذكرون اسم الله إلا إذا خرجوا بعد أكل طعام دسم ينطقون بعده فى خوار الثور : اللهم أدمها صحة . ولا يعرفون شيئاً بعد ذلك عن الله ، .. ألا تراقب الذين يجرون عاماً بعد عام وراء بيوت الأزياء باحثين عن أفخر وأحدث زى يمكن أن يرتدوه ، وهم عراة من الحياة الروحية الصحيحة ! ما أبرع وصف عاموس لهؤلاء المترفين من سيدات ورجال ! : « اسمعى هذا القول يا بقرات باشان التى فى جبل السامرة الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلة لسادتها هات لنشرب » (عا٤ : ١) .. ان هذا الصنف من السيدات لا يمكن أن يراه عاموس إلا بقرات مسمنات وان كنا يضطجعن على أسرة من عاج .. والرجال ماذا قال فى وصفهم : « ويل للمستريحين فى صهيون والمطمئنين فى جبل السامرة .. أنتم الذين تبعدون يوم البلية وتقربون معقد الظلم المضطجعون على أسرة من العاج ، والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم وعجولا من وسط الصيرة ، الهاذرون مع صوت الرباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغنا كداود . الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان ولا يغتمون على انسحاق يوسف » (عا ٦ : ١ — ٦) .. وإذا كان سقراط الوثنى عندما خير بين قتل الجسد أو قتل الروح والمبدأ ،

شرب كأس السم مفضلا أن يموت بجسده ، عن أن يموت بمبدئه وأخلاقه ! .
وقد وصفه شوقى أمير الشعراء بالقول :

سقراط أعطى الكأس وهى منية ... شفتى محب تشتهى التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهى غباوة ... فأبى وآثر أن يموت نبيلا

وإذا كانت الفتاة الشريفة أو الفتى الشريف يفضل أن يموت على أن يلحق به العار ، .. فكم يكون المسيح أكثر اهتماماً وهو يعالج الروح قبل علاج الجسد !! ..

المفلوج والمعجزة المهجورة :

كانت حاجة الشاب الأولى ، عند المسيح ، خلاصه من فالج الروح قبل فالج الجسد ، ولذلك أثار اهتمامه واهتمام الجميع بحاجته إلى الغفران ، وكانت هذه هى معجزته الأعظم والأفضل مع نفس الرجل . ولعله من حقنا أن نسأل عن الأسباب الداعية إلى هذا التفضيل والأولوية ، .. لقد ذكرنا أن الروح ، عند السيد ، أهم كثيراً من الجسد ، بل ذكرنا أنه من الممكن جداً أن يكون المرض قد أصاب المريض بسبب إدمانه الشر وتهالكه على الخطية ، .. وفى قصة « مكبث » المشهورة ، يقول الطبيب الذى أرسل لعلاج ليدى مكبث إنها تحتاج إلى رجل دين لا إلى طبيب . وأطباء النفس يصرحون بأن أغلب الأمراض النفسية لو تعقبناها ، لوضعنا اليد على تلوث أو نقطة شر أو ضعف .. عندما ذهب أليشع إلى أريحا ، وكان هناك نبع ماء ردىء تستقى منه المدينة ، وجاء رجال المدينة يشتكون ، ذهب أليشع إلى النبع الردىء وطرح فيه ملحا ، وأبرأ المياه باسم الرب ، .. ان الله دائماً يذهب إلى الأصل إلى النبع ، ويجعله طاهراً ، .. ثم إن علاج الروح يعطى أعظم سلام وراحة للانسان ، .. كان الداء الوبيل للمريض ، ليس الجسد الذى

يعانى السقم والألم ، بل كان أكثر من ذلك ، كان الصراع النفسى العميق الذى يحتاج إلى الغفران ، .. هل سمعتم عن أورستيس فى خيالات اليونان الذى ارتكب الخطية ، .. وإذا بآلهة الانتقام تطارده فى الأرض كلها دون أن يجد مكاناً ولو صغيراً يمكن أن يهدأ فيه أو يستريح ، .. وقد سجلت أساطيرهم قصة أوديب الملك الذى قتل أباه وهو لا يعلم ، وتزوج أمه وهو لا يدرى ، ولما أدرك بشاعة عمله ، فقأ عينيه ، وخرج هارباً فى الأرض لا يلوى على شىء تحت عذاب الضمير الذى لا يوصف ، .. ويصور لنا أحد كتاب الغرب ، أرثر ديمسدال رجل الدين الذى يرتكب الإثم ، ثم يجلس قاضياً ليحاكم، مع آخرين ، زميلته فى الفجور ، ويحكم عليها بسبع سنوات فى السجن ، ويقضى هذه السنوات دون أن يعرف راحة أو يهدأ له بال ، رغم خدماته التى أفنى نفسه فيها ، حتى يعترف ، وينتظر رحمة الله وغفرانه ! . ثم إن علاج الروح هو العلاج الأبقى ، إذ أن آلام الجسد بالنسبة للمؤمن تنتهى بنهاية حياته الأرضية ، كما حدث مع المسكين لعازر ، .. لكن الغنى دخل أتون النفس فى الهاوية إلى الأبد دون راحة أو قرار ، .. ولهذا اهتم المسيح أولا وقبل كل شىء بعلاج الروح !! ..

المفلوج والمعجزة الأصعب :

إن السؤال الذى طرحه المسيح : « أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك . أم أن يقال قم وأحمل سريرك وأمش » (مر ٢ : ٩) .. إن الغفران فى تقدير المسيح أصعب جداً من شفاء الجسد ، إذ ليس هو كلمة تقال فى يسر وسهولة ، بل هو الحقيقة العظيمة التى تبدو صعبة غاية الصعوبة ، . ولعل مرجع الصعوبة — وهو الخطأ فى حكم الانسان على الخطية أو تصوراته أو مشاعره تجاهها — أن الكثيرين من بنى البشر أنكروا وجود الخطية نفسها إلى درجة أنهم يعللون ممارسة الفحشاء بأنها التصرف الطبيعى للغريزة

الجنسية ، .. وهناك من لم يصل إلى هذا التصور ، والخطية قد تكون عنده هى القتل والنهب والسرقة والفجور ، لكنه لا يستطيع أن يدرك خطايا الفكر والشعور كالكراهية والحقد والحسد ، وليس له فهم عن خطايا الإهمال والترك والسلبيات ، كعدم فعل الواجب والايمان الصحيح !! .. آه لو نعرف تماماً موقف الله من الخطية ، وكيف لا يمكن أن يتهاون أو يهاون الشر إذ هو الله القدوس الطاهر العادل الذى تتنافر طبيعته تنافراً أبدياً مع كل فساد ، .. فى شوارع برايتون رأوا الواعظ الانجليزى فردريك روبرتسُن يسير كالمجنون ووجهه يلمع بالثورة والغضب ، وهو يكاد يطحن أسنانه طحناً ، لأنه سمع عن مؤامرة ضد فتاة بريئة يراد الإيقاع بها ، وهو لا يستطيع تصور ذلك ، .. إذا كان هذا الرجل القديس قد ثارت مشاعره بهذه الصورة ضد الخطية ، فماذا نقول عن قداسة الله الذى السماء ليست بطاهرة أمام عينيه وإلى ملائكته ينسب حماقة !! .. وإذا كانت نواميس الله الكاملة تقف ضد كل محاولة لكسرها ، فإذا وضع أحدهم يده على السلك الكهربائى يصعق فى الحال دون هوادة ، وإذا سقط من فوق جبل تدق عنقه ، .. وذلك لأنه تعدى ناموس الكهرباء أو ناموس الجاذبية !! .. فكم بالأولى نواميس الله الروحية والأدبية ، التى تقضى على من يعتدى عليها ويخالفها !! .. وقد كان من المستحيل على الانسان الذى سقط وانحرف أن يجد نجاة أو حياة من غير صليب المسيح الذى التقت فيه رحمة الله بعدالته ، وتلاثم نعمته مع قداسته ، .. لقد بدأ السيد المسيح من النقطة الصحيحة مع الشاب المشلول ، إذ بدأ بروحه ويبدو أن الشاب كان فى صراع مكبوت يبحث عن السلام لروحه ونفسه ، وأجابه المسيح بسلام الغفران الذى كان يفتقر إليه وينتظره !! ..

المفلوج والمعجزة الأيسر :

كانت معجزة شفاء الجسد برهاناً خارجياً منظوراً يؤكد الحقيقة الداخلية العظيمة ، .. فإذا وجد من بين الحاضرين من تشككك فى قول المسيح ، على أساس أن غفران الخطايا لا يملكه إلا صاحبه الذى هو الله ، .. وأن قول المسيح ليس إلا مجرد أقوال تحتاج إلى إثبات صدقها وصحتها ، .. كان على المسيح أن يعطى هذا البرهان الواضح بالمعجزة الأيسر والأسهل ، ومن ثم قال للمفلوج : «قم احمل سريرك وامش» ، فنهض المحمول فى الحال ليضحى حاملا ، .. « فقام للوقت وحمل السرير وخرج قدام الكل حتى بهت الجميع ومجدوا الله قائلين ما رأينا مثل هذا قط » (مر ٢ : ١٢) .. وهكذا عالج المسيح بنظام ودقة ، مرض الرجل ، وأعطى الأهمية لحاجة الروح قبل حاجة الجسد ، .. وهو دائماً يفعل أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب غناه فى المجد تبارك اسمه القدوس إلى أبد الآبدين آمين ! ! ..

١٠٣
الرجل ذو اليد اليابسة

« وفى سبت آخر دخل المجمع وصار يعلم .
وكان هناك رجل يده اليمنى يابسة » (لو ٦:٦)

كان هناك شاب اسكتلندى جامعى من أبرع من ظهروا فى الرياضة ، والعدو . وكان اسمه « ايرك ليدل » ، وكان عليه أن يشترك فى سباق دولى بباريس ممثلا لبلاده ، .. ولكن هذا الشاب ، وهو متمكن من عقيدته المسيحية ، رفض أن يدخل فى السباق ، لأنه جاء فى يوم الأحد ، وهو يرفض أن يكون هذا اليوم مجالا للعب والرياضة ، حتى ولو كانت أوربا بأكملها لا ترى فى ذلك أدنى غضاضة . ونظر الجميع إلى الشاب باعتباره « شاذاً » وهاجمته جميع الصحف ، بما فى ذلك صحف انجلترا ، .. ولكن حدث لسبب ما ، ولأهمية الشاب فى السباق أن تأخر السباق ليوم آخر ، فدخله الشاب ، وكان تفوقه على الجميع مذهلا ، .. وعادت الصحف التى هاجمته تكيل له المدح ، لأنه أثبت أنه شاب يقدس العقيدة والمبدأ ، وعندما عاد إلى إدنبرة ،

أقاموا حفلاً كبيراً للشاب الذى إلى جانب فوزه المشرف فى الألعاب الرياضية، فاز أيضاً فى احترام المبادىء والمثل الأخلاقية ، والحرص على الموقف السليم من يوم الرب !! ..

تعطينا قصة الرجل ذى اليد اليابسة درساً هاماً فيما يحق أو لا يحق عمله فى السبت ، وكيف ينبغى أن يكون التصرف الصحيح السليم دون تزيد أو نقص يمكن أن يعيب المعنى الذى شاءه الله ، للراحة والخدمة فى هذا اليوم ، ومن ثم يحسن بنا أن نقف للتأمل فى القصة من الجوانب التالية :

الرجل واليد اليمنى اليابسة :

انفرد لوقا دون متى ومرقس بالكشف على أن اليد اليابسة كانت اليمنى ، وهو ما لا ينبغى أن ننسى مغزاه ، إذ أن اليد اليمنى هى التى تمثل كافة أوجه نشاطنا ، وليس هناك ما هو أرهب أو أشنع من أن تيبس هذه اليد وتشل عن كل عمل تقوم به لله ، وللآخرين ، وللنفس ، .. وما أكثر الذين أياديهم يابسة ، فهم لا يرفعون يدهم قط ، تجاه السماء ، وهم لا يمدون أيديهم للدخول فى عهد مع الله ، .. وهم الذين لا يسمحون لله أن يأخذ بأيديهم اليمنى ،.. وهم الذين لايتقدمون بعطاء لمجد الله... وهم الذين يرون جريحاً على الطريق فلا يسرعون إليه ويحملونه إلى أقرب فندق أو لا يمدون إليه يد المساعدة لأن أيديهم يابسة عن المعونة والخدمة ، .. وهم الذين لا يعرفون ما هو صحيح حتى بالنسبة لأنفسهم ،فقد يبست أيديهم عن خدمة أصحابها الخدمة الصحيحة ، فكل ما هو صالح وعادل وكامل ليس فى قدرة أيديهم أن يفعلوه ، .. قد يبس الشيطان والعالم والخطية أيديهم عن فعل الخير وانطلقوا ، على العكس ، فى كل ما هو ضار وشر وفساد !! .. من سنوات حمل بعضهم بعضاً من خلايا النحل من مكانها إلى جزيرة بربادوس ، وهذه الجزيرة

يطول فيها الصيف ، وقد أخذ النحل فى البداءة ينشط ليعد الطعام للشتاء كعادته ، ولكنه لاحظ أن الصيف طويل ، وأن الجزيرة لا تكاد تعرف الشتاء ، فأقلع عن عادته فى الجمع ، وصرف الوقت فى الطير هنا وهناك ولدغ الناس ، وقد علق أحد مشاهير الوعاظ على ذلك بالقول ما أكثر ما نفعل نحن مثل هذا النحل ، إذ نتحول من الإنتاج النافع لتؤذى ونتعب الآخرين ، وما من شك فى أن هذا يعطلنا ويضعف نمو حياتنا ، .. وقد لا يعلم الكثيرون ، ممن يدخلون إلى كنيسة المسيح ، أنهم يعيشون بحياتهم وتصرفاتهم داخل هذه الكنيسة ، باليد اليابسة . .

كانت جريس ونج فتاة مسيحية صينية تطلب العلم فى الولايات المتحدة ، وقد تحدثت ذات مرة إلى زميلة أمريكية فقالت لها : هل تسمحين لى أن أسأل ما الذى يدل على أنك عضو فى كنيسة المسيح !! .. فقالت لها الزميلة : إن عائلتنا على الدوام من أعضاء الكنيسة . فقالت الصينية : ولكنى أريد أن أفهم الفرق بينكم وبين الآخرين !! .. فى الصين توجد فروق تميزنا عن غيرنا من الوثنيين ، فنحن لا نتعاطى الأفيون ، ولا نقامر ، أما أنتم فلا شىء يميزكم البتة عن العالم ، إذ أنكم تشربون وتدخنون وتلعبون الورق مثل أهل العالم تماماً ، ولا أعلم هل لديكم وقت تقرأون فيه الكتاب المقدس ، لقد اشترى أبى عربة من باريس ، وهو يأخذ معه عند ذهابه إلى الكنيسة الكثيرين من الشارع الذى نسكن فيه ، ، أما أنا ضيفتكم — وعندكم سيارة — فقد أخذتمونى بعيداً عن الكنيسة ، وإنى لأسأل بعد ذلك : كيف يمكن أن تكونوا أعضاء فى الكنيسة ؟ ! . نعم هناك للأسف العضو الأشل أو اليد اليمنى اليابسة فى الكنيسة !! ..

تقدم زنجى إلى إحدى الكنائس فى نيويورك يطلب الانضمام للعضوية ، وإذا بأحد أعضاء الكنيسة يقول : إذا قبلتم هذا الزنجى فى الكنيسة فسأخرج

منها وإذ سمعه آخر ، قال : إن لم تقبلوا هذا الأخ فى الكنيسة فإن بعضاً منا سيخرج منها ، لأن الكنيسة التى تؤسس على جنس معين أو طبقة معينة لا تستحق البقاء ، وإذا كان هذا العضو لا يرغب فى البقاء ، فإن الكنيسة لن تخسر شيئاً لأنه فى واقع الحال ، هو خارج الكنيسة بروحه هذه !! ..
كان الرجل ذا اليد اليابسة ، حاضراً العبادة ، فى المجمع ، .. وهو مثل الكثيرين الذين يدخلون إلى بيت الله بيد يابسة ، وللأسف هى اليد اليمنى !! ..

الرجل وشفاء اليد اليابسة :

كان اهتمام المسيح البالغ أن تشفى هذه اليد ، فتعود إليها الحياة والحساسية والحركة والنشاط ، أو بعبارة أخرى تعود إلى حيث وضعها الله ، ووضع رسالتها فى الحياة ، وهذا هو عمل المسيح الدائم فى حياتنا ، إنه يريد أن يعيدنا إلى الوضع الصحيح الذى خلقنا الله عليه ، إذ أن الأصل فينا أننا خلقنا على صورته ومثاله ، .. وأن الحياة الصحيحة أن نعود إلى هذا الوضع الأصيل فى الحياة !! .. كان الصبى الصغير محاطاً بمختلف التجارب والمتاعب ، وإذ أوشكت نفسه أن تنهار أمام قسوتها وعنفها ، ظهر له ملاك فى حلم وأراه عدة صور : الصورة الأولى لمجموعة من الصبيان فى مثل سنه ، يضحكون ويلعبون ، وقد وقف فى وسطهم الصبى يسوع فخلع على مرحهم الجمال والروعة القدسية ، وكان الصبى يسوع يتميز على سائر أقرانه بجمال صحته وهيبة طلعته ، ثم أراه الملاك صورة أخرى ، صورة جمع من التلاميذ عند أقدام أحد المعلمين ، وقد وقف بينهم يسوع وقد بدا عليه الاصغاء والتفكير والتأمل أكثر منهم جميعاً ، وفى صورة أخرى أبصره يعمل فى دكان النجار وقد ارتدى ثياباً بسيطة عادية ، وكانت أفكاره مع ذلك تبدو مرتفعة علوية ، وفى غيرها رآه يتحدث مع أمه أحاديث مفعمة بالولاء والحب ، .. وفى أخرى كان راكعاً بين يدى الآب السماوى يصلى ، وقد بدا عليه التعبد

واليقين والثقة ، .. وما أن أبصر الصبي الصغير هذه الصور حتى انحنى من أعماق قلبه ، يصلى قائلا : ساعدنى لكى تكون لى هذه الصبوة التى كانت لسيدى ، وأعنى لكى أتقدم فى النعمة والحكمة عند الله والناس !! .. إن عمل المسيح فينا هو أن يعيدنا إلى صورته ومثاله ، فنتحرر من كل معوق روحى ومن اليد اليابسة !! .. كان هناك رجل اسمه بيتر بارسونز ، وكان يعمل تحت إمرة رجل واسع السلطة والثراء اسمه باركر ، .. وكان بارسونز مدمناً للخمر ، وقد فشلت كل محاولات باركر فى نصحه للاقلاع عن الخمر ، وأخيراً قرر طرده من العمل ، .. وكانت زوجة بارسونز قد ماتت وخلفت له ابنة اسمها أستر ، وكانت الصغيرة تصارع فى الصلاة من أجل أبيها ، .. وكان لباركر ابنة صغيرة اسمها كلارا ، ما أن سمعت أن أباها قد طرد بارسونز حتى ذهبت إليه . وتوسلت أن يعيده مرة أخرى إلى العمل ، وإذ سألها عن السبب فى ذلك حتى حدثته عن ابنته أستر . وأنها أفضل فتاة فى المدرسة ، وأنها ممتقعة الوجه ونحيلة الجسم وحزينة الروح ، وأنها سمعت أنها عندما مرضت أمها مرضها الأخير كانت تتولى تمريضها والسهر عليها بكل محبة ، وأن كون أبيها سكيراً ، لا تؤاخذ عليه ، ولكن حقيقة كونه مدمناً الخمر كافية لأن تستحق قلبها !! .. فقال باركر : إننا سنعنى بأمرها ، يمكن أن يهلك أبوها نفسه ، ولكن لن يهلكها معه ، وأظن أنها كبرت بحيث يمكن أن تخدم فى أحد البيوت إذا كانت أمك تستطيع أن تجد لها عملا مناسباً فقالت الابنة : ولكنها لن تكون سعيدة يا أبى ، وأن لها أن تسعد وهى تعلم أن أباها ينحدر سريعاً إلى الهلاك . . ليتك تجربه مرة أخرى ، أعطه فرصة واحدة مرة أخرى فلربما حين يعلم أنها فرصته الأخيرة يرجع ويتوب .. ولم تكن كلارا تعلم أنه طوال هذا الوقت كانت استر ابنة الرجل دائمة الصلاة من أجله !! .. وفى نفس الوقت دب شىء جديد فى أعماق بارسونز ، وهو

الإيمان الذى جعله يصارع خطيته المحيطة به ، .. لقد جمع الله هذه الخيوط الرابطة لموضوع الخاطىء التعس ، وأعطاه القوة للانتصار والنجاح ، .. ونحن لن نحاول تصوير الصراع الهائل الذى قام فى نفسه ، أو الصعوبات التى لاقاها من جراء تحكم عادته الشريرة فيه ، لقد جرب مرات كثيرة ، وخارت قواه وكثيراً ما ساقه ذلك إلى اليأس والاستسلام ، ولكن الله أعانه على الانتصار ، وامتلأ بيته من الخير والبركة والسعادة ، .. وفى أصيل أحد الأيام قالت الابنة لأبيها : ألسنا سعيدين الآن يا أبى ، فأجابها وقد أفاق من تفكير عميق إذا كنت أنا سعيداً حقاً أو إذا كنت آمل فى الحصول على السعادة فى العالم الآتى ، فإنى أظن يا عزيزتى أنى مدين بكل ذلك بعد الله لك ، .. لقد كنت مسرعاً فى سيرى إلى الهلاك ، وقد كففت عن كل محاولة للتوقف وإذا بصلواتك ونصائحك والكتاب المقدس الذى وضعته فى متناول يدى ، .. كل ذلك أعانتى على النهوض مرة أخرى !! ..

الرجل والشفاء فى السبت :

انفرد مرقس فى روايته عن الرجل بالقول : « فنظر حوله — أى السيد المسيح — إليهم بغضب حزيناً على غلاظة قلوبهم » (مرقس ٣ : ٥) . وهنا نتبين الخلاف العميق بين السيد والفريسيين حول السبت ، بل هنا نرى حزنه العميق الممتزج بالسخط على القلوب التى تحجرت ، والعيون التى عميت إلى درجة أنها تتلمس المعجزة فى إنقاذ انسان مريض لا لكى تحمد الله على انقاذ البائس من بؤسه ، بل لتجعل من الأمر موضوعاً للشكوى ضد صانع المعجزة ، .. وهكذا لا ينعدم المنطق بين الناس فحسب ، بل ينقلب إلى هذا الحد التعس ليجعل الحلو مراً ، والمرحلواً ، وكما صب إشعياء السخط على الفاعلين هكذا : « ويل للقائلين للشرخيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً الجاعلين المرحلواً والحلو مراً » (أش ٥ : ٢٠) فقد غضب

السيد على الفريسيين الذين كانوا يراقبونه فى المجمع ، وهو يزمع أن يصنع المعجزة مع البائس المريض ، الذى يقول تقليد قديم أنه كان بناء يكسب عيشه ببناء البيوت ، وأنه رجاء المسيح أن يعيد إليه قوة يده ، حتى لا يتعطل عن العمل ويضطر أن يستعطى ، .. وقد اتقد غضب المسيح على الفريسيين الذين حولوا السبت الذى وضع أساساً لخير الانسان وخدمته وراحته إلى قيد مريع وعبء قاس عليه ، فالحنان والحب والرحمة أساس الترتيب الإلهى لوصية السبت ، .. فالجائع مثلا كان من حقه حسب الشريعة : « إذا دخلت زرع صاحبك فاقطف سنابل بيدك ولكن منجلا لا ترفع على زرع صاحبك » (تث ٢٣ : ٢٥) .. ولا يعتبر سارقاً إذا ما أكل دون أن يحمل معه ، .. لكن هذا الأكل إذا حدث يوم السبت فهو شر منكر ، وذلك لزعمهم أن هذا الأكل ، هو عمل غير جائز على الاطلاق ، فقطف السنابل يعتبر عملية حصاد وفركها باليد يعتبر عملية درس ، وفصل القمح من القش يعد عملية تذرية ، .. فإذا حمل أحد كمية من القمح أكثر من وزن تينتين يابستين فقد حمل ما لا يحل حمله فى السبت ، .. والتاريخ اليهودى يؤكد الأضرار القاسية الناتجة عن هذا التفسير الضيق المتزمت ، ويكفى أن أنتيخوس عندما أراد أن يقضى على المكابيين الذين اختاروا الكهوف فى الصحراء ليلوذوا بها ، ولعلمه بأنهم لا يعملون شيئاً فى يوم السبت ، هاجمهم فى ذلك اليوم ، وقد رفضوا هم الرد على الهجوم ، وقالوا لنمت جميعاً فى سبيل البر والسماء والأرض شاهدتان بأننا نموت ظلما ، .. وقد قتلوهم هم ونساءهم وأولادهم ومواشيهم وكانوا ألفاً من الناس ! ! .. وفعل بومبى الشىء ذاته وهو يهاجم أورشليم ، وما أكثر ما حدث من هذا القبيل ، ..

وقد رد المسيح على هذا التفسير الأحمق بالإشارة إلى ما فعله داود عندما أكل خبز التقدمة ، هو والغلمان الذين معه ، والذى لا يحل أكله إلا للكهنة ،

فهو لهرون وبنيه الذين يأكلونه فى مكان مقدس ، لأنه قدس أقداس للرب ، .
ولكن داود بسبب الجوع أخذ منه وأكل ، دون أن يوجه إليه لوم ، .. لأن حاجة الانسان تأتى قبل العادات والممارسات الطقسية ، .. كما أن الكهنة يقومون بأعمال كثيرة فى الهيكل فى يوم السبت ، كايقاد النار ، وذبح الحيوانات ، وما أشبه ، ولا تعتبر هذه الأعمال فى حد ذاتها ممنوعة لأن العبادة ينبغى أن تستمر فى يوم السبت ، .. وقد اقتبس المسيح قول الله فى هوشع : « إنى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » (هو٦ : ٦) وهو يكشف بذلك أن الله من القديم لم يضع الانسان أسير الطقوس والفرائض بل قصد أن يمتعه بالرحمة أولا وقبل كل شىء ، .. ولا شبهة فى أن السيد وهو رب السبت خير مفسر لما ينبغى أن يعمل فى السبت ، وقد قدم ثلاثة أمور أساسية تعتبر لباب الحياة والتصرف السليم فى السبت ، وأولها العبادة ، وكان من عادة المسيح الثابتة العبادة فى يوم السبت : « ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت » (لو٤ : ١٦) .. وها نحن نراه هنا وقد جاء إلى المجمع ليصنع المعجزة فيه ، .. وبيت الله هو المقصد الأهم الذى ينبغى أن يتجه إليه أبناء الله فى يوم الرب ، إذ أن هذا اليوم هو لراحتهم الجسدية ، والعقلية ، والروحية على حد سواء ، .. وإن الظن بأنه يمكن أن يكون راحة للجسد ، دون العقل أو الروح إنما هو الحماقة بعينها ، .. كما أن أعمال الضرورة واجبة فيه ، .. والضرورة لا يجوز التوسع فى فهمها حتى يصبح كل شىء مباحاً ، كمثل من أراد أن يجعل من الحجة القائلة : « أى انسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه » (مت١٢ : ١١) ذريعة للقول : « وهب أن هذا حدث كل سبت فماذا يكون الحل !! ؟ .. » وكان الجواب ان الاستثناء لا يقاس عليه ، والضرورة لا يستباح معها كل تصرف !! .. فإذا حدث أن الخروف يسقط كل سبت فى الحفرة ، فإن الحل الصحيح هو بيع الخروف ، أو ردم الحفرة !! ..

على أى حال فإن المسيح رأى فى السبت فرصة جليلة لعمل الخير أيضاً فلكى يعود الرجل انساناً صحيحاً يستطيع أن يمارس بيده اليمنى كل الأعمال الطيبة والخيرة ، .. مد له المسيح اليد ، وهو على الدوام يفعل الخير ، ويشجع أيادينا اليمنى على فعله ، .. فإذا كان فعل الخير ضرورة يلزم فعلها على الدوام ، فإنه على وجه الخصوص أكثر أهمية وضرورة فى يوم العبـــادة والضرورة والرحمة ، على حد سواء !! ..

١٠٤
مجنون كورة الجدريين

« وسأله ما اسمك . فأجاب قائلا : اسمى لجئون لأننا كثيرون » (مر ٥ : ٨ ، ٩)

كتبت الروائية المشهورة مارى كوريللى كتاباً عنوانه « أحزان الشيطان». وفيه تصور الشيطان ، وقد ظهر فى صورة انسان مهذب ، أنيق المنظر ، يلبس أحسن الثياب ، ويتكلم بثقافة عالية ، وهو نائب يخرج من مجلس العموم البريطانى ، .. والمعنى لا يخفى على أحد ، ، .. إذ ترينا الانسان ، وقد دخله الشيطان ، واستولى عليه استيلاء كاملا ، وقد قال السيد المسيح لليهود الذين كانوا يحاورونه : « أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا » (يو ٨ : ٤٤) .. وأطلق على الشيطان « رئيس هذا العالم » (يو ١٢ : ٣١) ووصفه الرسول بولس : « بليعال » (٢ كو ٦ : ١٥) « رئيس سلطان الهواء » (أف ٢ : ٢) « إله هذا العالم » (١ كو ٤ : ٤) « الحية » (٢ كو ١١ : ٣) .. وقال عنه الرسول بطرس « أسد زائر » (١ بط ٥ : ٨)

ونعته الرسول يوحنا : « الذى من البدء يخطىء » (١ يو٣ : ٨) « الحية القديمة » « التنين العظيم » « ملاك الهاوية » والذى يقال له بالعبرانية « أبدون » أى ملاك الهلاك (رو١٢ : ٩ ، رو ٩ : ١١) .. وهو نفس التعبير « أبوليون » باليونانية !!.. ومجنون كورة الجدريين يعتبر أدق مثال لسيطرة الشيطان على الانسان فى الأرض، إذ أن فرقة بأكلها من الشياطين عسكرت فيه ، فأضحى الانسان البشرى « معسكر شياطين » ولعلنا نستطيع أن نراه بعد ذلك فيما يلى :

المجنون والحلول الشيطانى :

لا يستطيع الانسان أن يقرأ بعمق كلمة الله ، دون أن يؤمن بأن هنـــاك ما هو خارج عن الانسان أصلا ، ولكنه يدخل فيه ، ويفعل تأثيره الرهيب ، . ونحن أمام مجنون ، تحول معسكراً بأكمله ، . إذ أن الكلمة «لجئون » معناها « فرقة عسكرية » ، تقدر بستة آلاف جندى ، وهنا ينكشف لنا عالم غريب مجهول ، مهما تصورنا لا نستطيع إدراكه ، أو مدى ما يفعل ، .. وقد حاول الكثيرون تفسير موضوع الشياطين تفسيراً بعيداً عن الواقع والحق ، .. فقال اليونانيون القدامى ، إنهم أرواح الموتى وبعضهم أشرار أى شياطين ، والبعض الآخر أبرار ، .. ومن ثم نشأت عندهم عبادة الأرواح ، ورأى غيرهم أن الشياطين هم سلالة التزاوج بين أبناء الله الذين كانوا فى عرف الآخذين بهذا الرأى الملائكة الساقطين — وبين بنات الناس ، .. وقال فريق ثالث انها الأرواح الشريرة التى تملأ الهواء ، وان كان انسان مطوق بعشرة آلاف روح شريرة عن يمينه ، وعشرة آلاف عن يساره ، .. وان هـــذه الأرواح تسكن الأماكن النجسة والقبور والبرارى وأنها خطرة على من يسافر وحده ،.. وعلى النساء عند ولادة الأطفال ، وعلى المتزوجين حديثاً ، وعلى الأطفال إذا خرجوا بعد حلول الظلام ، .. وقد اعتقد بعض الناس

أن كل الأمراض سببها الشياطين ، سواء فى ذلك الأمراض العقلية كالجنون ، والعصبية كالصرع ، والجسدية أيضاً ، .. وقال المصريون القدامى إن هناك ستة وثلاثين مكاناً فى الجسم يمكن أن تسكنها الشياطين ! ! .. ولم يقبل آخرون هذه الأفكار ، .. وقالوا إن العهد الجديد ساير الناس فى معتقداتهم الخرافية ، وكان من المستحيل شفاؤهم بدون هذه المسايرة ، .. لكننا نعتقد أن هذه كلها خيالات غير صحيحة على الإطلاق ، .. وأن المسيح بصدقه وحقه ومعجزاته ، كشف عن الحلول الشيطانى ، .. وأن الشياطين هم جنود إبليس الساقط من حضرة الله ، .. وقد سأل كامبل مورجان هذا السؤال : ولكن لماذا ظهرت الشياطين أيام المسيح بهذه الكثرة ؟ .. وهل لا توجد شياطين تسكن أجساد الناس فى هذه الأيام ؟ وخرج الدارس المتعمق فى كلمة الله ، .. بأنه لا يستطيع انسان أن يقطع بالجواب ، وهو لا يستبعد أن تكون الشياطين قائمة إلى الآن ، ويعلل عدم ظهورها بالكثرة كما فى أيام المسيح ، لخبثها وشرها ، بقيادة إبليس ، فهى تختفى أكثر مما تظهر حتى تقنع الناس بعدم وجودها ، ومع ذلك فهى تعمل إلى اليوم ، — والرأى الواضح على أى حال أمامنا — .. هو أنه توجد فترات فى التاريخ يسمح الله فيها للشيطان بأن يظهر عمله وسلطانه وأثره ، .. لكى تظهر فى مواجهته قوة الله الأقوى والأفعل والأعظم فإذا ظهر موسى فى وسط العرافين وظهرت سلطة الشياطين فى بشاعتها ، فإنما لتظهر قوة الله ونعمته وسلطانه فى السيطرة عليها ، .. وإذا جاء المسيح لينقض أعمال إبليس ، فإنما تظهر الشياطين بسلطتها الجبارة ، لكى ينتصر عليها السيد بسلطة أقوى وأعظم وأكمل ! ! ..

كان اكتشاف علم الطب الأكبر فى العصور الحديثة هو اكتشاف الميكروب ، والميكروب كما هو معروف كائنات غاية فى الدقة ومتناهية فى الصغر ،

بحيث أن قطرة واحدة من الماء قد تحتوى على ملايين منها ، . . . ولكن الميكروب الخفى غير المنظور هو الذى يتحكم فى الحياة أو الموت ، . . ولا يوجد طبيب يتجاهل هذه الميكروبات ، وإذا تجاهلها يعتبر أحمق ، ولا يصلح قط أن يكون طبيباً ، فإذا صح أن يقال هذا عن الأمراض الجسدية ، . . فإنه أصح بالنسبة للأمراض الروحية ، . . ولا يمكن أن نفهم حياة الإنسان أو موته ، دون أن نرى خلفها الشيطان من كل وجه وجانب ، .. أليس هو الذى تعقب الإنسان فى جنة عدن حتى طرد منها ، وحل الخراب بالجنس البشرى ، أليس هو الذى ظهر خلف مأساة أيوب ، وجاء إلى داود ليسقطه السقطة الشنيعة ؟ ! ! . . أليس هو الذى نراه واقفاً عن يمين يهوشع الكاهن العظيم ليقاومه ؟ أليس هو الذى دخل فى يهوذا فسلم سيده ؟ . . وأليس هو الذى حاول أن يغربل التلاميذ ، كغربلة الحنطة ليسقطهم ! ! ؟ . . ومن اللازم أن ندرك أكثر أنه يختلف فى العدد من إنسان إلى إنسان . فمرة هو واحد فى مجنون ، ومرة هو أكثر من واحد ، فهو سبعة فى المجدلية ، وهو فرقة بأكملها فى مجنون كورة الجدريين . . ومهما حاولت أن ترد الكثير من الأعمال فى حياة البشر ، إلى أسباب مختلفة ، فإنه توجد حالات ، لا يمكن أن تجد لها تفسيراً إلا إذا آمنت بوجود الشياطين ، . . والرسول بولس يكشف لنا فى قوله : « فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات » (أف ٦ : ١٢) عما ينطبق على حالة مجنون كورة الجدريين ، فإذا رابطت فرقة بأكملها فى إنسان بائس ، . . فنحن أمام فرقة تحكمها قواعد الجيوش المنظمة من رتب متدرجة يخضعها إبليس جميعاً تحت سلطته ، وكما أن هناك جيوشاً ملائكية من الخاضعين لأمر الله ، وسلطانه ، . . فإن هناك جيوشاً أخرى تخضع لسلطان إبليس وتحت إمرته

وسفر الرؤيا يكشف لنا عن الصراع الرهيب بين جيوش الخير ، و جيوش الشر ! . . وقصارى الأمران الحلول الشيطانى هو حقيقة من أدق الحقائق وأصدقها ، وأنه من المثير أن الشيطان نفسه يحاول انتزاعها من الفكر البشرى ليعمل عمله الرهيب فى دهاء وخبث وغدر وبشاعة ، وهو عند ملايين البشر يحاول أن يقنعهم باسم التحليل العلمى أو النفسى أو ما أشبه بأنه لا يوجد شىء اسمه الشيطان ، وهذه المحاولة فى حد ذاتها ليست إلا الحيلة الرهيبة الشيطانية الجنمية ! ! . .

المجنون والآثار الشيطانية :

وما أكثر ما ظهر من أثار فى حياة هذا المجنون ، . . ولعل أولها هو انفصام الشخصية أو ازدواجها كما يقولون ، . . يقول الدكتور فؤاد الأهوانى : « الأصل أن تكون الشخصية موحدة ثابتة لا يتغير صاحبها فى سلوكه فى الظروف المختلفة من الحياة ، ولكن قد تنحل الشخصية وتتعدد وتذهب وحدتها المميزة لها ، فيصبح الإنسان ذا شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف ، ويعد هذا مرضاً من أمراض الشخصية إذ ينسى فى حالة كل ما يعرفه عن شخصيته فى حالة أخرى ، وقد ينسى اسمه وأسرته وأصدقاءه وعمله ويتخذ اسماً جديداً وأصدقاء مختلفين وعملا يغاير عمله الأول . ثم يعود بعد فترة طويلة أو قصيرة إلى شخصيته الأولى دون أن يذكر شيئاً عن شخصيته الثانية ، ويبدو لنا كأن هناك نفسين تحلان فى جسد واحد على التتابع . والشخصية الثانوية لا تختفى أصلا ثم تعود بل تنحدر إلى اللاشعور وتظل كامنة هناك حتى تجد الفرصة الملائمة للظهور . وقد استطاع بعض العلماء بواسطة التنويم المغناطيسى أن ينقلوا المريض من إحدى الشخصيتين إلى الأخرى . . وفى هذا دليل على وجود الشخصية الأخرى فى اللاشعور وقصة الدكتور جيكل ومستر هايد توضح لنا الرجل ذا الشخصيتين وفى كثير

من القصص نجد مثل ذلك » .. وقد لا يعرف الكثيرون من رجال النفس أن روبرت لويس استفنسون عندما كتب قصة دكتور جيكل ومستر هايد كان يستوحيها من الاصحاح السابع من رسالة رومية . .

هذا المجنون كانت به الشخصيتان ، فهو عند ما رأى المسيح ركض وسجد له ، . . ومع ذلك عندما سأله المسيح عن اسمه ، بدأ الرجل يتكلم بلغة المفرد « اسمى» وتحول إلى لغة الجمع « لجئون لأننا كثيرون » . . ومن العجيب أن هذا الازدواج فى الشخصية هو الظاهرة الرهيبة فى ملايين الناس على الأرض ، . . فهيرودس قاتل المعمدان : « كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه . وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور » (مر ٦ : ٢٠) ومع ذلك : « فللوقت أرسل الملك سيافاً وأمر أن يؤتى برأسه » (مر ٦ : ٢٧)..

على أن الأمر أكثر من الازدواج أو الانفصام فى الشخصية ، إذ هو الشذوذ ، لقد ترك المجنون المدن العامرة ليسكن فى القبور ، الحياة عنده موت ، والموت عنده حياة . . . وهو فى الحقيقة يمثل الجنس البشرى كله ، عندما انقلبت أوضاعه ، واختار الموت على الحياة ، .. ومهمة الرسالة المسيحية أن تعيد وضعه المقلوب . . . فالناس لا تسير على أقدامها فى الأرض ، بل تسير على رؤوسها كما يسير البهلوان ، وأقدامها إلى أعلى ! ! . . سأل أحدهم صاحبه : هل تستطيع أن تخبرنى عن عدد المجانين فى العالم ؟ وأجابه الآخر : أستطيع أن أخبرك عن عدد العقلاء ، أما المجانين فلا أستطيع عدهم ، لأنهم أغلبية العالم . . . وقف عاقل ومجنون يرقبان جيشاً عظيما يسير فى طريقه إلى القتال ، وقال المجنون للعاقل : من أين جاء هؤلاء ! ! ؟ . . فأجاب : من أرض السلام ! ! ؟ . . وإلى أين يذهبون ! ! ؟ . . إلى الحرب ! ! . . وماذا يفعلون هناك ! ! ؟ . يقتلون بعضهم بعضاً ! ! ؟ . . ولماذا يفعلون هذا ! ! ؟ ليحافظوا على السلام ! ! . . وقال المجنون : قد أكون مجنوناً حقاً ، ولكنى

لا أستطيع أن أفهم هذا الذى يفعله العقلاء ! ! . . كتب واعظ إنجليزى اسمه مارك جى بيرس قصة أسماها « لغز يوبيك » أو « لغز كل مكان » وفيه يتصور سائحاً يدخل مدينة غريبة اسمها « يوبيك » ، وقد تعجب لأن جميع سكانها حفاة الأقدام ، . . ولم يكن هذا بسبب فقرهم ، إذ أنهم يلبسون أفخر الثياب ، وتبدو عليهم مظاهر الرفاهية والثروة ، ومع ذلك يسيرون حفاة فى الصقيع القاسى ، وفى الطرق الصعبة ! ! . . وقد ازداد عجبه لأنه رأى بنايات كبيرة ، كتب عليها « مصانع الأحذية » وإذ ولج واحداً من هذه المصانع رأى جمعاً من العرج والجرحى ، وواحداً يلقى محاضرة : « هل يوجد شىء اسمه قدم » . . وقد أدرك أن ما تصوره أولا مصانع للأحذية لم تكن إلا أماكن لإلقاء المحاضرات عن الأقدام والأحذية ، ورأى عناوين عجيبة : « ظاهر القدم قصيدة شعر » « المخالب قديماً وحديثاً » « فلسفة الكعوب » . . « المظهر الفائق لأصابع القدم » . . وكانت هذه المواضيع التى تناقش فى المكان بجدية وحماس ! ! . . وخرج من المكان ليرى على بعد رجلا يصنع أحذية ، . . فأسرع إلى أهل المدينة يخبرهم ، . . ولم يهتم الناس بما يقول ، بل عدوه تدخلا فيما لا يعنيه ، وخروجاً على القواعد اللائقة ، ولغوا لا يجوز الإنصات إليه ، . . وربما يبدو هذا الكلام عجيباً وغريباً لكنه هو حقيقة الإنسان فى كل مكان وزمان ، . . الإنسان الذى رفض الله ، وغبى عن صخرة خلاصه ، وانطلق وراء كل إفك وبطل وفساد ، وعاش فلسفة كاذبة فى الحياة ، وهو يرفض الحكمة الإلهية ، . . وانطلق وراءشهواته ونزواته ، وهو يعلم أنها تقوده إلى الضياع ! ! . . إنه مجنون وشاذ يرفض الحياة فى البيت ، ويعيش مع الموتى فى القبور ! ! . . وهو المجنون النجس ، لأن الحياة التى تمس العظام نجسة ، . . وحياة المجنون كلها نجاسة فى نجاسة ،.. والشىء المثير أنه فى هذه النجاسة كثيراً ما يطلق

على نفسه أو يطلق الناس عليه ألقاب الفضيلة والشرف والسمو والأخلاق ، وهي أبعد عنه بعد السماء عن الأرض ، » . عندما أدرك يوحنا نيوتن حياته على حقيقتها بعد التجديد ، لم يتردد أن يصف حياته الأولى ، بأنها حياة الحيوان والقذارة ، . . بل مرات كثيرة ما يعف الحيوان عما يفعله البشر ، . . والمجنون إلى جانب هذا كله موذ لنفسه ، إذ يجرح نفسه ، وما أقسى جراح الخطية ! ! . . أليس من الجنون أن نسمع صيحة الإنسان عما يطلق عليه : « شر لابد منه » . . فهو يعلم أن التدخين يقتله ويجلب له السرطان ، ومع ذلك يدخن ، . . وهو يعلم أن الشهوات العارمة تعصف عمره ، ومع ذلك فهو يندفع إليها بكل ما يملك من عنف وقوة دون تردد .

قال روبرت بارنز الذى هز مشاعر اسكتلندا : لو أنى دخلت إلى غرفة ووجدت برميلامن الويسكي فى ركن منها . وفى الركن الآخر مدفع على استعداد أن ينطلق لمن يدنو من البرميل ، لشربت منه وأنا أعلم أنى سأموت موتاً ! ! . . ونفس الشيء كان مع ادجار إلن بو أعظم كاتب للقصة القصيرة فى أمريكا والذى كان عبداً للمسكر والخمر ، . . لورد كليف فاتح الهند ، والذى أرسل إليه أبوه برقية تقول : إن انجلترا بأكملها اهتزت بالفرح لأخبار نجاحك . . أسرع إلى الوطن ، . . فأسرع ، وقرر البرلمان الانجليزى أن يعطيه مليوناً من الجنيهات ، ولكنه لم يستلمه ، بل ترك رصاصة تخترق رأسه إذ مات منتحراً ، . . والمجنون لا يؤذى نفسه بل يؤذى الآخرين أيضاً ، إذ كان مجنون الجدريين يقطع الطريق على العابرين فى المكان ، . . إن طريق الشيطان دائماً مليئة بالضحايا والخراب ! ! . .

اهتز إيمان أحد المحامين بسبب وفاة زوجته الجميلة فى أثناء الوضع ، وكان كثيراً ما يسأل بحنق : « بأى حق يسلبنى الله زوجتى » ، وشيئاً فشيئاً أنكر الإيمان ، وكم حدثت مناقشات حادة بينه وبين الآخرين بهذا الخصوص ،

وكان يقول للكثيرين وهم يتحدثون عن الخلود ، . . إنك إذا مت مت كمسمار الباب ! ! . . أما ابنه الذى وضعته زوجته قبل موتها بقليل فقد تربى فى رعاية مربيه ، ومع أنه لم تكن له فرص كثيرة يرى فيها والده ، إلا أنه سمع مرات كثيرة مناقشاته الحادة ! ! . . وقد طلبت المربية يوماً أن ترى المحامى ، ولما قابلته قالت له : لقد بدأ الولد يحلف ويشتم . . ويلزم أن تكلمه فى ذلك . . وطلب منها المحامى أن ترسله ، فلما جاء الغلام إليه ، رأى فيه صورة زوجته العزيزة فرق قلبه . ولكن كلمه بخشونة عن غلطته وأمره بالذهاب . . . على أن المربية جاءت إلى المحامى مرة أخرى تحدثه عن عادات الغلام الردية ، وأخيراً فكر الرجل فى طريقة يؤثر بها على ابنه فقال له : يا ابنى لو كانت أمك تعيش لما قبلت أن تسمعك تتحدث كما تتحدث الآن ! ! . . وأجاب الولد بتهكم : لكن أمى ليست عائشة هى ميتة كمسمار الباب ! ! . . وقد صدمت هذه الكلمة قلب الرجل الحزين ، وتأثر ، ووثب على قدميه وصرخ : « هى ليست ميتة . . اسمع يا ابنى أمك حية ، . . وهى تسمع كل كلمة تقولها ! ! . . وصمت المحامى قليلا ثم قال : لقد كنت شريراً أحمق . . وكثيراً ما تكلمت غير الحق ! ! . . لنبدأ من الآن أن يرى كل منا الآخر أكثر مما رأينا قبلا حتى يمكن أن نعيش بكيفية لائقة مجيدة ! ! . . وعاد الرجل عن حماقته التى أوشكت أن تؤذيه هو فقط ، بل أن تؤذى ابنه أيضاً ! ! . .

المجنون والقيود المحطمة :

قبل أن ينقذ المسيح المجنون حاول البشر ربطه وتقييده ولكن هيهات : « ولم يقدر أحد أن يربطه ولا بسلاسل . لأنه قد ربط كثيراً بقيود وسلاسل فقطع السلاسل وكسر القيود . فلم يقدر أحد أن يذلله » (مر ٥ : ٤) . . وهى صورة لما يحاوله الإنسان فى الأرض ، فى تقييد جنون الناس وخطاياهم

وشرهم وتعدياتهم ! ! . . فهناك قيود القانون ، . . ولكن هل استطاع القانون أن يقضى على الجريمة فى الأرض ! ! ؟ . . وهل منع القانون الفساد بين الناس . . ! ! ؟ إن الواقع الثابت أنه مهما تعددت القوانين الجنائية والتجارية والمدنية والدولية والشخصية فهى جميعاً عاجزة سواء من ناحية الوقاية أو من ناحية العلاج ! ! . . ومسارح التاريخ خير شاهد على ذلك ، . . ونظريات العود إلى الجريمة ، أو الإدمان عليها أو صحائف السوابق ، كلها تثبت أن القانون يكشف عن الجريمة ، كالناموس ، ولكنه لا يملك أن يجعل الناس ينتصرون عليها ، . . وهناك قيود التهذيب وما يقوم به الناس من حملات بكافة وسائل الأعلام ليعلنوا للناس الأضرار والأخطار التى قد تصيبهم إذا مارسوا فعلامعيناً . بل إنهم يستخدمون تدريبات معينة رياضية أو علمية ، لعلهم ينتصرون على المآخذ أو العادات السيئة الشريرة ، . . وقد تنجح هذه كربط وقيود إلى حين ، ولكنها لا تلبث أن تحطم وتنقض ، كما يروض الحيوان ولكنه يعود إلى الافتراس بعد فترة تقصر أو تطول ، بدافع الغرائز الكامنة فيه ، . .

وهناك قيود العقوبات البدنية والمادية والمعنوية والأدبية ، . . ولكنها تنتهى دائماً بالإنسان إلى الصرخة القديمة : « فإننا نعلم أن الناموس روحى وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطية لأنى لست أعرف ما أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل . فإن كنت أفعل ما لست أريده فإنى أصادق الناموس أنه حسن . فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فى . فإنى أعلم أنه ليس ساكن فى أى فى جسدى شىء صالح . لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد . لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل . فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل فلست بعد أفعله أنا بل الخطية الساكنة فى . إذاً أجد الناموس

لى حينما أريد أن أفعل الحسنى أن الشر حاضر عندى . فإنى أسر بناموس الله بحسب الانسان الباطن . ولكنى أرى ناموساً آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى . ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت . أشكر الله بيسوع المسيح ربنا . إذاً أنا نفسى بذهنى أخدم ناموس الله ولكن بالجسد ناموس الخطية » (رو٧ : ١٤ — ٢٥) . .

المجنون والمخلص العظيم :

ولا يمكن لإنسان أن يقرأ القصة دون أن يرى نهاية الشيطان على يد المخلص العظيم ، . . والقصة ذاتها تعطينا الصورة لفزع الشيطان من المسيح ، وعلمه بأن مصيره الأبدى محتوم ومؤكد ، والأمر أولا وأخيراً مرتبط بالزمن المحدد ، . . أو كما يقول متى : « مالنا ولك يايسوع ابن الله أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا » (مت ٨ : ٢٩) . . على أى حال فإن قصة خلاص الرجل من الشيطان تعلن أولا وقبل كل شىء عن حب المسيح للبائس المعذب ، . . إن نفس هذا المجنون عزيزة على السيد ، وهى عنده أهم من ألفى خنزير ، دخلت فيها الأرواح النجسة ، واندفعت من على الجرف إلى البحر لتختنق فى المياه ، . . .

وهنا نرى المفارقة العجيبة ، فإن أصحاب هذه الخنازير رفضوا المسيح ، لأن الخنازير عندهم أهم من المجنون ، والعكس صحيح عند السيد المبارك ، . كانت كورة الجدريين شرقى الأردن ، وكان أغلب سكانها من اليونانيين الذين يتاجرون فى الخنازير ويتكسبون منها ، ولا نعلم بالتأكيد هل كان أصحاب الخنازير كلهم من اليونانيين أو أنهم كانوا خليطاً من اليونانيين اليهود ، . . لكن التجارة على أى حال كانت تجارة محرمة ، ومهما كان

الأمر ، فإن المسيح تصرف على أساس أن أصحابها ، وهم يعلمون أنها محرمة عند اليهود ، كانوا لا يبالون بالتحريم ، ويحللونه من أجل المكسب ، . . ومن هنا أصاب المسيح هدفين بضربة واحدة ، . . أنقذ إنساناً مستعبداً ودان تجارة محرمة ، . . وهو يريد أن يكشف على الدوام أن حبه نقى ومقدس وطاهر ، . . ومن المؤسف أن القصة كشفت عن نوعين من الجنون ، شفى المسيح الأول ، . . ورفض المجانين الشفاء فى الثانى ، . . وفى الواقع أنه إذا كان لجئون قد أغرق الخنازير وماتت فى البحر ، . . إلا أنه تحول إلى أصحاب الخنازير الذين رفضوا يسوع فى حرصهم الشديد على شرهم وتجارتهم الآثمة ! ! .

وهذه القصة تتكرر فى كل جيل وعصر ، حيث يحتفظ الناس بخنازيرهم دون يسوع المسيح ، .. وهم فى سبيل هذه الخنازير تسقط عواطفهم تجاه آدمية الإنسان وسلامته وحياته ونجاته ! ! . . على أن القصة تكشف أكثر من ذلك عن سلطان المسيح على الشيطان ، فمهما كانت قوة الشيطان ، فإنه يفزع دائماً من المسيح ، .. وأنه يعرف سلطان المسيح عليه ، وأنه يسجد لهذا السلطان وهو يدرك تماماً أن يومه آت ، وإذا كان له من انتظار ، فهو ألا يعذبه المسيح قبل الوقت المعين لعذابه ، . . ومهما كان من سيطرة الشيطان وسطوته ، حتى إنه جعل من إنسان بائس معسكراً له ، إلا أن قوة المسيح أعلى وأعظم ، . . وهو بالكلمة الآمرة ، يغير كل شىء فى لحظة ، . . وها نحن نرى الرجل « جالساً ولابساً وعاقلا » . . وهل نرى فى هذه ثلاثية الكيان البشرى ، فالجلوس يكشف عن الإرادة التى لم تعد معذبة ، بل نالت راحتها الكاملة ، والمسيح حقاً مريح التعابى وفادى الخطاة ، وهو الصادق فى قوله : « تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم » (مت ١١ : ٢٨) . . واللبس يكشف عن الناحية العاطفية التى تخلصت من عريها وفضيحتها ، فنى المسيح تتحول عاطفتنا إلى العاطفة الصحيحة المحتشمة

الكريمة ،.. والمسيح على الدوام يعطينا أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً وطول أناة ! !.. وهو يجملنا بالأخلاق المسيحية الكريمة السمحة ،.. وهو إلى جانب هذا كله يردنا عن الجنون إلى العقل السليم ،.. وكل إنسان بعيد عن المسيح هو مجنون إلى أن يجلس عند قدميه وقد امتلأ بجلال التعقل ، وروعة المنطق الصحيح ! !.. وعندما وصل الرجل إلى هذا الوضع ، تحول شاكراً وشاهداً لنعمة يسوع المسيح المباركة .. لقد طلب أن يبقى مع السيد لكن السيد كشف له عن مجال عمله وميدانه : « اذهب إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك . فمضى وابتدأ ينادى فى العشر المدن كم صنع به يسوع . فتعجب الجميع » (مر ٥ : ١٩و٢٠) . وشتان بين الرجل أولا وأخيراً ، وبين ما كان عليه ، وما أصبح إليه ، وهى رحمة الله التى تفعل هذا ، وهى الأعجوبة التى يراها ويلمسها الجميع ، وتستدعى كل شكر وحمد ، بل تنتصب شهادة داخل البيت وخارجه بل فى كل مكان يمكن أن تصل إليه أقدامنا وأصواتنا ! !.. إن السؤال القائم هو : هل بلغتك هذه الرحمة ،.. وهل تحولت منها إلى الشهادة الشاكرة بكم صنع الرب بك ورحمك ! !..

١٠٥
الاصم الأعقد

« ورفع نظره نحو السـماء وأن وقال له افثا . أى انفتح . وللوقت انفتحت أذناه وانحل رباط لسانه وتكلم مستقيما »
(مر ٧ : ٣٤ ، ٣٥)

لا أعرف أن هناك مثيلا لهذه القصة فى الكتاب المقدس كله ، ويكفى أن تعرفوا الفارق بينها وبين غيرها من قصص الشفاء ، . . فقد كانت عادة المسيح أن يشفى الإنسان فى الغالب وسط الجماهير أو على مقربة منها ، . . ولكن المسيح وجد هذا الإنسان بين الجماهير ، فأخذه بعيداً عنها وهناك صنع المعجزة ، . . وكان الرجل بطبيعته أصم أعقد ، أى لا يسمع ولا يتكلم ولم يستعمل المسيح معه سوى كلمة صغيرة أخيرة ، . . ولكن الجزء الغالب والأكبر كان بغير كلام ، إذ كان بالحركة واللمس ، إذ رفع السيد نظره نحو السماء ، وما من شك فى أن الرجل الآخر رفع نظره أيضاً ، ولمس المسيح الرجل فى أذنيه وفى لسانه ، إذ كان يريد أن يرفع قلبه وإيمانه نحو السماء ، قبل أن يتكلم كلمة واحدة ، وقد فعل ، وبعد ذلك جاء الكلام . . قصة

غريبة نادرة ، ولكن السيد يستطيع أن يتعامل مع كل واحد منا ، حتى ولو من غير كلام ، ويستطيع أن يوجه أفكارنا فى صمت ، .. من الواضح أن هذه القصة تكشف لنا العناصر الضرورية للشفاء الروحى والجسدى ولذا يحسن أن نراها فيما يلى :

الشفاء والعزلة :

تقول القصة الكتابية : « وجاءوا إليه بأصم أعقد وطلبوا إليه أن يضع يده عليه فأخذه من بين الجمع على ناحية » (مر ٨ : ٣٢ و٣٣) .. وهو عين ما فعله مع الأعمى الذى أخرجه إلى خارج القرية ، كما جاء فى الأصحاح الثامن من مرقس ، .. ولعل السؤال الآن هو لماذا فعل المسيح هكذا ! ! ؟ . . نحن لا ندرك تماماً ما المقصود من ذلك ، ولكننا نلاحظ أن العزلة فى حد ذاتها مرات كثيرة ما تكون الخطوة الصحيحة نحو الشفاء ، . . وفى كثير من الأمراض يبدأون أولا بعزل المريض خشية العدوى أو ضعف المقاومة ، ومهما يكن من الأمر فليس أجمل من أن يقال عن المسيح إنه « أخذه من بين الجمع على ناحية » . . وقد تبدو هذه الكلمة سريعة وبسيطة ، لكنها فى الواقع عميقة وخصبة ! ! .. والمسيح يفعلها بأساليب مختلفة فى الحياة ، فقد يفعل هذا معنا عن طريق « الذكريات الحلوة » عندما بدأ روبرت موفات حياته كشاب بدأها بحاراً ، ونحن نعلم أن حياة البحار يمكن أن توصف بأى شىء خلا أنها متدينة ، .. ولكن روبرت موفات ، وهو يركب المركب لأول مرة ، . . انتحت به أمه ناحية قبل أن يصعد إلى ظهر المركب وقالت له : « الآن يا روبرت دعنا نقف وحدنا بضع دقائق ، فإنى أريد أن أطلب منك معروفاً ، قبل أن نفترق ! ! ؟ . . ما هو يا أمى ! ! ؟ . . أريد أن تعدنى أولا بأنك ستفعل ما سأطلبه منك ! ! . ؟ . . لا أقدر أن أعد يا أمى قبل أن

أعرف طلبك ! ! . . وهل تفتكر يا روبرت أنني أطلب أمراً فى غير محله.. وليس فيه خير ! ! . . ألست أحبك ! ! ؟ . . إنى أعرف ذلك يا أمى ، ولكنى لا أحب أن أعد إلا وأنا قادر على إنجاز الوعد . . ويقول روبرت موفات : « وخفضت عينى إلى الأرض وأنا صامت محاولا أن أقاوم عواطفى الثائرة . . ثم رفعت عينى فرأيت الدموع تنحدر على خديها فخنقتنى العبرات ولما صرت قادراً على الكلام قلت لها : أطلبى ما تشاءين يا أمى فإنى سأجتهد أن أفعل كما تطلبين ! ! . . فقالت : إقرأ يا ابنى الكتاب المقدس بانتظام كل يوم ! ! . . فقاطعتها قائلا : ولكنك تعلمين يا أمى أنى أقرأ فى كتابى كل يوم ! ! . . ولكنك لا تقرأ بانتظام كما يجب أو كواجب عليك أنت مدين به لله ولنفسك . . فوعدها ! ! . . وإذ ذاك أجابت : الآن أعود إلى البيت بقلب مسرور . . إقرأ كثيراً فى الإنجيل . . الإنجيل المبارك فلا تضل الطريق ، وان كنت تصلى فالله معك ! ! . . وقال موفات : لقد فارقت أمى إلى مركز عملى ثم إلى أماكن قريبة وبعيدة ، حيث لم أجد هناك كنيسة أو مدرسة أحد قريبة منى ، أو إنساناً يهمه أمر الدين ولكنى لم أنس وعدى لأمى ! ! . .

وقد يأخذنا المسيح على ناحية عندما يعزلنا المرض أو الضيق أو الحاجة ، وهو يرغب فى أن يختلى بنا لأنه يريد أن يرفع عنا عاهة أو ينتزع من حياتنا مرضاً ، أو يسيطر على علة تمكنت منا ، وهو يفعل هذا فى عمق الهدوء والسكون والتأمل ، عندما لا يكون هناك من الجمع من يعطل شركتنا معه أو تأملنا فيه ، .. وقد نأتى إلى منعطف الحياة مع المسيح عندما يصيبنا الزهد أو يأخذنا الملل ، عندما تبدو الحياة وكأنما هى سراب لا معنى له ، أو فقاعة من الهواء كما ألف أحد الفلاسفة أن يطلق عليها ، . . ومهما يكن الدافع إلى العزلة ، فإنها ضرورية لحياتنا ولشفائنا من أمراض كثيرة . ومن العجيب أنها

الشيء الذى فعله الله فى حياة أبطاله العظام ، عندما أراد أن يحررهم من كثير من الأمراض أو الأدواء ، التى كانوا لا يدركون أنهم فى حاجة إلى التحرر منها ، . . ونحن لا نستطيع أن نفسر حاجتهم إليها قبل أن نعلم أن موسى عاش أربعين سنة فى البرية ، وكان من المقصود أن هذه الأربعين عاماً دفنت رجولته العظيمة فى رمال الصحراء ، وإن كان الواقع أنها دفنت هناك كبرياءه ، وغروره ، وإحساسه الذاتى بنفسه ، وأخرجت من أعماق مصر بكل ما ترسب منها فيه ، . . وكانت تلك أمراضه التى كان ينبغى أن يتخلص منها قبل أن يعرف طريقه إلى الحياة الصحيحة وخدمة الله ، . . وكان لابد لداود أن يعيش سنوات طويلة فى البرية ، وهو صبى يافع أو طريد من شاول ، وأدخله الله إلى المنعطف فى الشركة معه ليصلح أن يكون الرجل الذى كان يرى نفسه أنه لا يزيد عن برغوث أو كلب ميت أو لا شيء على الإطلاق كدودة حقيرة ، . . وهكذا أبطال الله ينتزعون من بين الناس ، ويأخذهم إلى المنعطف قبل أن يحل عقدة لسانهم أو يفك أسر آذانهم أو يهيئهم أو يهيء لهم الحياة الصحيحة السليمة المنتصرة على الضعف والمرض ! ! .

الشفاء والنظرة :

على أن المسيح لم يقصد أن يوجد الرجل فى حالة عزلة فحسب ، بل قصد أن يحوله من العزلة عن الناس ، إلى النظر إلى السماء ، ولأجل ذلك رفع المسيح عينيه ونظر إلى السماء ، ولا شبهة فى أن الرجل فعل الشيء ذاته ، فرفع نظره هو أيضاً إلى فوق ، وقد قصد السيد المسيح أن يربط نظر الرجل بالسماء ، . . كان الرجل بطبيعته معزولا عن الناس ، وكان لا يستطيع أن يتفاهم معهم أو يتفاهموا معه ، فإذا تكلموا إليه لا يسمع ، وإذا حاول أن يتكلم إليهم عجز ، . . ولكن الأصم الأعقد مع ذلك يستطيع أن يتكلم إلى الله ،

وينصت إلى صوت السماء . . فكثير ما يصعب علينا التفاهم مع البشر . . .
وقفت إمرأة أرادت أن تعبر الشارع المزدحم بالمرور ، . . وفى حيرتها تقدم إليها شاب ، وقال : هل أعبر معك يا سيدتى . . فقالت له : نعم . . ووضعت ذراعها فى ذراعه ، وفى عبورهما تعرضا للخطر ، ولكنهما وصلا سالمين إلى الجانب الآخر ، . . وقالت السيدة للشاب : يابنى إنك لا تستحق أى شكر لأنك كنت كالأعمى فى عبورك ، وكادت حياتى تضيع معك . . وقال الشاب : نعم يا سيدتى إننى أعمى ولأجل ذلك طلبت أن أعبر معك ! ! .
عندما تخيب نظرتنا فى الناس ، سنجد هناك النظرة الصائبة التى لا يمكن أن يخيب منتظروها . . . وهل يمكن أن ننسى أن الواعظ الشهير اسبرجن جاء إلى المسيح نتيجة عظة لواعظ بسيط كان يتحدث عن آية إشعياء القائلة : « التفتوا الى وأخلصوا . . » (اش ٤٥ : ٢٢) . وقد حدث هذا فى يوم بارد ملأت كرات الثلج فيه أزقة وطرقات مدينة كلوشستر فى انجلترا ، وكان هناك شاب يعدو وسط الشوارع المقفرة ليحتمى من لفحات الريح ، وليختبىء من الثلج المتساقط ، وحدث أن ساقت العناية ذلك الفتى إلى كنيسة فى تلك الناحية فدخلها وجلس على مقعد فى إحدى الزوايا مصغياً إلى العظة ، . . وبعد نهاية الخدمة جاء الواعظ ليصافح الفتى وقال له : يظهر أنك شقى يا بنى ! ! . . وستبقى شقياً إلا إذا نظرت إلى الله وتطلعت إليه . وقد فتحت هذه الكلمات عالماً جديداً إذ انتقل الفتى لساعته من الظلمة إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة ، ومن السبات الروحى إلى الاشراق السماوى ! ! . . ومن يزور تلك الكنيسة المنعزلة فى كلوشستر يجد لوحة معلقة هناك تشير إلى تجديد اسبرجن وفيها يوضح كيف تغيرت الدنيا فى نظره . . ولطالما هتف اسبرجن قائلا : إنى أتطلع إلى طبيبى ليشفينى ، كما أتطلع إلى المحامى لينصحنى ، وإلى البقال ليزودنى بحاجاتى ، ولكنى أتطلع إلى إلهى دائماً فى

سماته ، فهو يرنو الى ويعطينى القوة ، ويدخل فى شركة معى ، ولا يتركنى وحيداً فى هذه الدنيا أبداً ! ! . .

« أرفع عينى إلى الجبال مج حيث يأتى عونى ، معونتى من عند الرب صانع السموات والأرض » ، (مز ١٢١ : ١،٢) . . قد تتعطل بعض حواس الإنسان ، . . فلا يستطيع أن يسمع أو يتكلم ، . . ولكن روحه تستطيع أن تجد طريقها إلى عرش الله فى السماء ، . . وهى لا تحتاج إلى أكثر من نظرة متطلعة إلى الأعالى فى صبر وانتظار ! ! . .

الشفاء والأنة :

على أن السيد المسيح لم ينظر فقط بل أنّ أيضاً ، وهل يمكن أن يرى هذا المنظر المؤلم دون أن يمتلىء بالأنين ، لقد رأى فى الرجل صورة للنقص الانسانى المروع ، والعجز الجسدى الذى جلبته الخطية ، هذا الرجل قد فقد حاستين أساسيتين فى الإنسان : حاسة السمع ، وحاسة النطق ، . . ومن ذا الذى يدرك مدى ماكان يعانيه ، وهو أصم ، أعقد ، يتكلم الناس فلا يسمع ، يحاول أن يكلمهم فيعجز عن الكلام ، . . هل تدرك مقدار ما كان يعانى بيتهوفن عندما فقد السمع كله فى سنيه الأخيرة من الحياة ، . . وهو الرجل الذى تعود أن يتنبه لزقزقة العصفور ، ولحفيف النسيم ، ولتدفق الجداول ، لقد قال هو عن نفسه ، إنه انتفع بالصمم حتى لا يسمع لغو الحديث بين الناس . ولكنه مع ذلك أغلق على نفسه سجناً كبيراً ، وهو لا يسمع ، ولا يستجيب لكلام الناس أو حديثهم أو منطقهم ، . . ومع أن أديسون المخترع العظيم ، انتفع إلى حد ما ، بثقل سمعه ، إلا أنه قال فى أخريات حياته : إنه لم يسمع شدو عصفور بعد الثانية عشرة من عمره ، . وما يقال عن السمع ،

يقال أيضاً عن الكلام ، عندما يعجز المرء عن التعبير عما فى داخله أو عما يعانيه ، . . فإذا كان فقد السمع والقدرة على الكلام كارثة لأى إنسان ، . . فإن الأمر أقسى وأشنع وأشد فى المجال الروحى للحياة البشرية . . . قال السيد المسيح : « من له أذنان للسمع فليسمع » . (مت ١١ : ١٥) . . وأليس لكل إنسان أذن ليسمع ، . . ولكن أقسى مآسى الإنسان أنه عاش طوال التاريخ لا يستطيع أن يسمع نداء الله والحياة والمصير والأبدية . . . وقد أصم أذنيه عن الحق والخير والحب والإحسان والخلاص ، . . وهاالوعاظ والمبشرين والرعاة وخدام الله يصرخون ليلا ونهاراً ، ولكن هل سمع الناس واستجابوا لمجد الله وخير نفوسهم . . ان النتائج المحسوسة الملموسة تبين لماذا ضاع الإنسان رغم كل تنبيه وزجر ! ! . . لأنه أصم عن كلمة الحياة الأبدية التى أرسلها الله إليه ! ! . . ومن المؤسف أنه إذا كان جهاز الاستقبال عند الرجل عاطلا ، فإن جهاز الإرسال بالمثل ، لا يستطيع أن يرد على كل نداء ، أو يجيب على كل حديث ، . . لم يكن الرجل أصم فحسب بل كان أعقد أى أخرس لا يستطيع الكلام ، . . ولعله مما تجدر ملاحظته أن مخترع الراديو ومحطات الإذاعة فى كل مكان جاء اختراعه وليد اكتشاف أن فى رأس الإنسان محطتى استقبال وإرسال ، فنحن نستقبل بأذاننا الحديث كما تستقبل محطات الإذاعة ما يأتيها من أطراف الأرض ، ثم تعود لترسلها إلى كل مكان ، كما نرسل بألسنتنا الكلام إلى الآخرين . . . لكن الأصم الأعقد تعطلت فيه محطتا الاستقبال والإرسال ، ومن المؤسف جداً أن تتعطل هاتان المحطتان روحياً فى حياة أى إنسان على الأرض ! ! . . وهل يمكن أن يرى المسيح مثل هذا العطل فى الحياة دون أن يئن ويرفع نظره إلى السماء ! ! . .

الشفاء واللمسة :

على أن الحلقة الأخيرة فى الشفاء كانت اللمسة : « ووضع أصابعه فى أذنيه وتفل ولمس لسانه » (مر ٧ : ٣٣) . . وكم تتحدث هذه اللمسة عن معان عديدة ، فهى أولا اللمسة الرقيقة التى وصلت إلى الأذنين ، وإلى اللسان ، وهى تكشف عن رقة المسيح البالغة ، لقد أراد أن يتخاطب مع الرجل عن طريق حاسة اللمس التى لم تتعطل بعد ، لكى يؤكد له إحساسه العميق بتعاسته وحاجته ونقصه ، . . وما من شك فى أن هذه اللمسة هزته من الأعماق ، إذ هى أشبه بالتيار الكهربائى الذى يدخل الجسم ويسرى فى أعماقه . . قيل عن شاب إنه كان فى أقسى لحظات حياته ، إذ كان فاشلا وخائراً يوشك أن ينهار ، وفى تلك اللحظة التعسة ، التقى بالواعظ المشهور هنرى دراموند ، ولم يفعل دراموند أكثر من أنه مد يده ومس بها كتف الشاب ، ونظر إليه بعينين تفيضان عطفاً وحناناً ، وغيرت اللمسة الشاب ، .. وقال فيما بعد إنه نسى فى الحياة أشياء كثيرة ، ولكنه لم ينس لمسة السيد هذه ، وظل وقعها على كتفه ونفسه بعيد الأثر ، .. والمسيح فى كل وقت يريد أن يؤكد لنا لمسته الرقيقة الممتلئة بالحنان والحب والعطف ، . .

على أن اللمسة كانت أكثر من ذلك ، إذ كانت اللمسة القادرة المعجزية العجيبة ، فهذا الرجل لو أننا قدمناه لأطباء العالم لربما أجروا أبحاثاً عديدة عليه ، ليعلنوا فى نهايتها فشلهم ويأسهم ، وأنه فى أفضل الحالات ، يمكن أن يكون نموذجاً يهتدون به ، لمكافحة علة قد يتعرض لها الآخرون ، إذ هو لا يزيد عندهم عن حقل تجارب وأبحاث ، فإذا وجدوا بارقة أمل ، فانهم قد يخضعونه لعمليات جراحية متعددة ، ربما تعطى نتائج محدودة ، . . وإذا أعطت فبعد زمن يطول أو يقصر ، . . لكن لمسة المسيح شىء يختلف تماماً عن هذا كله ، . . إنها تنجز كل شىء بسرعة البرق . . إنها لا تعرف

التغيير الجزأ أو التغيير التدريجي ، إذ هو يغير وينقذ ويخلص إلى التمام ، . . إن القصة تعلن لنا أنه : للوقت انفتحت أذناه وانحل رباط لســانه وتكلم مستقيما » (مر ٧ : ٣٥) . . كانت اللمسة مزدوجة التأثير ، إذ أعطته السمع ، والنطق حقاً . . وهي إلى اليوم تفعل هذا ، . . إذ أنها تفتح الأذن ، . . في لمح البصر ، يدرك الإنسان ما كان لا يستطيع إدراكه أو الوصول إليه ، . . وعندنا ملايين الأمثلة في كل جيل وعصر ، لأولئك الذين وصل المسيح إلى سمعهم ، فتغير كل شيء في حياتهم ! ! . .

كان هناك شاب أمريكي في أواخر القرن الماضي ، وقد كتب قصته مثلا لما يمكن أن يفعله المسيح في حياة كل واحد منا ، كانت أمه تقية ، وكانت تصلي على الدوام من أجله ، . . ولكنه كان أصم عن كل نصائحها ومواعظها ، وقد أمعن في الضلال والشر ، حتى أصبح ملحداً يفاخر بإلحاده.. وقد نزع إلى كل موبقة وشر ، وكان لا يفيق من سكره وعربدته ، . . تزوج وأنجب طفلا جميلا ، سر به ، وكان الطفل البرىء هو زهرة البيت وجماله ، وكان في الثالثة من عمره عندما أصيبت أمه بمرض قاسي ، أخــذ يتهدد حياتها ، . . استولى الضيق على الزوج ، وضاق بحاله ، ومرض زوجته وقرر أن ينتحر تخلصاً مما هو فيه . كان يعمل مهندساً ، وكان مركز عمله على شاطىء الباسيفيكي في الولايات المتحدة ، ورأى أن يلقي بنفسه في مياه المحيط ، وبينما هو يهم بفعل ذلك تذكر ابنه ، الذي إذا انتحر سيتركه يتيما يعاني ما يعانيه كل يتيم صغير ، فقرر أن يحمله معه ، ليغرق معه حتى يموت كلاهما معاً ، . . وهو هنا يتحدث بعمق الاختبار ، لقد ذهب إلى مكان بعيد في الميناء وهم بأن يقذف بنفسه وقد أمسك بكلتا يديه بابنه ، ولكن قدميه تسمرتا ، غادر المكان مرة ومرات ، وفي كل نقطة يذهب إليها لا يجسر على فعل ما كان مقدماً عليه . أخيراً عدل عن الفكرة ، وأخــذ

ابنه إلى البيت ، ودخل إلى مكتبه ليصرخ لله ليقول له : يقولون إنك موجود ، . وإنك قادر على كل شيء ، . . فإذا أنقذتني وشفيت زوجتي ، أعود إليك وأكرس حياتي لك ، وآتاه الله بما سأل وإذا بالأصم عن كل نداء من الله ، يتحول إلى الإنسان الذى يسمع صوت الله ، وصار الأعقد يتكلم عن فضل الله فيما حدث معه ، وقد قال : « إنى الآن أجد لذة عظيمة فى مقابلة كل من أعرفهم من الملحدين لأخبرهم أنه يوجد إله ، ولأحدثهم عما فعل هذا الإله لنفسى ، .. وبعد ذلك اهتدت زوجتي إلى الله ، فأصبحنا كلانا عاملين نشطين فى جيش الخلاص . وما أعظم التغيير الذى حدث فى بيتنا ! ! حقاً إن لنا أباً رحيماً محباً يأتى علينا بصبر إلى هذا الحد العظيم . .

والآن أيها القارىء عليك أن تعلم أن الكلمة الأولى التى استمعها ذلك الأصم القديم كانت كلمة المسيح ، وصوته الرقيق ، وكل إنسان يفتح المسيح أذنه لابد أن يسمع صوته ، قبل أن يسمع نداء العالم أو الجسد ، وما أحلاه من صوت ، لا يملك المرء معه إلا أن يقول : « تكلم لأن عبدك سامع » ، (١ صم ٢ : ١٠) وسيستمع الإنسان بالأذن المفتوحة إلى صوت الحق ، والهداية ، والإرشاد ، . . بل دائماً يقول : « يارب ماذا تريد أن أفعل » (أع ٩ : ٦) . .

على أن المسيح أيضاً حل عقدة لسانه ، فلم يعد الرجل أخرس ، بل تكلم مستقيماً ، ولست أعلم ما هى كلماته الأولى التى نطق بها ، لكنى أعتقد أنها لابد كلمات الشكر لمخلصة وشافية ، إذ لا يمكن تصور أن اللسان الذى أطلق من عقاله ، ينسى أن يشكر فضل من أحسن إليه ، ولو أن الكثيرين للأسف العميق ، يأخذون عطايا الله ، . . ولكنهم مع ذلك جاحدون لا يشكرون ، ثم إنه لا يمكن أن يتكلم إلا إذا شهد بما فعل الرب معه ورحمه ، . . وحياتنا ينبغى لها أن تنطلق إنجيلا شاهداً لرحمة الله الواسعة ، ومحبته الكاملة المباركة

الكريمة ! ! .. لقد نظر المسيح إلى الرجل فى مأساته وأن ، . . ولكن القصة لم تختم بالأنين بل إن الحاضرين جميعاً وقد أوصاهم السيد أن لا يقولوا لأحد ، لئلا يضحى الأمر انفعال تتحول معه المعجزة إلى مجرد إحساس عاطفى ، إن لم يدعم بالإيمان سيضحى إعجاباً حسياً لا يصل إلى الأعماق ، . . « ولكن على قدر ما أوصاهم كانوا ينادون أكثر كثيراً . وبهتوا إلى الغاية قائلين إنه عمل كل شيء حسناً . جعل الصم يسمعون والخرس يتكلمون » (مر ٧ : ٣٦و٣٧) . . ونحن نأمل أن هذا الذهول أمام عظمة المسيح وقدرته . والقول إنه عمل كل شيء حسناً ، تحولا إلى ولاء ثابت للسيد ، . . إذ ليس هناك ما هو أقسى وأبخس من النظرات إلى معجزات المسيح ، بالإحساس الوقتى القصير المنفعل ! ! . . عندما أرسل جماعة من الأمريكيين إلى بنيامين فرانكلين ، وكانوا قد أطلقوا اسمه على مدينتهم ، وقالوا له ها نحن قد أطلقنا على المدينة اسمك ، ونريد منك عطيـــة لنصنع جرساً للكنيسة ، أرسل إليهم شاكراً تقديرهم ، مع تبرعه ، ولكنه طلب أن يصنعوا بها مكتبة ، لأنه مع تقديره التام لجرس الكنيسة ، إلا أنه قال : أريد أن تكون حياتى أكثر من مجرد رنين صوت ! ! . .

لست أعلم ماذا كان يفعل الأصم الأعقد بعد أن شفى ، كلما سمع عن المسيح ، . . وكلما أراد أن يتكلم عن هذا السيد ! ! ولعله من الأصلح ألا أسأل عن الرجل القديم ، بل أسألك ماذا فعلت تجاه السيد يا من كنت مثل ذلك الأصم الأعقد ، حتى جاءتك اللمسة الشافية العظيمة المباركة وتتكلم ! ! ؟ .

١٠٦
قائد المئة

« فلما سمع يسوع تعجب . وقال للذين يتبعون . الحق اقول لكم لم أجد ولا فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا » (مت ٨ : ١٠)

كان قائد المئة أحد سبعة قواد مئة جاء ذكرهم مجيداً محموداً فى الإنجيل ، وهو من ذكر منهم ، وجاء بعده قائد المئة الذى اعترف بيسوع أنه ابن الله عند الصليب ، وكرنيليوس قائد المئة الذى آمن بالمسيح على يدى بطرس ، وقائد المئة الذى عرف أن بولس رومانى الجنسية ، وأنقذه من غضب الجماهير الثائرة ضده ، وقائد المئة الذى أخبر أن اليهود دبروا مكيدة لقتل بولس فى الطريق من أورشليم إلى قيصرية ، ورتب الإجراءات لحمايته من هذه المكيدة وقائد المئة الذى عهد إليه فيلكس الوالى بالعناية ببولس ، وقائد المئة الذى صاحب بولس فى رحلته الأخيرة إلى روما ، وعامله المعاملة اللطيفة الرقيقة طوال الرحلة ، . . ومع أنه من المتصور عادة ، أن هؤلاء الرجال العسكريين من أبعد الناس عن الحياة الروحية ، وأشدهم قسوة وعنفاً ، إلا أن نعمة الله

لعجيبة تعمل حيث يظن الإنسان أن الأمل ضائع مفقود . ولعل طبيعة النظام العسكرى فى الحياة ، تستخدمها النعمة أيضاً ، فى نقل الولاء إلى الله بمفهوم عجيب ، كما يبدو فى قصة أول قائد مئة يرد ذكره فى العهد الجديد ، ولعلنا نستطيع بعد ذلك متابعة القصة فيما يلى :

قائد المئة وإيمانه العجيب :

إن الكلمة التى ثار حولها الجدل فى قصة هذا الرجل هى القول : « فلما سمع يسوع تعجب » . . وهى عبارة فى حد ذاتها عجيبة إذا وصف بها المسيح ، فالأمر العجيب هو الذى يثير الدهشة أو يثير الإعجاب . . وقد تعجب المسيح هنا لإيمان الرجل . وتعجب فى الناصرة من عدم إيمان الناصريين : « تعجب من عدم إيمانهم » . . فالتعجب فى واقع الأمر قد يكون حيرة ذهنية تنهض أمام الفكر . كما يتعجب الإنسان أمام لغز من الألغاز لا يهتدى إلى حله . . أو قد تكون نشوة عاطفية ، تطغى فيها العاطفة على كل شىء ، فيؤخذ الإنسان بالظاهرة التى لم يكن يتوقعها ، أو قد يكون التعجب مزيجاً من الدهشة والإعجاب ، فنحن مثلا عندما نرفع عيوننا إلى الأعالى نصيح : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » (مز ١٩ : ١) ونقف مع رجال الفلك فى ذهول الحائر وإجلال المتعبد ، وإذ نسأل رجال الفلك فإنهم يتحدثون إلينا بالعجائب ويقولون إن الناس لا تدرك تماماً الفرق بين النجوم والكواكب والأقمار والشهب والمذنبات والسدم ، فالنجوم أجرام سماوية درجة حرارتها مرتفعة جداً جداً حتى إنها تضىء إضاءة ذاتية من نفسها ، وذلك بعكس الكواكب والأقمار والتى لا نرى إلا ما ينعكس عليها من أضواء النجوم أو الشموس الأخرى ، وقد لا نستطيع أن نتصور مقدار ارتفاع درجة حرارة النجوم التى تصل ما بين ٣,٠٠٠ درجة مئوية ، ٢٣,٠٠٠ درجة مئوية على السطح الخارجى

النجم وتصل فى المركز الداخلى للشمس إلى ٢٠ مليون درجة مئوية ، وهـذه درجات يستعصى على أفهامنا إدراكها وإذا نظرنا بالعين المجردة إلى السماء فى ليلة صافية يمكن أن نرى حوالى ثلاثة آلاف نجم ، لكن الفلكيين يقررون عدد النجوم بألف وخمسمائة مليون نجم ، والكثير من هذه النجوم يصل حجم ملايين المرات من حجم أرضنا ، ويقال ، إن حرارة الشمس تصل على السطح إلى ٦٠،٠٠٠ درجة مئوية ، وشدة إضاءة الشمس قوية جداً حتى إن السنتيمتر المربع يساوى خمسين ألف شمعة ، . . فإذا ذكرنا أن الكون واحد من عجائب يد السيد ، فإن السؤال بعد ذلك هل يمكن أن هذا السيد يتعجب لإيمان قائد المئة ! ! إن أوغسطينوس يعتقد أن الأمر فى نظر المسيح لا يدعو إلى العجب إلا بالقدر الذى يريد أن يعلمنا فيه الأمور التى تستحق الإعجاب ، ولكن هذا الرأى مردود لأنه يصور المسيح كمن لا يكشف عن إحساسه الحقيقى ، وفى الحقيقة إنه تعجب ، لأنه وهو الإله السرمدى ، ليس فى تجسده الثوب البشرى بما فيه من العواطف البشرية ، وإن كان من الصعب أن نفهم ارتباط اللاهوت بالناسوت فى شخصه ، إلا أنه من المؤكد كانت الحساسية العميقة كانسان ، بأدق وأعمق ما تكون هذه الحساسية ، قياساً على غيره من البشر ، . . وأنه فى الناصرة تعجب من عدم إيمانهم ، بنفس الحيرة التى ذكرها إشعياء عن الله عندما قال : « والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا احكموا بينى وبين كرمى . ماذا يصنع أيضاً لكرمى وأنا لم أصنعه له . لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً ، صنع عنباً رديئاً » (إش ٥ : ٣ و ٤) . . لقد عاش المسيح فى الناصرة كما لم يعش غيره أو يمكن أن يعيش ، وصنع فى كل مكان معجزاته ، . . ومع ذلك فالمدينة الشريرة رفضته على النحو المهين المؤسف ، . . وكان له بعد ذلك أن يتعجب ، إذ أن الأمر محير إلى أبعد حدود الحيرة ، إذا قيس بكل المقاييس البشرية ، . .

وعلى العكس من ذلك كان موقف قائد المئة الذى فى كافة الظروف المعاكسة تفوق – وهو أممى – فى امتحان الإيمان على سائر الإسرائيليين ، ونجح بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ، . . وكان أيضاً بكافة المقاييس الإنسانية يدعو إلى الإعجاب من كل وجه ! ! . . ولعل الصعوبات التى تخطاها هذا الإيمان ، يمكن أن تظهر إلى حد كبير عظمته وجلاله ، . لقد كانت هناك صعوبة البيئة . فقد نشأ الرجل فى الأصل فى بيئة وثنية امتلأت بالشر والفساد والحماقات والخرافات ، . . لم تكن له ، كما قال أحدهم ، أم تحدثه عن هابيل وأخنوخ وابراهيم واسحق ويعقوب والأنبياء ، ولم يكن له التراث المجيد الذى تنفتح عيناه عليه ، . . ولكن البيئة الموحلة أخرجت الزنبقة البيضاء ، وأرض الوثنية أنشأت رد فعل عميق فى الرجل المتفتح القلب ، الذى أنار الله عينيه إنارة كاملة ، فعرف الفرق بين الحق والباطل ، وبين النور والظلام ، عندما انتقل إلى أرض إسرائيل ليسمع عن الله الحى الحقيقى ، . . وليرى الحق الإلهى الذى يعلنه هذا الإله العظيم فى التاريخ الإسرائيلى . .

ولعل العجب فى هذا الإيمان أنه لم يتأثر باليهود أنفسهم ، الذين كان الانعكاس الدينى على حياتهم ، ومن خلال تصرفاتهم ، يشوه الكثير من الحقائق التى تفصل بين جوهر الدين ، وتطبيقه المشوه عند الغالبية من اليهود فى جيلهم . . لقد فرق الرجل بين الدين ، والأدعياء الذين يظهرونه فى حياتهم على صورة معيبة تجعل ملايين الناس تقول مع غاندى : « لولا المسيحيون لصرت مسيحياً ! ! . . كان الصاد هو سندر سنغ مثلا من أعجب الأمثلة لأولئك الذين يخرجون من قلب الظلمة القاتمة إلى النور العجيب ، فى ١٤ ديسمبر عام ١٩٠٤ أحرق الكتاب المقدس ، إذ كان يكره المسيحية كرهاً عميقاً كهندوسى متعصب ، ولكنه كان فى أعماقه يحس بالتعاسة إلى درجة أنه قرر أن ينتحر . ولنقرأ فى مذكراته ما حدث معه : « كنت قد عزمت

على وضع حد لحياتى لأنى يئست من عدم حصولى على السلام الذى أريده وكان الطقس بارداً والفصل شتاء . فأخذت حمام ماء بارد ثم صليت ، لكن ليس للمسيح الذى يؤمن به المسيحيون لأنى كنت عندئذاك أكره المسيحية ، وإنما صلاتى كانت صلاة ملحد فقد إيمانه بالله فقلت إذا كان هناك إله فعليه أن يرينى الطريق للخلاص ، وإلا فإنى مقدم على الانتحار ، وظللت أصلى من الثالثة صباحاً حتى الرابعة والنصف بعد الظهر ، وكان الوقت الذى حددته لتنفيذ خطة الانتحار قد بات وشيكاً ، ففى الساعة الخامسة كنت مزمعاً أن أضع رأسى تحت عجلات القاطرة الحديدية ، وفى نصف الساعة الفاصلة الباقية . حدث ما لم يكن فى الحسبان : إذ امتلأت الغرفة التى أنا بها بنور وهاج ، ورأيت رؤيا مجيدة لشخص سماوى يقف أمامى ، فظننته لأول وهلة بوذا أو كرشنا : أو أى قديس آخر أؤمن به وأعبده : ولكنى سمعت كلمات تقول : لماذا تضطهدنى وقد مت من أجلك ، وسفكت دمى من أجل خلاصك » . . ارتسمت أمامى جراحات المسيح الحى ، والذى ظننت أنه كان مجرد رجل عظيم عاش فى ربوع فلسطين ومات ، ولكن الآن أجده حياً أمامى . من ذلك التاريخ تغيرت حياتى . وامتلأ قلبى بالسلام » .. خرج الصادهو سندرسنغ للشهادة للسيد : وقد عانى ما لا يستطيع أن يعانيه الكثيرون وأصبح المرسل الهندى الانجيلى المعروف . وقد نال شهرة عالمية وزار بلاد الهند وسيلان وبورما والملايو والصين واليابان ووعظ فى مدن عديدة من بلاد سويسرا وألمانيا وهولندا والسويد والنرويج والدنمارك . وفى عام ١٩٢٩ دهب للتبت للتبشير فيها وانقطعت أخباره وعلى الأغلب مات شهيداً هناك فى البلاد التى حرمت دخول المرسلين إليها والمناداة بانجيل المسيح ! ! . . وهناك هندى آخر عاش فى غرب الهند واسمه الشاعر تيلاك ، وكان هـذا الشاعر من طائفة البراهمة . . . لكنه تحول براهمى متعصب إلى مسيحى

غيور ، وقال : « إن قلبي يتجه بكلياته نحو ديانة المسيح ، فهنا الإيمان الحقيقي الذى يهب النفس السلام والبر والخلاص . وخير للمرء أن يبقى فى جنة المسيحية الصغيرة متمتعاً بشذى ورودها ورياحينها من أن يبقى فى صحراء الهندوسية الشاسعة برمالها المحرقة ووديانها السحيقة وطرقها المتشعبة وأشواكها القاسية وآبارها المرة . ولكنى أقول إن الشجاعة تنقصنى لأنادى بمثل هذه الآراء . إنى أخفى الحقيقة حتى الآن عن زوجتى ؛ إنها تحبنى وأنا أخاف أن أجرح شعورها . ترى ماذا أفعل يارب ؟ أعنى ! » . . ثم لم يلبث بعد ذلك أن تقدم ليعترف بإيمانه المسيحى قائلا : « نعم لقد زال تعظمى وتهدم صرح افتخارى . وها أنا اليوم أقف كطفل صغير أمام الله ممسكاً بيد المسيح . . أكثير إذا أن ينظر الناس إلى حينما أسير فى الطريق ويفغروا أفواههم دهشاً وتعجباً ! إنى أعجب من نفسى . ما حاجتى بعد إلى معجزات ! ! . . حقاً أيها الأخوة والأخوات إن هذه هى معجزة النعمة الغنية المتفاضلة . لم أكن أقصد بالمرة أن أصبح مسيحياً ولكن مجداً لغنى محبة الراعى العظيم الذى ترك التسعة والتسعين حملا فى البرية وجاء بين الرمال والتلال مفتشاً عن خروفه الضال ! وكم نظرت إليه فى دهشة ! وكم تطلعت إليه فى استنكار ! وكم نظرت إلى ثوبه الذى يرتديه ثوب البساطة والتواضع وأعرضت عنه فى إباء وكبرياء ! نعم لقد كان قلبي حينئذ ممتلئاً بروح الانتفاخ والتعظم ، كنت أحلم بأنى سأضع أسس ديانة جديدة ، فإذا بى أطرح فلسفاتى ونظرياتى وتيجانى عند أقدام السيد ، وأجلس عند قدميه متتلمذاً عليه . هللويا مبارك اسم الرب » . . عندما يخرج سندر سنغ والشاعر تيلاك من قلب الهند الوثنية إلى نور المسيحية اللامع ، نتعجب كما تعجب السيد المبارك وهو يرى قائد المئة الوثنى يبز الإسرائيليين جميعاً فى إيمانه العجيب .

لقد صنعت روما من الرجل جندياً صارماً ، . . وكان يمكن أن يحيا حياة الاستباحة والبطش كما يعيش أمثاله من العسكريين وبخاصة فى البلاد المحتلة المستعمرة ، لكن الله الذى أخرج قديسين من بيت قيصر ، حول الجندى الرومانى إلى جندى صالح ليسوع المسيح ! ! . .

قائد المئة وثمار الإيمان العجيب فى حياته :

من الطبيعى أنك لا تستطيع أن تفهم حياة هذا الرجل ، إلا كنتاج لهذا الإيمان العجيب ، ولا يمكن أن تتعرف على حلاوة حياته إلا كثمر للايمان العظيم العجيب الذى ملأ حياته ، . . لقد امتلأ هذا الرجل الأممى بحب الله ، إذ كان واحداً من الباحثين عن الله ، الذى عثر عليه فى أرض إسرائيل ، ولقد دخل الأرض كغاز فاتح مستعمر ، وكان يمكن أن يعيش فيها هكذا رضى من فيها أم كرهوا ، . . لكن اليهود يشهدون أنه أحب أمتهم ، . . وأنه عبر عن هذا الحب ، ببناء المجمع ، . . وقد كشف السيد المسيح أن الباعث على هذا كان إيمانه بالله ، على نحو متميز عظيم عجيب ، وليس مجرد التعاطف أو محاولة القائد أو الحاكم إرضاء جماعة لا يعنيه من أمرها سوى مسايرتها لهدف سياسى ، إذ من الواضح أنه لم يكن الرجل الذى ينتظر منه مثل هذا العمل ، أو يرجى منه أن يقوم به لأنه من اختصاصه ، . . لقد كان الدافع العميق لما بذل من جهد أو مال هو حبه لله ، ولبيته ، وللشعب الذى اعتقد أنه شعب الله ، . . وإلى جانب هذا كان الرجل رقيق المشاعر ، عميق العطف ، على عبده المريض الذى أشرف على الموت ، وكان عزيزاً عنده ، . . وهذا على خلاف المألوف عند الرومان فى ذلك الوقت الذين كانوا قليلى الاهتمام بالعبيد فى آلامهم أو أمراضهم أو موتهم ، ويكفى أن نشير إلى ما ذكره أرسطو عن العبيد : « لا يمكن أن نفكر فى مشاعر الصداقة أو العدالة تجاه الجماد ولا نحو الخيول والثيران ، ولا نحو العبيد باعتبارهم

عبيداً ، فلا يوجد شيء مشترك بين السيد والعبد ، وما العبد إلا آلة متحركة حية ، كما أن الآلة هي عبد جامد » . . وقد قسم فارو الكاتب الروماني أدوات الزراعة إلى ثلاثة أقسام الأدوات الناطقة وهي العبيد ، والأدوات غير الناطقة وهي البهائم ، والأدوات الجامدة وهي الآلات ، . . وكان من العادة بيع العبد المريض أو اهماله ، . . ولكن الإيمان المسيحي – على العكس من ذلك – جعل تولستوي يرى حصاناً مريضاً منكس الرأس في الطريق ، فيذهب إليه ويأخذ في تقبيله حتى قال أحدهم وهو يتعجب للمنظر ، لقد ظننت أنه يقبل صديقاً وليس حيواناً ، . . إن رقة القلب من سمات الإيمان المسيحي وبرهانه الصحيح ، . . وكان قائد المئة أكثر من ذلك – آية في الوداعة والتواضع ، . . ألم يكن رومانيا تحتل بلاده أرض فلسطين ، ومن طبيعة الغزاة التعالي والكبرياء ، ولكن الرجل مع ذلك لم ير في نفسه شيئاً أمام السيد المسيح ، إنه كان قائداً له الكلمة الآمرة على مائة جندي ، ولكن مهما يكن أمره وسلطانه ، فإنه ليس مستحقاً في نظر نفسه أن يدخل السيد المسيح تحت سقفه ، وأنه يتضع ويتصاغر جداً أمام السيد المبارك العظيم ، . هل يمكن أن نقارن هذا الرجل بسمعان الفريسي ، الذي دعا المسيح إلى بيته وتجاهل أبسط أنواع التكريم والاحترام ، متوهماً أن مجرد ضيافة السيد – ولو أغمض عينه عن الواجب والأصول المرعية – فيها ما يكفي أو يزيد للناصري المتجول بين الناس ، . .

قائد المئة وجواب المسيح على إيمانه :

كان قائد المئة عميق الإحساس بأنه أضأل جداً من أن يصل إلى يسوع المسيح ، ولأجل ذلك اتصل بالمسيح عن طريق شيوخ اليهود ، وحملهم رسالته ، ثم إذ دنا المسيح من بيته ، وأحس أنه غير بعيد ، اتصل به أيضاً عن طريق أصدقائه ، وكان إيمانه بالسيد رائعاً ، وهو يتصور سيطرته على

غير المنظور ، بنفس الصورة التي يعيش بها هو في المنظور ، . . « لأني أنا أيضاً إنسان تحت سلطان لي جند تحت يدي . أقول لهذا اذهب فيذهب ولآخر إت فيأتي ولعبدي افعل هذا فيفعل » . . (مت ٨ : ٩) كان الفيلق الواحد في الجيش الروماني يتكون من ستة آلاف جندي ، وكان ينقسم إلى ستين فرقة في كل فرقة مائة جندي على رأسهم ضابط برتبة قائد مئة ، . . وكان وصف قائد المئة على ما كتبه أحد الرومان : « ينبغي أن يكونوا شجعاناً غير مندفعين للمخاطرة ، يعتمد عليهم ، حازمين لا يتسرعون في القتال . ولكن إذا استدعى الأمر دافعوا عن مواقعهم حتى الموت » . . هذا هو النظام الذي يشير إليه قائد المئة . إنه تحت سيطرة الامبراطور ، وهو سيد الجنود الذين تحت يده ، يخضعهم لأمره كيفما شاء ، . . وهكذا يرى الرجل يسوع المسيح في سلطانه على غير المنظور ، . . وهو لذلك يستطيع بالكلمة الآمرة ، أن ينطق بأمره إلى القوى غير المنظورة لتعمل عملها كما يأمر هو جنوده المنظورين فيصدعون بأمره ، . . ومن ثم فهو ينتظر من المسيح كلمة واحدة لجند السماء ، . . وهل هذا إلا الإيمان العظيم بيسوع المسيح عندما نصلي إليه ، ونحن نطلب طلباتنا دون تحديد لمكان أو زمان أو حالة ! ! . . في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، كان هناك أسقف مشهور في الكنيسة المثوديستية اسمه سمسون ، وقد سقط تحت وطأة مرض قاس ، وكان في ضجعة الموت ، وعلى بعد ألف ميل من المكان كان هناك مؤتمر كنسي ، ووصلت برقية للمؤتمر تقول : إن الأسقف سمسون يموت ، واستلمها قائد المؤتمر غير أنه قال : نحن في حاجة إلى الأسقف سمسون . وتحول المؤتمر إلى حلقة صلاة من أجل الأسقف المريض ، وإذا بروح الله يسيطر عليهم ، وإذا بهم يمتلئون بالإحساس بأن الرجل لن يموت ، بل سينجو ورنموا واثقين في الرب ، وحدثت المعجزة ، ولم يكن هناك من تعليل طبي لنجاة الرجل من

الموت الذى أكده الأطباء . إلا أنها أعجوبة خارقة لصلوات ارتفعت إلى عرش الله من على بعد ألف ميل من المكان .

استجاب المسيح لإيمان الرجل ، فشفى العبد فى الحال ، . . لكن السيد حولنا إلى صورة أعظم وأجل وأبهج وأمجد ، . . إذ طوى الزمن بأكمله ، وغير الصورة أمام اليهود ، إلى صورة لم يكونوا يتصورونها قط ، . . كان التقليد اليهودى يقول بأن المسيا عندما يجيء إلى العالم سيجلس اليهود فى موكب حافل عظيم فى وليمة سيحرم منها الأمم ولن يكون لهم نصيب فيها ، . . غير أن الصورة التى كشف عنها السيد كانت شيئاً آخر ، إذ أن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ليكونوا فى هذه الوليمة ، فى الوقت الذى سيحرم فيه كثيرون من أبناء الملكوت منها ، ومن الثابت أن السيد يريد أن يقول إن مفتاح الملكوت والوجود فى حضرة الله لا يمكن أن يحصرا فى جنس معين أو فى قومية واحدة ، . . وإن الشعب المختار لا يمكن أن يكون أفراده بمولد جسدى بشرى ، لأنه : « إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله » . . (يو ١ : ١١ – ١٣) .

١٠٧
يايرس

« واذا واحد من رؤساء المجمع اسمه يايرس جاء . ولما رآه خر عند قدميه » (مر ٥ : ٢٢)

أقام المسيح من الأموات ثلاثة على الصور المفصلة التى ذكرها العهد الجديد — إلى جانب قيامته المجيدة من بين الأموات ، والذين قاموا ودخلوا المدينة المقدسة يوم قيامته هو . . ولعلنا ونحن نتابع هذه الحالات نجد أن القيامة واحدة للجميع إذ هى عودة للحياة من بعد الموت ، . . لكن الصور مع ذلك تختلف من حيث من قاموا وكيف قاموا ، ومتى قاموا ! ! ؟ . . فالصورة تختلف من حيث عمر القائمين ، إذ أقام ابنة يايرس وهى صبية فى الثانية عشرة من عمرها ، . . وأقام ابن أرملة نايين ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، وأقام لعازر من بين الأموات ، ولعله كان كامل الرجولة . . وجميع الأعمار بين يديه ، وهو الذى يقيم الموتى صغاراً وكباراً ، روحياً وجسدياً على حد سواء ، . وأقام الصبية فور انفصال الروح عن الجسد ، وقبل

أن تخرج من البيت ، . . وأقام الشاب فى الطريق إلى القبر ، . . وأقام لعازر بعد أربعة أيام من موته ، . . وأقام الصبية بأن أمسك بيدها ، . . وأقام الشاب بعد لمس نعشه ، . . وأقام لعازر بعد رفع الحجر ، . . وهو – فى كل حال – القيامة والحياة ، سواءقصر الزمن أو طال فىرحلتنا الأرضية ، . . وسنحاول متابعة هذه الصور لنرى قدرته الكاملة على الإقامة من بين الأموات لموتى الأجساد والأرواح على حد سواء ، وسنحاول التدرج فى دراسة الشخصيات ، آخذين بتصاعد الأعمار ، . . ولهذا نبدأ بدراسة يايرس رئيس المجمع وارتباط قصته بابنته الوحيدة فيما يلى :

يايرس وابنته الوحيدة :

إن الصورة الأولى التى يعطيها الكتاب لنا عن يايرس صورة مضيئة ، بل يبدو أن اسمه يعنى « الرب ينير » وقد كان رئيساً للمجمع ، وهو مركز لا يأخذه إلا واحد من أظهر الناس وأكثرهم شهرة ونفوذاً ، ويبدوا أنه كان واحداً من شيوخ كفر ناحوم ، ويظن البعض أنه واحد من أولئك الذين أرسلهم قائد المئة إلى السيد المسيح عندما طلب شفاء عبده ، ويبد وأنه كان رجلا ميسور الحال إذا قورن بغيره ، فرئاسة المجمع كانت تعطى لأولئك الذين يمكن أن يرتبوا أو يتحملوا الخدمات العديدة التى قد تتطلب سعة اليد لترتيبها وتنفيذها . . . كانت هنالك أشياء كثيرة فى حياة الرجل يمكن أن تجعله مستريحاً وسعيداً ، . . ولكن الشيء الذى يبدو أنه كان أشبه بالشمعة المضيئة فى بيته ، ابنته الصغيرة ، لم يكن للرجل ولد كما كان يحلم كل إسرائيلى ، يمكن أن يعقبه ويحفظ اسمه واسم سبطه على مر الأيام والتاريخ فإذا لم يشأ الله أن يعطيه هذه العطية ، فهو راض كل الرضا سعيد كل السعادة بأن تكون له ابنة صغيرة حلوة جميلة تملأ بيته سعادة وبهجة وضحكاً ، . .

ولمدة اثنى عشر عاماً عاش الرجل سعيداً بهذه العطية الإلهية . هى عمر الصغيرة الحلوة حتى جاءت اللحظة التى تغير فيها كل شىء ! ! . .

يابوس والموت المخيم :

كتب الروائى تمبل ثارستون رواية تحت عنوان « مدينة العبث الجميل » وفيها يصور الانسان عندما تضحك الحياة معه ، وكأنما هو سيد فى سيرك الملاعب يحمل سوطاً ويقف زاهياً بلباسه فى وسط الوحوش يلسعها بسوطه ، ويصفق له الناس ، حتى يثور أسد ، وعندئذ يتغير كل شىء ، . . وكتب كاتب آخر عن قصة شاب من أوائل المغامرين والمهاجرين بحثاً عن الثروة فى الولايات المتحدة ، وقد سمع عن بقعة قيل إن الذهب لمع فيها فى الصحراء ، وأراد أن يكون هو أول من يعثر — قبل غيره — على منجم الذهب ، . . اشترى جواداً ، واستيقظ فى الصباح الباكر فى يوم من أيام شهر نوفمبر . وكان الجو صحواً وسار فى طريقه فى الصحراء على أنه لم يلبث أن لاحظ بعض الغيوم الداكنة التى لم يكترث لها فى أول الأمر ، وكان يأمل أن يجتاز الصحراء قبل المساء لأنه قطع نصفها ولكن الثلج تزايد سقوطه ، وهنا بدأ الخوف يدب فى قلب الشاب ، خيمت الظلمة عليه وتكاثفت الثلوج وكان كل همه منصرفاً إلى حفظ جسده دافئاً فكان يضرب بذراعيه على جسمه ويضرب برجليه على جسم الجواد لكى يدفأ وهنا حدث أمر مرعب ، إنه لا يعلم كيف ترك الجواد ينحرف عن الطريق ، فضل طريقه ، حاول أن يعرف الطريق فلم يجدها . أوقف جواده . تساقطت الثلوج حوله بكثرة ونفذ البرد إلى عظامه ، فأصابته رعشة وقال لنفسه : لقد ضللت الطريق وسط هذه العاصفة الثلجية ، وذكر أمه فى إحدى ولايات الجنوب ، واعتقد أنه سيموت ، وخطر بباله هذا السؤال هل سيعثر أحد على جثته بعد موته وهل

سيعرف أحد قصته ! ! ؟ . . فى هذه اللحظة ظهرت أمامه الأبدية التى لم يكن يفكر فيها من قبل ولعن نفسه على استخفافه بالدين فى حياته ! ! ؟ . . وأخذ يسأل هل يمكن أن يقبله الله الذى نسيه وجهله أياماً بلا عدد ! ! ؟ . . بدأت وطأة البرد تخف قليلا وكان الجواد يسير على غير هدى ثم بدأ النعاس يراوده ، وهذا أمر مخيف على من يسافر فى وسط الثلوج ، فداخله الخوف والرعب . قفز من على ظهر الجواد وجعل يسير على الثلج وهو يضرب جنبيه بيديه حتى انتظمت الدورة الدموية فى جسمه . وهنا خطر له أن يوقد ناراً فسقط على رجليه وجعل يتلمس هنا وهناك باحثاً عن العشب الجاف ، ثم أزاح الثلج وجعل من القش كومة كبيرة ثم اقتلع شجيرة جافة وجعل بعد ذلك يبحث عن عود ثقاب . وقد اكتشف أنه لا يحمل سوى عود واحد ، فقد استهلك كل الأعواد فى إشعال غليونه . وأدرك أن حياته متوقفة على العود . إن ذهب المنجم الذى سيذهب إليه لا يساوى العود الواحد من الثقاب الذى إذا انطفأ ، فحياته ستضيع . . . كم يكتشف الإنسان فى مثل تلك الأوقات الحقائق التى غابت عنه عندما كانت تضحك له الحياة وتمتلىء أيامه بالبهجة ، . . عندما أشعل العود كاد قلبه يقف عن الخفقان ، وكادت عيناه تخرجان من محجريهما حين رأى العود وهو يكاد ينطفىء ، ثم رآه وهو يشعل كومة العشب اليابس ويرتفع منها اللهب ! ! . . هل استطعت بعد ذلك أن تتعرف على يايرس والشمعة المضيئة فى بيته توشك أن تنطفىء ثم وهو يسرع إلى يسوع المسيح ! ! . .

يايرس والسجود أمام المسيح :

كان من المستحيل على يايرس أن ينبطح على وجهه ويسجد أمام المسيح ، فكل ما فيه كان يمكن أن يفعل العكس ، أليس هو رئيس المجمع ، وكانت نظرة اليهود والفريسيين وقادة الدين إلى المسيح نظرة مشوبة بالكراهية

والحقد ، فهو فى نظرهم دخيل على نظمهم ، وأسلوب حياتهم ، فهل يمكن أن يخضع أو يخشع رئيس المجمع فى حضرة الناصرى المتجول ، وهل يمكن مع كبريائه أن يطلب المعونة من الواعظ الشعبي الذى يجول هنا وهناك ، وماذا يقول عنه أصدقاؤه أو الناس وهو ينطرح جهاز عياناً أمام الجميع فى حضرة السيد ؟ ! . . ولكن هذا كله من بركات الألم فى قصة الحياة الأرضية بين الناس ، . . لقد سجل تاريخ هذا الرجل ، وتحول مجرى حياته عند منعطف هذا المرض ، الذى غيره بالتمام فى كل شيء ، . .

وقف الولد الصغير يرقب بعينين قلقتين ماذا يقول الطبيب وهو يفحص أباه المريض ، وسمع خبراً مزعجاً لأن المرض قاس ، وأن الأب سيقضى وقتاً طويلا فى فراش المرض ، . . وأحس الولد بالمرارة ، وهو ينظر إلى امه التى كان عليها أن تكدح لأجل زوجها وابنها ، ولكن الولد قال لأمه : أنا الآن فى العاشرة من عمرى ، . . وينبغى أن تهتمى يا أمى بأبى ، وسأخرج أنا للعمل ، وقالت أمه : إنك صغير يا ولدى عن أن تعمل ، . . لكن الصغير تحول بطلا ، فخرج ليبيع الصحف ويعطى أمه ما يربح من وراء ذلك ، واقتصد من الطعام حتى كاد يهلك جوعاً ، وذات يوم سقط من الإعياء تحت شجرة فى حديقة من الحدائق العامة ، وأخذ إلى المستشفى ، وعرفت الصحف قصة البطل الصغير ، وانهالت التبرعات على الغلام الذى تحول عملاقاً أمام الجماهير ، . . وكان الألم والجوع والتعب والمعاناة هى سر البطولة فى قصة حياته ، وهكذا كان مرض ابنة يايرس أو بالحرى موتها ، هو الذى حول تاريخ يايرس بأكمله وسجله على مر العصور والأجيال ! ! . .

يايرس والوقت الآخر :

أخذت قصة يايرس بعداً أعمق عندما جاءته الصدمة القاسية : « ابنتك ماتت لماذا تتعب المعلم بعد » . . أو بعبارة أخرى إن المسيح وصل متأخراً

بحسب المفهوم البشرى ، . . وقد انتهى الأمل والرجاء ، بنهاية أنفاس الصغيرة وخروج روحها ، . . ونحن مهما بلغنا من الفصاحة أو عظمة البيان ، لا نستطيع الوصول إلى أعماق مشاعر الخيبة التى استولت على الرجل إثر هذه الكلمات ، .. ومن الواضح أن السيد المسيح تباطأ متعمدا — كما سنرى فيما بعد — لكى يصل يايرس إلى هذه النتيجة الغريبة التى كان يود تجنبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولكن يبدو أن هذه هى سياسة الله الثابتة ، عندما يريد أن يصنع شيئاً عظيما فى حياة الناس ، . . إذ أنه فى العادة يصل فى الوقت المتأخر . . ألم يفعل هذا مع أبينا ابراهيم ، عندما وعده باسحق ، وبالنسل الذى سيكون كنجوم السماء فى الكثرة وكالرمل الذى على شاطىء البحر ، وانتظر الرجل حتى أضحى ابن مائة عام ، وأصبحت الزوجة فى التسعين من عمرها ، وعندما سمعت سارة وهى فى الخيمة أن الوقت قد حان ، ضحكت فى باطنها ، . . وقالت : لقد جئت يا سيد ولكن للأسف فى الوقت المتأخر ! ! . . ألم يحدث هذا فى حياة الشونمية ، عندما دعاها أليشع وأسمعها وعد الله بأنها ستلد ابنا فى شيخوختها ، .. فصاحت المرأة : لا يا سيدى لا تكذب على جاريتك ! ! . ان الوقت أضحى متأخراً جداً ! ! .. أليس هذا هو إحساس زكريا وإليصابات عندما جاء الوعد بالمعمدان . . كان من المؤكد أن يتم هذا لو حدث من سنوات بعيدة ، . . ولكن الله يصل متأخراً بحسب المفهوم البشرى ، . . أليس هذا هو إحساس موسى وهو فى الثمانين من عمره ، عندما جاءه القدير فى سيناء لينهض بالرسالة الموضوعة عليه ، . وصاح موسى : كلا يا سيدى كان هذا من المتوقع وأنا فى الأربعين من العمر فى اكتمال الرجولة وقوة الحياة ، لكنى الآن فى الثمانين من العمر ، وأنا على مشارف النهاية ، . . لا يا سيد لقد جئت متأخراً ، أرسل بيد من ترسل ! ! . . على أن أى وقت متأخر بالنسبة للانسان ، لا يمكن أن يكون متأخراً بالنسبة ليسوع المسيح ! ! .

يايرس والشرط الواحـــد :

والشرط الواحد لا يتعدى كلمتين قالها المسيح ليايرس : « آمن فقط » (مر ٥ : ٣٦) وهما كلمتان يجوز للمؤمن أن يجعلها شعار الحياة الدائم فى كل الظروف ، فأينما سرت أو تقلبت بك الحياة ، أنت لا تحتاج إلا إلى القول : « آمن فقط » ، . . وهذه بديهية الحياة كان يجمل بنا أن ننتبه إليها من كل جانب ، . . هل تريد أن ترضى الله ، وتتمتع بأفضل شركة معه ، آمن فقط : « ولكن بدون إيمان لا يمكن ارضاوءه لأنه يجب أن الذى يأتى إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازى الذين يطلبونه » (عب١١ : ٦) فى جامعة هارفرد جاء شاب إلى طبيب من أعظم الأساتذة الأطباء فى الدنيا وقال له : أريد أن أسألك سؤالا واحداً ، أرجو أن تجيبنى عليه بكل وضوح : « هل تؤمن بالله » . . وقال الأستاذ : « بالتأكيد يا بنى ! إنى أؤمن من كل قلبى ، وأكثر من ذلك أقول لك إنى أفكر فى الله أكثر من تفكيرى فى أبحاثى ودراساتى التى أنكب عليها » . . يقال إن الايل تستطيع استنشاق رائحة الماء البعيدة عنها بسفر ثلاثة أيام ، ولهذا قال المرنم : « كما يشتاق الايل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله عطشت نفسى إلى الله إلى الإله الحى » . . (مز ٤٢ : ١و٢) هل تحس بحاجتك إلى الله بهذا المعنى ؟ ! . . هل تريد أن تتمتع بالخلاص ؟ « آمن فقط » ، كان سجان فيلبى يتصور أن الخلاص يمكن أن يكون بفعل ما عندما صاح : « يا سيدى ماذا ينبغى أن أفعل لكى أخلص » . . (أع ١٦ : ٣٠) ورده بولس إلى الإيمان فقط بالمسيح : « آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك » . . عندما ذهب مارتن لوثر إلى روما رآها مستنقعاً من الأوحال والدنايا ، . . كانت أشر الخطايا ترتكب هناك دون حياء أو تردد . . وقيل له إن من يصعد درجات السلم المقدس على مقربة من كنيسة القديس يوحنا راكعاً على قدميه تغفر له خطايا ألف سنة

وكان هو مشوقاً إلى هذا الغفران ، فأخذ يصعد على ركبتيه ، وعندما بلغ الدرجة الثالثة عشرة ، خيل إليه أنه يسمع صوتاً يقول : « البار بالإيمان يحيا » وعندئذ نهض على قدميه ونزل ، إذ أحس أن مثل هذا الصعود ليس بلا جدوى فحسب ، بل هو فى الحقيقة خطية ، إذ يصرف الإنسان عن الطريق الصحيح للخلاص ! ! . . وفى كل أزمات الحياة ، وصعابها ومشاكلها ، لا يضع الله إلا شرطاً واحداً لا أكثر ولا أقل : « آمن فقط » . . وقد وضع هذا الشرط ليايرس وهو أمام الموت ، ولم يطلب منه غير ذلك ! ! . .

يايرس وجواب المسيح على الإيمان

ولعلنا لو تابعنا هذه القصة بدقة لتبين لنا أن المسيح عميق الإحساس بالألم البشرى ، لقد رجع من كورة الجدريين إلى الجانب الآخر من البحيرة ، أو رجع من منطقة كانت معزولة صحراوية إلى منطقة تمتلىء بالناس والجماهير : « ولما اجتاز يسوع فى السفينة أيضاً إلى العبر اجتمع إليه جمع كثير » . . كانت الجماهير فى حاجة إلى يسوع المسيح ، والمسيح لا يمكن أن يتخلى عن المحتاجين إليه ، ولعلنا نتعلم من ذلك ، كيف تواجه احتياجات الناس وآلامهم ومتاعبهم ومآسيهم وأحزانهم ، إذ نعيش فى عالم ملىء بها جميعاً ، فى حاجة إلى الخلاص ، وإلى المخلص ، ولا يجوز بحال من الأحوال ، أن يترك دون مساعدة أو معونة ، . . على أن هذا الاحتياج الجماعى للناس ، لا يعنى إهمال الحاجة الخاصة للفرد ، فلقد توقف المسيح ليعطى قوته ومعونته لنازفة الدم التى انسلت بين الجماهير تنتظر شفاء من لمسة مباركة لمست بها هدب ثوبه ، . . وقد توقف المسيح لمساعدة المرأة المجهولة من الناس والمعروفة له ، ليعطى هذا اليقين أن طريقه دائماً ملىء بالحنان والرفق والعطف والشفقة ، وهو لا يقصد بذلك إهمال الصبية التى يسعى إلى بيتها ، أو التقاعس عن معونتها ، . . فلكل واحد منا مكانه ومجاله من حبه وجوده وإحسانه ، . .

لقد تعمد المسيح مع ذلك التأخير ، حتى يطبق اليأس على الجميع . عندما سعى يايرس كانت الصغيرة كما يقول مرقس : « على آخر نسمة » وكما يقول لوقا : « فى حال الموت » . . (لو ٨ : ٤٢) على أنه فى متى يقول أبوها إنها ماتت ، . . (مت ٩ : ١٨) وذهب المسيح إلى المكان ، ليرى الصبية ، وقد أحدث موتها فى المشاعر عواطف مختلفة من الحزن العميق ؛ والسخرية الضاحكة ، والعجز الكامل ، أما الحزن العميق فقد ظهر فى النوح على عادة اليهود فى ذلك الوقت . فكانوا يمزقون ثيابهم ، ويأتون بالنادبات والمزمرين . كانت النادبات متخصصات فى ترديد كلمات النوح والرثاء بكيفية تثير الشجن والأحزان ليبكى الجميع ، وكان المزمرون يستخدمون المزمار بألحان حزينة وتعميقاً للاحساس بالألم والحزن ، . . وعندما قال المسيح إن الصبية « لم تمت لكنها نائمة » : ضحكوا عليه ساخرين منه ؛ ومهما يكن القصد من قوله إنها نائمة ، فهو عين ما قاله عندما مات لعازر ، وهو التعبير الواجب عن موت المؤمن ، ومن سيقيمه السيد بعد لحظة قصيرة ، . . على أن الناس أن يضحكوا أو يسخروا ، حتى فى وقت الأحزان والآلام ، فإن هذا الضحك أو السخرية ، لا يلبث أن يتغير إلى الاجلال والتعظيم بعد فترة وجيزة ، عندما تثبت القدرة واضحة أمام الجميع على أى حال . إن الحزن والسخرية كانا أساساً وليدى العجز الكامل الذى استولى على الجميع : « لا تتعب المعلم » . . لقد بلغ الجميع الحط الذى لا يستطاع تجاوزه ؟ ! . وما أكثر الذين إلى اليوم يقفون موقف الساخرين القدامى ، عندما نتحدث عن قيامة الأموات ، لأنهم فى عجزهم أمام ملك الأهوال لا يستطيعون — وقد ضاع إيمانهم — إلا أن يسخروا هازئين من تصور القيامة والعودة إلى الحياة ! ! . .

لم يسمح السيد للمشهد المقدس أن يكون موضع رؤيا الجميع ، . . إن مشاهده العظيمة لا تعطى لكل إنسان أو حتى لكل تلميذ ، . . وهو يصنع

معجزاته فى السكينة والهدوء والوقار والحب والقدسية ، . . وهو لا يسمح للمزمرين أو الهائجين أن يبصروا ما يفعل ، وما كانت رسالته قط رفع العواطف والانفعالات التى قد تتحول — إذا لم تأخذ عمقها الحقيقى — إلى الخرافة والشعوذة ، ومن ثم نجده هنا يخرج الجميع ، ولا يدع أحداً يدخل معه إلا أبا الصبية وأمها ، وبطرس ويعقوب ويوحنا ، . . وأمام هذا الجمع المحدود يمد يده ويمسك بالصبية وهو يقول: « طليثا قومى » . . . (مر ٥ : ٤١) والكلمة طليثا ، ليست كلمة يونانية أو عبرانية ، بل هى كلمة أرامية ، تعنى صبية أو شاة صغيرة ، . . وهل هناك حنان يعدل هذا الحنان ، ورقة تعدل هذه الرقة ، وقدسية تبلغ هذه القدسية ، وقدرة تصل إلى هذه القدرة ، فيما يمكن أن يرى الناس فى معجزات الحياة على الأرض ، لقد كان المنظر عميق التأثير امتد إلى وجدان الكل : « فبهتوا بهتاً عظيما » . . وبعد سنوات كثيرة ، وفى مكان آخر حدث مشهد مماثل عندما ماتت غزالة فى يافا وسمع التلاميذ وأرسلوا إلى بطرس وكان فى ذلك الوقت فى لدة فأسرع إلى المكان : فوقفت لديه جميع الأرامل يبكين ويرين أقمصة وثياباً مما كانت تعمل غزالة وهى معهن . فأخرج بطرس الجميع خارجاً وجثا على ركبتيه وصلى ثم التفت إلى الجسد وقال يا طابيثا قومى . ففتحت عينيها . ولما أبصرت بطرس جلست . فناولها يده وأقامها » . . (أع ٩ : ٣٩ — ٤١) وقد فعل التلميذ هنا ما فعله سيده ، مع الفارق البعيد بين الاثنين ، بين القدرة الأصيلة والقدرة المكتسبة ، . ولكنه التلميذ على أى حال ، وقد ترسب فى أعماقه الصورة التى لاشك عاش طوال حياته دون أن ينساها ! ؟ . .

لسنا نعلم ماذا فعل يايرس بعد ذلك ، وماذا فعل المزمرون والنادبون ، . . لكنى أعتقد تماماً أن الرجل غنى ولاشك ما جاء فى المزمور الثلاثين : « حولت نوحى إلى رقص لى . حللت مسحى ومنطقتنى فرحاً لكى تترنم

لك روحى ولا تسكت . يارب إلهى إلى الأبد أحمدك » (مز ٣٠ : ١١و ١٢) وهل يعقل أن المزمرين لم يتحولوا من لحن الدموع إلى أغنية الترنم ، ومن شجن النحيب ، إلى هتاف الأفراح ! ! . . على أن السيد لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل يلمس الحياة اليومية لمسة رائعة ، وهو يطلب أن تعطى الصبية الطعام لتأكل ، . . والمسيح هنا لا يفرق بين المعجزة ، والعادى فى الحياة ، . أو كما قال أحدهم : إنه لم يجلس ليطلب من الفتاة أن تستوعب معنى عودتها إلى الحياة مرة أخرى ، أو أن المطلوب منها أن تفعل قبل كل شيء ، أن تحفظ مزموراً أو صلاة أو هتاف شكر لله ، لقد طلب أن تأكل ، وسيكون لها فيما بعد المزيد من الوقت للمعلم والتغنى والشكر ، . . إن المسيح وهو يدعو إلى إطعام الصغيرة يربط بين حاجة الروح وحاجة الجسد معاً ، وهو يرغب أن يسير الأمران أمام الله فى خط متواز متكامل . وهو لا يغفل أحد الاثنين فى الاتجاه إلى الآخر ، أو الانغماس فى أحدهما إلى الدرجة التى ينسى معها الثانى ، وهو إذ يهتم بعودة الروح إلى الجسد ، لا ينسى أن حفظ هذه الروح تكون بصيانة هذا الجسد الذى تعود إليه ! ! . . كم يحتاج الكثيرون من المترمتين أو المتطرفين فى هذا الجانب أو ذاك ، إلى إدراك الموازنة الكريمة بين الاثنين عند السيد ! ! . ولعل الصغيرة قد استمتعت فى ذلك اليوم بأحلى لقاء مع السيد ، وأشهى طعام تذوقته طوال حياتها التى عاشتها على هذه الأرض ! ! . .

١٠٨
ابن ارملة نايين

« ثم تقدم ولمس النعش فوقف الحاملون . فقال ايها الشاب لك اقول قم » (لو ٧ : ١٤)

حلم كوبر الشاعر العظيم ، فى لحظة من لحظات التأمل وتبكيت النفس ، أنه يسير فى مقابر عظماء الانجليز فى وستمنستر أبى ، وإذ سمع صوتاً ورأى باباً مفتوحاً من على بعد سارع نحو الباب . وقبل أن يبلغه قفل أمامه بصوت رهيب مفزع ، . . وقال كوبر إنه فزع من الباب المغلق على نحو لا يباريه فزع ولو صدر من جميع كنائس العالم مجتمعة معاً ، . الفزع من فقدان الباب الأبدى إلى السماء فى نهاية الحياة ، . . وإذا كانت قصة ابن أرملة نايين تعطى ما لا ينتهى من الدروس والعبر والعظات ، فإنها أولا وقبل كل شيء ، تكشف عن حب المسيح للشباب الذين يقف فى طريق موتهم فى زهرة العمر وقوة الشباب ، ليعطيهم حياة تستطيع أن تنقلهم من نعش إثمهم وخطاياهم وشرورهم ومباذلهم ، إلى الخدمة والقوة والمجد والنجاح ، والقديس أوغسطينوس يعتقد

أن كل واحد من الأناجيل الثلاثة التى دونت قصص المقامين من بين الأموات ، كانت تعنى شيئاً خاصاً ، فرقس دون قصة الصبية الصغيرة ابنة يايرس ، ولوقا دون قصة ابن أرملة نايين ، ويوحنا دون قصة لعازر ، وها نحن الآن نقف أمام أرملة نايين فيما يلى :

الشاب والمدينة :

ينسب هذا الشاب إلى مدينة نايين ، وهى مدينة قريبة من شونم حيث أقام أليشع قديماً ابن الشونمية ، . . ونستطيع أن نتصور الشاب فى مدينته ، والمدينة « نايين » تعنى « جميلة » ويقال إنها كانت مدينة جميلة صغيرة ، وإن كان مكانها اليوم لا يحكى صورة الجمال القديم الذى كانت عليه ، . . وقبل أن نتعرض للمدينة وجمالها ، لنذكر أننا بصدد حياة شاب كان فى ملء القوة والجمال والشباب ، . . والأصل فى الشباب ، هو الحياة لا الموت ، وهو القوة وليس الضعف ، وهو الاقدام وليس الاحجام ، وفخر الشبان قوتهم ، وفخر المدينة شبابها ، . . والشاب الحى هو الشاب الحامل ، والشاب الميت هو الشاب المحمول ، ولعل أفضل صورة للشباب الحامل هى ما جاء فى سفر الأعمال عن حنانيا وسفيرة ، : « فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات . . . فنهض الأحداث ولفوه وحملوه خارجاً ودفنوه . ثم حدث بعد مدة نحو ثلاث ساعات أن امرأته دخلت وليس لها خبر ما جرى . . . فقال لها بطرس ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب . هوذا أرجل الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجاً . فوقعت فى الحال عند رجليه وماتت فدخل الشباب ووجدوها ميتة فحملوها خارجاً ودفنوها بجانب رجلها » (أع ٥ : ٥ — ١٠) . . وما أجمل الكنيسة التى تمتلىء بالشباب الحى ، الذى يحق فيهم القول : « كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء وكلمة الله ثابتة فيكم وقد غلبتم الشرير » (١ يو ٢ : ١٤) . . ونحن لا نعلم الشىء الكثير

عن حياة ابن أرملة نايين ، وكيف عاش حياته فى المدينة ، وهل عاش كما يعيش الشباب فى العادة ، وهم يحاولون أن يأخذوا فى الربيع ما يعتقدونه رحيق الحياة ، . . لا ندرى ! وإن كان من السهل أن نرى أن نايين الجميلة مهما أعطت من متع ولذات ، فإنها لا تستطيع أن تكشف آخر الأمر إلا عن النعش الذى يخرج منها ، وكأنما يدفن معه كل الأحلام والآمال والرؤى والانتظارات ، . . وهل يمكن أن تنسى الشاب القديم الذى جرب المتعة والبهجة والفرح وهو يقول : « ومهما اشتهته عيناى لم أمسكه عنهما . لم أمنع قلبى من كل فرح . لأن قلبى فرح بكل تعبى وهذا كان نصيبى من كل تعبى . ثم التفت أنا إلى كل أعمالى التى عملتها يداى وإلى التعب الذى تعبته فى عمله فإذا الكل باطل وقبض الريح ولامنفعة تحت الشمس» (جا ٢ : ١٠و١١) فإذا تناولنا القصة من جانب آخر ، فإن الشاب الذى يخرج من مدينة اللذات الجميلة محمولا على نعش ، فإنما يكشف عما تفعل اللذات والمباهج فى عمر الشباب ، إذ أنها تقصف فى العادة عمره وحياته ، . . .

جلس الشاب على المائدة ، وقد وضع أمامه زجاجات الخمر ، ورآه آخر فاستأذنه فى أن يجلس إلى جواره دقائق ، وإذ سمح له ، سمع منه القول : إننى أعرف جيداً الذين يشربون من هذه الكأس ، وأذكر أن الكثيرين جئ بهم إلى الكنيسة محمولين ، فمنهم من مات فى حادث إذ كان سكراناً ، ومنهم من أتلفت الخمر كبده ، ومنهم من فقد حياته لهذا السبب أو ذاك ، وظل يعدد له صوراً كثيرة فزع معها الشاب وأسرع هارباً ، تاركاً كأس الخمر ، كمن تلدغه الأفعى ، . . وليست الخمر وحدها هى التى تفعل هذا ، بل كل النزوات والشهوات التى يتردى فيها الأحداث عندما يصبحون عبيداً للخطية والفساد ، فينالون الجزاء الذى لابد منه ، لأن أجرة الخطية هى موت ، وقد أحرق الإثم كل مقومات الحياة فيهم ! ! . . والشاب الميت إلى جانب

ذلك كله معدوم الإرادة محمول فى نعشه ، يحمله أصدقاؤه وأصحابه إلى حيث لا يدرى أو يعلم ، فهو كالسمك الميت فى النهر يدفعه التيار حيثما يسير ، لا مبدأ أو استقامة أو إرادة على الإطلاق ، يعيش حياة الوجودية الملحدة ، اليوم خمر وغداً أمر « ولنأكل ونشرب لأننا غداً نموت » ، . . عندما رأى تشارلس لام سلطان الخمر عليه وأنه لا يستطيع أن يملك إرادته عليها كتب يقول : هل يستطيع الشبان الذين تستهويهم رائحة الكأس الأولى الجميلة أن يأتوا ويلقوا نظرة على ليفهموا كم هو أمر مرعب أن يرى الإنسان نفسه يتدحرج إلى هاوية سحيقة بعيون مفتوحة وإرادة معدومة ، ينظر هلاك نفسه ولا يملك قوة الإرادة التى توقفه ، ويحس أن كل صلاح قد تركه ومع ذلك لا يستطيع أن ينسى الوقت الذى لم يكن فيه كذلك ! ! . . كانت هنـــاك سيدة أمريكية من زعيمات الهيئة الاجتماعية فى واشنطون، وهى سيدة لا تشرب الخمر ولا تدخن ، ومن العجيب أنها سألت سيدة شابة عندما رأتها تدخن إن كانت حقاً تحب التدخين فردت بالقول : أواه كم أكرهه ! ! ولى شهور وأنا أحاول أن استسيغه : وكلى رعب لئلا أفشل ، فلا أحسب أهلا للوجود فى المجتمعات الراقية . . .

والشاب الميت أيضاً هو الشاب الذى حمله أصدقاؤه الشباب إلى القبر لدفنه ، وهى حقيقة مثيرة غريبة لم يستطع أن يدركها الابن الضال إلا متأخراً إذ أن أصدقاؤه القدامى كانوا أول من تخلوا عندما بذر ماله بعيش مسرف ، ولما احتاج واتجه إليهم لم يعطه واحد منهم شيئاً . . . هل قرأت : « البحرى القديم ! ! ؟ » ربما تظن أن من أغرب التخيلات وبخاصة ذلك الجزء الذى يصور فيه البحرى جثث الموتى تقوم بادارة السفينة ، فموتى يجرون الحبال ، وموتى يديرون الدفة ، وموتى يبسطون الأشرعة ، وموتى يراقبون الطقس ، وموتى هم المسافرون ، . . وقد تقول إنه خيال غير مفهوم ، ولكنك

تستطيع أن تفهمه إذا ذكرت قول السيد لواحد من التلاميذ أراد أن يؤجل مجيئه للخدمة حتى يدفن أباه وإذا بالمسيح يقول : « دع الموتى يدفنون موتاهم » (مت ٨ : ٢٢) وما كان الشباب الذين يحملون الشاب زميلهم إلى قبره إلا صورة من ملايين الصور على الأرض على توالى العصور والأجيال للموتى الذين يشيعون إلى القبور أمواتهم حتى يأتى دورهم ليشيعهم آخرون !!.

الشاب وأمـه :

كانت المأساة قاسية ومزدوجة ، لأن الميت شاب ، ووحيد لأرملة ، . وقد تحدثنا عن إمكانيات الشباب الحى وكيف أنهم ثروة البيت والكنيسة والأمة ، . . وفى كل ميدان تتحرك الحياة بتحرك الشباب ، . . لقد قادت جان دارك بلادها وأنقذت شعبها وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، ثم أحرقت ودفنت ، وكان واشنطون كولونيلا فى الثانية والعشرين من عمره ، ودخل غلادستون فى هذه السن البرلمان الانجليزى لأول مرة ، وأضحى تشارلس فوكس من أعظم رجال القانون وهو فى ريعان الشباب ، وتخرج فرانسس بيكون من كمبردج قبل العشرين من عمره ، وبرع رفاييل فى الرسم قبـل أن يصل إلى الأربعين ، وملك موزار بسمفونياته أوربا بأكملها، وهو لم يزل شاباً صغيراً ، وغير لوثر أوربا وهزها من الأساس وهو فى قوة الشباب ، . . ولا شبهة فى أن المسيح كان عميق الإحساس بهذه الحقيقة ، وهو ينظر إلى الشاب الذى يخرجونه من نايين وتشيعه أمه الأرملة ، . .

كان فى روما القديمة سيدة رومانية اسمها كورنيليا زارتها ذات يوم إحدى جاراتها ورأت أنها خالية من كل حلية ، فقالت لها : « أين جواهرك !!؟» . . فأشارت كورنيليا إلى غلامين صغيرين هما ابناها وقالت : « هذه هى جواهرى » . . ولعلنا ذكرنا فى مرة سابقة قصـة

جون برنس ، وقد كانت أمه إمرأة فقيرة وقد سارت فى شارع من أصغر الشوارع الانجليزية وهى تحمل سلة ممتلئة بالثياب ، كان عليها أن تغسلها ، وتأخذ أجرها من سكان الشارع الذين كانوا يعرفونها ويعطفون عليها ، ويعطونها بعض الطعام شفقة بها وبابنها الذى كان فى ذلك الوقت فى الثامنة من عمره ، ووضعت المرأة المسكينة فوق الثياب القذرة فتات الخبز والطعام التى أحسن بها إليها ذوو الشفقة والرحمة من عملائها ، وكان الليل حالكاً والبرد قارساً فلم تكد تجتاز شارعاً أو شارعين حتى التفت إليها ولدها وقال لها : « لقد تعبت يا أماه » فنظرت إليه وأغرورقت عيناها بالدموع ووضعت السلة على الأرض ، ودعته للجلوس عليها ، ففعل ، وبينما هو يسترد قواه الضعيفة حانت منه التفاتة فأبصر البرلمان الانجليزى فقال لأمه : « انظرى يا أماه لو منحنى الله صحة وقوة لأدخلن هذه الدار ، فلا تبقى فى انجلترا أم تضطر إلى العمل كما تعملين ، ولا يبقى ولد يعيش فيها كما أعيش . . ومرت الأيام وحقق الله للولد حلمه فدخل البرلمان بصفته واحداً من زعماء حزب العمال ، ومن أعظم المكافحين من أجل الفقراء البؤساء بين الناس ! ! ..

أجل سعيد ذلك الشاب الذى يدرك أنه مسئول ، وأن عليه مسئولية كبيرة ، . . إن أعظم ما فى قصة يوسف ليس انتصاره على التجارب والشهوات فحسب ، بل إدراكه مسئوليته العظيمة فى إنقاذ بيته ، وشعبه ، والعالم كله ، .. والشاب الأعظم الذى هو المثل الأعلى والأوحد لجميع الشباب ، لم ينس مسئوليته تجاه أمه العذراء وهو فوق الصليب . . .

وعلى العكس من ذلك تأتى للأسف قصة الشاب الميت ، الذى يحمله غيره لدفنه خارج مدينته ، وقد انتهى إحساسه بالمسئولية تماماً تجاه أمه ، وتجاه الجميع ، . . ولا شبهة فى أن حزن الأم كان طاغياً ، وكانت دموعها غزيرة ، وهى صورة لكل أم تودع ابنها الذى يضل فى الكورة البعيدة ،

ويموت بعيشته فى الموبقات والشر والاثم والفساد . . . والذين قرأوا قصة مونيكا وهى تذرف الدموع طيلة تسع سنوات من أجل أوغسطينوس ، يعلمون كم تعانى الأمهات من أجل الشباب الضائع المستهتر فى الحياة !! .. تحدث أحد الخدام عن زوجته المتوفاة ، وكيف أنها ساعة الوفاة أحضرت أولادها جميعاً ، وكانت تطلب من كل واحد منهم أن يقابلها فى الأبدية أمام الله ، . . وجاءت آخر الكل للولد الأكبر وكان عربيداً ، وقالت له : إنى أطلب إليك يا ولدى أن تعدنى بأن تطلب خلاص نفسك !! .. فتردد قليلا وأحنى رأسه فى صمت ، وعندما رفع رأسه رأى وجهها الممتلىء بالألم والحب ، وسمعها تقول : أريد أن أراك معى أمام الله ، . . . وعندئذ تألق وجهها وشاعت منها ابتسامة الرضى ، وماتت !! .. ومن تلك اللحظة ابتدأ الشاب يقرأ الكتاب ويصلى ، ووقع تحت تبكيت الضمير ، وكان يصارع دون جدوى ، . . وفى صراعه بلغ نقطة اليأس ، فأخذ يشرب الخمر ، وسار فى طريقه إلى مكان من أشر وأحط الأمكنة ، وهم أن يدخل ، .. وهنا رأى وجه أمه المتوسل ، وكأنما سمع صوتها يدوى فى أذنيه ، .. فجاء إلى يسوع المسيح !! ..

الشاب والمسيح :

كان موكب المسيح فى الطريق إلى مدينة نايين ، وكان مع المسيح جمع كثير ، وعند باب المدينة كان هناك موكب الجنازة التى تحمل الشاب فى الطريق إلى المقابر ليدفن هناك فى خارج المدينة ، وحسب الفكر البشرى كان اللقاء بين الموكبين مصادفة ، . . وحسب الترتيب الإلهى كان اللقاء نوعاً من العناية الأكيدة التى تشمل كل الظروف والأحداث فى هذه الأرض !! .. قديماً صاح إرميا : « عرفت يارب أنه ليس للانسان طريقه .

ليس لإنسان يمشى أن يهدى خطواته ، . . (ارميا ١٠ : ٢٣) أدرك إرميا أنه ليس الطريق فحسب ، بل كل خطوة فيه أيضاً ! ! .. فإذا ذكرنا هنا جمعاً كثيراً يأتى مع المسيح خارج المدينة ، وجمعاً كثيراً آخر يخرج من المدينة ، فالتقاء الجمعين ليس من قبيل الصدف على مقربة من بابها ، بل كان لابد أن يحدث هذا ! ! .. ترى هل يعلم الناس هذا ، وهم يتجمعون هنا وهناك بأعداد لا تنتهى فى طريق الحياة ، . . أغلب الظن أن ازدحام الناس وكثرتهم وتضارب اتجاهاتهم لا تعطى الفرصة للتأكد من أن هناك تدبيراً بارعاً محكماً يسيطر على كل شيء ، . . قالوا إن تاريخ أوربا بأكمله حددته خطوة واحدة ، عندما كان نابليون فى أول حياته العسكرية ، وخطا خطوة واحدة حين حل محله آخر ، وكان ذلك فى طولون ، وفى الحال جاءت قنبـلة قتلت من حل محله ، . . وكان يمكن أن تصيبه هو لو تأخر دقائق قليلة من الزمن ، . . كم يتغير تاريخنا وتمسح دموعنا ويشيع الهدوء والسعادة فى حياتنا ، لو ذكرنا أن الله يحكم كل شيء فى الزمان والمكان والظروف التى نعيشها دون إهمال أو إمهال .

على أن صوره أعمق وأبعد تسير بنا فى الاتجاه الصحيح فى القصة ، إذ تخرجنا من زحام الجماهير إلى الفرد الواحد ، ونحن نرى هنا السيد المسيح لا يكاد يحول عينيه عن المرأة الأرملة الباكية ، . . أو بعبارة أخرى ، إن العناية تتحول من الجمهور إلى الفرد ، ومن الكثيرين إلى إنسان المأساة ، . . وهنا ينبغى أن نتعلم أن زحام الحياة لا يخفى كل واحد منا فى ظروفه وآلامه ومأساته وأحزانه عن نظر السيد ، . . فلكل واحد منا مكانه الدقيق الخاص من عنايته : « فلما رآها الرب تحنن عليها وقال لها لا تبكى » . . وأى حنان هذا ! ! ؟ لا شبهة فى أن المرأة وجدت حناناً من الذين يسيرون معها ، . . وبعض هذا الحنان هو الإدراك الحسى بآلامها ، وبعضه هو نوع من المجاملة

التى درج الناس على أن يقدموها فى مثل هذه الأوقات والظروف ، .. وبعضهم قد يذهب بنوع من الاستعلاء الذهنى أو النفسى متمشياً مع الجمهور ، دون أن يقترب من عاطفة المتألم أو مأساته ، أو نكبته ، !! .. لكن أيا كان الحنان فإنه لاشىء إزاء حنان المسيح وإحساسه العميق بآلام الآخرين !!. إن المسيح كإنسان ، هو الانسان الوحيد المبرأ من الخطية ، وبعبارة أخرى هو المبرأ من البلادة التى أورثتنا إياها الخطية ، . . ومهما عرفنا من شركة الآخرين وآلامهم تجاه أحزاننا وأوجاعنا ، فلا يوجد قط بينهم من يستطيع الاقتراب من حب المسيح وحنانه المنزه عن كل جمود عاطفى أو ضعف وجدانى !! .. ولعله مما تجدر الإشارة إليه أن إحساس المسيح كان عميقاً تجاه المتألمين الذين أقام موتاهم لأن ابنة يايرس كانت وحيدة أبويها ، وابن الأرملة كان وحيداً لأمه ، . . ولعازر كان الأخ الوحيد لأختيه ، . . أو أن المسيح فى حنانه كان يدخل فى العادة منطقة العزلة أو الوحدة التى يصنعها الألم فى حياة الناس ، .. كانت الأرملة تسير مع الجماهير ، لكن الحزن جعل بينها وبينهم جميعاً عازلا مخيفاً ، كانت وحدها فى وسطهم تحمل أقسى الآلام وأشد الأوجاع ، . . وكان الذين حولها يلتصقون بها ، وهم بعيدون مهما كان اقترابهم الجسدى منها ، . . لكن المسيح تحنن عليها عندما رآها تبكى !! ..

على أن المسيح لا يقف عند مجرد الحنان فحسب ، بل يتقدم خطوات أبعد وأعمق وأكمل ، . . قال للمرأة : « لا تبكى » . . وهو كلام لو وقف عند هذا الحد لبدا غريباً غير طبيعى ، فإذا قاله غير المسيح فهو كلام أجوف بلا معنى أو عمق ، لكنه عندما يصدر من المسيح يأتى بالبرهان العملى ، وقد لمس المسيح النعش ، فوقف الحاملون ، ولم يكن النعش صندوقاً مغلقاً كما هى العادة فى هذه الأيام ، بل كان محفة يحمل فيها الميت حتى يوضع فى

القبر ، ولا شبهة فى أن الجميع تعلقت أنظارهم بالنعش ليروا أعجب منظر يمكن أن تقع عليه العين البشرية ، لقاء الحياة مع الموت ، .. ألم يقل السيد « أنا هو القيامة والحياة » (يو ١١ : ٢٥) ونحن نراه هنا يواجه الموت ، وقد ضرب ضربته القاسية فى شاب كانت تتفجر فيه القوة والحياة . . .

لمس المسيح النعش ونادى الميت : « أيها الشاب لك أقول قم » !! .. فجلس الميت وابتدأ يتكلم !! .. (لو ٧ : ١٤ و١٥) يا لها من قوة عجيبة وعظيمة ما زالت إلى اليوم تتردد فى سمع الملايين من الموتى من كل جنس وأمة ولسان من الشباب الميت : « أيها الشاب لك أقول قم » !! ..

شتان بين العالم والمسيح ، وبين فعل الخطية وقوة السيد ، . . إن موكب الموت الخارج من مدينة نايين ، يكشف لنا عما يمكن أن يفعله العالم فى حياة الناس ، أو بتعبير أدق وأصح فى موتهم ، إذ يسارع بدفنهم ، أو يشهد بموتهم ، دون أن يملك لهم القيامة والحياة ، . . دخل شاب إلى إحدى الجامعات وقاده أقران السوء إلى المجون والخلاعة والشر ، فانحدر وسقط ، وكان سقوطه عظيما ، وإذ أيقن أنه فقد كل شيء جسدا وعقلا ونفساً وروحاً انتحر ، وجاء أخوه ليتسلم جثته ، وإذ رأى مدير الجامعة قال له : لقد أرسلت أمى ابنها إليك ، وهو ابنها الأصغر بنيامينها المحبوب ، وقد أرسلته بريئاً جميلا نقياً كالزهر ، فماذا صنعت به ، وماذا بقى منه لأقدمه لأمى ؟ . . وأجاب المدير بتأثر : لقد فعلت من أجله كل ما يمكن أن يفعل ، ولكنه كان مندفعاً بجنون نحو الهلاك ، ولم يبق منه سوى هذه الحطام التى أنت تراها !! .. فى الواقع إن العالم لا يمكن أن يفعل مع هذا الميت إلا أن يشيع جثمانه ، فى كفنه ونعشه ، حتى يلتقى بيسوع المسيح !! ..

إن القصة لا تقف عند هذا الحد بل تمتد إلى أكثر : « فدفعه إلى أمه » . . لقد أعاده المسيح إلى الحياة وإلى أمه ، وقد جمع المسيح الشمل المتفرق ، . .

وقد فعل هذا مع ابنة يايرس عندما أعادها إلى أبويها ، وفعل هذا مع لعازر عندما أعاده إلى بيته وأختيه ، وهو دائماً يجمع شمل العائلة ، ويعيد الميت والضائع والضال إلى وحدة الأسرة والعائلة ، . . وهو يزيل بذلك أقسى أسباب الآلام فى الحياة ، عندما ينفرط عقد كيان الأسرة ، ويتفرق شملها ، وتفقد دفء الشركة الحلوة البيتية ، . . .

وهو إلى جانب هذا يعيد الشباب المفقود إلى رسالته التى انتهت وضاعت ، لقد كان الشاب عضداً لأمه وساعدها فى مواجهة الحياة والمتاعب والآلام ، . . وها هو يعود ليأخذ مكانه الصحيح مرة أخرى !! ..

تذكر القصة الكتابية أن الشاب جلس بعد أن أقامه المسيح وابتدأ يتكلم ، .. ولا نعرف ماذا قال ، أو بماذا استطاع لسانه أن ينطق ، . . لكن الذى لا شبهة فيه أنه قد استولى عليه العجب ، وهو يرى نفسه محمولا على محفة ، وفى وسط جماهير كثيرة ، . . وإذ أعاده السيد إلى الحياة مرة أخرى ، وأعاد إلى أمه فرحها وبهجتها وسعادتها الطاغية ، لاشك أنه انحنى معها سجوداً وشكراً لمخاصه ومنقذه من براثن الموت ، وعاد مع الجميع ليتكلم عن عظمة السيد وقدرته الفائقة التى لا نظير لها ، .. ولعله عاش طوال حياته يتحدث عن معجزة قيامته من بين الأموات ، وليشهد برحمة الله التى منحته الفرصة الثانية فى الحياة ، . . وفى الحقيقة إن السيد ينتظر من كل شاب كان ميتاً بالذوب والخطايا وملفوفاً بأكفانه وموضوعاً فى نعشه ، وجاءته اللمسة المباركة التى أعادت إليه الحياة ، أن يقول ما قاله بولس : « أنا الذى كنت قبلا مجدفاً ومضطهداً ومفترياً . ولكنى رحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان . وتفاضلت نعمة ربنا جداً مع الإيمان والمحبة التى فى المسيح يسوع . صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص

الخطاة الذين أولهم أنا . لكنني لهذا رحمت ليظهر يسوع المسيح فى أنا أولا كل أناة مثالا للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية » . (١ تى ١ : ١٣ – ١٦).

هل تعلم أيها القارىء العزيز أن المسيح فى موكبه العظيم ما زال يوقف إلى اليوم ملايين الشباب الملفوفين فى أكفان موتهم ، عند أبواب الكثير من المدن فى الشرق والغرب ويقول لكل منهم ما قاله للشاب القديم : « أيها الشاب لك أقول قم » ! ! . . يا ترى هل سمعت هذا الصوت ومتى ! ! ؟ .. أم أنت ما زلت فى نعشك لم تسمع بعد الصيحة العظيمة ! ! ؟ .. ليتك تسمع وتعود إلى الحياة والرسالة والمجد فى المسيح ، فلا تعيش – تدرى أو لا تدرى – فى أوهام القصور أنك حى وأنت ميت ! ! ..

١٠٩
لعازر

« أنا هو القيامة والحياة . من آمن بى ولو مات فسيحيا وكل من كان حيا وآمن بى فلن يموت الى الأبد » (يو ١١ : ٢٥ ، ٢٦) .

كان أحد العلماء ينقب فى مقبرة قديمة فارغة ، لم ير فيها جثة ، وظن أن يداً أثيمة امتدت إلى المقبرة ، لتختلس كل شىء ، مما يودع عادة من كنوز وأثار ، . . ولكنه لم ير ما يدل على عبث اللصوص ، ووجد على العكس من ذلك درجاً مغلقاً ففتحه ليرى رسالة عن الخلود يقول فيها صاحبها : « لا يستغربن أحد إذا جاء إلى قبرى ولم يجدنى . فأنا فى واقع الأمر ، ليس القبر مثواى ، بل أنا فى دنيا الخلود ، والخلود ليس أكذوبة أو وهماً ، بل هو الحقيقة التى أحياها إلى الأبد ، . . لا تجزع أيها القارىء إذا دنا منك الموت لأن ليس فى عالم الموت بالنسبة للمؤمن ما يخيف . . ولا تظن أنك فان ، وان ما تعمله سوف لا تجازى عليه . إنك لم تخلق عبثاً وحياتك على الأرض لم تكن بغير معنى أو قصد . . إنك قد وجدت لتكون

مصدر نفع وخير لهذا الوجود . وإن حياتك الأرضية ليست إلا مقدمة لحياة أبدية خالدة . فالموت لن يغنيك لأنك ستظل حياً إلى الأبد . واعلم أن الناس جميعاً هم نتاج ما صنعته يد الله القديرة . فهذا الإله العظيم هو الذى يصوغ أشكال الناس ويصقلهم ليخرجوا ممهورين بطابعه وآخذين شكله ومثاله ، فطب نفساً أيها الإنسان لأنك سوف تحيا خالداً فى دائرة كون إلهك الخالد . فافرح بما حباك الله من نعمة الخلود واهتف معى هتاف المجد والحبور » . .

وطوى العالم الرسالة بوقار ووضعها مكانها ثم خرج من المقبرة وهو يردد : « هذا كلام نبى ، إنه صوت يدوى من ظلمات القبور ولابد أن يكون هذا الضريح قد حوى جثمان نبى أو قديس رجع جسده إلى التراب ، ولكن صاحبه يعيش بروحه الخالدة ، ويرغب فى أن يسمع أبناء هذا العالم رسالة الخلود » .. !! .

لا توجد فى الكتاب المقدس كله رسالة تتحدث عن القيامة — باستثناء قيامة المسيح نفسه من بين الأموات — أفضل من قيامة لعازر ، القيامة التى قال عنها اسبينوزا الفيلسوف اليهودى ، إنه لو أمكن أن يؤمن بها لحطم نظرياته جميعاً وقبل الإيمان المسيحى ، . . فإذا قد تعرضنا فى القصتين السابقتين لقيامة ابنة يايرس ، وابن أرملة نايين ، ورأينا الأضواء العظيمة فى كليتهما ، فلعلنا نستطيع هنا أن نرى أنواراً أبهى وأعظم ، . . ومع أن الكتاب لم يسجل كلمة واحدة نطق بها لعازر ، إلا أن قصته تدوى فى كل التاريخ بأعظم ما يكون الصوت والدوى ، . . وها نحن لذلك نراها فيما يلى :

لعـازر وبيتـه :

عاش لعازر فى بيت عنيا الواقعة على بعد ميلين إلى الشرق من مدينة أورشليم ، . . وعلى الأغلب كان بيته من أظهر البيوت ، وربما أغناها فى

قرية بيت عنيا ، ويظن البعض أن حديقة جثيانى التى كان يلجأ إليها المسيح كانت ملكاً لهذه الأسرة المكونة من مرثا الأخت الكبرى ، ومريم ، ولعازر ، . وقبل أن نتحدث عن قيامة لعازر لابد من الاشارة إلى ميزات هذا البيت العظيم القديم !! . لقد كان أول مظهر له أنه صورة البيت المترابط المتضامن وهو يمثل الظاهرة التى مازالت ظاهرة إلى اليوم فى الشرق ، وما زالت فى الكثير من البيوت الشرقية أكثر بروزاً وظهوراً مما فى بيوت الغرب ، والتى تفككت فيها الوحدة الأسرية ، بدعوى الاستقلال والحرية وتحمل المسئولية ، والله وحده يعلم إلى أين ستنتهى الحضارة الغربية مع رسوخ هذه النزعة فى المفهوم الغربى !! .. أراد واحد من السماسرة الذين يبيعون البيوت إغراء سيدة عصرية بشراء منزل ، .. فصرخت : منزل وهل أنا فى حاجة إلى منزل . . لقد ولدت فى مستشفى ، وتعلمت فى كلية ، وأملك سيارة ، وتزوجت فى كنيسة ، وأقضى الصباح فى لعب الجولف ، والظهر على مائدة البردج ، وفى المساء فى السينما ، وعندما أموت سأدفن فى قبر ، . . أنا فى حاجة فقط إلى جراج ، . . هذا النوع من الناس لا يعلم دفء الحياة البيتية ، والعالم لا يستطيع أن يقدم ما يوازى هذا الدفء والحب والشركة الأخوية ، مهما بذل أو أعطى أو جاء !! ..

على أن هذا البيت كان أكثر من ذلك بيتاً للمسيح ، وبعضهم يعتقد أنه لم يوجد بيت على الأرض ، كان المسيح يحس فيه أنه فى بيته بكل ما فى الكلمة من معنى ، مثل هذا البيت العظيم القديم ، . كان البيت المحبوب من المسيح ، وكان البيت الذى يحب يسوع المسيح ، ونحن لا نعلم كم على درجة كان البيت من الثراء المادى ، لكننا نعلم أنه البيت الذى كان فى أعلى مستوى من الثراء الروحى ، فهناك مرثا التى تحب يسوع ، وقد أحبته إلى درجة الارتباك بتهيئة أفضل وأفخم مائدة له ، . . وهناك الفتاة الحالمة مريم التى

يستهويها الجلوس عند قدمى يسوع ، والتى تنسى الدنيا بأكملها عندما تجلس عند موطىء قدميه لتستمع إلى كلماته الحلوة التى لا يوجد فى الدنيا نغم أحلى منها وأجمل ، .. والتى سكبت عطرها على رأسه وقدميه ، وخرج هذا العطر من نافذة البيت يستنشقه التاريخ بأكمله ، . . وهناك لعازر الذى لم يسجل الكتاب كلمة واحدة له ، . . ولكن سجل كلمة رائعة عنه : « لعازر حبيبنا » . . . هل كان الرجل قليل الكلام عميق التأمل ؟ ! وهل كان ذلك الانسان الذى لا يحسن التعبير عن حبه بالكلام ، بقدر ما يعبر عنه بالحركة والايماءة والابتسامة والصمت ؟ ! . . على أى حال لقد كان هذا البيت من أسعد بيوت التاريخ تعلقاً بيسوع المسيح وارتباطاته ، وكان واحداً من البيوت العظيمة التى أجلست يسوع ملكاً عليها جملة وتفصيلا .

ما أجمل هذه البيوت وما أعظمها ، عندما تعطى المسيح مثل هذه المكانة ، وتكون من السقف إلى الأرض ملكاً خالصاً له ، . . عندما رسم الأسقف إدوين هولت هيوجز فى الكنيسة الميثودستية ، أرسلت إليه أمه خطاباً تقول فيه : « إنه يبدو لى غير بعيد ذلك الصباح الذى وضعك الله فيه بين ذراعى ، ولم أشعر قط أنك خرجت من بين ذراعيه ، وأنت آت إلى ، وأنا الآن أفعل ما سبق أن فعلته كثيراً ، . . إذ أضعك بين ذراعى الله . . أنى أسلمك بفرح للمسيح مطلقاً وإلى الأبد ، . . أنت خادم للمسيح ، وهو سيحفظك ويرشدك ، ويقويك ، ويعزيك ، . . وإذا حدث أن أخذنى فى عنايته قبلك ، فانى سأنتظر مجيئك بفخر ، وكما حدث وأنت تجىء إلى لابساً بزتك العسكرية عندما كنت جندياً ، فانك ستأتى حاملا سمة المسيح : « نعما أيها العبد الصالح والأمين » . . . كان بيت لعازر جميلا بالتضامن الحبى بين أفراده ، وأجمل — بما لا يقاس — بارتباط هذا البيت بيسوع المسيح ! ! ..

لعازر ومرضه :

أرسلت الأختان إلى المسيح قائلتين : « يا سيد هوذا الذى تحبه مريض » ولعله يجمل بنا أن نقف هنا بعض الوقت أمام هذه العبارة البليغة الموجزة ، وهى تفصح عن أكثر من معنى ، . . ولعل أول المعانى ، أن حب المسيح لم يمنع لعازر من المرض ، ولم يمنعه من الوقوف على حافة الموت عندما أرسلت الأختان إلى السيد ، وهما منزعجتان من التدهور فى حالة أخيهما المحبوب ، وهى قاعدة ينبغى ألا نجهلها بمظنة أنه ما دام المسيح يحبنا فنحن بمنجاة من التجارب والمتاعب والمآسى ، ولسنا نظن أن هناك وعداً واحداً فى الكتاب بذلك ، وقصة أيوب ستظل مثلا خالداً لذلك ، وصرخة آساف فى المزمور الثالث والسبعين تشهد أيضاً بهذه الحقيقة : « لأنى غرت من المتكبرين إذ رأيت سلامة الأشرار لأنه ليست فى موتهم شدائد ، وجسمهم سمين . ليسوا فى تعب الناس ومع البشر لا يصابون » (مز ٧٣ : ٣ — ٥) . . إن الوعد الإلهى لا يعطى حصانة ضد التجارب ، ولكنه يعطى يقيناً بسير الله معنا فيها ، ، ومعونته للانتصار عليها : « إذا اجتزت فى المياه فأنا معك وفى الأنهار فلا تغمرك إذا مشيت فى النار فلا تلدغ واللهيب لا يحرقك » (اش ٤٣ : ٢) . . . قال الرسول بولس عن ابفرودوتس : « فانه مرض قريباً من الموت لكن الله رحمه وليس إياه وحده بل إياى أيضاً لئلا يكون لى حزن على حزن » (فى ٢ : ٢٧) . . كان لرجل ملحد عبد مؤمن وكان العبد كثير الأمراض والمتاعب ، . . وقال سيده له ذات يوم ، إذا كان هناك إله كما تقول فلماذا تكثر متاعبك وتجاربك ، فى الوقت الذى أنعم أنا فيه بالكثير من الخيرات والمتع ، . . واستأذن العبد فى الجواب إذا كان لا يرضى سيده ، وهو يقول : عندما نخرج يا سيدى للصيد هل تسارع بالسعى وراء الصيد الجريح أم الميت ، . . قال : الجريح طبعاً فالميت

مضمون . . فقال العبد : إن الشيطان يسعى ورائى مع جراح التجـارب لأنى أشبه الصيد الجريح أما أنت فمضمون فى يده ، وهو لذلك لا يجهد نفسه معك كثيراً !! .. على أى حال مهما تكن بلايا الصديق فمن جميعها ينجيه الرب !! ..

على أن المعنى الثانى الواضح فى المرض ، هو أن الأختين استنجدتا بالمسيح فى المرض ، بالقول : « هوذا الذى تحبه » . . ومع أن المسيح أشار إلى : « لعازر حبيبنا » إلا أن الأختين حرصتا على القول : « الذى تحبه » — أكثر من القول : « الذى يحبك » . . . وهى كلمات غنية جداً بالمعنى العميق فنحن نلجأ إلى المسيح لا استناداً إلى حبنا له ، بل إلى حبه هو لنا ، وشتان ما بين الاثنين فأولهما حفنة الماء ، وثانيهما فى المحيط الطامى ، . . فحبنا مهما قوى للمسيح لا يعد قطرة من حبه الأبدى لنا ، بل عندما يضعف حبنا أو يتعثر أو يهتز تحت هذا أو ذاك من ضربات الحياة أو متاعبها أو تجاربها ، فإن حبه لا يتغير قط لأنه الله محبة !! .. والمعنى الثالث فى التعبير واضح من أن الأختين أرسلتا إليه الخبر دون طلب أو تعليق ، فلم تطلبا مثلا سرعة مجيئه أو ما أشبه ، بل تركتا لحبه أن يتصرف كما يشاء ويريد ، ولحكمته أن تفعل ما تراه مناسباً لمواجهة الموقف دون الحان أو الحاح . والحقيقة على أى حال ثابتة ، إذ أن المسيح أكثر حباً للعازر من أختيه ، وأكثر قرباً لنفوسنا من نفوسنا ذاتها ، . . وعندما لا نهتم بأحوالنا أو حينما تتبلد أذهاننا أو مشاعرنا ، فهو أقوى فكراً وأعمق حسا من أفكارنا وإحساساتنا مهما عظمت أو ارتفعت أو تسامت !! .. وإذا كان الناس قد درجوا على القول : أرسل حكيما ولا توصه !! .. فإن واجبنا الدائم الأبدى أن نضع أمورنا بين يدى السيد واثقين أنه يفعل أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب غناه فى المجد فى المسيح يسوع !! ..

لعــازر وموته :

كانت المسافة بين بيرية وبيت عنيا حوالى يومين ، فإذا كان المسيح قد مكث بعد سماع خبر مرض لعازر يومين ، وإذا كان وصوله إلى بيت عنيا فى اليوم الرابع لموت لعازر فمعنى ذلك أنه عندما وصله الخبر كان لعازر قد مات فى اللحظة التى قال فيها السيد : « لعازر حبيبنا قد نام » (يو ١١:١١) غير أن وجه الصعوبة هو فى تأجيل المسيح ذهابه إلى بيت عنيا ، والأختان تحتاجان إليه فى المرض وفى الحزن على حد سواء ، فلماذا تصرف المسيح على هذا الوجه الغريب المثير ، مع أنه كان لابد ذاهباً : « لكنى أذهب لأوقظه ».

إن الروائى الأعظم الذى سجل المسرحية الأبدية يكشف عن حقائق كثيرة أولا أنه لا يترك ثانية واحدة لمجرد الصدفة لتلعب دورها فى الحياة ، إذ أن خالق الزمن أعطى لكل ثانية مكانها فى مسرحية الحياة . فى حياة الفرد أو البيت أو الأمة أو العالم هناك نهار وليل ، وهناك وقت محدد للعمل نهاراً ، ووقت ينتهى فيه العمل عندما تنتهى الحياة الأرضية ، « أليست ساعات النهار اثنتى عشرة . إن كان أحد يمشى فى النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم » (يو ١١ : ٩) وحياة المسيح على الأرض كانت النهار الذى لا يمكن أن يترك فيه ساعة واحدة بدون عمل ، فإذا قال له التلاميذ إن حياته فى خطر مؤكد ، . . أكد أن الإنسان لا يموت قبل أن يؤدى رسالته فى النهار وكل واحد باق حتى يتمم هذه الرسالة ، . . على أن الأمر أكثر من ذلك إذ أن كل جزء فى مسرحية الحياة له الوقت المقابل له بالمعنى الذى ذكره الجامعة : « لكل شىء زمان ولكل أمر تحت السموات وقت . للولادة وقت وللموت وقت . للغرس وقت ولقلع المغروس وقت . للقتل وقت وللشفاء وقت . للهدم وقت وللبناء وقت . للبكاء وقت وللضحك وقت . للنوح وقت وللرقص وقت . لتفريق الحجارة وقت ولجمع الحجارة وقت . للمعانقة

وقت وللانفصال عن المعانقة وقت . للكسب وقت وللخسارة وقت . للصيانة وقت وللطمع وقت . للتمزيق وقت وللتخييط وقت . للسكوت وقت وللتكلم وقت . للحب وقت وللبغضة وقت. للحرب وقت وللصلح وقت » (جا ٣ : ١ — ٨) . . وقصة لعازر بهذا المعنى كان لابد أن يبقى فيها لعازر فى القبر أربعة أيام مع ما يصاحب ذلك من أفكار وانفعالات وأعمال ، عند جميع الذين ظهروا مرتبطين بالقصة فى كل شيء !! .. ونحن لا نستطيع أن نفهم معنى قول المسيح : « ساعتى لم تأت بعد » إلا إذا أدركنا أنه يدير التاريخ كله بهذا التوقيت الذى لا يتأخر ولا يتقدم عن موعده الأبدى المحتوم !! ..

على أن من بيده الأمر جعل من الأزمة امتحاناً محدداً ، فالتلاميذ فى حبهم للسيد فزعوا لأن اليهود كانوا يريدون القضاء عليه بأى صورة من الصور ، وهم يؤكدون أن ذهابه إلى بيت عنيا معناه الخطر المحقق ، لكن السيد أرادهم أن يعلموا أن الواجب على الدوام فوق الخطر ، وسواء نواجه الخطر أو لا نواجهه فإن نداء الواجب ينبغى أن يتفوق على كل شيء !! .. قال البحار للقبطان الذى طلب منه أن يعد القارب إذ سمع استغاثة آتية من البحر الهائج : يا سيدى سنذهب ولكن الأمواج الهائجة لن تمكننا من الصورة ، وأجاب القبطان : ينبغى أمام الاستغاثة أن نذهب وليس من المحتم أن نعود ! ! .. ويخيل الى هنا أن توما كان من هذا النوع العظيم من الرجال إذ أيقن الخطر ، ورأى بطبيعته المتشائمة أن المسيح لن يعود حياً من هذا الخطر ، فإذا كان لابد فالأفضل أن يذهب التلاميذ جميعاً مع السيد : « فقال توما الذى يقال له التوأم للتلاميذ رفقائه : لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه » (يو ١١ : ١٦)

وكانت الأزمة أيضاً امتحاناً للأختين اللتين لم تتوقعا أن يتأخر السيد عنهما ، أو عن معونة لعازر حتى ولو من على بعد ، لكنهما مع ذلك

لم يتبدد إيمانهما به وبحبه ، قد يعتبان عليه التأخر ، . . لكن الكارثة لا يمكن أن تبدل عاطفتهما من ناحيته ، وستظل الأختان وفيتين للسيد على البعد أو القرب ، فى الحياة أو الموت على حد سواء ! ! . .

ولم تكن الأزمة امتحاناً فحسب ، بل هى الفرصة الأعظم ، . . وان تأجيلات الله ، دائماً لتؤكد أنه لا يوجد وقت متأخر بالنسبة له ، . . وأن الأزمة تتصاعد ، لكى تكشف عن قدرة أعظم وأجل وأمجد وأبهر ، . . وصانع الزمن لا يمكن أن يفلت الزمن من بين يديه ، وأن للسيد الرب فى الموت مسالك ومخارج ! ! . .

لعــازر وقبره :

لم يدخل المسيح القرية ، بل سار إلى القبر خارج القرية ، فالعادة أن القبور كانت تنحت فى الصخر على مقربة من المدن أو القرى ، وهناك التقى بمرثا ومريم ومن جاء وا ليعزوهما الذين خرجوا فى أثرهما إلى القبر ، ولعله من اللازم التوقف لنرى المسيح فى موكب الموت أمام القبر : « فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب وقال أين وضعتموه . قالوا له تعال وانظر بكى يسوع » (يو ١١ : ٣٣—٣٥) والسؤال الذى اختلف الشراح عليه هو لماذا بكى المسيح ، وهو يعلم تمام العلم أنه سيقيم لعازر بعد دقائق قليلة ، . . ولعله من المناسب قبل كل شىء ، أن نلاحظ أن الكلمة « انزعج » فى الأصل اليونانى ، ترينا شخصاً يهتز جسمه اهتزازاً قوياً من الانفعال الذى يحاول ضبط نفسه تجاهه ، . والكلمة بكى تختلف فى الأصل هنا عن الكلمة « بكى على أورشليم » ، فهى هنــا أدنى إلى الدموع دون صوت ، أما عن أورشليم فهى البكاء الذى هو أقرب إلى الصراخ بصوت مسموع ، . . فلماذا اهتز المسيح وتساقطت الدموع

من عينيه هنا ،.. هناك من يذهب إلى أن المسيح بكى لأنه سيرجع لعازر مرة أخرى إلى دار الشقاء ، إلى درجة أن القديس يوحنا فم الذهب قال إن المسيح فرح عندما سمع أن لعازر مات ، وبكى عندما جاء ليعيده إلى الحياة ،.. وقالت القديسة تريزا إن لعازر توسل إلى سيده فى السماء ألا يرجعه إلى الأرض بأى حال من الأحوال ،.. ولكن السيد أمره بالعودة !! .. وهناك من صور السماء ، وجبرائيل يقول للعازر : « إن السيد يدعوك إذ أن لك عملا باقياً فى الأرض » .. وصمت لعازر هنيهة وخلع ثيابه النورانية ، وعلق قيثارته ليعود مرة أخرى إلى دنيا المتاعب والآلام !! .. على أن آخرين ذكروا أن انزعاج المسيح وبكائه جاءا عن رؤية القبر ، والموت من ورائه ، والخطية من وراء الموت ، والشيطان من وراء الكل ،.. وهو يفزع لأنه يرى أحباءه جميعاً يجتازون هذا الوادى المخيف ، وادى الموت ،.. على أن الرأى الأبسط ولعله الأصح ، هو أن المسيح فى موكب الحزن — وقد أخذ ثوبنا البشرى ، وجاء محباً عجيباً — لابد أن تختلط دموعه بدموعنا ، وأحزانه بأحزاننا بل بتعبير أدق وأصح ، إن عليه أن يحمل أحزاننا وأوجاعنا ، ولمن أصعب الأشياء التصور أنه لا يبالى بالألم الإنسانى الرهيب ، وعلى وجه الخصوص آلام اخوته وأحبائه ، وإذا كان ألم البشر لم يجعله مستريحاً فى عرشه السماوى — ان صح هذا التعبير — فإنه لا يستريح قط وهناك قلب مكسور ونفس باكية .. وكما قال أحدهم : إن عاطفة المسيح تحولت دموعاً ظاهرة للانسان ليكتشف كم هو عميق الإحساس والمحبة !! .. ولعل هذا يذكرنا بما قاله جبران خليل جبران : « ان النفس الحزينة المتألمة تجد راحتها بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها فى الشعور وتشاركها فى الإحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب فى أرض بعيدة عن وطنيهما ، فالقلوب التى تدينها أوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح وبهرجتها فرابطة

الحزن أقوى فى النفوس من رابطة الغبطة والسرور . والحب الذى تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلا وخالداً ! ! .. والمسيح فى قصة لعازر لا يريد أن يبهرنا بعظمة القيامة ، قبل أن يكشف لنا على نحو مبهر عظيم ، عن رقته فى وادى الآلام والأحزان والتعاسات ! ! ..

لعــازر وقيامته :

كشفت قيامة لعازر من بين الأموات عن حقائق عجيبة أساسية ، أولها أن القيامة ليست خيالا أو دهماً يراود الانسانية ، بل هى حقيقة مؤكدة كشف عنها لعازر بعودته بعد أربعة أيام من الموت . . وقف القس يصلى أمام جثمان شاب راحل وهو يطلب العزاء للمحزونين قائلا : « إننا نستودع حبيبنا بين يديك أيها الحبيب ، وديعة منا لديك إلى يوم القيامة ، إذ سوف نراه كما هو ، . . وبعد أن وورى فى القبر جاء أخوه باكياً وهو يقول : « هل حقاً سنتقابل معاً وهل أعرفه ويعرفنى أخبرنى أيها القس فهذا آخر أمل لى » . . . وابتسم القس وربت على كتف الشقيق الحزين وقال : « أى سعادة لنا فى هذه الحياة لو تبخر من قلوبنا هذا الأمل ، وتسرب إلينا الشك فى يوم اللقاء ! ! .. وإذ لاحظ تردد الشاب فى قبول الفكر قال له : يحدثنا الكتاب المقدس عن حادثة غريبة ما زالت موضع دراسة الكثيرن من علماء العالم وفلاسفته ، وهى حادثة التجلى التى ظهر فيها مع المسيح موسى وإيليا ، فلو أن موسى وإيليا لم يكونا بذواتهما كما كانا قبل مغادرتهما هذا العالم فكيف استطاع بطرس أن يقول : يا سيدى جيد أن نكون ههنا . فلنضع ثلاث مظال . لك واحدة ، ولموسى واحدة ، ولايليا واحدة ، (مرقس ٩ : ٥) ولو ذكر الكتاب حادثة التجلى دون أن يشير إلى من ظهر مع المسيح لفقدت الحادثة الكثير من قيمتها ، ولما نما بين جنباتنا الأمل وبهجة الحياة الأخرى مع باقى

المحبين فى المسيح . إن الحياة الثانية ليست منفصلة عن هذه الحياة كما يظن الكثيرون . بل إنها فى الحقيقة بداءة الآمال الحلوة التى يتعلق بها كل مؤمن يثق فى وعود المسيح الصادقة !! .. وإذ امتلأت عينا الفتى بالدموع ، استطرد الراعى يقول : ماذا عملت قيامة المسيح لنا : هل مات على الصليب عبثاً أيها الباكى . . لقد شقت القيامة الحجاب الحاجز . وفتتت الصخور العاتية ، ونشرت فى كل مكان سلاماً لا يمكن أن يهبه العالم أبداً !! ..
وسألنى الفتى الراعى : « وهل قام المسيح كما كان قبل الموت والدفن ، ولماذا لم تعرفه مريم عنـــدما رأته ؟ ! .. وقال الراعى وقد اطمأن إلى مقدرته على إقناع الفتى ، باسماً : « نعم لم تعرفه مريم فى البداءة إذ ظنتــه حارس البستان . ولـكن هل نسيت ظهور المسيح للتلاميذ ، ألم يعرفه الجميع ؟ . وتوما الذى شك وإذا به يسمع كلام المسيح أن يمد يده ليلمس الجروح فى يديه وجنبه ، وعندما صعد إلى السماء ماذا قالت الملائكة للتلاميذ المندهشين ؟ ألم تعلمهم بأن المسيح هذا الذى يرونه الآن صاعداً إلى السماء سيأتى مرة أخرى كما رأوه صاعدا ؟ ! . .

كانت مرثا تؤمن بالقيامة فى اليوم الأخير ، . . ولـكن المسيح أعطاها برهان هذا اليوم التليد العتيد حقيقة واضحة فى قيامة أخيها من بين الأموات ! ! . وقد كشف المسيح حقاً أنه القيامة والحياة ، . . وليس مجرد كلمات تلقى لتذهب أدراج الرياح ، بل الحقيقة التى تقع على مشهد من جميع الذين حضروا مع مريم ومرثا والتلاميذ فى ذلك اليوم العظيم ! ! ..

وأظنه مودى الذى قال إن المسيح وهو ينادى : لعازر هلم خارجاً » . . لو لم يحدد الاسم لعازر لخرج جميع الموتى من القبور إلى عالم الأحياء ! ! .. ولـكن ذلك له موعد آخر ، لـكن قيامة لعازر تعطى الصورة لتلك القيـــامة العتيدة . . أن المسيح وحده الذى أقام الموتى ، هوهو الذى سيقيم بكلمة

واحدة فى يوم القيامة جميع الموتى حين يسمع جميع الذين فى القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين فعلوا السيئات إلى قيامة الدينونة !! .. (يو ٥ : ٢٨ و ٢٩) .

على أنه من العجيب أن قيامة لعازر ، كيوم القيامة الأخير ، وضعت فاصلا بين المؤمن وغير المؤمن ، فبعض اليهود أمام هذه الآية آمنوا بالسيد ، .. لكن البعض الآخر ، بلغ من الحماقة والعناد والغباء والشر ، حداً فضلوا معه الموت على الحياة ، .. فقرروا القضاء على المسيح واهب الحياة ووضعوا تخطيطهم لسلب الحياة من مانح الحياة ، وأضحت قيامة لعازر نقطة التحول الهامة فى منعطف الطريق ، إذ قرر قيافا : « أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها . ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة . وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد » . . (يو ١١ : ٥٠ — ٥٢) فإذا كان الكثيرون إلى اليوم ما زالوا يشغلون أنفسهم بالسؤال ماذا رأى لعازر خلال الأربعة الأيام فى السماء ، وكيف سارت حياته بعد ذلك فى الأرض ، فإن الجواب من الصعب تقريره وتحديده ، وذلك لأن بولس عندما صعد إلى السماء ، وهو لا يعلم إن كان ذلك فى الجسد أم خارج الجسد ، عندما اختطف إلى الفردوس ، سجل : « وسمع كلمات لاينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها » (٢ كو ١٢ : ٤) فإذا صح أن بولس يعجز بهذا الوصف عن الحديث أو البيان ، فإن لعازر لايقل عنه عجزاً وضعفاً ، . . فإذا أمكن للطفل الصغير أن يتحدث عن النظرية النسبية لاينشتين ، أو لبدوى خرج على التو من الصحراء ، أن يصف أعقد العقول الألكترونية ، يجوز للانسان بالبيان البشرى أن يتحدث عن أمجاد السماء !! .. جاء فى تقليد قديم أن طبيباً عربياً التقى بعد خمسة وثلاثين عاماً بلعازر ، وكتب عن هذا اللقاء ، ليصف لنا

رجلا يعيش بقدميه على الأرض ، ولكن أحلامه وأفكاره تعيش فى مكان آخر فى السماء ، وهو أدنى إلى براءة الطفل ، ووضاءة الوجه الملائكى !! .. وقد يصح هذا التقليد أو لا يصح ، .. ولكن الحقيقة على أى حال كانت حلما خاطفاً للعازر عاش يذكره ويواجه به الحياة فترة لا نعلم قصرت أم طالت حتى عاد مرة أخرى إلى سيده وفاديه مع القديسين فى السماء !! ..

لا نستطيع أن نختم قصة لعازر دون أن نذكر الكلمات العظيمة التى ألقاها السيد المسيح فى مواجهة القبر فى ذلك اليوم المشهود ، وهى الكلمات التى تذكرها سيدنى كارتن فى قصة مدينتين التى كتبها تشارلس ديكنز عن الثورة الفرنسية عندما قرر الشاب أن يأخذ مكان افريموند زوج لوسى مانيت فى المقصلة حيث دبر أن يخرجه من السجن ويحل محله وقد كان يشبهه تماماً فى شكله ، . . وهو لم يستطع أن يصل إلى هذا القرار إلا عندما تذكر قبر أبيه الذى كتب عليه : « من آمن بى ولو مات فسيحيا وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد » . . (يو ١١ : ٢٥ و٢٦) وكان الدور قبله على فتاة لتقدم للمقصلة فى ذلك اليوم تحت رقم الثانية والعشرين من الضحايا ، وامتلأت بالرجاء الأبدى ، . وجاء دوره وبدا وجهه كملاك والمقصلة تطيح برأسه تحت رقم الثالث والعشرين !! .. ولم تستطع صيحات الغوغاء ، وضجيج الجماهير أن تفقده ابتسامة الخالدين !! .. لأنه فى مواجهة الموت كان مثل فراداى الذى سئل وهو فى ضجعة الموت : هل تؤمن بالرجاء والأبدية !! .. فأجاب : لست نائماً على وسادة تخمينات !! ..

١١٠
سمعان الفريسى

« فأجاب يسوع وقال له يا سمعان عندى شيء أقوله لك . فقال قل يا معلم » (لو ٧ : ٤٠)

فى قصة تصويرية رائعة أن شابين وفدا على خان فى فلسطين ، وكان المكان غاصاً بالوافدين ، وطلب الشابان وهما يرتديان ثياباً قروية بسيطة ، من صاحب الخان مكاناً للاستضافة ، . . ومع أنه لم يكن يوجد مكان ، إلا أن صاحب الخان اقتادهما إلى غرفة صغيرة جميلة مرتبة ومزودة بموقد للاستدفاء ، وبعض الحصر المطوية ، . . وأدخلهما فيها ، وهو يكرم وفادتهما على نحو عجيب ، وإذ تعجب الاثنان من هذا الاكرام ، قال أحدهما للرجل : هل من عادتك أن تأوى كل القادمين إليك . فأجاب : أجل ولا أذكر أنى رفضت طارقاً !! .. وهل لم يسيء أحد استعمال ضيافتك هذه !! فقال صاحب الخان : الانسان انسان فى كل مكان ، ولقد وفد إلى الخان لصوص وقطاع طرق من البرية بصفة تجار مسالمين ، ولكن رغيفاً زائداً لا يهم

كثيراً ، والله يتصرف فى عباده ! ! .. وقال السائل : إنى أتعجب لتصرفك هذا ، وهل من سبب يدعوك إلى هذا المسلك الغريب ! ! .. وهنا طافت على وجه صاحب الخان غمامة محزنة ، فقال : لقد ضاعت منى فرصة نادرة ، وعزمت ألا تضيع منى مرة أخرى ، وأخذ يسرد القصة وهو يقول : كان ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، ولم يكن الذنب ذنبى ، ولكنه تاريخ لا أنساه ، إذ أن الرومان أجروا تعداداً عاماً للنفوس ، وحدث ازدحام فى بلادنا فى كل مكان ، ووفد إلى مدينتنا أناس من كل الطبقات ، فى تلك الليلة قدم شخص من الجليل يطلب الإيواء ، وكانت معه إمرأته ، تركب حماراً ، وقد ظهر عليهما التعب الشديد ، . . لم يجد الخدم لهما مكاناً ، وطردوهما ! ! .. وضرب صاحب الخان على صدره وهو يصيح : رحماك ربى ! ! .. لم أدر شيئاً عما حدث وأضطر الاثنان أن يأويا إلى مزود البهائم ، وكان الليل قاسياً ، وأنا لا أرضى أن يأوى سائق بغالى إلى مثل هذا المكان الحقير ، وفى تلك الليلة وضعت المرأة طفلها ! ! .. وبعد أيام سافر الجليليان وطفلها ، ولم نسمع عنهما شيئاً ولكن اتضح بعدئذ أن هذا الطفل . . . هو مسيا ملكنا الذى تحدثت عنه الأنبياء ! ! .. آه لى ! ! أيولد هذا الطفل فى مزودى ؟ ! ما أعظم الفرصة التى أفلتت من يدى ! ! وهل تدهشان أنى من ذلك العهد أعض أصابع الندم ، وقد أكلنى الحزن العميق وتوبيخ الضمير ! ! .

ثم قطع حديثه فجأة وسأل : ومن أين أنتما أيها السيدان ! ! .. فأجاب أحدهما من الجليل ! ! .. من وطنه ! ! ؟ أرجوكما أن تكلماه على لسانى وتقولا له : إنى لم أكن أدرى أنه هو الذى ولد فى مذودى ، وإلا لأخليت الخان بأكمله له وحده ! ! .. وأكد له أنه يمكن أن يعتبر الخان تحت أمره وأنا عبدك إذا جاء مرة أخرى ! ! ولا يمكن أن تضيع الفرصة مرة ثانية منى ! ! ..

وابتسم أحد الضيفين وهو يقول : يا صاح لقد أضعت فرصتك الأولى . . .

ولكنك نجحت فى الثانية التى لم تفلت منك ، فقال الرجل : ولكن متى حدث هذا . . . قال : هذه الليلة . فقال : لا أفهم ماذا تقول ! ! .. وجاء الجواب : « لأنى كنت غريباً فآويتنى . . » وتفرس الرجل بإمعان فى القائل ، ووجد نوراً يشع من وجهه ، وأدرك أنه وهو لا يدرى أمام المسيا ، السيد مخلص العالم ! ! .. فصاح ربى ربى ! ! ..

كنت أتساءل مرات كثيرة لماذا قبل المسيح ضيافة سمعان الفريسى ، .. ولكنى رأيت قصة الرجل ، وهى تصور مجىء المسيح إلى كل إنسان ، فهو يعطى الجميع الفرصة الكاملة للتصرف الذى سيخلد إن كان خيراً أو شراً على حد سواء ، ومن هذا المنطلق يمكن أن نتابع قصة سمعان الفريسى ومعاملته ليسوع المسيح ! ! ..

سمعان الرجل الفريسى :

كان سمعان كما نفهم من القصة الكتابية رجــلا فريسياً تكمن فى أعماقه عقائد الفريسيين ونزعاتهم ، . . والفريسى قبل وبعد كل شىء ، هو الإنسان المنعزل الذى تقوم فلسفة حياته على أساس الانعزال وعدم الاختلاط بغيره من الأجناس والشعوب . هذه هى الحياة المتأصلة فيه ، وقد زادها تمكناً ورسوخاً الاضطهادات الكثيرة الواقعة عليه ، وذهابه إلى الغربة والسبى . . والنظام الفريسى قد ولد أساساً فى السبى ، وعاش فى أيام المسيح خوفاً من تسرب العادات والنظم والتقاليد الأجنبية ، وفى غياب الهيكل بعد تدميره ، كان لابد لليهودى أن يلتف حول الناموس والشريعة ، ومن هنا نشأ نظام الكتبة والناموسيين من جماعات الفريسيين ، ومن هنا أيضاً نشأ الاجتهاد فى تفسير الناموس والشريعة ، وقد امتد هذا التفسير إلى أن الوصايا الإلهية تبلغ ستمائة وثلاثة عشرة وصية منها مائتان وثمان وأربعون

إيجابية ، أى أوامر ، وثلثمائة وخمس وستون سلبية أى نواهى ، وكان لابد فى نطاق تطبيق هذه الوصايا أن يحملوا الناس أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ، وأن يهتموا إلى آخر الحدود بالمظاهر المختلفة لما يعتبرونه الطريقة السليمة للتدين ، ..
هذا هو الأصل التاريخى لحياة الفريسيين ، وهو ما يفسر لنا حياة الفريسى بما فيها من إيجابيات أو سلبيات ، ونحن نتفق مع الفريسى إبتداء فى حياة العزلة التى تمنع الخلطة مع العالم ومن الواجب أن تكون لنا حياة لا تشاكل هذا الدهر ، لكن هذه العزلة من الخطأ كما قال أحدهم أن نجعلها العلم الذى نرفعه فوق سارية حياتنا ، نفخر به ونتباهى بين الناس ، فيبدو فى المظهر حتى فى الثياب ، فقد عرضوا عصائبهم وعظموا أهداب ثيابهم ، ...
والمنعزل هو الشخص الذى لا يمكن أن يعيش وديعاً متواضعاً ، بل على الأغلب يحس نوعاً من الكبرياء والتعالى يجعله يحتقر الآخرين ، .. ولأجل ذلك فالفريسيون كانوا من النوع الشامخ الأنف ، وقد تكون فى أعماقه ذلك الإحساس بأنه وهو المالك للمعرفة التى لا يصل إليها غيره ، سيفعل ما قيل إن ديوجين فعله إذ مر أمامه الإسكندر الأكبر وهو مسترخ فى مكانه ، ولم يترك من استرخائه ، وتوقف الإسكندر ، وهو يسأل ، هل تريد يا ديوجين شيئاً ، فأجاب : نعم .. فسأله وماذا تريد !! .. قال : أن تتحول عن مكانك لأنك منعت الشمس من أن تصل الى بظلك !! .. وقال الإسكندر متعجباً : لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجين ويجيب ديوجين : لو لم أكن ديوجين لوددت أن أكون أى انسان على الأرض إلا الإسكندر !! .. هذا النوع من الاستعلاء قاد الفريسى فى صلاته إلى الله ، أن يقول إنه ليس مثل باقى الناس الزناة الخاطفين ، أو مثل العشار ، ..
والمنعزل المتكبر — وقد أمعن فى التفسير والشرح ، وانتهى إلى ما لا يمكن تطبيقه حتى ولو بالمشقة البالغة — سيصل إلى نوع من الازدواج أو الرياء ،

وقد صب المسيح سخطه على الرياء الفريسى ، الذى عشر النعنع والشبت والكمون ، وترك أثقل الناموس : بالرحمة والحق والإيمان . ومن الغريب ان ينشأ نوع من الانفصام الروحى « الشيزوفرينا » فى الحياة الفريسية ، وعلى الفريسى ألا يتزحزح عما يعلمه بشرط أن الأحمال الثقيلة العسرة الحمل ، لا يحملها هو ، بل يحملها غيره ، . . وهو لهذا كله متعصب يندفع فى تعصبه إلى العداء القاسى بغير حدود ، وهو يتصور أن المنازعات ولو إلى الموت ، هى نوع من الغيرة المقدسة التى يلزمه ألايتخلى عنها حتى إلى الموت ، وقد انذر بولس نفسه فى مطلع الأمر لإبادة المسيحية تعصباً وغيرة وتحزباً ، . . وقد نشأ عن هذا كله صلابة القلب والقسوة ، وبرود العطف والمحبة تجاه الآخرين ! ! . .

سمعان الفريسى وضيافة المسيح :

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو لماذا دعا سمعان المسيح إلى ضيافته ؟ وما هى النوازع التى دفعته إلى ذلك ؟ لقد اختلف الشراح فى هذا السبيل ، . . فبعضهم ذهب إلى أن الدعوة كانت من قبيل الاستعلاء وإرضاء للغرور والكبرياء ، فسمعان رجل غنى ربما كان يملك حديقة ، وهو ظاهر الثراء ، ويعتبر نفسه من علية القوم ، الذين يصرفون ببذخ على مظاهر الحياة ، وهم يحبون الموائد والمتكآت الأولى ، ولعل الأمر كله — وقد دعا بعض وجهاء القوم — لإرضاء الغرور الذاتى الذى يتولد عند كثيرين ممن لهم سعةاليد ، وهو نوع من التعظيم الذاتى — درى به أصحابه أم لم يدروه — . والناس الذين درجوا على مثل هذا الأسلوب ، يسيرون فى هذا الاتجاه إلى أبعاد عظيمة ، وعندهم إن تعظيم الآخرين لهم وامتداحهم وتحياتهم ، يهون أمامها أى بذل أو تضحية أو عطاء . . . على أن هناك رأياً آخر يقول إن الدعوة كانت من

قبيل العطف ، على هذا الواعظ المتجول الذى يسير على قدميه من مدينة إلى أخرى ، ومن قرية إلى قرية ،.. وقد يكون من قبيل الإحسان والعطف دعوته لتناول الطعام ، وربما كان هذا من خلال حفل أقيم لآخرين ولا مانع ترفقاً بهذا الواعظ الشعبى أن يكون من بين المدعوين ، فإذا لم تراع معه قواعد الضيافة ، فيكفيه أنه بين قوم محترمين يجلس معهم إلى نفس المائدة التى يجلسون إليها ، ولن يجد أحد غضاضة فى تجاهل بعض الأمور التى يلزم مراعاتها للضيف المكرم ، كما ندعو من باب العطف والاحسان بعض الجائعين والمعوزين ، والطعام كثير والمدعوون مهما كان سيتبقى بعد الشبع الكثير مما يفيض عنهم !! .. وقد ذهب فريق ثالث إلى أن الدعوة كانت للتصيد ، وقد بدا عداء الفريسيين للمسيح ، ولا مانع من محاولة الايقاع به بأى وسيلة من الوسائل وفى ظاهر الأمر نجد أن فريسياً شجاعاً لا يخشى أن يلومه الآخرون لدعوته المسيح ، وفى الوقت عينه لا مانع من أخذه بتصرفات أو أقوال يمكن أن تكون حجة واضحة ضده !! .. والرأى الأخير هو أن الدعوة كانت من قبيل الاستكشاف لهذه الشخصية الغريبة التى ظهرت على مسرح البلاد واختلف الناس فى أمرها ، فبعضهم آمن بالمسيح نبياً قد ظهر فى إسرائيل يصنع العجائب والمعجزات ، . . وبعضهم لا يؤمن به قط ، ويفسر أعماله المختلفة ، بمختلف التفاسير . والحقيقة تحتاج إلى ميزان واختبار ، ولا يمانع الفريسى ، من أن يدعو السيد ليحسم الأمر ويقرر أى الآراء أولى بالأخذ واليقين . . على أى حال مهما كانت الدوافع أو النزعات ، فمن الواضح أو الثابت أن القصة إلى اليوم تتكرر ، وأن المسيح يأتى ضيفاً علينا أجمعين ، ويترك لنا الفرصة التى تحدد نوع الضيافة التى نقدمها لشخصه كما حدث فى ذلك البيت القديم وعلى الصورة التى أوردتها القصة على نحو ذلك النحو المثير !! ..

سمعان والجواب على سؤاله الخفى :

فى عرف القوانين الوضعية فى كافة أنحاء العالم ، أن الأفكار الداخلية للانسان لا رقابة عليها ، ولا تكون جريمة إذا كانت شراً ما لم يفصح صاحبها عن مكنونها بتصرف عملى ، . . ولا جواب عليها ما لم تخرج إلى مسرح الحياة بصورة ما ، . . ولكن الأمر ليس هكذا مع المسيح ، الذى يقرأ ما فى داخل الإنسان ، والذى يتجاوب مع الأفكار سلبا أو إيجابا ، كما لو انها تمت فعلا على مسرح الحياة ، . . والعبرة عنده بالفكر قبل العمل ، وما العمل إلا ترجمة مكشوفة عما يكنه الفؤاد ، . . وقصة سمعان كشفت عن صورتين : واحدة مخبوءة ، والأخرى ظاهرة بينة ، أما المخبوءة فقد كشف المسيح عما جرى فى ذهن سمعان وأذهان الآخرين المدعوين ، وقد كان يعوزها الشجاعة للظهور ، والإنسان مرات كثيرة ما يقرر فى سره من الأمور ، ما يظن ألا حساب عليها ، ما دام الناس لا يدركونها أو يطلعون عليها ، . . لكن المسيح يكشف المخبوء والظاهر ، ويعرى الاثنين ، فلا ظاهر يخدعه عما يجرى فى السر ، ولا سر يخفى عليه وراء الظاهر من الأعمال ، وهو الذى قال عنه المرنم فى المزمور المائة والتاسع والثلاثين : « فقلت إنما الظلمة تغشانى . فالليل يضىء حولى . الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضىء كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩ : ١١ و ١٢) .

فإذا تطلعنا إلى الحقيقة نجد أن المسيح دائماً يبحث عما هو فى الخفاء ، . فاذا رأى المسيح فى سمعان والمرأة من الخفيات ، . . لقد رأى المسيح فى المرأة إيماناً لا يعرفه سمعان ، لقد عاش سمعان يحكم على الظاهر فى المرأة أنها إمرأة خاطئة كما تعرفها المدينة كلها ، ولكن سمعان لم ير شيئاً آخر فى المرأة ، ولم يره المتكأون معه ، ولم تره المدينة بأكملها ، . . ولكن المسيح رآه ، . . لقد ضاقت المرأة بحياة الفساد التى تعيشها ، وتحول الضيق كراهية

ودموعاً ، ولم تجد فى المدينة كلها من يستطع أن يفهم أعماقها وتوبتها عن الماضى الملوث ، إلا ذلك الضيف الذى وفد على المدينة ، وهو يبدو فى حنانه وحبه وحدبه ورفقه ، صديقاً لمن لا صديق له ، ومحباً لمن يبدو مكروهاً من جميع الناس ، . . لاشك أن المرأة رأت فى وجهه شيئاً يغاير جميع الوجوه ، ولا شك أنها استمعت إلى كلمات الحنان والحب والرحمة التى تحولت ينبوعاً دافقا لنفسها الظمأى ، ولاشك — وقد رأته يساعد البائس والأبرص والتعس والملوث — فى أنه يمكن أن يفتح لها الباب الذى أرصده الجميع فى وجهها ، ولذلك سعت إليه بشجاعة عجيبة قال المسيح لها : « إيمانك قد خلصك . إذهبى بسلام » . . (لو ٧ : ٥٠) ولعله من أوجب الواجبات أن نذكر هنا أن المسيح تحدث عن إيمانها ، كسبب خلاصها ، . . والفرق بين هذا الإيمان وحبها ، كالفرق بين السبب والنتيجة ، وبين الأصل والثمر ، . . فالإيمان والإيمان وحده ، هو الذى خلصها ، وليس قبله أو بعده أو إلى جواره شىء آخر ، وهذا ظاهر من مثل المسيح عن المديونين ، أحدهما بخمسئة دينار والآخر بخمسين ، وإذ لم يكن لها ما يوفيان سامحهما جميعاً » ، . . وليس فى القصة أكثر من الرحمة بالأثنين ، مع افلاسهما ، وحاجتهما إلى المسامحة ، . . وجميعنا نبدو فى الصورة على نفس المستوى ، كثرت خطايانا أم قلت ، وكلنا إلى الهلاك ذاهبون ، لولا إحسانه ورحمته ، . . ولولا إيماننا بهذا الإحسان والرحمة ! ! . .

على أن هذا الإيمان يجد برهانه الصحيح فى التصرف ، والنتائج المترتبة عليه ، وهنا لا يجوز لنا خلط السبب بالنتيجة فالمسيح وهو يتحدث عن الحب ، إنما يتحدث عنه كبرهان على الإيمان وثمر ضرورى له ، . . وعلى قدر عمق الإيمان ، يظهر الحب وينتج أثره ، . . والإيمان هو الذى يكشف لنا عن حقيقة نفوسنا وخطايانا وبعدنا عن الله ، وهو الذى يكشف لنا عن

مدى الهوة التى وصلنا إليها ، ويكشف لنا فى الوقت ذاته عن غنى رحمة الله الواسعة التى تشمل حياتنا جميعاً ، فإذا لم يحس الإنسان هذا أو أحس به إحساساً ضعيفاً ، فإن هذا مرجعه إلى عدم الإيمان أو ضعفه ، أما الإيمان الصادق العميق ، فهو الذى يحسب نفسه أسير حب الله وإحسانه ومراحمه ، . وهو أمام هذا الينبوع الدافق من الحب يفيض قلبه بالحب المتبادل مع إلهه ! ! .

سمعان والنتيجة الأخيرة :

لقد قال المسيح للفريسيين وقادة الشعب : « الحق أقول لكم إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله لأن يوحنا جاءكم فى طريق الحق فلم تؤمنوا به وأما العشارون والزوانى فآمنوا به . وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيراً لتؤمنوا به » (مت ٢١ : ٣١ ، ٣٢) . . ولعل قصة اليوم تتحدث إلينا بأفصح بيان عن كيف تنقلب الأوضاع ، فى هذه المرأة الخاطئة ، التى تعرف المدينة بأكلها خطيتها ، وهذا الفريسى الذى كان من أظهر الناس وأبرزهم فى نفس المدينة ! ! .. وكيف أخذت المرأة مقامها الذى حاول أن يهدره سراً أو علناً ، وهو أحوج منها إلى رحمة الله تجاه الكثير من تصرفاته ! ! منذ سنوات ليست بعيدة عاشت فى شيلى فى إمريكا اللاتينية فتاة اسمها « دونا مارتينا بانجور » وكانت من عائلة فقيرة ، كثيرة الأولاد والبنات ، وحاولت الفتاة أن تحصل على قوت يومها فلم تجد ذلك ميسوراً إلا بأن تخرج إلى الشوارع لترقص وتغنى على الجيتار ، وتقيم الحفلات فى المناسبات ، . . وكان طريقها معروفاً من البداءة بأنه يقود إلى المنزلق ، وسقطت الفتاة سقوطاً شنيعاً ، ونبذتها أسرتها ، فأوغلت فى طريق الإثم ، وهى تنتقل من مكان إلى مكان ، ومن رجل إلى رجل ، وكانت الهاوية التى تتردى فيها بلا قرار ! ! .. على أن أحد الشمامسة بكنيسة مشيخية صغيرة فى المدينة ، أعطاها إنجيل يوحنا بغلاف جميل ، وقد أغراها الغلاف على أن تقرأ ، وبعد أن قرأت صاحت :

إذا كان ما فى هذا الكتاب صحيحاً فأنا إمرأة ضائعة !! .. وقادها هذا إلى أن تذهب إلى الكنيسة المشيخية الصغيرة هناك ، ويبدو أنها كانت لا تعرف شيئاً عن العبادة أو الكنيسة ، فهى تقف كما يقفون ، وتجلس كما يجلسون ،.. ولم يصدق الناس أنفسهم حين رأوها فى الكنيسة ، وكانوا ينظرون إليها بحذر وريبة ، . . إلا أنها أصرت على نبذ الحياة القديمة وصرخت ذات مرة إلى الرب : « يارب أنت تعرف أننى أريد أن أخدمك . . عرفنى الطريق » . . ولم يكن الطريق سهلا ولا شك ، بل كان ممتلئاً بالمتاعب والأشواك ، . . درست فى مدرسة هناك للسيدات اللواتى يجهزن لخدمة الله ، . . وأخذت طريقها بشجاعة إلى الخدمة كأمرأة مكرمة محترمة ، . . وعادت إلى بلدتها وهى تريد أن تتحدث عن نعمة الله التى أمسكت بها ، واحتملت المزيد من الإهانات والاضطهادات التى لم تردها قط عن غيرتها وجهادها ، وتحول الاحتقار احتراماً ، وجاءت عائلات بأكلها للمسيح بسببها ، . . وظلت على جهادها حتى رحلت عن عالمنا وهى تقول : « لقد تعبت كثيراً ، ولكنى أذهب الآن إلى المسيح لأستريح » . .

ما أحوجنا إلى أن ندرك أن الله على الباب ، وهو ينتظر منا أقل بادرة تعبر عن الأسى والألم والحزن على الخطية ، ليعفو ويغفر ويردنا إلى سبل البر من أجل اسمه !! .. وقف أمام أحد القضاة فى مدينة نيويورك اثنان ، الأول فتاة فى العشرين من عمرها ، وقد طعنت صديقة لها بسكين ، وهى تقصد قتلها ، وكان وجهها أمام القاضى صارماً ، لا تبدو عليه أى بادرة من أسف أو توبة . وقال لها القاضى : يا مارى لقد كنت أود أن أسمع منك كلمة واحدة تعبر عن مدى أسفك أو حزنك . . وكان من الممكن أن أحكم عليك حكماً أخف ، . . لكنى أرسلك إلى السجن ، بما لا يقل عن ثلاث سنوات ولا يزيد عن سبع !! .. وكانت القضية التالية لرجل أدين فى جريمة ثم كان

فى السجن مثالا للهدوء والطاعة ، حتى لاحت له بادرة الهروب فهرب ، وقبض عليه ، . . وطلب من القاضى الكلام فأذن له فقال : يا سيدى القاضى : أنا مجرم ولا أستحق الرحمة ، وكل ما تحكم على به سأقبله كرجل ! . وقال القاضى : إن التقارير تشير إلى أنك كنت سجيناً نموذجياً ، وفى بيتك أيضاً أنت نموذجى !! .. إنها الحماقة التى جعلتك فى لحظة ضعف تهرب من السجن ، وتعيش فى خوف من الرجوع إليه مرة أخرى !! .. أنت رجل ولست مجرماً ، وسأحكم عليك وأعاملك كرجل !! .. أنت حر من الآن ! .

قال المسيح للمرأة الخاطئة شيئاً كهذا وهو يغفر خطاياها ، . . ويعطيها فرصةأعظم للحياة ، .. وعلى العكس من ذلك انقلبت النتيجة بالنسبة لسمعان ، وليته ما استضاف السيد ليعامله بهذه المعاملة الحقيرة التى نسيت أصول الضيافة الصحيحة التى كانت تبدأ بالقبلة للدلالة على الترحيب ، وتسارع إلى غسل القدمين ، فى بلاد امتلأت طرقاتها بالتراب ، وتسكب العطر على الرأس فرحاً وحباً بالضيف ، وقد كشف السيد عن السر الذى كان غائراً فى الأعماق ، وهو عدم وجود الإيمان والمحبة أو ضياع السبب والنتيجة على ما أشرنا سابقاً ، أو كما يقول الكسندر هوايت إن الرجل ربما ندم على أنه استضاف الضيف ، الذى لم يؤمن به نبياً ، وإلا لعرف أن المرأة التى تقبل قدميه هى إمرأة خاطئة معروفة بخطيتها للمدينة كلها . . كما أنه فى الوقت عينه كان جاف المشاعر ، وقد أضحت زيارة هذا الضيف ثقيلة عليه ، ولن يكررها فى المستقبل !! .. آه لو عـلم أنه أمام أعظم فرصة تتاح له فى الحياة ، وتتاح لكل بشرى على وجه الإطلاق .. أن يدخل المسيح ضيفاً على قلوبنا وبيوتنا وحياتنا ومجتمعاتنا ، . . وآه لو علم أن زيارة عظيم أو كبير تعد فخر الأيام لكل إنسان يتشرف بها ، فكم بالحرى زيارة المسيح ملك الملوك ورب الأرباب . . ودخلت الملكة فيكتوريا ملكة الانجليز بيت

سيدة انجليزية فقيرة ، وجلست على مقعد ، فأحاطته المرأة بشريط جميل اللون، وذات يوم دخل أحد ضيوفها ولم يتنبه وهم بأن يجلس على المقعد فإذا بها تصرخ فى وجهه ، وروع الرجل ، واكتشف أن المرأة حرمت على أى إنسان آخر أن يجلس على هذا المقعد الذى شرفته الملكة فيكتوريا بالجلوس عليه !! .. وأين فيكتوريا وملوك العالم كله من يسوع المسيح !!؟ .. فى الحقيقة أنه إذا استبدت بنا الحيرة ، ونحن نسأل : لماذا قبل المسيح هذه الضيافة ، ولماذا لم يخرج من المكان فى الحال عند المعاملة الشاذة !!؟ . وهو كما نعلم لا يقبل الدخول إلا بناء على دعوة ، إذ لا يرغب قط أن يدخل ضيفاً ثقيلا على نفوسنا أو بيوتنا !!؟ .. نحن نسأل لماذا إذا قبل أن يكون ضيفاً على سمعان ؟ !! وقبل كل شىء علينا أن نذكر أنه يقبل هذا مع كل واحد منا ، ونحن إذ نستضيفه نحكم لنا أو علينا ، والمنظر القديم الذى حدث فى بيت سمعان يجرى فى كل العصور والأجيال ، .. فهل نغلق الباب فى وجهه !!؟ . . وهل نقبله ثم لا نعطيه الاكرام الواجب الجدير به . كما فعل سمعان الفريسى ، فيحزن قلبه لمعاملتنا السيئة له !!؟ .. أم نكسر قارورة الطيب ، — التى كانت تستخدم إغراء فى خدمة الشيطان — لتتحول سكيباً مقدساً له وحده تعبيراً عن عصارة حب صادق عميق يعيش معنا الأبدية كلها !! .. قال السيد المسيح لسمعان الفريسى : « عندى شىء أقوله لك » . . وهو ما زال يقول هذا القول لكل واحد منا !! .. ترى ما هو الشىء الذى يريد أن يقوله لى ولك !!؟ هذا هو السؤال !! ..

١١١
الشاب الغنى

« فنظر اليه يسوع واحبه وقال له يعوزك شيءواحد. اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملا الصليب » (مر ١٠ : ٢١)

لا يستطيع أى إنسان على الأرض مهما بلغ من عمق الفكر وحسن التقدير أن يكشف عما فعلت هذه القصة فى حياة الناس ، وهل يمكن أن تتتبع آثارها العظيمة ، وقد مدت جذورها فى كل التاريخ ، ووقفت تحكم على مواكب الناس ، فى أجناسهم المختلفة على مدى العصور ، ألم يذهب القديس أنطونيوس—أبوالرهبنة فى التاريخ — إلى الكنيسة ، ويسمع عظة عن الشاب الغنى فيتأثر بها ، ويقرر أن يوزع كل ما يمتلك ، ما خلا شيء صغير يبقيه من أجل أخته ؟ ثم يعود مرة أخرى إلى الكنيسة ليسمع القول : « لا تهتموا للغد » . . وتؤثر فيه الكلمة فيوزع القليل الذى لأخته ، حتى تضحى كاملة مثله !! .. ألم يتأثر بها القديس فرنسيس الأسيسى ، فيتخلى عن ثروته الطائلة ، ويخرج إلى الخدمة على النحو التالى العظيم الذى عرفه به

التاريخ ؟ ! . ألم ير تشارلس استد أن الثروة ستقف عائقاً فى سبيل تكريسه للخدمة ، وفى ساعة واحدة وزع الآلاف التى ورثها ليخدم السيد ؟ ! . .

إن قصة الشاب الغنى قصة قوية عميقة كالسيف القاطع الذى يصل إلى الأغوار البعيدة فى امتحان الحياة وفحصها ، لقد أحب المسيح الشاب الغنى لأنه كان نموذجاً من أعظم نماذج الشباب التى تتملكنا بالاعجاب والحب ، . ولكن المسيح أيضاً ، لم يتردد فى كشف الحاجز الرهيب الذى فصل الشاب عن امتيازه الأعظم ، دون أدنى مساومة أو تردد أو ذبذبة أو شبهة ! ! .. ومن حق السيد علينا أن نضع هذه الصورة مجلوة واضحة المعالم أمام الجميع شباباً أو شيباً على حد سواء ، ولأجل ذلك سنرى القصة فيما يلى :

الشاب وأوصافه العظيمة :

ملك هذا الشاب أوصافاً قل أن تجتمع فى شاب واحد ، ومن ثم يصح أن يكون نموذجاً لأى شاب يظهر على هذه الأرض ، ومرآة يتطلع فيها الجميع ، ومقياساً يمكن مع جلاله العظيم ، أن يكشف عن القصور الرهيب لأى سفينة تمخر العباب ، وهى كاملة المحتويات فخمة المظهر ، وبها مع ذلك ثقب واحد تتدفق منه المياه إلى داخلها حتى تغرق بجمالها وفخامتها ومن فيها ، وتثوى فى الأعماق مظهراً ومخبراً بسبب الثقب المفتوح . . كان الشاب كما هو واضح وجلى .

الشاب الممتلىء قوة وشباباً :

ألست تلاحظ أنه جاء إلى المسح « راكضاً » والكلمة « راكضاً » تستوقفنا إلى حد مثير ، . . من أين جاء ، ولماذا لا يسير الهوينا أو على مهل ، . إنه صورة الشباب المتدفق بالقوة والحيوية ، . . إنه الشاب الذى عناه الحكيم القديم عندما قال : « فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر

أو تجيء السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور . قبل ما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم وترجع السحب بعد المطر . فى يوم يتزعزع فيه حفظة البيت وتتلوى رجال القوة وتبطل الطواحن لأنها قلت وتظلم النواظر من الشبابيك . وتغلق الأبواب فى السوق . حين ينخفض صوت المطحنة ويقوم لصوت العصفور وتحط كل بنات الغناء . ويخافون من العالى وفى الطريق أهوال واللوز يزهر والجندب يستثقل والشهوة تبطل لأن الإنسان ذاهب إلى بيته والنادبون يطوفون فى الأسواق قبـــل ما ينفصم حبل الفضة أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر الجرة على العين أو تنقصف البكرة عند البئر » . . (جا ١٢ : ١ — ٦) لعله وليم بت الشاب العظيم الذى قال لمنتقديه من الشيوخ فى البرلمان الانجليزى لأنهم كانوا يقولون عنه إنه شاب . فالتفت إليهم وقال : هذا هو العيب الذى يتمنى كل واحد منكم أن يرجع إليه !! .. أجل ! وما أجمل أن يكون الجسد متدفقاً بالحيوية ، والذهن حاضراً لماحاً ، والذاكرة ناهضة ، والخيال متوقداً ، والرجاء متوثباً ، والحياة كلها بستان فى الربيع . .

الشاب الغنى :

والثروة فى حد ذاتها أساس الحضارة كما يقولون ، فالشعوب الفقيرة تأتى عادة فى المؤخرة فى موكب الحضارة والثروة تجعل العبد حراً ، فلا يباع ويشترى تحت ضغط العوز والحاجة ، وتبقى له آدميته وكرامته كانسان لا يكرهه الجوع على المذلة والاستجداء . والمال يعطى الانسان أن يحصل على كل ما هو نافع ولازم . . فإذا حصل المرء عليه بالعفة والشرف ، فهو خير كثير ، وينبىء عن قدرة صاحبه على الجد والاجتهاد وحصانة الرأى وحسن التقدير ، وقوة الإقدام !! .. ولا يجوز ونحن نرى الأخطار الرهيبة التى يمكن أن تنشأ من المال أن ننسى أنه يمثل أعظم القوى المستخدمة بين

الناس للخير والخدمة !! .. أن أنبل العواطف وأحطها كثيراً ما تكون مرتبطة بالمال ،.. هل قرأت قصة كوزيت لفكتور هوجو ، . . وكوزيت هـــذه فتاة صغيرة فى الثانية عشرة من عمرها تعمل خادمة فى بيت رجل غنى يمتلك فندقاً ، . . وكان الوقت شتاء ، والناس تتأهب لعيد الميلاد المجيد ، غير أن زوجة صاحب الفندق وهى تنام على فراشها الوثير فى تلك الليلة . قالت لزوجها لقد مللت هذه الفتاة الصغيرة ، وسأطردها فى الغد من العمل ، . . وقال لها الزوج اصنعى ما تشاءين ، واستسلم الرجل وزوجته للنوم ، . . على أنه فى تلك الليلة قصد الفنـــدق مسافر ، وقبل أن يأوى إلى مضجعه أخـــذ يتجول فى أركانه يستطلع ما فيه ، . . وحسب التقاليد والعادة كان الصغار يضعون أحذية يأتى إليها الملاك ليلا ليضع للأولاد عطايا وهدايا ، . . وكان الصغار يستيقظون فى الصباح ليروا الهدية التى تركها لهم طارق الليل الخفى فى أحذيتهم ، وكان فى الفندق ولدان صغيران هما ابنا صاحب الفندق ، . . وقد ناما فى فراش وثير دافىء ، وجاء طارق الليل ، وهو الأم فى الحقيقـة ، التى وضعت قطعة من النقود فى حذاء كل ولد من الولدين . . ولكنها وضعت تراباً فى حذاء الخادمة التى تبغضها ، . . وعز على المسافر أن يشهد هذا المنظر البشع ، من التمييز الشنيع بين الصغيرين اللذين ينامان فى سريرين مريحين ، والصبية البريئة التى تنام على كومة من القش بدون غطاء ، . . فأسرع لافراغ الحذاء من التراب ، ووضع فيه قطعة جميلة من الفضة ، لتستيقظ اليتيمة لتجد أن عناية السماء بها ، تعوضها عن الإحساس باليتم والحرمان الذى تعيش فيه ، . . وذهب الرجل بعد ذلك ليستريح ، ما أكثر ما يفعل المال من الخير أو الشر فى حياة البشر على حد سواء !! ..

الشاب المتعلم :

ومن الواضح أن القصة تكشف عن شاب كان على حظ كبير من الثقافة والعلم ، فهو لا يمكن أن يبلغ مرتبة الرئيس ، إلا إذا كان قد أوتى من العلم شأواً كبيراً وعالياً ، . . والعلم فى حد ذاته أقوى وأعظم وأنفع من الغنى المادى ، إذ لا يمكن أن ينتهى إلا بنهاية حياة الإنسان نفسه ، على العكس من المادة التى تتقلب بها الحال ، والمال غاد ورائح كما يقولون . وهناك النصيحة العظيمة التى درج عليها الناس بالنسبة للأجيال الصاعدة والقائلة : « علموهم ولا تورثوهم » فى مجال الأسبقية والفضل للعلم على المال ، . . ويكفى أن نلاحظ فى توزيع الثروات فى الأرض ، أن الكثير من الأمم المتخلفة الممتلئة أرضها بالكنوز والثروات والمناجم ، لا يأخذ أولادها المتخلفون علمياً ، هذه الثروات ، ويأخذها ، إلى حد النهب والسلب . الوافدون المستعمرون بما لديهم من معرفة وتكنولوجية متقدمة ، . . ولعل هذا هو السبب الذى جعل المستعمرين يعمدون إلى تعطيل هذه الشعوب عن تحصيل المعارف والعلوم ، . . ومن المعتقد أن الشاب الغنى ، كان من الوجهة العلمية فى القمة فى جيله ، ، وفى لغة العصر الحاضر . كان يمكن من حمله الدرجات العلمية الجامعية ! ! . .

الشاب الواسع النفوذ :

وكان الشاب كما هــو ثابت رئيساً ، والرئاسة لا يمكن أن تعطى إلا للسباق فى المركز والنفوذ بين الناس ، ونحن لا نعلم مدى السلطان الذى كان يتمتع به ، لكونه رئيساً ، لكنها القاعدة العامة التى تشجع على اليقين بأنه كان يملك السطوة والقوة التى تمكنه من أن يفرض رأيه وأمره على غيره من الكثيرين ممن هم تحت سلطانه وولايته وأمره ، . فإذا جاز أن نتصوره فى صورة عصرية ، فإننا يمكن أن نرى شاباً من أصحاب الأعمال الكبرى ،

الذى يجلس فى غرفته العظيمة الوثيرة ، المكيفة ، والتليفونات عن يمينه وعن يساره ، والمديرون التابعون ، والسكرتيرون الكثيرون ، والحركة الدائبة ، والزوار من أعلى الطبقات ، وما أشبه من مظاهر العظمة التى قد يؤخذ بها الكثيرون فى الأرض ، ولا سيما عندما يجلس فى المقعد شاب يملك كل هذه السلطة بين يديه ، وتحت نفوذه !! ..

الشاب العظيم الأخلاق :

كان هذا الشاب على أروع مستوى خلقى، لا تعوزه الشجاعة ، إذ جاء إلى السيد ، وعداوة الفريسيين تتقد ضده ، والمسيح على مقربة من الصليب ، ومع ذلك فهو مأخوذ بعظمة السيد ، إذ رآه يبارك الأولاد ويحتضنهم ، وعندما ركض إليه ، جثا أمامه ، جثا وهو الغنى أمام من يبدو فقيراً لا يملك شيئاً ، وجثا وهو الفريسى أمام من لم يسر على نظام الفريسيين وفى سبلهم ،. كان الواضح من سيرته أنه « جنتلمان » بكل ما فى الكلمة من معنى ، . . والأخلاق هى الدرة الأجمل والوسام الأعلى للشباب ، وكثيرون يتسامحون مع الشباب إذا هوى من هذا الجانب أو ذلك من جوانب الأخلاق ، بدعوى أن الشباب لابد أن يكون هكذا ، . . ولكن الشاب الغنى كان مبرأ من اللوثات الاجتماعية التى يمكن أن تلصق بالشباب ، حتى ولو أغمض المجتمع عينيه عنها !! ..

الشاب المتدين :

على أن الشاب — فوق هذا كله — كان متديناً بحسب المفهوم الدينى عند كافة الناس،إذ لم تكن أخلاقه نوعاً من الحياة الأدبية التىقد يتمسك بها البعض حتى ولو كانوا ملحدين أو وثنيين ، انتصاراً للجانب الأدبى فى الانسان ، لقد كانت الخلفية الحقيقية له ، حرصه منذ صغره على حفظ

الوصايا التى قال عنها رداً على سؤال السيد: « لقد حفظتها منذ حداثتى » . (مر ١٠ : ٢٠) ومن المؤكد أنه كان صادقاً ومخلصاً فى تعبيره ، ولا يبين من الكتاب أو من نظرة المسيح إليه ، أنه تحدث بهذا القول مدعياً أو مختلفاً أو مختالا أو معجباً !! .. لقد كان الرجل صادقاً ، صدق أى شاب نظيره يمتنع عن السرقة والزنا وما أشبه ، مما يراه كسرا للوصية الإلهية ، كما يفهم الانسان هذا الكسر من التلوث المادى الفعلى على مفهوم الناس !! .. فإذا أضفنا إلى هذا كله أن الشاب ركض إلى المسيح بحثاً عن الحياة الأبدية التى كان ولاشك مشغولا بها ، بحكم مركزه الدينى إذ هو « رئيس » ، لقد كان يتطلع إلى ما وراء الحياة الحاضرة ، راكضاً متوثباً !! ..

الشاب الذى يعوزه شىء ما :

لسنا نظن أن شاباً ، غنياً ، متعلما ، واسع النفوذ ، رائع الأخلاق ، متديناً ، يمكن أن يعوزه بعد ذلك شىء ما ، أو يمكن أن يكون فى حاجة إلى ما هو أكثر !! .. أو كما قال أحدهم : هل يعوزنى شىء ، . . إذا كنت شيخاً ، فإن طلبتى الوحيدة أن أسترجع السنين الضائعة التى أكلها الجراد لأبدأ حياة أجمل وأنفع ، . أو إذا كنت أمياً، فكل تصورى أننى إذا محوت أميتى وواصلت دراستى إلى ما بعد الحياة الجامعية ، فإن باب الحياة ينفتح لى فى كل جانب ، . . فإذا كنت فقيراً ، فإن خيالى يتجه إلى الثروة التى لو تحققت فلن يعوزنى شىء بعد ذلك ، . . فإذا وصلت إلى مركز مرموق ، وملكت ناصية النفوذ ، . فكل تفكيرى أننى لا أريد أكثر من ذلك ، ..

كان الشاب الغنى يملك مفاتيح الحياة من هذه الجوانب المختلفة جميعها . . ومع ذلك كان يحس بأنها جميعاً لا تملأ الفراغ الموحش الذى يملأ قلبه ، كما أنها لا تعطيه البهجة والسعادة والرضا التى يحن إليها ، . . وهو لا يعرف

لماذا هو غير مستريح أو سعيد ، . . وهو لا يستطيع أن يدرك كنه هـذه التعاسة الجاثمة على قلبه دون تعليل ظاهر أو واضح !! ..

فى الحق إن هذا الشاب ليس فريداً فى نوعه ، ولـكنه صورة لـكل شاب يتصور أن الدنيا عندما تعطى كل ما يمكن أن تعطيه ، تمنح الانسان الرضا والراحة والبهجة والاكتفاء ، . . ومن قديم وضع سليمان هذا التصور فعب من الحياة ما استطاع أن يعب ، وخرج بالنتيجة الوحيدة القائلة : « باطل الأباطيل الكل باطل . . وقبض الريح » . (جا١ : ٢و١٤) والا فهـل استطاع أصحاب الملايين فى الأرض أن يجدوا سعادتهم ، . . لقد وجدوا — وهم فى قلب قصورهم وعظمة أمجادهم — أصبع المسيح تشير إلى كل واحد منهم قائلة : « يعوزك شيء » . . وهل أدرك العلماء ، مهما ارتفع علمهم ، راحة أو بهجة !!.. لقد رفعوا عيونهم عن كتبهم ليسمعوا صوتاً : ينادى كل عالم « يعوزك شيء » . . وهل أدرك جبابرة الأرض ، والذين غزوا الممالك وأذلوا أعناق الناس ، وهم فى قمم مجدهم ، الهدوء والسلام !! .. لقد رأوا الأصبع تتحرك نحوهم لتقول لـكل جبار : « يعوزك شيء » . . ولم يكن هذا أيضاً بعيداً عن كل من ظن أنه يعيش حياة الآداب العالمية ، ففى كل مكان يتهاوى فيه الإنسان أمام مثل الحياة ، . . إذ يحس بالقصور الأخلاقى الذى يسمعه فى همس الضمير القائل : « يعوزك شيء » . . .

إن القضية فى الحقيقة تمتد إلى عمق أبعد ، فالأمر الذى كان غائباً عن الشاب ، وكان يعوزه الذهاب إليه ، . . ان هناك منطقة مجهولة ، لم يصل إليها ، ولم تطأها قدماه ، . . لقد ركض إلى المسيح ، فكشف له المسيح عن الشوط البعيد الذى كان غائباً عن حسه وإدراكه ، . . كانت آفة الشاب الـكبرى أنه قصير النظر ، مخدوع الرؤيا ، متعجل الحـكم ، متسرع التصور ، وقد ظهر هذا من وجهين أساسيين أحدهما فيما يتصل بالمسيح ، والآخر فيما

يتصل بشخصه ، لقد ركض إلى المسيح ودعاه المعلم الصالح ،.. وقال له المسيح : « لماذا تدعونى صالحاً » . . . وهو لا ينفى بذلك عن نفسه الصلاح فقد دعا نفسه الراعى الصالح، ووقف يتحدى اليهود قائلا: من منكم يبكتنى على خطية ، وهو نبع الصلاح ومصدره بكل ما فى كلمة الصلاح من معنى ، الصلاح الذى لا ينسب إلا لله وحده ، . . وعندما نسب الشاب إلى المسيح الصلاح لم يكن فى نظره أكثر من نبى . . . فإذا توقف عند هذا الحد ، يكون مفهوم الصلاح ، بالمعنى الدقيق ، بعيداً عن التصور الصحيح !! .. فإذا تحولنا من هذا التعجل فى الحكم الذى ينطق باللفظ دون سبر المدلول العميق له ، يتكشف لنا الشاب عن عدم فهم الفارق بين الأخلاق والدين ، فقد اختلطا فى ذهنه ، حتى إن أحدهما يقع موقع الآخر ويتبادل معه المكان على نحو غامض مبهم !! . . لقد كان الشاب يعتقد أنه حفظ الوصايا منذ حداثته ، . . ومد المسيح بصره إلى أعماق الشاب ، وأدرك أن مشكلته الحقيقية أنه لا يعرف نفسه . وأنه يفهم الوصايا فهماً أخلاقياً ، الأمر الذى يتصوره ملايين الشباب عن الدين . فإذا كانوا بحسب القياس الخلقى خالين من النقائص الخلقية المتعارف عليها فى المجتمع ، فهم متدينون . والدين لا يجوز أن ينتظر منهم أكثر من الآداب والأخلاق ، . . وقد كان على المسيح أن يحاصر هذا التصور ويكشف قصوره ونقصه وضعفه ، .. ومن العجيب أن المسيح وهو يتحدث مع الشاب عن الوصايا ، لم يوجه بصره إلى اللوح الأول الذى يتحدث عن علاقة الإنسان بالله ، بل وجه البصر إلى اللوح الثانى ، الذى يتحدث عن علاقة الإنسان بالإنسان ، وذلك لأنه لو دخل معه فى النقاش حول علاقته بالله ، وهى علاقة ليس من السهل أن توزن بالمقاييس المحسوسة الملموسة ، فلربما يتصور الشاب أنه يوفيها حقها ، . . وإذا فان اللقاء مع الشاب يمكن أن يكون أيسر منالا لو دار حول اللوح الثانى ، وفى

الحقيقة إن السيد المسيح كان يقصد أن يكشف للشاب أنه كسر اللوحين معاً ، فأخذه بأسلوب بارع ليدرك أنه إذا كان لا يستطيع أن يتمم العلاقة الصحيحة بين الإنسان والإنسان، فإنه أعجز من أن يتمم اللوح الأول فى علاقته بالله جل جلاله ، . . كان الشاب لا يدرك عمق تعلقه بالمال ، ، فكشف له المسيح عن الضعف القاتل فيه، ولم يكن عيب الشاب على الأرجح فى طريقة تحصيل المال ، إذ لا يبدو من القصة أنه لجأ إلى أساليب فاسدة أو شريرة فى تحصيله ، لكن عيبه القاتل ، كان فى توزيع المال ، أو بالحرى فى مكانة المال من قلبه ، . . ولم يقل المسيح لغيره من الأغنياء أن يتخلوا عن أموالهم ، وقد كان البعض من تلاميذه أغنياء ، ولكنه لم يطلب منهم ما طلبه من هذا الشاب الغنى ، ولا يمكن أن يجعل المسيح شرط العلاقة به ، هو التخلى عن الثروة ، لأنه إذا كان الجميع بائعين فأين هم المشترون ، . . إن المال شأنه شأن أى شىء آخر ، إذا لم يأخذ مكانه الحقيقى فى الحياة ، وتطاول على مكان آخر ، . . وهذا ما كان عند الشاب ، . . كان على الشاب أن يدرك أن المال عزيز عليه إلى الدرجة التى يصعب عليه معها توزيعه على الآخرين ، . وبالتالى فإنه كان عليه أن يدرك بالامتحان الذى وضعه المسيح أمامه — أن الله لا يأخذ فى الحقيقة المكان الأول فى قلبه ، . . كان الشاب يظن أن الله هو الأول فى حياته وليس المال ، فكشف له المسيح أن الله قد يكون له مكان فى حياته ، لكنه ليس المكان الأول ، بل يأتى تالياً أو على مسافة بعيدة من المكان الأول الذى يحتله المال ! ! . .

إن هذا الوضع يكشف لنا عن الفاصل الأبدى بين الدين والأخلاق ، . إن الدين هو أن يكون حب الله هو الأول والآخر فى الحياة ، وكل ما ينبع من هذا الحب ، هو أعلى المراقى الخلقية فى الحياة ، . . ولكن الأخلاق مهما علت وسمت فى معايير الناس ، لا يمكن أن تضع الانسان فى وضعه

الصحيح من قصة وجوده الأبدى ، وإلا تحول الإنسان نوعاً راقياً من الحيوان قد تكون له شجاعة الأسد ، ووداعة الحمام ، ولكنه حيوان أعجم لا يعرف خالقه ، ولا الشركة التى تربطه بهـذا الخالق ، ولا يفهم شيئاً عن الحيـاة الأبدية التى ينفرد بها ويتسامى عن كل حيوان أو مخلوق أرضى !! ..

إن هذه القضية هى القضية المجهولة من ملايين الشباب الذين يركضون على وجه الأرض ، والذين يتصورون أنهم بلغوا آخر الشوط ، وهم فى الحقيقة بعيدون عن الخطى الصحيحة فى الشوط الأبدى من الحياة التى لا يمكن أن يعرفوها قبل أن يأخذ الله مكانه الصحيح الحقيقى من حياتهم !! .

ومن العجيب أن المسيح هنا يبدو قاطعاً كالسيف ، دون أدنى مهادنة أو مساومة ، فهو وإن أبصر الشاب يمضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة ، فهو لا يطلب منه أن يتوقف ، ولا مانع من المناقشة أو المساومة على بعض المال أو جزء منه دون الكل كامتحان ممكن ميسور ، . . ولكن المسيح على العكس يضع الأمر بأقصى صلابة يمكن تصورها ، إذ يقول إن « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله ، (مر ١٠ : ٢٥) ومهما يختلف الشراح فى المقصود بالعبارة : « ثقب إبرة » إذ يظنها البعض الباب الصغير داخل الباب الكبير الذى كان فى أسوار المدينة ، وهو أشبه حالياً بأبواب السجون الصغيرة الموجودة فى باب السجن ، وهذا الباب كان يتسع لدخول رجل غير محمل بحمل ، وأشار إلى أن الداخل إلى الملكوت ينبغى عليه أن يطرح عن كاهله الحمل حتى يستطيع الدخول . . ويقول آخرون ولعله الأرجح أن المقصود بثقب الإبرة والجمل أصغر ثغرة أمام حيوان من أكبر الحيوانات ، وهذا أمر يبدو مستحيلا حسب تقدير الناس ومنطقهم . لكن الله يستطيع بنعمته أن يفعل ما يبدو مستحيلا !! ..

ومن الملاحظ أن السيد المسيح وضع الصعوبة أمام الشاب ، ولكنه لم يتركه لمواجهتها ، إذ أعطاه طريق الانتصار فى القول : « اتبعنى » أو فى لغة أخرى أن المسيح لا يمكن أن يترك الشاب فى الفراغ بعد أن يوزع كل ثروته ، بل ستتحول شركته مع المسيح ، إلى ثروته الحقيقية . وسيعطيه المسيح ذلك الغنى الروحى الذى يجعله يقول ما قاله الشاب العظيم بولس : « لكن ما كان لى ربحاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة . بل إنى أحسب كل شىء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى الذى من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكى أربح المسيح » (فى ٣ : ٧ و ٨) .

كان الشاب يعتمد على « المال » أو فى لغة أخرى يعتمد على « شىء » .. ولكن المسيح شاء فى جوده وإحسانه أن يحوله إلى الاعتماد على « شخص » هو مصدر كل شىء ، وضامن كل شىء ، ومن الغريب أن المسيح يبدأ معه عندما ينتهى هو مما يضعه منظوراً أمام عينيه . والمسيح يريدنا دائماً أن نسلك بالإيمان لا بالعيان !! .. والمسيح كفيل بسد كل أعوازه ، ورعايته إلى الدرجة التى يمكنه معها أن يغنى مع داود : « الرب راعى فلا يعوزنى شىء » (مز ٢٣ : ١) .

ولو أن الشاب أصاخ السمع ، وقبل الامتحان ، وسار كما طلب السيد لتحول الامتحان وانتقل من على كاهله ، ليقع على عاتق المسيح . الذى يقبل أن يمتحن فى قدرته على الرعاية والاعالة كل أيام الحياة !! ..

على أن الشاب تحت ثقل المنظور ، « مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة » ، وقد أوحى ذهابه لعباقرة المصورين والفنانين أن يصوروه تحت عنوان ما أطلق عليه دانتى : « الرفض العظيم » .. فقد رسمه ف . ج .

وتس وهو يعطى ظهره للناظر إليه . وقد سقط رأسه وتهدلت كتفاه ، وهو يودع الفرصة العظيمة التى قدمت له !! . . ورسمه هوفمان والمسيح يدعوه بترحاب إلى شركته . أما هو فقد بدأ زائغ النظرة ويده بين الفتح والقبض كمن يحاول أن يجمع العالم الحاضر والعتيد معاً دون جدوى !! ..

وتساءل كامبل مورجان عن ذهابه التعس الحزين ، . . وهل هى مأساته القاسية أم هو شعاع من رجاء ، إذ مضى حزيناً ، ولم يذهب هازئاً أو مستهتراً أو محتقراً !! .. لقد ذهب حزيناً وهو يدرك أنه سيخسر شعباً عظيماً ورهيباً ، ولعله فى هذا الحزن يعيد التأمل ، ويستجيب للنداء الحاسم العظيم !! ..

على أى حال ، إن قصة الشاب الغنى تحسم كالسيف حياة الإنسان ، وتعطيه أن يدرك أن المسيح قد جاء لا ليطلب ما عندى أو عندك ، بل ليطلب بالأحرى شخصى وشخصك ، وأنك ستأتى يوماً ما إلى اللحظة التى تقرر فيها إما مذهب أون ويستر الذى قال إن الأمريكى يفضل أن يكون غنياً أكثر من أن يكون صالحاً ، أو مذهب مالتيبى بابكوك الذى قال : إذا أعطانى الله الإمكانية والقوة لأصبح غنياً ، ومتعنى بالنفوذ والقوة والتأثير فى العالم ، فإن أفضل تصور لى فى الأرض ، أن أكون طوع إرادة الله وأداة له ونافعاً وخادماً للانسانية جميعاً !! ..

١١٢
الناموسى

« واذا ناموسى قام يجربه قائلا يا معلم ماذا اعمل لأرث الحياة الأبدية » (لو ١٠ : ٢٥)

لست أظن أننا فى حاجة إلى ذلك الخيال البعيد الذى أخذ به بعض المفسرين ، وهم يجتهدون فى تفسير مثل السامرى الصالح الذى جاء فى حديث المسيح مع الناموسى ، فذهبوا المذهب الرمزى الذى كان من أبطاله أوريجانوس : إن الانسان الذى تعرض له اللصوص فى الطريق ما بين أورشليم وأريحا ، هو آدم أبو البشر الذى كان فى الجنة أورشليم الروحية ، ونزل بسقوطه إلى أريحا مدينة اللعنة ، وأن اللصوص هم إبليس وملائكته الذين جرحوه وعروه وتركوه بين حى وميت ، حى بالجسد وميت بالروح ، وأن هذا الجريح التقى بالكاهن واللاوى اللذين يرمزان للشريعة والناموس ، ولكنهما لم يستطيعا معونته حتى جاءه السامرى الصالح الذى أخذه إلى فندق الذى هو الكنيسة ، وترك له دينارين اللذين هما فريضتا المعمودية والعشاء الربانى ، . .

إلى أن يعود المسيح مرة أخرى ، فى مجيئه الثانى العتيد !! .. لسنا نظن أن المسيح قصد بهذا المثل هذه الأبعاد الممتدة، ولكن الواضح الذى لاشبهة فيه ، أن الناموسى قصد أن يمتحن المسيح ، لعله يصطاده بصورة ما ، ولم يدر أنه هو الذى اصطيد على نحو عجيب ، . . لقد خرج به السيد من العقيدة إلى الحياة ، ومثل السامرى الصالح أعطى أعمق صورتين للعقيدة الصحيحة ، والتطبيق الصحيح ، ولعله من المناسب أن نتأمل بعد ذلك هذا الناموسى فى لقائه بالمسيح من الجوانب التالية :

الناموسى والسؤال العظيم :

لا نعلم اسم هذا الرجل ، ، ولكننا نستطيع أن نتعرف على شخصيته من خلال اللقب الذى تسمى به ، فهو ناموسى وقد كانت هناك ثلاث كلمات فى اللغة اليونانية ترجمت فى العهد الجديد « معلم » « كاتب » « ناموسى » وهى على الأغلب لشخص واحد ، كان له عمله فى أيام المسيح ، ولم يكن معروفاً فى أيام موسى ، . . ومن المرجح أن هذا النظام بدأ بعزرا الكاتب واستمر طوال العصور اللاحقة حتى أيام المسيح ، . . والناموسى على هذا الأساس هو الرجل الخبير فى الشريعة ، والذى يستطيع شرح الناموس ، وتعليمه ، وعلى وجه الخصوص للشباب ، وهو الذى يفحص التقاليد المختلفة المتوارثة فى تفسير الناموس ، وهو الذى يمارس الأحكام القضائية ، كقاضى يحكم بين الناس وفق الشريعة والناموس !! .. ومن ثم فنحن أمام رجل بارز المكانة بين الناس ، ولعله وهو يضع سؤاله أمام المسيح لم يكن يقصد تجربة المسيح بمعنى محاصرته لاسقاطه فى الامتحان ، . . فان التعبير فى الأصل اليونانى هو أدنى إلى عجم العود ، واختبار القدرة حتى يمكن معرفة مدى فهم المسيح للشريعة واستيعابه لها ، . .

طرح الناموسى أمام المسيح السؤال العظيم الذى يعد من أهم وأعظم الأسئلة التى تخطر على الذهن البشرى فى مختلف العصور والأجيال : « ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية » . . ومن اللازم ونحن نناقش هذا السؤال العظيم ، وحاجة الإنسان إلى الجواب الصحيح عليه ، أن نبدأ أول كل شىء ، بمعرفة أن الإحساس العام للانسان فى العالم ، هو أنه لا يعيش الحياة فى الأرض ، بل هو فى واقع الأمر يعيش على هامش الحياة ، ويكفى أن نسأل المفكرين والعلماء والفلاسفة عن الحياة ، . . لقد دعاها مرقس أوريليوس معركة ، وإدوارد كوك قال إنها فقاعة جوفاء ، وروبرت براونتج وصفها بالحلم الفارغ ، وجيمس بارى أطلق عليها : فنجان شاى ، . . واعتقد روى كامبل أنها ممر مغبر مغلق من الناحيتين ، ووصفها و . هنلى بالدخان ، وجون ماسفيلد بالصراع الطويل فى شارع مملوء بالضوضاء ، وكريستوفر مدرلى بلعبة الورق بين الإنسان والطبيعة ، وعندما هنأ تشارلس إيفانز هيوز رئيس المحكمة العليا فى الولايات المتحدة أوليفر هولمز لبلوغه التسعين من عمره بما أسماه الحياة الغنية الكاملة ، كتب هولمز بأن الحياة تبــدو له كالصورة اليابانية التى لا تحقق آمالها المرجوة ، وإذ نصوب سهامنا إلى شبهها ، تسقط هذه الشهب محترقة رماداً على الأرض !! ..

فى الواقع إن أمل الإنسان فى الحياة الأبدية ، لم يكن الأمل الذى انفرد به الناموسى وحده ، بل رأينا أن الشاب الغنى — مع ما كان يتمتع به من ميرات يحسده الناس عليها — لم يكن سعيداً بالحياة ، ويعوزه شىء أعمق وأبعد وأعظم ، من مظهر الحياة التى كان يعيشها ، . . وجميع من تقلهم هذه الأرض عندما يتعمقون فى فهم وجودهم فيما يطلق عليه الحياة لا يجدون أنفسهم أحياء ، بل لعلهم يجدون أنفسهم يعيشون ، وشتان ما بين المعيشة والحياة ، . . إن الإنسان يعيش فى الواقع . . « الموت» لا الحياة

ومن ثم فهو فى لغة الكتاب المقدس « ميت » حتى ولو تحرك وسعى وذهب هنا وهناك ، وترددت الأنفاس فى صدره ، ومارس مظاهر الحياة المختلفة فى اعماله وحركاته ، . . إن الحياة الأبدية شيء يبدأ من لمسة الله للانسان الذى يقيمه من الموت الذى جلبته الخطية عليه ، . . وهى حياة لا تعنى الأبدية فيها مجرد الطول ، بل العمق والارتفاع والعرض ، بكل ما تعنيه لمسة الله لوجوده الخالد الذى جبله عليه ، . . وإلا فهل يمكن أن نعتبرها حياة تلك التى يعيشها سجين محكوم عليه بالسجن المؤبد فى زنزانة ضيقة بدون أمل فى تحرر أو إفلات ، . . وهل يمكن أن تكون حياة تلك التى يعيشها إنسان مشلول بدون أمل بالانطلاق والحركة ، . . وهل يمكن أن نطلق على ما يعيشه حياة ، وهو معذب يتلوى فى عذاباته من غير راحة ولو لثانية واحدة من الزمن !! .. ومع هذا كله ، فالحياة حتى ولو تحررت من هذه جميعها ، فهى ليست السلبية أو الانعدام ، بل هى الإيجابية التى تموج بالقوة والثورة والاخضرار والبهجة والحركة الدائبة نحو آفاق ممتدة بغير حدود أو سدود أو قيود ، . . هى الحياة كما أودع الله الأبدية فى قلب الإنسان على قول الجامعة : « قد رأيت الشغل الذى أعطاه الله بنى البشر ليشتغلوا به صنع الكل حسناً فى وقته وأيضاً جعل الأبدية فى قلبهم التى بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذى يعمله الله من البداية إلى النهاية » (جا ٣ : ١٠و١١) .

على أنه من الواضح أن الناموسى ، كالشاب الغنى ، كجميع الناس على الأرض ، وهم فى سبيل البحث عن هذه الحياة ، يقعون فى الحيرة والتناقض ، وعندما يسعون للحصول عليها ، أهى شيء يورث ؟ أم هى شيء يبذل فى سبيله عمل وجهد للوصول إليه ؟ فإن الميراث فى الواقع ينشأ عن مركز قانونى ، وليس عن جهد يبذل أو تعب لابد منه قبل الوصول إلى الحياة ، . والحياة الطبيعية لكل إنسان لم يتعب صاحبها قط فى الوصول إليها ، بل

جاءت ميراثاً لحياة أخرى ، . . ولذلك فالسؤال : « ماذا أعمل لأرث » فيه الكثير من غموض التعبير أو على الأقل الحيرة فى مفهوم الوصول إلى الحياة الأبدية !! ..

بالإضافة إلى هذا كله ، إن الناموسى لم يكن يعلم ، وهو يسأل المسيح ممتحناً ، أنه يسأل الشخص الوحيد الذى يملك الإجابة الكاملة لأنه هو وحده الذى به نحيا ونتحرك ونوجد ، . . وهو الذى جاء لتكون لنا حياة وليكون لنا أفضل ، وهو نبع الحياة ومصدرها ، وسر وجودها ، !! ..

وعلى أى حال فإن الناموسى ، وهو يضع هذا السؤال أمام المسيح ، كان يضع السؤال الذى يعتبر فى مقدمة الأسئلة التى يلزم أن يسألها الإنسان فى كل جيل وعصر ، إذا رام أن يعرف معنى وجوده ، وفلسفة حياته ، وطعمها ، ومذاقها ، وغايتها ، . . أو فى عبارة أخرى ، هذه هى فلسفة الوجود الصحيحة ، وليست تلك التى أقعدتها اللاأدرية الملحدة عن العثور على الجواب !! ..

الناموسى والقراءة الصحيحة :

أراد الناموسى أن يدخل المسيح فى الامتحان ، . . ولكن المسيح ببراعة فائقة أدخله هو فى الامتحان ، .. إن اسمه مستمد من الناموس ، وصلته وثيقة بدراسته ، فإذا كان ناموسياً صحيحاً ، فإن أقرب الأفكار إلى ذهنه وقلبه يجب أن تكون مستمدة من الناموس ، . . وقد أجاب المسيح على السؤال بسؤال ، وقد كانت هذه عادته فى الكثير من الأحيان ، وهى درس ينبغى أن نلم به ، ونحن فى سبيلنا إلى أحكم الإجابات ، على وجه الخصوص إذ اتسم السؤال بالتواء القصد أو خبث التفكير ، إذ كانت الإجابة المباشرة الصريحة أعلى من مستوى فهم السامع ، أو أصعب وقعا على إحساساته

ومشاعره ، . . ومما يسترعى أن السيد المسيح لم يسأله « ماذا يقرأ » بل « كيف تقرأ » . . إذ أن القراءة الصحيحة السليمة الواعية ، هى الأساس والمفتاح الصحيح إلى كل نور وفهم ! ! . . وقد كان الكثيرون من اليهود يقرأون الكتاب قراءات خاطئة ، فهم مثلا الذين اهتموا على ما يقول ليتفوت بحصر حروفه لكى لا يسقط حرف واحد من هذا الكتاب المقدس ، وفى الكتاب ثمانمائة وثمانية وأربعون حاشية لضبط الكلمات ، وفى نصف كل عدد علامة ، وأعداد الكتاب مجموعة محفوظة ، ولا توجد حركة تقتضيها اللغة إلا وهى مثبتة فيه ، . . مثل هذه القراءة التى تهتم بالشكل والحرف لا تستطيع أن تصل إلى عمق معانيه وأفكاره ، . . وكان الناموسيون فى كثير من الأحايين يضعونه كواجب ثقيل على الناموس والمجامع لابد من أن يتموا حفظه فى أوقات معينة . . . كان مستر هورن – مؤلف « كتاب كل يوم » – فى أول حياته كثير الشكوك من جهة الكتاب ، وكان مسافراً فى ويلز . . فوقف ذات يوم أمام باب كوخ وطلب قليلا من الماء ، فأجابته من الداخل فتاة صغيرة وقالت : تفضل أدخل فإنى أؤكد لك أن أبى يعطيك شيئاً من اللبن ، . . تفضل . . فدخل وجلس وكانت الفتـاة تقرأ فى الكتاب المقدس فقال لها : أرى أنك تستذكرين درسك يا فتاة . . فأجابته : كلا يا سيدى فانى أقرأ الكتاب المقدس . فقال نعم : أقصد أنك تستذكرين درسك منه ! ! .. فأجابته : كلا إن قراءة الكتاب المقدس ليست واجباً مدرسياً عندى ، . . فأنا أقرأه لأنى أحبه حباً جماً . . فسألها : ولمـاذا تحبينه ؟ . . فأجابت ظننت أن كل واحد فى العالم يحبه ! ! .. قال أحد رجال الله : إن الكتاب المقدس عند الكثيرين من الناس عديم اللذة وعديم الفائدة وذلك لأنهم يقرأونه بسرعة زائدة وبدون تعمق فى الدرس . . .. فهم أشبه بالفراشة المشهورة بجمالها وروعة شكلها ، ، ولكن رحلتها مع الحيـاة

قصيرة ، لأنها لا تمتص الرحيق كما تمتصه النحلة الرمادية الأقل جمالا ، . . ولكنها لا تكف عن الطيران إلى كل مكان تجد فيه عسلا أو ما تصنع منه عسلا ، فإذا كان مدخل المكان عميقاً نزلت إلى قاعه ، وإذا كان مغلقاً لا ترجع عنه حتى تفتحه ، وإذا كان العصير جديداً عليها أو غامضاً بحثت فيه ودرسته درساً وافياً حتى تعرف كل شيء عنه ، وعندما تتناول من رحيقه الحلو ترجع ممتلئة مبتهجة !! .. وكل إنسان يمكن أن يكون فراشة أو نحلة بالنسبة لكلمة الله ، . . فيوجد من يمر بالكلمة الإلهية مرور الفراشة ويوجد من يأخذها كما تأخذ النحلة عصارتها ، . . فيستخرج منها المعنى العميق والحق الكبير والدرس الثمين . . أو بعبارة أخرى تسكن فيه الكلمة بغنى ، وتعينه فى ظروف الحياة المختلفة لإدراك الحق الإلهى والتمتع به !! ..

ومن الثابت أن المسيح لم يوجه الناموسى إلى شيء جديد يمكن أن يدرك منه الطريق إلى الحياة الأبدية ، بل أكد له أن القديم الذى بين يديه يمكن أن يعطيه الجواب الصحيح إذا أراد الحقيقة ، . . فإذا نقلنا هذه الصورة إلى أبعادها الحقيقية ، لعرفنا كيف تفعل كلمة الله فعلها الصحيح ، لو تنبه إليها الناس أو كما كتب أحد البراهمة إلى مرسل من المرسلين يقول : لقد كشفنا أمركم ، إنكم لستم صالحين نظير كتابكم لو أن شعبكم كان فى صلاح كتابكم لكسبتم الهند للمسيح فى خمس سنوات ، . . ومن الواضح أن الناموسى لم يكن يعوزه الفهم أو العقيدة الصحيحة إذ أنه لخص الناموس تلخيصاً دقيقاً فى آيتين وردتا فى العهد القديم : « فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك (تث ٦ : ٥) و « تحب قريبك كنفسك » (لا ١٩ : ١٨) . . . وقد ربط الرجل — يدرى أو لا يدرى — الحياة الأبدية بالحب ، . . وكلما أحببنا الله حباً صحيحاً حقيقياً يبلغ الأعماق من القلب والنفس والقدرة والفكر ، وصلنا إلى الجذور العميقة للحياة الأبدية ، ولأحببنا بعضنا بعضاً كانعكاس للحب الإلهى الذى يملأ قلوبنا !! ..

الناموسى والتطبيق السليم :

من العجيب أن الناموسى لخص الدين فى كلمة واحدة هى الحب ، وهذا الحب ليس جهداً بشرياً ، ولا يمكن أن يتحقق للانسان بطبيعته الساقطة ، بل لابد له من الولادة الجديدة أو كما يقول الرسول يوحنا : « أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هى من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة . . . أيها الأحباء إن كان الله قد أحبنا هكذا ينبغى لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً . الله لم ينظره أحد قط . إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبته قد تكملت فينا . بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه (١ يو٤ : ٧ و٨ و ١١ و ١٢ و ١٣) . . فإذا كان من الصعب على الإنسان أن يحدد مدى حبه لله ، وعمقه وبعده ، فإن برهان هذا الحب ، وتجسيده ، وقوته تظهر فى حبه للآخرين،واهتمامه به وحرصه على معونتهم فى السراء والضراء كما يقولون ، . . ويبدو أن الناموسى كان سليم العقيدة ، مخطىء التطبيق ، ومثل هذا الإنسان كثيراً ما يصطدم بنداء الضمير أو همسة من روح الله الذى يناديه فى الأعماق ، . . ولعل توجيه المسيح ، أيقظ هذا الإحساس فى نفسه ، وإذ أراد تجنبه أو مراوغته أو مداورته ، سأل المسيح سؤاله الثانى : « ومن هو قريبى » . . ولم يدر أنه بهذا السؤال فتح أمام الجنس البشرى أعظم وأوسع صورة للحياة العملية المسيحية فى كل التاريخ فى مثل السامرى الصالح ولعله من اللازم أن نقف قليلا من هذا المثل الذى صنف البشر جميعهم أربعة أصناف لا أكثر ولا أقل :

الإنسان الجريح :

وهو الشخصية الأولى فى المثل : « إنسان كان نازلا من أورشليم إلى أريحا » . . وقد حرص السيد على ألا يعطينا شيئاً من النور عن شخصية هذا

الانسان : من هو . . وما اسمه . . وما عمله . . وما مركزه ، سوى أنه انسان على صورة الله حتى لا تتأثر المعاملة الإنسانية بالأوضاع والظروف المدنية أو الاجتماعية التى يكون عليها الفرد ، وهذا الجريح هو كل إنسان فى فترة أو فترات من الحياة ، إذ لا يمكن لأى إنسان أن يدخل إلى الحياة على الأرض دون أن يجرح بصورة ما جسدياً أو أدبياً أو روحياً بأية حال من الأحوال ، وما أكثر الجراح التى تأتى إلى البشر أفراداً أو بيوتاً أو جماعات أو أمماً، ومنذ ذلك الوقت الذى انقض فيه قايين على هابيل أخيه وسفك دمه، مازال النزيف الدموى من الإنسان يتدفق كالأنهار دون توقف ولو لحظة واحدة !! ..

الإنسان اللص :

وهذا هو الصنف الثانى من البشر ، ومن الواضح فى المثل أن المسافر تعرض لمهاجمة اللصوص ربما لأنه تاجر أو يحمل ثروة ، وكانت الطريق بين أورشليم وأريحا وعرة مخيفة ، وقد لام البعض التاجر لغفلته أو عدم تحرزه فى طريق غير مأمونة ، وكانت الثروة التى فى يده ، والبضاعة التى يسافر بها ، السبب فى الاعتداء الذى وقع عليه ، . . ومع أننا لسنا بصدد مناقشة الجريح أو لومه على ما حدث ، إلا أنه ينبغى أن نذكر أن اللصوص يملأون الأرض على الدوام ، ويتربصون أفراداً أو جماعات – بالعابرين فى الأرض ، . . وهم لا يكتفون بما يأخذونه فى الخفاء ، بالسرقة ولو فى الظلام ، بل يتجاوزون الأمر إلى النهب والسلب بالاكراه ، وفى العلانية ، . . أمسك الاسكندر الأكبر بأحد القراصنة وشرع فى محاكمته ، . . وقال القرصان : يا سيدى نحن نعتدى على سفينة ونعتبر لصوصاً ، وأنت القرصان الأكبر تعبث فى الأرض فساداً وتدميراً ، . . ومع ذلك تعظم وتكبر !! .. فى الواقع إن الطريق البشرى منكوب دائماً بالسراق واللصوص ، مهما اختلفت

درجات النهب والسلب والسرقة ، وما تترك وراءها من آثار مؤلمة فى حياة الناس والبشر !! ..

الإنسان المحايد :

ومن المؤسف أن المحايد يمثله رجل الدين ومساعده ، أى الكاهن واللاوى ، وهنا تتعمق الظلال وتبدو داكنة قاسية. والقصة تقول : « فعرض أن كاهناً نزل فى تلك الطريق » (لو ١٠ : ٣١) . . ولعله من اللازم أن نتوقف قليلا عند الكلمة عرض ، إذ أن البعض لا يراها إلا مجرد صدفة ... ولكن هذه الصدفة فى الحقيقة لم تكن إلا ترتيباً إلهياً دقيقاً لرسالة تقف فى طريق حياتنا ، . . ويعتبر الكاهن أو رجل الله هو أول من يحمل رسالة المعونة للآخرين فى هذه الأرض ، وليس من قبيل الصدفة أن يكون هو أول المارين بالجريح . . . ويبدو أن أملا كبيراً راود المنكوب وهو يرى رجل الله يقترب من الطريق ، . . فمن ذا الذى ينتظر أن يمد له يد العون أكثر من الكاهن ، . . لكن الكاهن للأسف لم يكلف نفسه حتى مشقة النظر إليه أو التفكير فيه ، ونحن نسأل لماذا فعل هكذا ؟ ! . هل لأنه مثل الكثيرين ممن يحاولون فصل الدين العقائدى عن الدين العملى فى الحياة ، أو ربما لأنه كان مرهقاً متعباً وقابل بين تعبه وارهاقه وبين المنظر المؤلم أمامه ، وأحس أنه أخذ نصيبه من التعب ، وأنه لا يجمل بهأن يحمل متاعب أكثر ، وهو ذاهب إلى بيته ليستريح ، .. على أى حال لقد كان منظراً مؤسفاً فى كل الأجيال أن يعبر رجل الله دون أن يلتفت إلى آلام الآخرين وجراحهم !! .. وليس له من عذر مهما كانت الأسباب !! .. وجاء بعده اللاوى وهو مساعد الكاهن ، « جاء ونظر وجاز مقابله » ، . . ونلاحظ بأنه لم يتجاهله تماماً كما فعل الكاهن بل « نظر » وربما سكب بعض الدموع أو رثى لحال الرجل ، . . ومع ذلك لم يفعل شيئاً . . ترى هل التمس لنفسه العذر لأن

الكاهن ، وهو الأولى بالمسئولية ، لم يهتم ، ونحن كثيراً ما نحاول إسكات الضمير بأن الرسالة التي لم يؤدها من هو أولى بالأداء ، تعفينا من الواجب أو تكلف المشقة فى خدمة الآخرين !! ..

إنسان الرحمة :

وإذا كانت القصة قد طرحت ظلالها السوداء على اللصوص أو الكاهن واللاوى ، فإنها تلقى أنوارها الباهرة على إنسان الرحمة الذى مد يده إلى التعس الجريح ، .. ومن المناسب أن نلاحظ أن هذا الانسان كان سامرياً ، والجريح على الأغلب رجلا يهودياً ، .. ومع ذلك فقد تخطى السامرى كل حواجز التعصب والحقد والكراهية التى كانت بين الشعبين ، كان شعار باستير : « لا أعرف من أنت ، ومن أى جنس أو لغة أو دين أو معتقد ، إنما يكفى أنك إنسان متألم أمامى » ترى ماذا يقول المتعصبون الذين يفرقون بين الناس بسبب لونهم الأبيض أو الأسود أو الأصفر ، أو أولئك الذين يفرقون بينهم بسبب الدين أو المعتقد أو الثقافة أو الدم ؟ إنهم لم يقرأوا بعد مثل السامرى الصالح كما ينبغى أو يلزم ... تعجب المسافر على الباخرة من أن زميله فى الغرفة رفض أن يحضر خدمة الأحد على ظهر السفينة ، لأن الواعظ كان من طائفة تختلف عن طائفة هذا الزميل ، مع أن الرسالة كانت باسم المسيح الذى التف حوله المجتمعون !! .. ولكنها الحماقة التى ترفض مجرد الاجتماع فى العبادة مع من يختلفون معنا فى المذهب !! .. إن المسيح يعبر هنا كل خلاف أو تعصب ، أمام آلام الآخرين واحتياجاتهم !! .. على أن السامرى لم ير فى سوء حالة الرجل ، مانعاً من المعونة ، ولعله يذكرنا بأن ازدياد الآلام ، أدعى إلى الرفق والمساعدة والاحسان ، .. كما أن الظروف الخاصة لا يجوز أن تمنع من تقديم المعونة ، فالسامرى كان وحيداً

فى طريقه ومسافراً وقد يتعرض مثل الجريح لخطر اللصوص ، . . ولكنه تجاوز كل الموانع على الصورة النبيلة الكريمة التى حدثنا عنها السيد المسيح ! !.

ترى هل نتوقف هنا أم نمتد أكثر لنسأل هل مثل السامرى الصالح مجرد مثل وضعه السيد المسيح ، ليكشف عن أوضاع الناس فى حياتهم على هــذه الأرض ! ! .. أم هو قصة واقعية أخذ منها المسيح الصورة التى قصد أن يضعها أمام الناموس جواباً على سؤاله من هو قريبى ! ! ؟ .. لا نعد ! ! .. لكن الذى لا شبهة فيه ، أنه هو بحبه وإحسانه وجلاله وصليبه كان القصة الصحيحة الحقيقية التى مرت بنا فى الطريق الانسانى المنكوب ، لتأخــذنا بجراحنا القاسية ، إلى حيث السلامة والأمان والصحة والسلام ! ! .. وهو ما زال إلى اليوم يعلم كل تلميذ وتابع وخادم له أن يجد فى كل إنسان آخر على ظهر الأرض أخاً يلزم اسعافه ومعاونته ! ! ..

كان الغلام فى ضجعة الموت ، وكان الطبيب يعوده فى كوخه الصغير ، وسمع أحد رجال الله عن آلام الصبى ومرضه الميئوس منه ، ورغم مشاغله الكثيرة ، وضع فى قلبه أن يزوره يومياً ، وكان يرسم له رسومات مختلفة ، وهو جالس إلى جواره ، وكان الولد يسر أبلغ السرور ، وينتظر زيارة هذا الصديق الذى يؤنسه ويرسم له ، . . وسأله من أنت ! ! ؟ .. وقال الزائر : أنا قريبك ! ! .. وامتلأت غرفة الصبى بالرسومات الجميلة ، والتى كانت تخفف من آلام علته كلما نظر إليها حتى فاضت روحه ! ! .. وعاشت هــذه الصور تعطى الجواب لأسرة الغلام عمن هو قريبى ! ! .. ليت أنظارنا تتسع وتبلغ هذه الرؤيا العظيمة البعيدة ، فنعرف من أى صنف ينبغى أن نكون ونحن نقف من آلام الآخرين وأحزانهم ومآسيهم ومتاعبهم فى هذا الوادى التعس وادى الدموع ! ! ..

١١٣
بارتيماوس

« وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالسا على الطريق يستعطى » (مر ١٠ : ٤٦)

لا يكاد المرء يعرف فى كل التاريخ شهرة لشحاذ أعمى كالشهرة التى بلغها بارتيماوس الأعمى الذى جلس على الطريق فى أريحا يستعطى ، . . ومن العجيب أن الذين يعرفون بارتيماوس فى كل العصور ، أكثر من الذين عرفوا أعظم الخالدين من العميان فى الأرض ، . . لم ينطق بارتيماوس فى حياته بالشعر ، ولم يعرف شيئاً عن الألياذة والأوديسة ، لكنه بلغ شهرة أعلى من هوميرس شاعر الأغريق الضرير ! ! .. ولم يرتق بارتيماوس عرشاً بل جلس على التراب على مشارف أريحا ، ومع ذلك فقد غطت شهرته على شهرة أوديب الملك ، الذى خرج بعقدة الذنب وقد فقأ عينيه ، وسار شريداً طريداً فى الأرض لا يلوى على شىء ، . . والذين أحبوا الشاعر الانجليزى الضرير ملتون ، الذى كتب الفردوس المفقود والمردود ، هم قلة إزاء الجماهير التى

وعت قصة بارتيماوس الأعمى فى كل الأجيال ، . . إن السر الواضح فى كل هذه ، هو أن بارتيماوس جلس على طريق الحياة — وهو شحاذ أعمى — يمر به يسوع المسيح ، ويعطيه العطية التى أكسبته نور العين ، ونور الخلود ، . . وهكذا كل إنسان يقف فى الطريق ليلتقى بالمسيح ويسير فى ركبه الخالد الأبدى ! ! .. إن قصة الرجل يمكن أن تروى من الجوانب التالية :

بارتيماوس والحيـــاة على قارعة الطريق :

ولعله من اللازم أولا وقبل كل شيء أن نتعرض لرواية الإنجيل عن بارتيماوس فإذا كان متى قد قال : « وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير . وإذا أعميان جالسان على الطريق » (مت ٢٠ : ٢٩) . . وإذا كان مرقس قد قال : « وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالساً على الطريق » (مر ١٠ : ٤٦) . . . وفى لوقا : « ولما اقترب من أريحا كان أعمى جالساً على الطريق يستعطى » (لو ١٨ : ٣٥) . . ومن الواضح أن متى يذكر أعميين ، ولوقا يذكر أن المعجزة حدثت على مقربة من أريحا ، ومتى ومرقس يذكران أنها حدثت عند خروجه من أريحا ، فما هو التصور الصحيح فيمايبدو أنه تعارض ظاهرى ؟ ! وفى الحقيقة لا يوجد تعارض على الإطلاق ، بل أن هذا التعارض الظاهرى دليل على صحة الرواية ، وليس العكس ، فلو أن أحد البشيرين كان يستمد الرواية مما يقرأه من الآخر ، لما بدا هناك أدنى تعارض ، ولكن كان كل واحد منهم مستقلا فى عرض الرواية ، وأميناً فى سردها دون تردد ، وهناك حلول كثيرة للمشكلة أو الصعوبة الظاهرة ، ومنها أن ذكر بارتيماوس باسمه يعنى أنه أضحى معروفاً فى التاريخ المسيحى ، وكان الأشهر من الأعمى الآخر الذى شفاه أيضاً المسيح ، ومرات كثيرة ما يذكر شخص دون

الآخر فى رواية ، فعندما زار لافييت الولايات المتحدة ورحبت به أمريكا ، وكان قد صحب ابنه ، ذكرت بعض الصحف الزيارة دون إشارة إلى ابنه ، وبعضها الآخر أشار إليه وإلى ابنه معاً ، . . وعندما دونت معركة ووترلو ، قال ولنجتون إنها بدأت فى الساعة العاشرة ، وقال الجنرال ألفا إنها بدأت فى الحادية عشرة والنصف ، وقال نابليون ودوريت إنها بدأت فى الساعة الثانية عشرة ، . . والقتال عندما يدور فى أماكن مختلفة وقبل أن يأخذ قوته الكاملة من كل جهة يمكن أن يكون قد بدأ فى هذه الأوقات جميعها إذا دون من نقط مراقبة مختلفة، ولا أحد ينكر أن معركة ووترلو قد حدثت فهى واقعة صحيحة ، أو أن التواريخ المختلفة دقيقة !! .. فإذا جاء ذكر بارتيماوس دون الآخر — وما أكثر ما شفى المسيح — فإن الصمت عن ذكر الآخر لا يعنى التناقض كما يقول الأسقف ترنش ، وبالإضافة إلى هذا لا يجوز أن ننسى أنه إذا كان لوقا يذكر أن المعجزة حدثت على مقربة من أريحا ومتى ومرقس يقولون إنها حدثت عند خروجه من أريحا ، فإن ذلك لا يعنى الاختلاف فى تحديد المكان ، إذا علمنا أنه كانت توجد أريحا القديمة ، . . وعلى مشارفها توجد أريحا الجديدة التى بناها الهيرودسيون ، ومن الجائز أن لوقا يصف الواقعة مرتبطة بأريحا الجديدة ، والآخران يذكران أريحا القديمة !! .. ومثل هذه القراءات المدققة تؤكد سلامة الرواية الكتابية ودقة الذين كتبوها ، وليس العكس ، . . على الطريق وفى مشارف المدينة حيث يجلس الفقراء والمنكوبون ليتلقوا الإحسان من الغادى والرائح جلس بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس ، ونحن لا نعلم كم عاش على هذا الأسلوب ، لكنه يعطى صورة لكل إنسان يقف أو يجلس ليأخذ مكانه على قارعة الطريق الأبدى ، ومهما يتسع به الحال أو يضيق ، ومهما ترتبك ظروفه أو تعتدل ، فهو أعمى يستعطى ، . . كانت رسالة الله لبولس :

لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور » (أع ٢٦ : ١٨) وقد غنت شارلوت اليوت أغنيتها المعروفة : « كما أنا أعمى شقي وفقير » . . وكل إنسان بهذا المعنى أعمى يتخبط فى الظلام ، حتى ولو كان حاد البصر أريب الفكر فى أمور الدنيا وأحوال العالم ، . . وإلا فمن منا يعرف ما وراء النجوم أو بالأحرى من هو وراء النجوم ، . . ألم ير عمر الخيام السماء كالطبق المقلوب دون أن يدرك الله الذى هو خلف كل الأشياء ، وصانع الكل ، بل من منا يستطيع أن يتحدث عن الغد . وما يأتى به ، وما تلد الأيام والليالى من أحوال وأحداث ، . . وكم من الناس يعرف طريق الخلاص من الخطية ، وما تجلبه علينا من تعاسات ومن عار أبدى !! . . ألم يسر الناس فى ضلال الخطية ؟ بل ألم يحبوا الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة !! .. كلنا فى الواقع – قبل أن يفتح المسيح عيوننا – ذلك الأعمى الجالس على مشارف الطريق فى رحلته المتحركة إلى الأبدية !! .. وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، لقد كان الأعمى فقيراً يستعطى ، . . مر به آلاف الناس أعطاه بعضهم ، وأكثرهم لم يعطه ، ومع ذلك ظل الشحاذ يستعطى حتى مر المسيح به فى الطريق ، . . . ونحن أشبه بالرجل ، مهما يقدم لنا كل يوم ، فانه يتركنا آخر الأمر فى حاجة قاسية ، وفقر لا ينتهى ، لأن الحاجة الحقيقية لا يمكن أن يملأها إلا يسوع المسيح !! ..

بارتيماوس والناس على قارعة الطريق :

ولا نقصد بالناس ، مجرد الناس الذين مروا به ، وألقوا إليه بعضاً من عطاياهم ، أو الذين لم يعطوا وما أكثرهم ، إذ كان بارتيماوس كمية مهملة عندهم ، وما أكثر الذين يسيرون فى موكب الحياة ويمرون بآلام الآخرين دون اهتمام أو حدب ، أو بأيسر الاهتمام مما يتركه كما كان فى بؤسه وآلامه

وحاجته إلى العطاء المتكرر ، .. لكننا نقصد تلك الجموع التى كانت تسير فى ركب المسيح ، وقد حاولوا بقصد أو بغير قصد ، الوقوف فى طريق مساعدته ومنعه من الاقتراب إلى المسيح ، . . إذ كيف لهذا الشحاذ أن يعطل موكب المسيح من الانطلاق والسير إلى الأمام ، . . عندما صرخ الرجل انتهره المتقدمون ليسكت ، . . فى يوم عيد الميلاد فى أحد الأعوام فى مدينة نيويورك، حيث يكون الزحام على أشده ، وجد شاب على أحد الأرصفة ميتاً تحت أرجل المارين ، وتبين من نحافته المفزعة ، أنه مات جائعاً مدوساً فى الزحام فى عيد ميلاد المسيح ، فإذا لم تصل الأنانية إلى هذا الحد ، . . فلعلها تكون بصورة أخرى مبعثها الإهمال والنسيان ، .. هل سمعت عن ذلك الصبى الذى خرج من مدرسة الأحد ، وإذ التقى به أحدهم وكان ملحدا وسأله : أين كنت أيها الصبى !! ؟ فأجابه : كنت فى مدرسة الأحد !! .. وماذا تعلمت هناك !! ؟ .. أجاب : تعلمت أن الله محبة ! ! . . فقال له الملحد : وهل الله الذى هو محبة يمكن أن يتركك هكذا ممزق الثياب !! .. فسكت الصبى لحظة ثم قال بألم : إن الله أوصى أحدهم بى .. ولكن هذا الأخير نسى ! ! . . على أنه من العجيب أن الذين قاوموا بارتيماوس ، هم الذين نادوه أن يذهب إلى السيد عندما توقف المسيح !! .. وما أكثر ما يكشف هذا عن تقلب البشر ، واندفاعهم من النقيض إلى النقيض !! . حاول صموئيل جونسون أن يلفت نظر أحد اللوردات إليه ، وهو يكافح فى سنيه الأولى دون جدوى ، ولكن بعد أن كتب قاموسه العظيم ، وتقبلته انجلترا أحر استقبال ، أرسل إليه هذا اللورد تحية حارة ، . . فأرسل جونسون يقول : لم أعد فى حاجة إلى هذه التحية التى كنت من سبع سنوات فى أمس الحاجة : إلى شىء منها !! .. وفى الحقيقة إن الإصرار على الغرض ، وعدم التأثر بآراء الجماهير أو عـــدم الفشل أمام متاعبها ومضايقاتها ومعاكساتها ، هو السبيل الدائم

للنجاح ، أو بالحرى لتحويلها إلى الموقف النقيض المغاير ، . . إن الجماهير فى حقيقة الأمر لا وعى لها وهى لا تتشبث بفكرة معينة عن اقتناع وفهم ، بل تنساق وراء العاطفة فتتأرجح بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، والثابت على الرأى والمبدأ هو الذى يكسب آخر الأمر موقفه بمساندة الجماهير نفسها !! ..

بارتيماوس والمسيح على قارعة الطريق :

ونحن نأتى الآن إلى أهم نقطة فى حياة بارتيماوس نفسها ، عندما التقى بالمسيح على الطريق عند خروجه من أريحا ، وسنتابع هنا بارتيماوس خطوة فخطوة ، فى تدرج علاقته بالمسيح ، . . ولعل أول ما ينبغى ملاحظته إحساس بارتيماوس بالمسيح عندما سمع وقع أقدام الموكب ، والأصوات الآتية من بعيد ، وهنا أمر ينبغى الوقوف عنده بعمق وتأمل ، إن المعجزة حدثت لا لأن بارتيماوس ذهب إلى المسيح ، بل لأن المسيح جاء إلى بارتيماوس والإنسان المسكين الأعمى فينا ينال نوره وإبصاره لا لأنه سعى إلى الله ، بل لأن الله سعى إليه ، . . ألم يسر يعقوب فى طريقه فى تلك الليلة الأولى التى خرج فيها من بيته ليستيقظ على الحقيقة التى صاح بها : « حقاً إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم » (تك ٢٨ : ١٦) . . . ألم يسر بولس فى طريقه إلى دمشق حتى بغته ذلك النور الذى أسقطه إلى الأرض ، والذى رأى فيه المسيح يقترب منه بنور أبهى من لمعان الشمس ، . . ومن الغريب أن يقترب الرب ويهتم بشحاذ فقير أعمى إلى هذا الحد ، . . ومهما كانت ضآلة شأننا ، وبؤس حالنا ، فإن محبة الله وعطفه علينا واقترابه إلينا لا تتغير . . عندماعير سالماشيوس يوحنا ملتون بعماه قائلا إنه علامة على عدم رضا الله عليه ، أجابه الشاعر النبيل العجوز : ليس عماى إلا ظلال أجنحة الله التى تظللنى وتحمينى . . قيل إن جورج فريدرك وطس أنفق عمره فى البحث عن غير المنظور بصوره ،

ومن ثمرة جهوده صورته العجيبة التى أسماها « الحلول الكلى » وهى صورة عظيمة جليلة حيث نرى جناحين كبيرين ، يحتضنان الأرض ، والأذرع الأبدية من تحت ، .. كان يمكن أن يظل بارتيماوس الأعمى على حاله ، وعماه ، وضياعه لولا أن مربه المسيح ، وتوقف عنده لكى يعطيه الفرصة الخالدة فى عمره ، . . على أن الأمر الآخر الذى لا يقل أهمية عن الأول ، هو سعى بارتيماوس إلى المسيح واقترابه منه . . قال نوسدك إن الإحساس بوجود الله شىء والإحساس بحقيقته شىء آخـــر . كل الناس يؤمنون أن الجمال الطبيعى موجود ، ولكن بعض الناس فقط هم الذين يحسون به بجلاء ويفرحون له من قلبهم بينما الآخرون لايتحركون منه بالمرة ، إن إحساساً غامضاً بحقيقة الله أمر فيه خطر عظيم ، نحن لا ننكر أن الله موجود ، ولكننا كثيراً ما نفقد الشعور العميق المقنع بأننا نتعامل معه ، وأنه يتصل بنا ، هذه هى المشكلة الحقيقية للانسان !! . . لم يحس بارتيماوس بالمسيح ، ولكنه اتصل به !! ..

حدثت قبل حركة النهضة سنة ١٨١٢ م فى بسكاى أن فتاة فوق سن الطفولة بقليل امتلأت بالفكر أن الله لا يقيم فى الجزيرة حيث تقيم ، وملأها شعور أنها يجب أن تخرج مفتشة عنه ، فتسللت من البيت وسافرت حتى وصلت إلى شاطىء البحر وطلبت أن تعبر إلى البلاد الأخرى . ولم تحفظ أمرها سراً بل أخبرت عن غايتها ، وظن أهلها أنها قد أصيبت بالجنون ، ولكنهم لم يحاولوا محاولة جدية أن يردوها إلى البيت . ولما خرجت من بسكاى بدأت تسأل كل من تقابله أين يمكنها أن تجد الله ؟ ، وكان سؤالها مثار التعجب ، ولكن لما كانت هيئتها تنم عن الاخلاص والجد ، كان كل واحد يجيبها إجابة لينة ، ولم يشاءوا أن يتدخلوا فى خيالاتها ، وأخيراً وصلت إلى « انفرنس» وكان أول شخص قابلته فى الطريق سيدة وجهت إليها سؤالها المعتاد . وقد أثرت حالة الفتاة وسؤالها فى السيدة ، فسألتها عن أمرها ،

وظلت تناقشها حتى تأكدت أنها عاقلة ، وعندئذ قالت لها السيدة : تعالى معى ربما أستطيع أن آتى بك إلى الله ، وأخذتها معها إلى البيت ، وكان اليوم التالى يوم الأحد ، فأخذتها معها إلى بيت الله ، وهناك ولأول مرة فى حياتها سمعت الإنجيل واستجابت له بقوة ، وعاشت بعد ذلك حياة مسيحية منتصرة !! ..

رفع بارتيماوس صوته صارخاً إلى يسوع المسيح ، وقد اتسمت صرخته بجملة أمور يصلح أن تكون نموذجاً للصرخة الحقيقية ، إذ كانت الصرخة التى أحسنت انتهاز الفرصة ، فقد كان المسيح فى أسبوعه الأخير قبل الصليب ولو لم يحسن بارتيماوس انتهاز الفرصة لضاعت منه إلى الأبد ، .. لا تؤجل فرصتك ، فقد تحسب الفرصة بالأيام أو بالساعات أو فى بعض الأوقات بالدقائق ، .. وربما لو أجل اللص صرختـــه نصف ساعة وهو على الصليب لما وجد أمامه سوى الجحيم كاللص الآخر غير التائب الذى لم يمسك بهذه الفرصة ، .. صرخ بارتيماوس إلى المسيح وكلما حاولوا إسكاته إزداد صراخاً وقد اتسمت صلاته بالحرارة .. قال أحدهم : كان الكاهن فى الشريعة اليهودية يقدم الذبائح كل يوم فكانت نار المذبح تستمر مشتعلة كل اليوم ، ونحن مع أننا لا نقدم عجول شفاهنا كل اليوم ، لكن لهيب التعبد يجب أن يكون دائم الاشتعال فى قلوبنا لا ينطفىء أبداً ، وهذا هو المعنى الصحيح لقول الرسول : « صلوا بلا انقطاع » (١تس ٥ : ١٧) .. وقال آخر : ظننا بأن الله لا يسمع لصلواتنا ، لأنه لا يجيبنا عند مانطلب لأول مرة ، لا تبرره الكتب المقدسة ، ولا الاختبار ، فيعقوب جاهد ليلة كاملة ، ودانيـــال صام وصلى ثلاثة أسابيع ، وجورج مولر العظيم الذى نال بصلاته أكثر من خمسة ملايين دولار شهد بأنه صلى لأجل بعض الأشياء عشرين سنة قبل أن تأتى الإجابة !! .. وقال ثالث : إذا جذبت السهم قليلا فإنه لا يندفع إلا مسافة قليلة أما إذا جذبته إلى آخر مداه فإنه يندفع بخفة ويسير مسافة بعيدة

هكذا الحال مع صلواتنا ، إذا ألقيت من شفاه غير مكترثة ، فإنها لا تلبث أن تسقط تحت أقدامنا فإن قوة صراخنا وتضرعاتنا هى التى ترسل صلواتنا إلى السماء وتجعلها تخترق طبقات السحب ، . . إن الله لا يهتم فى صلواتنا بحسابها كم عددها ، ولا ببيانها وفصاحتها ، ولا بهندستها وطولها ، ولا بموسيقاها وعلو أصواتنا فيها ، ولا بمنطقها ولا بنظامها وكيفية ترتيبها ، كل هذه قد توجد فى الصلاة ، ومع ذلك تكون بلا فائدة ، إذ لا يغنى فى الصلاة شىء أكثر من حرارة الروح فيها !! .. حضر فى إحدى الكنائس رجل اشتهر بصلواته البليغة المنسقة فدعاه الواعظ للصلاة . وفى اليوم التالى ذكرت بعض الصحف أن فى كنيسة . . . خدم فلان ثم دعا فلاناً المشهور للصلاة . . فقدم للكنيسة صلاة من أبلغ ما يكون ، بل أحسن صلاة فى الحقيقة سمعتها تلك الكنيسة ، وعقبت إحدى المجلات قائلة : لقد صدقت الصحيفة لأن الرجل قدم صلاته للكنيسة . وليس لله !! ..

كانت قوة صلاة بارتيماوس إلى جانب حرارتها استنادها إلى رحمة المسيح : « يا ابن داود ارحمنى » . . وهل عند فقير شحاذ أعمى ما يقدم للسيد سوى الالتجاء إلى رحمته ، . . كانت صلاة العشار فعالة الأثر : « وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء . بل قرع على صدره قائلا اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » (لو ١٨ : ١٣) لما كان جروثيوس الشهير فى طريقه إلى السويد أصيب بمرض شديد قاتل ، وزاره القس « كونبستروب » وذكره بخطاياه من ناحية ، ومن ناحية أخرى عدم فائدة خدماته وشهرته الواسعة ، وإنما هى نعمة المسيح وحدها ، قال هذا وذكر فى حديثه مثل الفريسى والعشار ، فقال جروثيوس أنا هو العشار ثم أسلم الروح . . قال رولند هل : يتحدث الناس كثيراً عن الروح إلى الوراء للنظر إلى حياة أحسنوا التصرف فيها ، أما أنا فأنظر إلى الأمام وإلى فوق ، إلى ذاك الذى

بذل حياته ليفدى حياتى ، وإلى هناك وليس غير هناك ، أجسر أن أنظر ، وأنا أشكر الله كثيراً لأنه حفظنى من الخطايا الدنيئة المنحطة ، ولكن لا توجد صلاة أكثر مناسبة لشفتى المائتين من الصلاة : « اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » ، وكان رئيس الأساقفة « أشر » يتمنى أن يموت وعلى شفتيه هذه الصلاة ، . . وقد تم له ما أراد وكانت فعلا آخر كلماته على الأرض ! ! ..

كانت صلاة بارتيماوس هادفة ومحددة ، . . كان ثيودور موند الواعظ الفرنسى المشهور يتحدث لأخيه عن شفاء بارتيماوس ثم سأل أخاه لو أنك كنت مكان بارتيماوس ماذا كنت تطلب من يسوع ؟ فأجابه الفتى : كنت أطلب كلباً جميلا بسلسلة وطوقاً جميلا ليجرنى فى سيرى ! ! .. قد نضحك من هذا التفكير ، . . ولكنه للأسف أسلوب الكثيرين الذين يطلبون أشياء لا تغنيهم أو تفيدهم ، وبالحرى تبقى عليهم فى عماهم واحتياجهم ، ويهملون. الحاجة الماسة الملحة التى ينبغى أن تركز عليها انتظاراتهم الصحيحة والحقيقية ! :. قال أحد المصلين : إن الصلاة قناة ، وعلى كل إنسان يحفر قناة صلاته التى تجرى فيها أنهار القصد الإلهى ، وبواسطة الصلاة تتلاشى الآثام القديمة الكائنة فى أعماق قلوبنا وتستيقظ طبيعتنا الأفضل. الهواء ساكن والموسيقى صامتة ، صدحت الموسيقى فتحرك الهواء ، هكذا الصلاة توقظ الفكر والقوة والرؤى والنصرة والرجاء .. لما اكتشف أرشميدس العتلة قال : « أعطنى عتلة ومكاناً أركزها عليه ، وأنا أرفع أسس الأرض » . والصلاة هى عتلة المؤمن التى يحرك بها يد الله لصنع المعجزات ! ! .. وقف المسيح للشحاذ الأعمى ، وسأله : ماذ يريد ! ! .. كان بارتيماوس يريد معجزة لا يملكها سوى يسوع المسيح ! ! .. مرض ميكونيوس إلى الموت ، وفى مرضه كتب إلى صديقه لوثر . أنه عند وصول كتابه إليه يكون قد مات . وقرأ لوثر المكتوب ثم جثا على ركبتيه وصلى بكل قوة الإيمان ، وختم صلاته بالقول : « ربى وإلهى

لا يلزم أن تأخذ صديقى ميكونيوس إليك . إن عملك هنا لا ينجح بدونه . آمين » ثم قام من صلاته وكتب لأخيه المريض قائلا : ليس هناك ما يدعو إلى الخوف يا عزيزى ميكونيوس . الله لن يسمح ! إنى أثق أنك لن تموت . لا يلزم أن تموت ، آمين . . وقد تركت هذه الكلمات أقوى الأثر . ولم يمت ميكونيوس بل شفى على أثرها ! ! . .

وضع بارتيماوس إيمانه كاملا فى يسوع المسيح وفى الحال قال له المسيح : « اذهب إيمانك قد شفاك » . . وفى الدقيقة نفسها أبصر ، فماذا فعل . . لقد تبع المسيح فى موكبه العظيم ، ولا يمكن لأى قلم أن يصف حال الرجل الذى تحولت الظلمة أمام عينيه إلى نور ، فرأى الشمس والأزهار والطيور والناس والطريق ، وانفرجت أوسع ابتسامة على وجهه وشفتيه ،.. ولا يمكن للانسان أن يلتقى بالمسيح دون أن يمتلىء ابتهاجاً وفرحاً ! ! .. ومن اللازم أن نذكر أنه لم يبق فى مكانه ، ولم يعد يجلس ليستعطى ، . . لقد أعطاه المسيح حياة جديدة ، . . ومن المؤكد أنه أصبح بعد ذلك تابعاً للمسيح يحمل رسالته للناس : « كنت أعمى والآن أبصر » (٩ : ٢٥) .

لقد مضى بارتيماوس قصة فى التاريخ ، لكن القصة تتكرر فى كل جيل وعصر ، فى حياة كل إنسان إذ يدنو منه المسيح سامعاً صرخته : « يا ابن الله ارحمنى !! .. » .

١١٤
زكا

« فقال له يسوع اليوم حصل خلاص لهذا البيت اذ هو أيضا ابن ابراهيم » (لو ١٩:٩)

لست أعلم مدى صحة هذا التقليد الذى يقول إن زكا عاش إلى أخريات حياته يخرج كل صباح عند شروق الشمس ليتمشى بين الحقول ، ثم يعود ناعم البال هادىء الفكر ، . . وقد تعجبت زوجته من هذه العادة ، فانسلت وراءه ذات صباح ، فإذا بها تراه يذهب إلى شجرة الجميز العتيدة ويقف هنيهة تحتها ، ثم يأخذ جرة ماء ويسقيها ، بعد أن يقلع الأعشاب التى حولها ، وينظر بين الفروع إلى المكان الذى كان فيه عندما مر به الرب ،. . قد يكون هذا مجرد تقليد أو صورة تتحدث عن نقطة التحول فى حياة ذلك الرجل القديم ، الذى تخطى عقبات متعددة ، وكان على العكس من الشاب الغنى الذى وقف المال عثرة قاسية فى طريقه ، . . فإذا كنا فى دراسة سابقة رأينا المال يتغلب على إنسان جاء فرحاً إلى المسيح ، ومضى حزيناً ، فإننا نرى الآن

الصورة العكسية لإنسان يبدو أن كل ماله وثروته لم تحقق له البهجة والفرح حتى التقى بالمسيح وقبله فرحاً !! .. هل لنا أن نتابع هذه القصة لعلنا نخرج منها بالعظات البالغات فيما يلي :

زكا من هو :

لا أستطيع أن أذهب مذهب دين بلا مبتر الذى تصور أن زكا كان ولابد ذلك العشار الذى قرع على صدره فى الهيكل ، وهو يقول : « اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » . . لكننا فى الوقت نفسه نستطيع أن نؤكد أن زكا كان يهودياً إذ هو ابن ابراهيم بالجسد قبل أن يكون بالروح . وليس أممياً كما تصور البعض ، والاسم زكا يعنى « نقى » ولعله يكشف عن أن أبوى زكا كانا تقيين ، وأنهما أطلقا عليه هذا الاسم على أمل أن يحيا حياة النقاوة والاستقامة والشرف ، ومن العجيب أن الاسم قد يكون شهادة للانسان أو شهادة عليه ، فكم أطلق الناس على رجل اسم « شريف » ولكنه عاش حياته فى مستنقع من الأوحال والدنايا ، أو « كريم » ولكنه كان فى غاية البخل ، أو « عبد المسيح » ، فكان عبداً للعالم والخطية والفساد والشيطان ، . . ولعلها النعمة وحدها هى التى ترد للاسم معناه ، كانسيمس الذى يشير اسمه إلى النفع ، ولم يكن نافعاً حتى جاء إلى المسيح وأضحى نافعاً !! .. وقد كان اسم زكا يدعو للسخرية ، حتى تحرر من أثقال فساده وشره وأضحى ابناً لابراهيم ، . . ومن المتصور أنه كان غنياً قبل أن يصبح رئيساً للعشارين ، إذ لا يعطى هذا المنصب لمفلس أو فقير بل يعطى فى العادة للشخص الملىء الذى يمكنه أن يدفع مقدماً ما يطلب منه عن المدينة أو القطاع الذى يأخذ توكيلا لجمع الضرائب ، . . فإذا كان الأمر كذلك فلا نقدر أن نتصور مقدار الثروة الهائلة التى كانت بين يديه ، بعد أن أصبح عشاراً أو رئيساً للعشارين ، . . والمال كالاسم يمكن أن يكون نقمة أو نعمة ، فإذا كان

قد انتهى فى قصة الشاب الغنى إلى أن يتحدث المسيح عن عسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله ، فإنه من الجانب الآخر يمكن أن يكون واحداً من أعظم الأدوات لخدمة السيد فى الأرض !! .. وزكا على هذا الأساس — لم يكن شخصاً عادياً مغموراً ، بل كان من أظهر الشخصيات فى مدينة أريحا ، .. ومن الواضح أنه كان يتميز بقوة العزيمة التى إذا قطعت برأى ، تسرع إليه دون أن تبالى بأراء الآخرين ، والعشار الذى يتعامل مع المال ، لابد أن يكون حازماً ، لا يهتز أمام دموع أو يفزع من تهديد ، . . وحتى ضحكات الناس أو سخريتهم لا تغير من وجهة نظره أو تعطل سعيه حتى لو سار راكضاً فى الطريق ، وصاعداً إلى الجميزة ، . . ومن الواضح أنه كان من ذلك النوع الملتهب العاطفة الذى لا يتوانى أو يتراخى فى الوصول إلى هدفه ، بل هو الإنسان ذو الحمية والغيرة لإتمام ما يعتمل فى صدره أو يهجس فى خاطره ، ومع أنه لم يكن صغيراً فى السن على الأغلب ، إلا أننا نراه يركض ركض الصبيان فى الطريق ليتسلق الجميزة ، والقصة تكشف أكثر من ذلك عن أنه كان كريماً غير شحيح ، ومن الحق أنه سعد برغبة المسيح فى الدخول إلى بيته ، فلم يكن مغلول اليد فى استخدام المال !! . .

على أن زكا مع هذا كله كان يهودياً مرتداً ، ومع أنه من غير المتصور أن ماله كله كان حراماً ، لأنه لو كان كذلك كان من المستحيل عليه أن يرد أربعة أضعاف لمن وشى بهم بعد أن يعطى نصف أمواله للمساكين ، لكن العشار على أى حال كان مكروهاً ، وهو المثل الظاهر فى الارتداد حتى إنه يعتبر دائماً مرادفاً للخطاة « العشارين والخطاة » وقد كان مرتداً لأنه كان أداة المستعمر الوثنى ، ولعله كان كلما مر بمكان بصق الناس من خلفه لاعلان اشمئزازهم من الرجل ، مهما كان ظاهر الثراء واسع النفوذ ، . . والعشار فى العادة هو ذلك الإنسان الذى يطوح بمعتقداته وتراثه الدينى فى سبيل المال ، . .

كما يفعل المرتشى أو تفعل الفاسقة ، أو كما يجلس المقامرون فى حلبة الميسر أو كما يفعل اللصوص الذين يقطعون الطريق لسلب الآخرين ، هكذا كان العشارون فى نظر أنفسهم وفى نظر الآخرين !! .. وقد كان الظلم هو الشائع فى حياتهم إلى الدرجة التى قيل معها إن روما أقامت تمثالا لعشار ، لأنه هو وحده الذى كان فى التاريخ يحصل الجباية دون قسوة أو ظلم ، . . وكان يستحيل على أى يهودى يراعى الذمة أو الشرف أو الأمانة أو الدين ، أن يقبل أن يكون عشاراً ، وبالأولى رئيساً للعشارين ، . . وقد أجاز التلمود الكذب على ثلاثة اللص والقاتل والعشار !! ..

زكا والعقبات فى الطريق إلى المسيح :

من الواضح أن زكا رغم كل ما كان يتمتع به ، لم يكن سعيداً ، ولم يكن للفرح سبيل إلى قلبه قبل نزوله من شجرة الجميز حيث قبل يسوع « فرحاً » كان الفرح هو العملة الصعبة التى لم يحصل عليها كعشار وجابى ضرائب ، وهو صورة للانسان البعيد عن الله ، والذى يحاول أن يعثر — دون جدوى — على بديل للشركة الإلهية !! .. ترى ماذا كان يحس به ، .. أهو الرغبة فى العودة إلى حياة الطفولة النقية عندما كان « نقياً » فى أحضان أمه قبل أن تلوثه الشرور والخطية ، . . أهى ذكريات أمه وأبيه فى البيت القديم الذى كان يملؤه سلام الله . . . ما أكثر الذين يشتهون أن يعودوا إلى أحضان أمهاتهم ، بعد أن تقدموا فى الحياة ، ونالوا أعظم الحظوظ فى نظر الناس ، . ولكنهم مع ذلك لم يأخذوا شيئاً يماثل الضمير المستريح الهادىء النقى الذى عرفوه فى مطلع الحياة وبكور الأيام ، . . أم أن زكا لم يكن مستريحاً لأنه أحس ثقل المال على كتفيه ؟ ! . سئل أحد أصحاب الملايين عما إذا كان مستريحاً بثروته الهائلة ، فأجاب : وكيف أستريح وثقل المال على كتفى يسحقنى إلى الأرض ، . . أهى المسئوليات ومشاغل المال التى لا تريح

البتة صاحبها ، بل تجعله نهب القلق والمخاوف والوساوس !! .. أم هو الإحساس بأنه مهما جمع الانسان من ثروة أو مال ، فإنه لن يأكل أكثر من سعة بطنه حتى ولو وضعت أمامه أطنان من الطعام ، وإن العليل ولو كان غنياً ، لن يأخذ مما يوضع أمامه شيئاً ونفسه زاهدة عن كل شيء !! .. أم هو الضيق بالعمل الذى يقوم به فلربما ظلم يتيما صرخ إليه دون جدوى ، أو أرملة استرحمته فلم يرحم ، .. وذهب كلاهما من أمام عينيه ، ولكن الصرخة التي سمعها ما زالت تدوى فى أذنيه وتقض مضجعه وتسلبه راحته! .. أم هو الإحساس بأن السعادة فى الحياة شيء أعمق من ذلك بكثير لم يعرفه حتى اكتشف السراب الذى عاش يتوهم وجوده كرئيس للعشارين !! .. أم هو كراهية الناس له واحتقارهم إياه ، حتى المنافقون الذين يصانعونه كانت منافقتهم كأنها المطارق التى تهوى على رأسه وتزلزل كيانه !! .. إن الحياة فى الواقع أبعد وأعمق وأعلى من مجرد حصول الانسان على ثروة الدنيا ، ونفوذ العالم ، واقتدار الماديات مهما كانت أهميتها !! .. وقد أحس زكا بهذا كله ، .. وهو فى طريقه إلى رؤية المسيح !! ..

أراد زكا أن يرى المسيح ولكن الطريق كان مسدوداً أمامه ، بجماهير الناس المتلاحمة أمام هذا القصير الذى لا يستطيع أن يشق الزحام ، .. لم يكن زكا قصيراً فى قامته فحسب ، بل كان فى كل شيء أقصر من أن يصل إلى يسوع المسيح !! .. كان قصيرا أمام الضمير إذ كلما حاول أن يرتفع إلى فوق ، أمسكت به شروره وخطاياه وآثامه لترده إلى أسفل ، وكلما حاول الاقتراب إلى الله ، نهض أمامه الماضى المرعب ليقذف به إلى بالوعة اليأس ، .. لم يعد يملك الضمير الذى بلا عثرة من نحو الله والناس ، .. وأضحت خطاياه تكبله وتذله وتطأطىء رأسه !! .. وكان قصيراً أمام الناس ، أمام كراهيتهم الواضحة والمتعمدة عندما يحاول بقامته القصيرة أن ينفذ بينهم ، فيتلاحقون

حتى لا يعطوه أدنى منقذ بينهم ، وهو قصير على أى حال أمام سخريتهم وحقدهم فهو لا يستطيع بسمعته وأعماله أن يجد بينهم طريقاً إلى حياة أفضل وأكمل ، . . وهو قصير أمام نفسه إذ هو غنى وصاحب نفوذ وكرامة ومركز . وقد صنعت هذه جميعها حاجزاً عالياً من الصعب أن يقفز فوقه ويتجاوزه فى الطريق إلى المسيح !! ..

على أنه من الواضح أنه مهما يكن الطريق مسدوداً أو الحواجز متماسكة ، فإن الله فى العادة يمكن أن يمد يد المعونة لأى إنسان راغب فى التغلب على الحواجز ، فالقصير يمكن أن يصل إلى طول يتجاوز الفارع فى الطول ، . . لقد جعل الله على جانب الطريق شجرة من الجميز يمكن أن تعطيه ما يتجاوز به قصره ، والطبيعة كما قال أحدهم : يمكن أن تمد يد المساعدة لمن يرغب فى أن يقف إلى جانب الله ، وسيخلق الله لنا كافة الظروف المساعدة والمعضدة لنتجاوز القصر الذى تسببه الخطية فى حياتنا !! .. وعندما تكون هناك إرادة فلابد أن يكون هناك طريق مفتوح ، . . وقد استجمع زكا إرادته ، ولم يعد يبصر أمامه سوى شيء واحد ، رؤية المسيح ، . . فلم يعد يبالى بضحك الناس أو سخريتهم من رجل شيخ يركض فى الطريق ، أو يتسلق الشجرة ، .. لقد صمم أن يرى يسوع ، فأصم أذنه عن أى صوت يمكن أن يرتفع ، وأغمض عينيه عن أى حاجز يمكن أن يحجب هذه الرؤية !! ..

زكا والمسيح فى بيته :

عندما سئل أحد رجال الله القديسين كيف وجد المسيح !!؟ .. أجاب : أنا لم أجده قط ، . . إنه هو الذى وجدنى !! .. ونحن نسأل من الذى وجد الآخر زكا أم المسيح !! .. لقد ذهب زكا مدفوعاً بعاطفة مهما كانت قوية لكنها على أى حال قاصرة ، ومهما كانت جميلة ، فلقد كانت فى المعنى

الصحيح ناقصة ، . . كان كل هم زكا أن يرى يسوع من هو ! ! . .
أو بعبارة أخرى إنه حب الاستطلاع لشخص سمع عنه ولا شك ، . .
ودفعته الرغبة فى أن يراه من فوق شجرة على الطريق ، وشجر الجميز شجر دائم الاخضرار كثير الورق ، ومن السهل على أى إنسان أن يرى الآخرين دون أن يراه أحد ، وعلى وجه الخصوص إذا كان قصيراً محدود الحجم ، ونحن لا نظن أن زكا كان يطمع فى أكثر من ذلك ، . . لكن المسيح — على العكس — كان يريد ما هو أعمق وأكثر وأجل ! ! .. كان يريد أن يجد زكا ، لذلك يتطلع إلى فوق ، ويحدثه عن فرصة طويلة ، لا عن نظرة عابرة ، ويناديه باسمه ، . . إنها الخطوة الأولى دائماً من السيد ، وهى الخطوة التى يجدنا فيها ، ويأخذنا من وسط الجماهير لنصبح له على حدة ، . .
فإذا بدا أن زكا هو الذى ذهب ، فإن الحقيقة هى أن السيد فى تخطيطه الأبدى الصحيح هو الذى جاء ، ولهذا قال السيد : «لأن ابن الإنسان قد جاء» (لو ١٩ : ١٠)
إن زكا صورة للنفس البشرية التى نزل المسيح من مجده السماوى ، لكى يأتى إليها ! ! .. تطلع إلى الأعالى ، ومد بصرك إلى ما وراء النجوم البعيدة ...
إن عبقرية الإنسان قد مكنته من أن يصل إلى القمر ليقف دقائق أو ساعات أو أياماً ، وهو أقرب كوكب إلى الأرض ، . . فماذا يمكن أن يقال لو أن رحلة الإنسان إلى الله يجب أن تتم بأن يصعد إلى ما وراء الكواكب التى يأتى ضوؤها إلينا فى آلاف السنين الضوئية ، . . كلنا شريد فى الأرض وهائم على وجهه ، ونتام فى صحراء دنيانا لنرى المنظر العجيب الذى أبصره يعقوب فى السلم التى تربط الأرض بالسماء ، والله على رأس السلم . . . بل إنه هو السلم ، وقد نزل إلينا لكى نستطيع الوصول إليه ! ! ..

ومن اللازم أن ندرك أن المسيح قد جاء لخلاص الهالك : « لكى يطلب ويخلص ما قد هلك » . . ونحن نسأل لماذا لم يقل : « من قد هلك ؟ يعتقد

البعض أن الكلمة « ما » إشارة إلى الجنس البشرى كله الذى هلك وضاع ، والمسيح قد جاء لخلاص هذا الجنس ، كما يحتمل أنها تشير إلى النفس البشرية ذاتها ، والتى ضاعت وهلكت ، وسواء كان المعنى المقصود هو الجنس البشرى بأكمله ، أو كل نفس بشرية على حدة ، . . فإن الحقيقة هى أن الانسان خلقه الله أساساً ليكون نافعاً ومفيداً وموجوداً لمجد الله فى الحياة ، . . لكن الإنسان كجنس أو نفس ضاع وهلك ، . . وقد يقول الناس عندما يرون حركاته على المسرح البشرى ، وتمثيله لرواية الحياة الضاحكة أو الباكية ، إنه إنسان عظيم ، . . وتقول الحقيقة الصارخة ، . . إنه بالحرى إنسان ضائع مفقود ، . . يستوى فى ذلك الفريسى والعشار والخاطىء ! ! .. والحقيقة التى تدعو إلى العجب أنه كان يوجد بمدينة أريحا إثنا عشر ألف كاهن ، ولم يختر المسيح بيتاً عند هؤلاء جميعاً ليقضى ليلته فى أريحا ، لقد كان الكهنة كزكا سواء بسواء فى حاجتهم إلى يسوع المسيح ، كانت أريحا مدينة اللعنة ، ومع أن ظاهر المدينة كان رائعاً وجميلا ، وقد دخلها المسيح فى ساعة الأصيل قبيل غروب شمس يوم الجمعة ، آخر جمعة فى حياة المسيح قبل الصليب ، وتلونت الحياة فى أريحا بلون الربيع ، وأريحا بلد الرائحة العطرة ، واسمها مشتق من الرائحة ، وقد دعاها يوسيفوس الفردوس الصغير ، هناك زرعت الأشجار الباسقة والأزهار اليانعة ، وكانت أشجار النخيل والجميز والبلسان والأشجار العطرية الرائحة ، تحوط بالمدينة وتعانقها ، . وعند هبوب ريح النهار كانت عطورها تنتشر إلى مسافات بعيدة حتى تبلغ البحر ، . . فى هذه المدينة التقى زكا بالمسيح ، وما أبعد الفرق بين لقاء يسوع بزكا ، ولقاء يشوع بنعمان بن كرمى ، ومع أن التجربة فى كلتا الحالين واحدة ، إذ أنها تتعلق بالمال ، لكن تجربة زكا كانت أقسى وأشنع ، كانت تجربة عخان تجربة يغلب فيها عنصر المفاجأة ، أما تجربة زكا فكانت مع سبق الاصرار ، . . رأى عخان الذهب فلمع أمام عينيه ، وعاش زكا سنوات

طويلة يلمع الذهب أمامه !! .. ومع ذلك فقد دان يسوع الخطية بقسوة وعنف ، ورفع يسوع نيرها عن الساقط تحتها !! .. وتحضرنا هنا أقوال دكتور ما كارتنى عندما قال : « إن شجرة الجميز التى تسلقها زكا فى ذلك اليوم من الربيع فى مدينة أريحا ، أضحت واحدة من أعظم المنابر فى تاريخ الكنيسة ، إنها تعظنا أولا عظة عن قوة الرحمة ، . . وهذا ما كسب به المسيح زكا ، . . فلنفرض أنه توقف عند الشجرة قليلا وهو ينظر إلى زكا ثم قال له : يا ابن الشيطان يا من طحنت المساكين وشردت اليتامى والأرامل فى الشوارع كيف تنجو من دينونة جهنم !! .. إن المسيح يعرف متى يدين ومتى يبدو قاسياً ومتى يخلص !! .. لكنه لم يفعل هنا هذا !! .. إنه يجد أمامه رجلا فيه الأمل فى المجىء إلى الله ، ولو قسا عليه لفقده إلى الأبد !! ..

كلنا يعلم الأسطورة القديمة عن الريح والشمس ، عندما حدث النزاع بينهما فى قدرتهما على نزع سترة رجل يلبسها ، وهبت الريح وشدت السترة ، والرجل يجمعها حول نفسه أكثر كلما زادت شدة الريح ، . . وسطعت الشمس وبدأت ترسل حرارتها بلطف وعمق إلى أن جاءت اللحظة التى انتزع الرجل معها سترته من شدة الحر ، . . ونحن يمكننا أن نأخذ طريقة الشمس ، وهى الطريقة التى استعملها يسوع المسيح فى الترفق بزكا وبقيادته إلى الخلاص !! ..

أجل ! فهذا حق لقد رأى المسيح فى زكا ما لم يره اثنا عشر ألف كاهن فى أريحا كانوا يلعنونه ولا شك ،.. وما لم يره زكا فى نفسه ،.. لقد رأى فيه المسيح « ابن ابراهيم » . والمسيح لا يقصد ابن ابراهيم بالجسد ، بل ابنه بالروح والحياة والسلوك الحسن ، . . لقد رأى الماسة اللامعة فى قلب الفحم الأسود ، . . ومع أنه ليس من عادة المسيح أن يدعو نفسه إلى بيت إنسان قبل أن يدعوه هذا الإنسان ويلح فى دعوته ، . . لكن المسيح دعا نفسه إلى بيت زكا ، إذ أن الذى عرف نثنائيل تحت التينة ، عرف زكا فوق الجميزة

أيضاً ، وكانت أعماقه مكشوفة أمام السيد ، . . كان زكا حتى تلك اللحظة يركض ليرى المسيح ، وهو فى حقيقة حاله يركض هارباً من تعاسته وشقاوة قلبه ، وعندما دعاه السيد كانت هذه الدعوة العجيبة بمثابة دعوة للفرح : « فأسرع ونزل وقبله فرحاً » ومن المؤكد أن زكا فى كل حياته السابقة لم يتذوق فرحاً كالذى عرفه فى ذلك اليوم العظيم ، يوم تجديد حياته ، وانتقاله من الظلمة إلى النور العجيب ، وفى الحقيقة لا يوجد فرح على الأرض يدانى أو يقترب من فرح الحياة الجديدة مع الله ، ولو أنك أعطيت زكا مال أريحا بأكملها ، بل مال الامبراطورية الرومانية كلها ، لما وجد الفرح الذى لا ينطق به ومجيد ، والذى هو فرح الخلاص ، . .

على أن الدعوة أيضاً كانت دعوة إلى الحياة الجديدة التى ظهر برهانها فى الحال ، فى قطع كل علاقة بالماضى القديم الآثم ، « فوقف زكا وقال للرب ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف » .. (لو١٩ : ٨) ومن المهم أن نذكر أن إيمان زكا لم يكن إيماناً نظرياً كايمان ذاك الذى خرج من اجتماع من اجتماعات النهضة فرحاً مسروراً ، والتقى به فى اليوم التالى صديق ليقول له : يا جورج سمعت أنك تمتعت بالخلاص بالأمس ، . . قال : نعم !! .. فقال له : إذاً أعطنى الدين الذى لى عليك !! .. فأجاب : لقد سامحنى الله به ، كما سامحنى بالخطايا التى اقترفتها !! .. كان زكا يعلم أن الحياة الجديدة ينبغى أن تنهض لحساب النفس حساباً دقيقاً ، فإن كان قد وشى بأحد ، فانه يرد أربعة أضعاف !! .. لم يوجد شخص كان يجسر أن يتهم هاجنز البقال بقلة الأمانة ، ولكنه — على عكس الجميع — رأى نفسه كذلك ، . . كان فى حانوته قسم لبيع المحار كان يفتحه ويقدمه للآكلين ، وقد جاءه كاتبه يخبره أن عميلهم أرسل ضمن البضاعة برميلين منه ، ولم يقيد ثمنهما فى فاتورة

الحساب ، وقال هاجنز إنه لابد أن يقيدهما فى الدفعة التالية ، وجاءت هـذه الدفعة وما بعدها دون أن تأتى إشارة إلى ثمن البرميلين ، وقد تصادف أن حضر إلى البلدة واعظ مقتدر ، وامتلأ المكان بالحاضرين ، وروى هاجنز عند المنبر باكياً ، وقد وقف يطلب الصلاة من أجله ، دون أن يجد الراحـة ، وهذه كلماته . . لقد وقف برميلان من المحار بينى وبين المسيح أسبوعين طويلين ، كنت مقتنعاً بخطيتى وصليت ، وصلى معى آخرون ، علمت أنه يجب أن أدفع ثمنهما ولكن كبريائى وقفت حائلا بينى وبين اظهار نفسى سارقاً لعميلى النيويوركى ، وكاد البرميلان يحدرانى إلى الجحيم . وفى صباح يوم — وكنت قد صارعت الليل كله — سرت نحو المكتب قبل الفطور ، وكتبت شيكاً بالثمن ، وعندئذ امتلأ قلبى بسلام لم أعرفه ، وشعرت أن سيدى غفر لى ذنبى ، . . ومن طريف ما يذكر أن أحد المرسلين فى أفريقيا الجنوبية ، وكان قد افتتح مدرسة ، جاءته فتاة ذات يوم وأعطته شلنين ونصف ، وقالت له هذه دراهمك فأجابها : كلا ليس لى عليك شىء ، . . قالت إنى مدينة لك وسأريك كيف . إنك وعدت فى الامتحان العمومى بنصف شلن لمن يكتب أحسن نموذج على اللوحة ، وأنا قدمت لوحتى ، وأخذت المبلغ ، مع أن واحدة أخرى هى التى كتبته لى ! ! .. وبالأمس كنت أقرأ قول زكا : إن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف ، وها أنا قد أخذت منك المبلغ أرده مع أربعة أضعاف ! ! ..

من الواضح أن نعمة الله العظيمة ، ظهرت فى ذلك التحول العجيب فى مشاعر زكا تجاه المال ، لقد كان المال أول الأمر معبوده الذى من أجله ارتد عن الإيمان ، وسار شوطه البعيد فى خدمة الرومان إلى أن أصبح لا عشاراً فحسب ، بل رئيساً للعشارين ، . . لكنه بعد ذلك ذهب إلى النقيض ، فترك نصف أمواله للمساكين ، ومن النصف الآخر سدد ما كان قد أخذه

ظلما أو وشاية بالآخرين، فماذا بقى له، وهو يطوح بالمال على هذاالأسلوب!...
إنه يذكرنا بيهودى آخر فى أوائل هذا القرن ، كان حبه للمال شديداً إلى درجة أنه ذهب إلى مكتبة التوراة فى القسطنطينية ليشترى كتاباً مقدساً ، ، لأنه يستطيع شراء العهدين القديم والجديد بثمن أقل ريالا مما لو اشترى العهد القديم من مكتبة يهودية .. وقد سر كثيراً من قراءة الانجيل ، ولم يمض زمن حتى أحب المسيح وآمن به هو وزوجته . وانتقل إلى سان فرانسيسكو واستقر هناك وفتح مع زوجته فرعاً لتوزيع الكتاب المقدس ووزعا الكتاب فى ثلاث وثلاثين لغة . . ولما مات الرجل وجد أنه ترك كل أمواله — ما خلا مرتب مدى الحياة لزوجته — لتوزيع الكتاب المقدس لليهود !! .. ما أكثر ما تعمل نعمة الله فى أشر الخطاة !! .. لقد انتهى عطر أريحا وذهبت أشجارها مع الأيام ، ولكن عطر هذه القصة ما زال ينبعث من صفحات الإنجيل لأنه عطر المسيح الذى قال : « لأن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ويخلص ما قد هلك » . .

١١٥
قيافا

« والذين امسكوا يسوع مضوا به الى قيافا رئيس الكهنة » (مت ٢٦ : ٥٧)

لا تستطيع أن تفهم أو تعرف عصر المسيح فى الجسد ، دون أن تقرأ أو تسمع عن عصابة السبعة الذين كانوا من عائلة واحدة ، ولا تستطيع أن تعرف مدى خراب النفس ، وإلى أى حد تصل ، قبل أن تعلم أن السبعة كانوا رؤساء كهنة ، ولم يأخذ هؤلاء الكهنوت من الله أو لمدى الحيـــاة ، كما كان رئيس الكهنة المعين من الله يبقى حتى نهاية حياته ، بل كان السبعة يصلون الكهنوت بتعيين الرومان الوثنيين لهم !!.. هذه العائلة أو العصابة بالتعبير الأدق ، بدأت بحنان رئيس الكهنة الذى كان له خمسة أولاد أضحوا أيضاً رؤساء كهنة ، وانضم إليهم قيافا الذى كان صهراً له ، .. وكانت لعبة الكهنوت لعبتهم ، وعندما دخلوا بيت الله ، كان يلبسون الزى المقدس الذى كان يغطيهم ، وهم لصوص من هامة الرأس إلى أخمص القدم ،

كانوا يطردون من الكهنوت ، فيعودون إليه بشتى الأساليب ، ابتداء من السنة السابعة للميلاد حتى خراب أورشليم ، فقد عين حنان رئيساً للكهنة فى ذلك الوقت على يد كيرينيوس الوالى ، وعين قيافا فى السنة الثامنة عشرة للميلاد على يد فلاريوس جراتوس حتى السنة السادسة والثلاثين ، . . وحولت العصابة بيت الله إلى مغارة لصوص ، فإذا كان لنا اليوم أن ندرس قيافا الذى رأس السنهدريم فى الحكم على المسيح بالموت ، فإننا سندرس قصة رئيس الكهنة الذى لم يكن لصاً فحسب بل كان قاتلا أيضاً ! ! .. ولعلنا من خلال دراسة هذه الشخصية ، نعلم كيف يمكن لرجل ينتسب إلى الله ، أن يكون أبشع صورة لمن يعبد الشيطان ، ويضحى رئيساً لكهنته . . ويمكن بعد هذا أن نراه فيما يلى :

قيافا وأنانيته :

فى اختبارات واتشمان نى المسيحى الصينى العظيم يقول : فى عام ١٩٢٩ عدت من شنغهاى إلى فوتشاو مسقط رأسى ، ويوماً ما كنت أسير فى الطريق متوكئاً على عصاى ، وقد استولى على الهزال والضعف الشديدين ، وفى تلك اللحظة التقيت بأحد أساتذتى القدامى فى الكلية ، . . فأخذنى لنجلس فى محل نشرب فيه الشاى ، ونظر إلى من هامتى إلى قدمى ، ومن قدمى إلى هامتى ، . . وقال : كنا نعلق عليك آمالا كباراً فى الكلية ، . . فهل انتهيت إلى هذه الصورة . . واعترفت أننى أحسست فى تلك اللحظة بحاجتى إلى البكاء لسوء حالتى الصحية ، وها هو أستاذى القديم فى القانون يسألنى : « هل ترضى بحالك هذه ، بلا نجاح أو تقدم أو الحصول على شىء ! ! .. » لكن شيئاً عجيباً استولى على ، وفاض فى إحساس الانسان المكرس لله ، وصرخت دون تحفظ : « ربى أشكرك ، إذ أن هذا أعظم شىء فى الوجود ، وما سلكته

كان الطريق الصحيح » . . كان شعار وتشهان فى أمام المسيح : « لأ أنا ... بل المسيح » وكان شعار قيافا على العكس تماماً : أنا . . لا المسيح ، وقد نطق بهذا الشعار فى قوله : « خير لنا أن يموت إنسان واحد » (يو ١١ : ٥٠) . . وإذا كان المعمدان قد فقد الذات أمام المسيح فى القول : « ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) . . وإذا كان بولس وهو يتحدث إلى الغلاطيين أجمل قصته فى العبارة : « فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى » (غل ٢ : ٢٠) . . فإن قيافا ، وقد استيقظت فيه أنانيته الكاملة ذهب إلى الاتجاه الآخر ، . . فإذا كان الأمر يتطلب : هو أو المسيح ، فإن مهمته الصحيحة التى لا يمكن أن يهدأ قبل الوصول إليها هى أن يزيل المسيح من طريقه مهما كان الثمن ، . . ومن هنا نتبين مبلغ أنانية الرجل ، وماذا تفعل الأنانية فى حياته ، . . إنها تكسبه قسوة ما بعدها قسوة ، . . وهو لا يبالى بموت المسيح أو تهتز له عضلة ألما أو شفقة ، بل إنه لا يبالى أيضاً بمصير يهوذا ، الذى إذ جاء نادماً على فعله ، . . لاقاه بابتسامة السخرية ، والقول : « أنت أبصر » » . . ولا حاجة إلى القول إن مثل هذا الإنسان لابد أن يكون وصولياً لا مبدأ له أو أخلاق على وجه الإطلاق ، . . فهو من أصحاب الرأى : إن الغاية تبرر الوسيلة ، كان ميكافيلياً قبل أن يولد ميكافيلى بعشرات القرون ، . . ولعله هنأ نفسه على الطريقة التى حاكم بها يسوع المسيح وجر السنهدريم معه إلى هذا الحكم ، الذى أصدره من قبل : « فقال لهم واحد منهم وهو قيافا كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة أنتم لستم تعرفون شيئاً . ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها » (يو ١١ : ٤٩ و ٥٠) . . وعندما تم الاتفاق مع يهوذا ، وقبض على المسيح ليلا ، دعا السنهدريم على عجل ، وكان السنهدريم يتكون من واحد وسبعين عضواً برئاسة رئيس الكهنة ، وكانت اللائحة القانونية تحدد إجراءات

المحاكمات ، وكان يشترط بموجبها أن تنظر جميع التهم نهاراً ، ويجب انهاؤها خلال النهار ، ولا يجوز أن تتم المحاكمة ليلا ، ولا يجوز أن تتم محاكمة خلال أيام عيد الفصح ، فإذا كان الحكم بالبراءة فإنه يجوز إصداره فى ذات اليوم الذى تنظر فيه القضية ، . . أما إذا كان بالإدانة فيجب أن تنقضى ليلة كاملة قبل إعلان الحكم حتى تكون هناك فرصة كافية لمشاعر الرحمة !! .. ولا يجوز أن ينعقد السنهدريم إلا فى مكانه الرسمى ، فى إحدى قاعات الهيكل ، وينبغى أن تكون الشهادة ثابتة من شاهدين على الأقل ، يفحصان على إنفراد دون أن تكون لأحدهما فرصة الاتصال بالآخر ، . . فإذا كانت الشهادة متعلقة بجناية من الجنايات ، فقد كان لابد أن يقال للشاهد : « لا تنسى أن هناك فارقاً بين الشهادة فى الأمور المدنية ، والشهادة فى الجنايات التى يعاقب عليها القانون بالموت ، ففى قضايا المال إذا كانت الشهادة خاطئة ، أمكن تعويض الخطأ بالمال ، أما فى هذه المحاكمة لأجل الحياة أو الموت ، فانك إن أخطأت فى شهادتك ، فانك ستحمل وزر المتهم ودمه ودم نسله عليك إلى الدهر » . .

كانت لقيافا القدرة العجيبة على أن يفعل كل شىء مخالفاً للقانون ، فإذا كان الأمر يحتاج إلى استخدام المال ، فمن الممكن شراء تلميذ المسيح ، وإذا كانت هناك حاجة إلى شهود ، فلا مانع من جلب الشهود بأى ثمن يمكن أن يشتروا به ، وليس من الضرورى توجيه التنبيه عليهم بخطورة الشهادة التى سيقدمون عليها ، فإذا لم تفلح هذه الشهادة ، فلا مانع من الاستغناء عنها ، والاتجاه مباشرة إلى المتهم ، ومحاولة الحصول منه على ما يدينه ، مع أن من حقه الامتناع عن الجواب فيما يمكن أن يؤخذ دليلا عليه !! .. وهو يستطيع أن يصل بالتمثيلية إلى آخر مداها ، عندما يمزق ثيابه

إزاء استجوابه ليسوع المسيح ، وما حاجته بعد إلى شهود ، وقد أقر معترفاً بما استحلفه به !! ..

والسؤال الذى ينهض أمامنا لماذا أجاب المسيح على سؤال الرجل ، وهو يعلم أنه يقصد به إيقاعه . . . لقد وقف المسيح هنا موقفاً غير عادى ، أمام سؤال مرتبط بقسم ، وهكذا وقف المسيح أمام الحقيقة المجردة التى جاء من أجلها إلى هذه الأرض . والتى سار فى طريقه وهو يعلم أن الصليب أمر لابد منه ، لا بحكم قيافا . بل بحكم الله لفداء الجنس البشرى ، . . وهو لابد أن يعترف بهذه الحقيقة . ولو فى لحظة الموت . ليعلم أتباعه أنه توجد حقائق عليا فى الحياة لا يجمل التهاون أو التهادن فى الاعتراف بها ، مع اليقين بالموت المؤكد تجاهها ، . . لقد تفادى المسيح أسئلة كثيرة بالحكمة ، وهو يعلم قصد قائليها ، وخداع ألفاظهم المعسولة . . . لكن الموقف هنا مختلف . والأمر هنا إما أن يكون هو المسيح أو ليس المسيح . . وهو لا يستطيع أن يقول : « لا » فينكر شخصيته ، ولا يقبل أن ينال نجاته على أساس هذا الإنكار . . . وهو لابد أن يقول : « نعم » . مهما كانت النتيجة حتى ولو قادته هذه النتيجة إلى الموت ، . . لو أنه كان مسيحاً مدعياً أو مزيفاً ، لداور فى الحقيقة . وحاور فى الجواب ! أما هو فحاشاه — هو الصادق الأمين أن يفعل ذلك ، . . كلا لقد أجاب المسيح وأضاف إلى الإجابة . ما يؤكد أنه يرى فى الصليب سلما إلى المجد العظيم إذ أشار إلى نبوة دانيال : « كنت أرى فى رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى قديم الأيام فقربوه قدامه . فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض » (دا ٧ : ١٣و١٤) ومن العجيب أن يرى السيد ذات المحاكمة والصليب مرتبطين بمجده الأبدى العظيم ، . . فإذا عجزت كل هذه الاتهامات والمحاكمات عن أن تنفذ حكم

الموت فى المسيح ، إذ أنها فى جوهرها اتهامات دينية لا تسمح بالقضاء عليه ، وإذا كان الأمر يحتاج إلى تهمة سياسيه ملفقة ، فلتلفق له هذه التهمة ، وليرغم بيلاطس على قبولها ، وهى تهمة التمرد على قيصر ، . . فإذا تراخى بيلاطس عن الأخذ بها ، فهو لا يصلح أن يكون والياً وهو يهمل فى حق مولاه والثورة على عرشه ومركزه !! . . وهنا يصبح قيافا إماما من أئمة المنافقين فى كل التاريخ ، وماكراً من أبرز الماكرين وأكثرهم خبثاً ودهاء ! ! . .

قيافا والدوافع الكامنة وراء شخصيته البشعة :

والأمر هنا يحتاج لا أن نقف عند شخصية الرجل بما حفلت به حياته، من أبشع التصرفات وأشرها على الأخلاق . بل أن نتغور إلى أعماقه ، لنرى الدوافع التى سيطرت على حياته لينتهى إلى ما انتهى إليه :

قيـافا وصهره :

قال التلمود : « ويل لبيت حنان ، ويل للبيت الذى اضطهد شعب الله ، ويل للبيت الذى كان يضرب العابدين بالعصى ، ويل للذين استولوا على الهيكل ، فأخذ أبناؤهم الخزائن ، وأقاموا أصهارهم على الحراسة » ولعلنا بعد ذلك نفهم كيف كان أثر حنان وبيته فى قيافا ، . . كان حنان عند صلب المسيح فى السبعين من عمره . ومع أنه كان مخلوعاً ، وكان قيافا يقوم بالرئاسة ، فى مظهرها الشكلى والرسمى ، لكن حنان كان مشيره الرهيب والقائد غير الرسمى للسنهدريم ، وهذا هو السبب فى أن قضية المسيح طرحت على حنان أولا ، وكان لابد لها أن تستكمل مظهرها الرسمى على يد قيافا ، . . لكننا نرى الاثنين معاً ، فى الظاهر وفى الخفاء ، فى النور والظل ، . . ونرى تأثير حنان على قيافا ، فإذا كان البعض يعتقد أن قيافا لم يكن شيئاً فى ذاته ، إنما كان يدفع دائماً بتأثير حنان ، فإن الأمر على أى حال يكشف عن أقوى

المؤثرات التى كانت تحرك رئيس الكهنة . لقد دخل قيافا دائرة البيت بالمصاهرة ، وأضحى واحداً من العصابة التى باتت تحكم وتتحكم فى كل شيء ، . . لقد كان الظاهر فى صلب المسيح اجتماع السنهدريم ، ليصدر القرار الخاص بذلك ، لكن الذى دار وراء الكواليس ، وفى الخفاء هو الذى كان الأساس فى كل شيء . . .

منذ سنوات عديدة قام نزاع حاد فى الكونجرس الأمريكى من أجل قرار هام ، وفى غرفة الشباب ، تقدم أحد الأعضاء نحو عضو جديد كان قد أعطى صوته للناحية الأخرى بوسيلة غير نبيلة وقال له : لماذا أيها الأخ الشاب أعطيت صوتك للناحية الأخرى ؟ فأجاب : يا مستر مادن — اسم السائل — كنت مضطراً إلى ذلك . لقد كنت تحت ضغط شديد . ووضع رجل الكونجرس يده على كتف العضو وقال : ولكن أيها الأخ الشاب أين طاقاتك الداخلية . . إن ضغط الحياة من قديم الزمان على طاقات النفس الداخلية رهيب ، وسيذهب الكثيرون إلى أعماق الهاوية لأن إيزابل بنت اثبعل خلف أخاب ، . . فإذا قالوا فتش على المرأة : فإننا لا نملك إلا أن نقول أيضاً : اختر صهرك ، وافتح عينيك جيداً قبل أن تتقدم وتضع يدك فى يده ، . . هناك أسطورة عن رجل وقع فى ضائقة شديدة ، فنادى شياطين الجحيم لتساعده فى ورطته ، فجاءوا إليه راكضين ضاحكين هاتفين ، وأخرجوا الرجل من الورطة ، وعندئذ سألهم أن يعودوا إلى الجحيم ، ولكن الشياطين أجابوا : نعم نعم سنذهب إلى أسفل السافلين . ولكننا سنأخذك معنا ، لكى نكون هناك فى مستقر واحد ! .. ولابد أن العصابة التى عاشت على الأرض على هذا المستوى ، لابد أن تعيش هناك معاً أيضاً فى العذاب الأبدى ، يقول النبى ميخا : « ويل للمفتكرين بالبطل والصانعين الشر على مضاجعهم . فى نور الصباح يفعلونه لأنه فى قدرة يدهم (مى٢ : ١) وأى قدرة هذه أو جرأة

على فعل الشر ، والتى يحسد عليها إنسان ! ! . . هرب أحد الأسود من السيرك ، وخرج الرجال الذين يعملون فى السيرك بحثاً عنه ، غير أنهم قبلما بدأوا البحث وقفوا عند حانة وطلبوا كلهم خمراً ، ما عدا مدرباً مشهوراً اسمه دكستر فيلوز ، وعندما طلب منه رجاله أن يأخذ معهم كأساً . . قال الرجل : لا لا . . إن المسكر يعطينى جرأة أكثر من اللازم ، . . ونحن لا نعلم كم من الكؤوس شربها قيافا مع صهره ، . حتى انتهى إلى أشر قرار يمكن أن يصدره إنسان على الأرض . . ! !

قيـافا الصدوقى :

كانت رياسة الكهنوت أيام المسيح قد وصلت إلى أتعس صورة من صور المهانة ، لأن الوالى الرومانى هو الذى كان يعين رئيس الكهنة ، أو يخلعه متى أراد ، . . ولم يكن يعين فى هذا المنصب أى فريسى ، يؤمن بالله وكتبه ، ويعيش ليحقق الأمانى اليهودية أو يموت فى سبيلها ، كان الرجل الذى يختار لابد أن يكون صدوقياً ، والصدوقيون كما نعلم لا يؤمنون إلا بالله، وكتب موسى الخمسة ، أما الملائكة والروح والقيامة ، فقد كانت بعيدة عن إيمانهم ، . . ولم يكن إيمانهم فى الواقع بالله إلا إيماناً عقلياً ، فهم والملحدون على حد سواء ، أى أن الدين أضحى مظهراً يختفى وراءه اللص والفاسق والزانى ، وبيت الله تحول إلى مغارة لصوص !! . . من المحزن حقاً أن ينحدر الصدوقيون والفريسيون فى أيام المسيح إلى الدرك الأسفل ، إلى الدرجة التى يفقد فيها الدين معناه وفاعليته ، ويتحول عند الصدوقيين إلى نكران للأبدية ، وعند الفريسيين إلى تعصب شرير أحمق يحق فيه قول المسيح : « لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل .

ولعلة تطيلون صلواتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم ، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحداً . ومتى حصل تصنعونه لجهنم أكثر منكم مضاعفاً » (مت ٢٣ : ١٣ — ١٥) .

هناك أسطورة قديمة عن الخلق ، لا شك فى أنها غير صحيحة ، لكنها تحمل معها رمزها العظيم ، والأسطورة تقول : إن الله جمع أمامه جراثيم الحياة ، وطلب منها أن تختار ما تريد أن تكون ، واختار البعض أن يكونوا أفيالا أو نموراً وهكذا الحيوانات . . والبعض قال : بما أن أغلب سطح الأرض مغطى بالماء لذلك نطلب أن تكون لنا زعانف. وصنع الله الأسماك . والبعض رأى عالم الهواء وطلب الأجنحة ، فخلقت الطيور . وبعد ما تكلمت الجراثيم ، بقى واحد صغير متواضع قال : إنه لا يطلب زعانف ولا أجنحة ولا أنياباً ، .. ولكنه يطلب أن يكون على شبه الله ، وسر الله، وقال : كن إنساناً ! ! . . وسيظل الإنسان إنساناً ، طالما بقى فيه الاحساس بالله ، والشبه الكامن فى أعماقه ، . . فإذا قتل الشر أو الخطية ، حياة الله فيه ، أو بعبارة أخرى لم يكن قد تمتع بالولادة الجديدة التى تعيده إلى صورة الله وشبهه ، . . فمن الغريب أنه سيمتلىء بالزعانف والأجنحة والأنياب ، ليتحول أشر وحش على الأرض ! ! .. ومع أننا لا نقصد هنا أن نخوض فى أبحاث لاهوتية أو عقائدية ، لكننا نود فقط أن نفرق بين الإنسان الذى تترك الحياة الروحية طابعهـــا العميق فيه ، وذاك الذى لا يزيد الدين عن أن يكون مظهراً لحياة تعيش وتمارس الالحاد فعلا ! ! .. عندما كان الدكتور دانيال وايز راعياً لكنيسة فى مدينة اسبرنج فيلد فى ولاية ماساشوستس ، ذهب إلى متجر وبينما هو يختار بعض مشترواته ، سمع أحدهم ينطق بكلمات تجديف ، وقد اجتمع حوله بعض الشباب الذى تأثر بكلامه . وبينما الدكتور وايز فى طريقه إلى الباب قال للملحد : هل أفهم يا سيدى أنك تنكر وجود الله ؟

وأجاب الرجل : نعم أنا أنكره . قال القس : إذاً لا يوجد كائن تحس أنك مدين له بشيء ، ولا كائن تصلى أمامه ، ولا كائن تأمل منه شيئاً ! وقال الرجل : كلا . وقال القس : بما أن الأمر كذلك ، فأظن أنه لا يوجد عندك مانع من أن توقع على وثيقة بذلك . . فقال الرجل : بكل تأكيد لا يوجد ! . وكتب الدكتور وايز : بما أنى لا أؤمن بوجود إله . فأنا أجحد كل علاقة به فى الحاضر والأبدية . فى الفرح والحزن فى الحياة والموت . ولكى أثبت حقيقة اعترافى ، أوقع باسمى على هذه الوثيقة . قرأ الرجل الوثيقة وتردد قبل أن يوقع عليها ولكنه وقعها أخيراً وأخذها دكتور وايز وطبقها ووضعها فى جيبه ومشى ، على أنه سمع خطوات الرجل خلفه ، وسمعه يقول : إذا لم يكن عندك مانع فانى أرجو أن تعطينى الورقة . وأجابه القس : إنها أصبحت ملكى لكن ماذا تريد أن تعمل بها ؟ وقال الرجل : أمزقها ! . . ألا تؤمن بصحة ما جاء بها ؟ نعم أؤمن ولكنى أحس بأنى أستريح أكثر إذا مزقت الورقة !! .. من المؤسف جداً أن قيافا مزق ثيابه ، ولم يمزق الورقة التى سلم بها يسوع المسيح !! .. ولست أعلم إلى أى حد كان قلقاً وهو يفعل ذلك ، وهل استطاع لكونه صدوقياً أن يستريح !! ؟ .. هذا هو السؤال !!؟

قيافا والمـــال :

وضع المسيح إصبعه على نقطة الضياع فى حياة الرجل أو فى حياةالعصابة ، ولم يتردد فى هذا الوصف الرهيب الذى ذهب على مدى العصور كلها : « بيتى بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » (مت ٢١ : ١٣) . فى اللغـــة الإنجليزية هناك كلمتان متقاربتان نطقاً ولفظاً وهما Prophets بروفتس أى « أنبيـــاء » و Profits أى « مكاسب » وكان هم عصابة حنان وقيافا — وهم قادة الدين فى عصرهم — الوصول إلى المال ، بكل وسائل اللصوص دون أدنى تردد . وعند خراب أورشليم وجد الرومان داخل الهيكل

ما قيمته مليونان ونصف من الجنيهات ، تماماً كما وجد الشيوعيون بعد ظهور راسبوتين مثالا للفساد البشع الرهيب الذى دخل إلى الكنيسة ، مبلغ خمسة ملايين من الجنيهات فى كنيسة بطرسبرج عند اقتحامها ودخولها . إن المسال واحد من أقسى الامتحانات أو المحكات للانسان فى الخير أو الشر على سواء . . ذكر أحد الرعاة أن غريباً حضر إلى كنيسته وكان فى ختام كل ترنيمة وفى أثناء العظة يرفع صوته بالقول : « آمين » بصوت مجلجل فى المكان ،وقد سأل الراعى نفسه . . ترى هل هذا الشخص مخلص أم هى حركات تمثيلية ، إلى أن جاءه فى أحد الليالى ، وهو يبدى اهتماماً كبيراً بالنفوس البعيدة عن المسيح وجهود الكنيسة للوصول إليهم ، وقدم عطية مائتى دولار لمساعدة الكنيسة فى هذا العمل ، فأدرك أن الرجل لم يكن مزيفاً فيما يقول !! .. وعلى العكس من ذلك ، عندما يتحول أقدس مكان على الأرض إلى مغارة لصوص !! . . لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة (٢ تى ٦ : ١٠) !! ..

قيافا الحسود :

على أن الطاقة الكبرى والتى تركت طابعها العميق على حياة الرجل ، كانت الحسد ، وقد وضع بيلاطس إصبعه على موضع الداء : « لأنه علم أنهم أسلموه حسداً (مت ٢٧ : ١٨) . . لقد اضطرب قيافا لشهرة المسيح الآخذة فى الذيوع ، والتى لم يفلح وعد أو وعيد فى القضاء عليها ، وهو يفزع إذ يأخذ المسيح مكانته بين الجماهير الذين التفوا حوله ، وبالتالى ينفضون عنه ، وعن رئاسته وزعامته ، . . إنه الحسد ذلك الداء الوبيل . فإذا كانت الأرض لم تتسع لأول أخوين ، فقتل أحدهما الآخر حسداً ، . . فانها لا يمكن بأى حال أن تتسع لقيافا ويسوع المسيح ، فلابد لأحدهما أن يذهب ليبقى الآخر . وهى محبة الذات التى تقدم المسيح على مذبح الأنانية والحقد والكراهية والحسد !! ..

والآن هل يقول واحد من الناس : مسكين هذا الرجل الذى ذبح الدين باسم الدين ، والذى صلب المسيح ، وهو يعلم أو لا يعلم أنه ارتكب أعظم جريمة فى كل التاريخ !! .. على أن أى إنسان يقف عند هذا الحد ، هو أيضاً مسكين ، لأن تتويج المسيح ملكاً على القلب أو صلبه هو القضية المطروحة على كل قلب بشرى !! .. ولا يمكن أن ننسى فى هذا المقام قصة الملكة فيكتوريا فى حفل تتويجها ، إذ كان التقليد يقضى أن تظل الملكة الفتاة جالسة على عرشها ، ولو وقف جميع الحاضرين ، بينما يرتل الجميع ترنيمة « المسيا » لهاندل ، وكانت هذه الترنيمة هى آخر ترنيمة فى الحفل ، . فلما بدأت فرقة الترنيم فى ترنيم وقف النواب والأشراف ورجال الدين برؤوس عارية ، والملكة جالسة على عرشها ، . . ولكن ما أن وصل المرنمون إلى القول : « وملكه الآن وإلى الأبد» . . حتى بان التأثر العميق على وجهها ، .. ولكن عندما دوى صوت المرنمين : « ملك الملوك ورب الأرباب » انتصبت الملكة واقفة على قدميها ، ورفعت التاج ، والدموع تتألق فى عينيها لأنها شعرت أنها فى حضرة ذاك الذى ملكه إلى أبد الآبدين فهو على الكل يسود !!

مسكين قيافا لقد اشترى مركزه بموت المسيح ، ولم يعلم بأن الخراب الآتى قريب ، وأنه سينتزعه هو والعصابة وأورشليم واليهود جميعاً ، ويطوح بهم فى هاوية لا قرار لها ، . . ويجعل منهم على مدى ألفى عام من الزمان أبشع قصة تروى فى عظة الأجيال كلها لمن يمكن أن يتعظ ! لقد مات المسيح فعلا ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ، . . وللأسف لم يكن بينهم الرجل الذى تحدث بهذه النبوة القديمة : « فقال لهم واحد منهم . وهو قيافا . كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة ، أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها . ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة . وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد »!! ..
(يو ١١ : ٤٩ — ٥٢)

١١٦
هيرودس

« فقال لهم امضوا وقولوا لهذا الثعلب »
(لو ١٣ : ٣٢)

لعل من أروع ما كتب يعقوب بهمن فى واحد من كتبه ذلك الفصل الرائع : « مظاهر الوحشية فى الإنسان » وهو يصور الإنسان مرة فى صورة ذئب قاس بشع متعطش للدماء ، وفى مرة أخرى فى صورة كلب مسعور خبيث حسود يحتفظ بين أنيابه . بالعظمة التى لا يستطيع أن يأكلها ، وطوراً آخر فى صورة حية تلسع وتلدغ فى غدر وخفاء ، أو فى صورة أرنب وجل مذعور أو ضفدعة أو ثعلب ، . . أو ما إلى ذلك من صور ، . . وهو لا يقصد أن يفزع الناس بذلك بل يقول : « يا أولادى فى المسيح إن غرضى الرئيسى من هذا ، لا أن أذلكم أو أوبخكم على حالتكم البهيمية الوحشية الساقطة ولكنى أكتب لأضع الحقيقة البسيطة العارية ، والتى أيقن منها إيقانى بوجودى كإنسان يعيش على الأرض ، فنى كل يوم ، بل وفى كل ساعة من اليوم ،

أنا واقع تحت وطأة هذا كله بما فيه من خجل ، وانحطاط ، وذنب ، . . ولا أقصد أن أقول إن هذا يقصينا عن رجاء الخلاص ، . . فأيا كان الإنسان فى حالته البهيمية ، ذئباً أو كلباً أو ضفدعة أو ثعلباً فإنه مدعو أن ينهض ويهرب من حالته إلى الميلاد الثانى من الله ، . . وأكثر من ذلك فإن هذا هو السبب الذى جاء من أجله ابن الله إلى الأرض لكى يحولنا من حياة البهيمية والوحشية والشيطانية إلى أولاد وبنات الله مجددين فى المسيح يسوع !! .. لقد دعا المسيح يسوع هيرودس الثعلب ، لا ليحكم عليه أن يبقى ثعلباً إلى الأبد ، ولكن ليتحول عن غشه وشهواته وأكاذيبه ، وكل ما يحرمه من أن يكون ابناً لله ووارثاً للحياة الأبدية !! .. ولعله من المناسب أن نتأمل هيرودس وما فعلت حياته الثعلبية فيه إلى أن انتهى أسوأ نهاية يمكن أن ينتهى إليها الإنسان الذى يرفض الاصاخة لنداء المسيح !! .. ويمكن أن نراه فيما يلى :

هيرودس ويقظة الضمير :

لا يستطيع الإنسان أن يقرأ كلمة الله دون أن يتوقف ليتأمل ضمير هيرودس عند هذه الكلمات : « لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه . وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور » (مر ٦ : ٢٠) والسؤال هنا ما هو الضمير الذى يرفع الإنسان إلى هذا المستوى ، ثم لا يلبث أن يهوى به إلى أحط الدركات وأتعسها ، . ولابد من الاعتراف بادىء ذى بدء بأن تفسير كلمة « الضمير » من أصعب ما يمكن ومن أعسرها تحليلا ، وذلك لأن كلمة « ضمير » فى المفهوم اللغوى تعنى الشىء السرى ، إذ نقول « أضمر أمره » أى جعله سراً انتواه وبات عليه ، وفى الأصل اليونانى « سينايديسس » المقابل للفظ « كونستيا » اللاتينية ويعنى مشاركة المعرفة أو ملكة مشاركة المعرفة مع النفس ، وهى أكثر من مجرد الاحساس أو التنبه إذ أنها تتضمن الحكم الأدبى على العمل المحسوس ، ومع

أن الفلسفة اليونانية لم تعط تحديداً واضحاً لمفهوم الضمير ، إلا أنها أشاعت المعانى المفهومة له فى كلمات عديدة ،وربما كان أبيكتيتوس الرواقى الذى ظهر فى القرن الأول الميلادى من أقدر الناس الذين حاولوا تصوير الضمير فى قوله وعندما كنا أطفالا أودعنا أباؤنا ليدى العبد المربى الذى كان يسهر علينا حتى لا نصاب بضرر : فلما نمونا ، أودع الله فى أعماقنا الضمير ليحمينا ، ومن واجبنا ألا نحتقر حمايته . لأننا لو فعلنا هكذا ، لا نرضى الله ، ويتحول ضميرنا عدواً لنا » . . ومهما يكن هذا التصور فإن الذى لا شك فيه أن هناك شيئاً فى أعماق كل إنسان يطرب للسمو والارتفاع ، ويفزع من السقوط والتعرية الأدبية ، . . قرأ روبرت لويس استفنسون الاصحاح السابع من رومية ، ومنه استلهم قصة دكتور جيكل ومستر هايد ، أو الازدواجية القائمة فى الإنسان ، أو الصراع بين الخير والشر الذى لا يخلو منه بشرى ، أو كما صورها رجل فقير أعطاه أحد المحسنين عطية ، فإذا به يتبين أن بينها قطعة كبيرة من العملة يبدو أن صاحبها لم ينتبه إليها ، وقالت له نفسه المريضة أن يأخذها ، فهو لم يسرق ولم يغتصب ، وقالت له النفس النبيلة ، أن يردها وقد فعل ، ليسمو وتستريح مشاعره ونفسه !! .. وهذه الحقيقة تعكسها نفس هيرودس ، إذ أن الرجل كان قد استهواه يوحنا المعمدان إلى أبعد الحدود ، ومع أن يوحنا كان رجلا أعزل من كل سلاح بشرى لبكن البر دائماً أقوى من كل سلطة أرضية ، وكان هيرودس يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس ، . . جاء فى أساطير اليونان أن هرقل البطل العظيم كان عبداً لملك اسمه يورسثيوس ، وكان يورسثيوس يملك السلطة ، وكان هرقل يملك الفضيلة ، وفزع رجل السلطة من رجل الفضيلة ، لأن هرقل استن لنفسه أن يعيش فى صحبة الفضيلة كل أيام حياته ، . . وقيل إن الفضيلة ظهرت له ذات يوم وقالت : « يا هرقل إنى أعرفك وأعرف والديك

والأتعاب التى قدرت عليك . ولى الأمل الوطيد فى إنك إذا قبلت نصيحتى وسرت فى الطريق التى أدلك عليها ، فانك تنال الكرامة وتنطلق الألسنة بمدحك ووصف فعالك . وإنى لا أغرك بالمواعيد الفارغة بل أخبرك الحق حسب السنن الإلهية . فاعلم أن الآلهة لا تعطى البشر شيئاً من الخير والكرامة بلا تعب فإذا رمت رضى الآلهة عنك فاعبدها مجتهداً ، وإذا رمت أن يكون لك محبون مخلصون ، فدونك والأعمال الصالحة ، وإن رمت الكرامة من بنى وطنك والاعتبار من الناس ، فاسع فى طلبهما » . . وفى حرب اليونان مع الفرس ، كان على رأس الأمة اليونانية قائدان من الأبطال أحدهما اسمه ثمستكليس والآخر اسمه ارستيدس ، ولكن الفارق الحاسم بين الاثنين على ما تفيض به الرواية اليونانية : أن ثمستكليس كان يمثل القوة والسيطرة ، وارستيدس كان يمثل الفضيلة والأخلاق ، . . وقد سعى ثمستكليس بدوافع الحسد والغيرة للقضاء على أرستيدس ، فشكاه إلى أهل أثينا وحرض الشعب على نفيه قبيل الحرب ، وكان من جملة شرائع أثينا أنه إذا اتفق ستة آلاف من أهاليها على نفى إنسان ، وكتبوا اسمه على قطع من الصدف أو الآجر ، فإنه ينفى من البلاد عشر سنوات ، وقد حدث أن رجلا أمياً لا يعرف أرستيدس أتى إليه وطلب منه أن يكتب اسم ارستيدس على صدفة كانت بيده . فقال له أرستيدس وأى شر فعل هذا الإنسان وما الضرر الذى لحقك منه. فقال الرجل إنى لا أعرف عليه لوما ولم يضرنى بشىء ولكنى مللت من سمع كل الناس يلقبونه بالصديق. فضحك أرستيدس من ذلك وأخذ الصدفة منه وكتب اسمه عليها حاسباً أنه أولى بالإنسان أن ينفى لأجل استقامته من أن يحرز كل القوة ويكون لئيماً معوجاً !! . ومع أنه نفى إلا أنه عاد إلى بلاده ليساندها فى معركتها مع الفرس ، وانقلبت البلاد بعد ذلك على ثمستكليس الذى كان بيده السلطة والقوة . ولكن دون الفضيلة والأخلاق !! .. لما

حدث حريق مسرح شيكاغو سنة ١٩٠٤ . دخل شاب وسط النيران وصار يخلص الناس واحداً بعد الآخر حتى خلص ثلاثة عشر شخصاً ، ثم دخل للمرة الرابعة عشرة فوقعت عليه عارضة كبيرة ملتهبة فحمل إلى المستشفى بين حي وميت ، وإذ كان عمه الدكتور غونسولس منحنياً على فراشه يشجعه قال له الشاب : « لا تجزع يا عمى فإنى لهذا قد ولدت ولهذا قد أتيت إلى العالم لأخلص أولئك الثلاثة عشر » . .

إن القوة الحقيقية للانسان لا فيما يملك خارج شخصه . بل فى الداخل ، فى نفسه ، وكان هيرودس يدرك هذه الحقيقة تماماً ، وفى يقظة الضمير كان يحس أن المعمدان أعظم منه بما لا يقاس ، وقد سمع المعمدان يعظ ، وقد انتشى وسر بهذه المواعظ . ولم يكن الأمر مجرد السرور فحسب ، بل إنه فعل أمرين عظيمين . إذ يبدو من لغة البشير أنه كان حريصاً على سلامة يوحنا من بطش زوجته إذ « حفظه » ولم يكتف بمجرد الحفظ ، بل سار فى الطريق محاولا أن يتمم ما كان يوصى به الواعظ القديس . وكم فعل من متطلبات البر والإحسان مأخوذاً بعظمة يوحنا ، ومستجيباً لندائه السامى ! ! . .

هيرودس ومراوغة الضمير :

كان العيب القاتل فى هيرودس أنه ثعلب . . والثعلب يتصف بصفات كثيرة غير محبوبة ، لكن أقسى صفاته وأبشعها ، المكر والخبث والمداورة والمراوغة ، فهو لا يسير قط فى خط مستقيم ، وهو وهو يحفر جحره فى اتجاه متعرج ، ولا يقتصر على باب واحد له ، . . وعندما يطارد ولا يستطيع الهرب ، يتظاهر بأنه ميت ، ويخرج رائحة كريهة كما لو أنه أنتن ! ! . .
وهيرودس أنتيباس كان ثعلباً ، وكان الفرق بينه وبين أبيه هيرودس الكبير ، أن الأب كان نمراً فيه كل الشرور البارزة فى الفتك والقسوة والغدر ،

إذ قتل أطفال بيت لحم ، وامتلأ بالوساوس والشكوك فى أخريات أيامه فقتل من قتل من زوجاته وأولاده ، فقتل زوجته مريام وأبناءه انتيباس من زوجته الأولى دوريس ، واسكندر وأرستوبولس ، من زوجته الثانية ، وورث عنه هيرودس أنتيباس كل شروره ؛ ولكن بدون قوته . فكان ثعلباً لأنه لم يستطع أن يكون نمراً . . . كان له أخ غير شقيق اسمه فيلبس لم يرث شيئاً من ملك أبيه . . . وعاش فى روما عيشة الترف كأى مواطن رومانى عادى . وعندما ذهب هيرودس أنتيباس . وكان حاكماً على الجليل إلى روما، نزل ضيفاً على أخيه، وهناك التقى بهيروديا زوجته التى كانت تطمع — إلى جانب الترف — بالسلطة والقوة . فأغرته على أن تهرب معه . وتترك زوجها لترتبط به ، لم تكن فقط زوجة أخيه بل كانت أيضاً ابنة أخيه أرستوبولس ، وقصته مع هذه المرأة تكشف عن الحياة الثعلبية التى كان يعيشها . . لقد راوغ أولا على المبدأ إذ لم يكن يحل له من الدقيقة الأولى الاقتراب إلى إمرأة أخيه ، . . أبصر أحد رجال الله فى سوق العبيد فى الولايات المتحدة غلاماً عبداً ظاهر الذكاء بادى النشاط ، معروضاً للمزاد فتقدم إليه سيد شفوق رثى لحاله . ولم يشأ أن يتركه يتعذب عند سادة قساة . فقال له : أتعدنى أن تكون أميناً إذا اشتريتك . فنظر إليه الغلام وقال سأكون أميناً إذا اشتريتنى أنت أم اشترانى غيرك !! . .

لقد ذكرنا أن الضمير هو حارس الله فى الإنسان ، وقد جعله الله فيه ليرشده إلى الصواب فى أى مكان وزمان ، وقد تختلف أضواؤه وتعبير ، فهو عند إنسان أشد إضاءة مما عند غيره ، ولكنه لا يوجد إنسان على الأرض مهما كان جنسه أو ثقافته أو لونه ، حرم من نور الضمير ، فإذا كان الله قد أعطى الناموس لليهودى ، فانما لكى يعطيه إدراكاً أعمق وأكمل للحق ، أو فى عبارة أخرى لكى يرى الحق فى نور أبهر ، لكن الأممى أيضاً كان

له النور فى وجدانه وضميره : « لأنه الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم ، الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً فى قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة » (رو ٢ : ١٤ ، ١٥) . . .

كان هيرودس قبل أن يستمع إلى المعمدان يوبخه على خطيته ، يعلم أنه أخطأ إلى السماء وإلى الأرض ، لقد قال له الضمير : أخطأت آلاف المرات . قالها له وهو يقترب منها أو تقترب منه تحت سقف أخيه فى بيته ، وقالها له وهى تهرب معه عابرة البحر الأبيض المتوسط إلى الجليل ، وقالها له فى الليل والنهار ، فى الضجيج أو الهدوء ، فى الحركة أو السكون ، . . ولكن مأساة الرجل كانت المداورة أو المناورة حول المبدأ الذى لا يقبل أدنى تردد أو شبهة أو مساومة !! .. ولعله من أقسى ما عانى التاريخ الكنسى طوال ألفى عام هو هذا النوع من الإضافة أو التراخى فى أسباب الزواج أو الطلاق ، بزعم أن المبادىء الكتابية التى قررها يسوع المسيح من الشدة أو الضيق بحيث لا يمكن تنفيذها على الإطلاق !! . . وما أكثر ما يلتمس العديدون من المنتسبين إلى المسيحية أبواباً للخروج على هذه المبادىء على زعم أنها مثالية وفوق جهد البشر أو طاقتهم . وكان هذا أسلوب هيرودس الثعلبى فى المراوغة والمساومة على المبدأ !! ..

على أن المراوغة لم تقف عند هذا الحد ، بل أخذت ألواناً وأشكالا أخرى فى السلوك والتصرف ، فعندما وقف المعمدان فى وجهه ، وضد خطيته ، من المؤكد أنه اضطرب واهتز إزاء هذا النداء الواضح الرهيب الذى قطع عليه الطريق ، ومد أصبع الدينونة الإلهية إليه ، . . فكيف يمكن مواجهة الصوت الإلهى ، واحتضان الخطية فى الوقت عينه ، . . لقد عاد إليه الأسلوب الثعلبى الذى ظنه يصلح سبيلا للعلاج ، وهو لا يدرى

أنه يورطه أكثر فأكثر !! .. إنه يمكن أن يعمد إلى الرشوة إذا كان ذلك ميسوراً ، ولم لا يفعل الصلاح والخطية معاً !! ؟ ولم لا يعطى ساعة لله وأخرى للقلب !! ؟ فإذا كان المعمدان ينادى بحياة البر والخير ، فإنه سيسارع ويفعل الكثير من هذا القبيل . فإذا كان هناك بيتاً من بيوت الله يبنى ، فان التقدمة الكبرى ستأتى من الملك . وإذا كان هناك مشروع خيرى لمساعدة الفقير والمعوز والبائس والمحتاج ، فإن عطية الملك ستكون أسخى العطايا وأكرمها ، وهو بذلك يرضى الله والعالم ويجمع بين الخير والشر على حد سواء !! .. وهو يفعل ما فعله كاتب روائى اسمه لولى ، وقد مرض مرضاً خطيراً أوصله إلى حافة الموت ، وإذ اضطرب ضميره كل الاضطراب ، طلب واحداً من الرهبان لعله يسمع منه كلمة تهدىء روعه وتسكن مخاوفه ، وقد نصحه الراهب بحرق مؤلفاته الروائية الأخيرة من الأدب المكشوف الذى كان يكتبه . وقد استمع لذلك ، وأحضر الروايات وأحرقها أمام الراهب ، ثم أخذ يتعافى إلى أن دخل فى دور النقاهة ، فزاره أحد الأشراف ، وفى أثناء الحديث قال له الشريف : أحقاً بلغ بك البله أن أحرقت فخر قلمك بسبب كلام راهب أحمق ، وأجاب لولى فى الحال ضاحكاً : لا تخف فإن عندى منها كلها نسخة ثانية !! .. كان هيرودس يراوغ الضمير بالاصلاح الجزئى الذى ظنه يعفيه من القضاء على الفساد والخطية والسقوط الذى وصل إليه !! ..

على أنه يبدو أن سجن المعمدان كان نوعاً آخر من مراوغة الضمير ، فقد سجن المعمدان عدة شهور ، وكانت هيروديا تطالب من البدء برأسه والقضاء عليه ، وهيرودس يقاوم ، والقول : « وكان يحفظه » يشير إلى رغبة هيرودس فى الحرص عليه ، وعدم تسليمه لها لقتله ، ولا بأس من سجنه إرضاء لها ، وضماناً فى الوقت عينه لعدم المساس بحياته أو الاعتداء عليه

من أحد ، . . وما أكثر ما يأتى الخطر من ذلك النوع من المراوغة . الذى يلجأ إليه الإنسان لمواجهة التيارات المختلفة . فلا بأس من نصف الحق أو نصف العدل فإذا كان النصف كثيراً ، فلا بأس من جلد المسيح كما فعل بيلاطس لعل ذلك يحل الأمر ، ويرضى الخصوم أو الظالمين ... وقد رضى ضمير هيرودس أن يؤدب المعمدان بالسجن على جرأته وقسوة تعبيره ، . . ولكن ليس إلى حد قتله أو فصل رأسه عن جسده !! ..

وكانت المراوغة الأخرى فى مواجهة الحقيقة هى تأجيل التصرف إزاءها وقد ذكر واحد من الكتاب ، أنه لابد كانت هناك لحظات ثار فيها ضمير هيرودس كأى إنسان آخر ، وقرر التخلص من هيروديا ، وما أن يقرر هذا ليلا فى الهدوء والوحدة والسكينة ، ويؤكد أنه لابد سيطردها فى الصباح شر طرد ،.. حتى يجىء الغد ، وتستيقظ الحية وتلتف حول عنقه ، فيتراخى العزم ويذوب ويتلاشى ، وتشتد قبضتها الحديدية حول عنقه فيترنح ويسقط !! ..

هيرودس وفزع الضمير :

على أن الضمير يعطينا صورة أخرى عن الرجل ، إذ يرينا مقدار ما يسببه من رعب وفزع على نحو يجل عن التفسير والوصف ، . . لقد اختلف الناس فى فهم المسيح ، وذهبوا شتى فى الحديث عن شخصيته ، غير أن هيرودس عندما سمع عنه قال : « هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات » (مت ١٤ : ٢) . . « هذا هو يوحنا الذى قطعت أنا رأسه . إنه قام من الأموات » (مر ٦ : ١٦) . وقد يكون الأمر أكثر غرابة إذا ذكرنا أن هيرودس كان صدوقياً من الجماعة التى لم تكن تؤمن بالقيامة من الأموات، . ولكنه هو الضمير الذى امتلأ إحساساً بالذنب ، ولم يعد يجد عذراً يعتذر

به عما فعل أو تبريراً له : « الذى قطعت أنا رأسه » . . وهو الصوت الذى يصرخ فى أعماق الإنسان قائلا له كما يذكر شكسبير فى قصة مكبث : « لا تنم » ، وهو الذى يتابعه فى الوحدة أو فى وسط الجموع ، وأينما دهب ولو إلى آخر الأرض !! .. وما أكثر ما يفيض التاريخ بأنات المعذبين الذين لم يستريحوا قط من مطاردة الضمير . . . قتل سويسرى أربعة فى لوسرن . وقد رفض الرجل أن يقدم ملتمساً بتخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن مدى الحياة . قائلا إن صراخ خمسة عشر يتيما خلفتهم الجريمة التى ارتكبها أقسى على أذنيه من الموت نفسه !! .. وقتل آخر رجلا وألقى به فى البحيرة ، وبعد ثلاثة أيام ظهرت جثة الرجل على مقربة من منزله على شاطىء البحيرة ، فسلم نفسه للعدالة ، وهو يقول : إن المد أرجعها الى ثانية !! .. وانتحر ثالث معلقاً نفسه على شجرة ، ووجد معه اعتراف بأنه قتل فتاة منذ ثلاثين عاماً دون أن يهدأ له ضمير ، وكانت قطعة من ثوبها معلقة معه فى موته . وكان قد انتزعها منها وهو يقتلها !! ..

هيرودس ونهاية الضمير :

يعود هيرودس فى رواية الإنجيل ليلتقى بالمسيح فى يوم الصليب : « وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تصنع منه . وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشىء . . فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس » (لو ٢٣ : ٨ — ١١) . وقد كشف المسيح بصمته عن النهاية التعسة التى وصل إليها الرجل ، إذ لم يعد أمامه سوى بقايا من ضمير توشك أن تنتهى وتضيع ،.. ومن العبث أن يتكلم معه ، ولو بكلمة واحدة ، إذ أن الصمت هنا أبلغ وأفعل ، لقد بلغ هيرودس المرحلة التى

يصبح معها القول : « لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير » (مت ٧ : ٦) . « أفرايم موثق بالأصنام اتركوه » (هو٤ : ١٧) لم يقف الرجل أمام المسيح باكياً على شره وإثمه وخطيته ، أو نائحاً على مقتل المعمدان ، أو فزعا من الحياة الممتلئة بالمنكر والضلال ، . . لكنه يترجى أن يرى معجزة يتسلى بها يوم الصليب . كما يرى الناس عرافاً أو حاوياً يلهيهم ويضحكهم بعض الوقت ، . . لقد مات ضميره بمعنى أصح ، ويكفى أنه وصل فى موته إلى حد احتقار المسيح ، والامعان فى السخرية به ، والتقى مع بيلاطس فى الحكم عليه ، . . وهو لم يدر أنه بذلك أضاع الفرصة الأخيرة الوحيدة التى كانت أمامه !! ..

إن هذا الرجل الثعلب يصلح أن يكون مثلا لكل مراوغ أو منافق يظن أنه يستطيع أن يقطع الطريق إلى النهاية فى أمان وسلام ، وهو لا يعلم أن المفاجآت لا تكثر فى العادة إلا فى الطرق الملتوية العوجاء !! .. لقد ذهب أول الأمر إلى روما ليخطف زوجة أخيه ويرجع بها إلى الجليل يطاردهما الخزى والدنس والعار ، . . وعاد مرة أخرى إلى روما ، وهو يأمل أن يحظى برضا الإمبراطور وعطفه وإحسانه ، فوجد العكس ، إذ خلعه من ملكه وطرده ونفاه إلى بلاد الغال ، ولحقت به هيروديا هناك ، ليقضيا أيامهما الأخيرة على أتعس ما تكون الحياة ، وأشر ما تكون الأيام ، وهكذا شهدت روما مجده وهوانه ، أو بتعبير أصح رأت هوانه فى كلتا الحالين « لأن أجرة الخطية هى موت . وأما هبة الله فهى حياة أبدية فى المسيح يسوع ربنا » !! .. (رو ٦ : ٢٣) .

١١٧
بيلاطس

« فماذا افعل بيسوع الذى يدعى المسيح ؟ »
(مت ٢٧ : ٢٢)

قالت إحدى السيدات للكاتب الإنجليزى الكبير توماس كارليل : لو أن المسيح جاء إلينا فى أيامنا هذه ، لوجد بيوتنا مفتوحة أمامه مرحبة به ، ولا يمكن أن يعامل المعاملة الوحشية التى عامله بها صالبوه ، . . وكم يسرنا أن نفعل ذلك ، ونرحب بتعاليمه . . أليس كذلك يا مستر كارليل ! ! . ؟ وأجابها الرجل : كلا يا سيدتى . . قد نفعل هذا إذا جاءنا فى موكب فخم عظيم ، وأغدق علينا المال ، وحدثنا بتعاليم مع ميولنا وأهوائنا ! ! . . ربما نقبله عندئذ مخلصاً على هذا الأساس ! ! . . أما أن يأتى الينا بأوامر إلهية قاطعة ، وليندد بالفريسيين ، ويعاشر العشارين والساقطين والسوقة كما كان يفعل ، فاننا سنصرخ : خذه إلى نيوجيت وعلقه هناك ! ! . .

لم يكن يعلم بيلاطس وهو يصرخ لليهود : « فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح » ؟ إن سؤاله هذا قد أصبح فى كل الأجيال ، السؤال الذى يواجه كل بشرى !! .. وأن المسيح يمر أمام كل نفس لتحكم له أو تحكم عليه ، وهى بذلك تقرر مصيرها الأبدى خيراً كان أو شراً !!.. وهل كان يعلم بيلاطس وهو يصدر الحكم بالصلب ، أنه أصدر أخطر وأرهب القرارات التى ارتدت عليه ، على مشهد من التاريخ كله ، وعلى مسمع من الأجيال والعصور جميعها !! .. هل نستطيع أن نقترب من القصة بهذا الاحساس العميق ليرى كل واحد منا نفسه بيلاطس على المسرح فى حركة الوجود الإنسانى ، والمسيح الهادىء الوديع يقف أمامه ، وكل واحد منا فى القرن العشرين يقول : « فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح » .. قد يكون من الخير إذن أن نتابع القصة فيما يلى :

بيلاطس من هو :

لا يستطيع الإنسان أن يعلم الكثير عن بيلاطس البنطى خارج الإنجيل ، ولا يستطيع فى الروايات المختلفة خارج الإنجيل أن يتبين موطن الصحة أو الدقة فيها ، .. ولكنها على أى حال تشهد بصحة رواية الإنجيل . فقد ذكر تاسيتوس المؤرخ الوثنى والذى كتب تاريخه حوالى ١١٥ م : « المسيح فى أيام طباريوس حكم عليه بالموت على يد بيلاطس البنطى » .. كما أن فيلو اليهودى السكندرى ، ويوسيفوس المؤرخ اليهودى . ذكرا عنه الكثير الذى يتفق مع الصورة المرسومة فى البشائر ، وجاءت بعد ذلك التقاليد المختلفة فى التاريخ الكنسى ، والتى سنشير إليها فيما بعد .. ومن خلال هذه الصور جميعاً يمكن أن نتعرف على ملامح الرجل،.. ومن المتصور أنه كان فى ريعان الشباب عندما أرسله طباريوس قيصر ليكون والياً على اليهودية ، وقد ظل فى هذه الولاية عشرة أعوام من عام ٢٦ إلى ٣٦ م . وكان القانون الرومانى

لا يسمح فى العادة بأن يتولى هذا المنصب من هو أقل من السابعة والعشرين من العمر ، ومن لم يمارس أعمالا أخرى سابقة حتى يصل إلى هذه الدرجة من الوجهتين الإدارية والعسكرية ، . . وعلى هذا فقد كان يقترب من عمر السيد فى ذلك الوقت ، ومن الواضح أنه كان على حد كبير من القسوة ، ويبدو هذا من أنه خلط دم الجليليين بذبائحهم ، ومع أنه كان معروفاً أن اليهود من أشد الناس تعصباً وتصلباً من جهة مشاعرهم الدينية . وكان أباطرة الرومان أنفسهم يدركون هذه الحقيقة ، ويتحاشون الاصطدام بهم إلا فى أخطر الأمور ، وقد درج الولاة الرومان على مراعاة أحاسيسهم الدينية ، إلا أن بيلاطس فى أكثر من مناسبة وموقف لم يأخذهم بالرفق بل عاملهم بأشد قسوة وعنف ، . . ومن الواضح أنه كان يتعالى عليهم ويحتقرهم ، ويتمنى أن يطأ أعناقهم بقدمه . . ولعله كان يتمنى لا أن يؤتى أمامه بيسوع المسيح ليصلب ، بل أن يؤتى بقيافا للقضاء عليه ، وصلبه ! ! .. على أنه فى قسوته هذه لم يكن مجرداً من العدالة التى اشتهر بها الرومان ، . . فإذا جاءه اليهود يطلبون القضاء على المسيح ، كان عليهم أن يحددوا التهمة التى توجه ضده ولذا سألهم السؤال : « وأى شر عمل » (مت ٢٧ : ٢٣) ويأتى الجواب مجهلا : « أجابوا وقالوا له لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك » (يو ١٨ : ٣٠) كان إحساسه بالعدالة يدفعه إلى القول : « خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم » (يو ١٨ : ٣١) . وهو لا يمكن مهما كان وضعه أو تصرف اليهود معه أن ينسى أنه رومانى ؛ وأن واجبه أن يراعى العدالة ولا يتجاهلها على الإطلاق ! ! .. وهو إلى جانب هذا كله ، رجل مفكر ، . . وعندما تحدث المسيح أمامه عن معنى الوجود : « لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق . كل من هو من الحق يسمع صوتى . قال له بيلاطس ما هو الحق » (يو١٨ : ٣٧ و٣٨) . والكثيرون

يظنون أنه ألقى السؤال اعتباطاً بدون أدنى رغبة فى التأمل أو التعمق ، . ولكن كامبل مورجان يعتقد أنها صرخة إنسان مرتبك ومتحير فى هذا العالم ، ويروم أن يجد الجواب للسؤال المطروح على الذهن البشرى فى كافةالعصور والأجيال !! .. أجل إنه لم ينتظر أن يسمع جواباً على سؤاله ليس لأنه لا يبالى بالجواب ، أو يسخر من الحق ، . . بل لأنه كان يحس اليأس العميق من جدوى البحث عن الحق فى العالم التعس الشقى المنكوب !! . . على أى حال . إن ملامح الرجل يرسمها الإنجيل والمصادر التاريخية تكشف عن الإنسان الذى يجلس فى مقعد السيادة والسلطة ، وقد امتلأ من عواطف الكبرياء والحقد والقساوة والاحتقار للجماهير التى يتعامل معها ، مع إحساس القلق والضيق والرعب ، وهو يرى نفسه ينحرف بعيداً عن القرار السليم الذى كان من واجبه أن يتخذه تجاه المسيح المقدم إليه للمحاكمة !! . .

بيلاطس والحكم على المسيح :

لا شبهة فى أن الحكم على المسيح هو شيء أعمق جداً من أن يكون مجرد رواية تاريخية مضى عليها ما يقرب من عشرين قرناً من الزمان ، إذ أنها الحقيقة المتكررة التى تواجه فيها النفس البشرية السيد فى كل مكان وزمان ، ويكفى أن كاتب الرسالة إلى العبرانيين يتحدث بهذا المعنى الروحى عن الساقطين الذين لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة : إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهرونه » (عب٦ : ٦) . ومن ثم فمن المهم ونحن نراقب الحكم على المسيح أن نتغور إلى الأعماق النفسية والروحية التى صاحبته ولاحقته ، فنكتشف الحقائق التالية :

الدوافع الوحشية خلف الاتهام :

لم يكن هناك أدنى شك عند بيلاطس ببراءة المسيح من التهم الموجهه إليه ، . . « وقال لهم . قد قدمتم الى هذا الإنسان كمن يفسد الشعب . وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه . ولا هيرودس أيضاً . لأنى أرسلتكم إليه . وها لا شيء يستحق الموت صنع منه » (لو ٢٣ : ١٤ ، ١٥) . . ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل أدرك بيلاطس الدافع الآثم الشرير خلف الاتهام : « لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً (مر ١٥ : ١٠) . . والحسد فى العادة يورث الحقد البالغ والذى لا أمل فى علاجه أو البرء منه ، . . لم تتسع الأرض لأول أخوين . فقتل قايين أخاه هابيل ، لأنه حسده ، . . ولم يسترح أخوة يوسف حتى تحولوا وحوشاً — وهم لا يدرون — لأنهم حسدوا أخاهم . وغمسوا قميصه فى الدم ، وهم يظنون أنهم قضوا عليه إلى الأبد بدافع الحسد ، ، . . وفقد شاول راحته عندما سمع الأغانى التى غنتها بنات إسرائيل لداود الذى أصبح بطلا بالقضاء على جليات ! ! .. وكم من ملايين الجرائم ارتكبت منذ القدم ، وما زالت ترتكب إلى اليوم فى السر والعلن . وخلفها الدافع الوحشى دافع الحسد ، . . ومن المتصور أن يفعل الحسد كل شيء ، . . وفى قضية المسيح بلغ اليهود أقصى درجات الرياء ، عندما تباكوا أمام بيلاطس لأن المسيح يقول إنه ملك ، وهم لا يعترفون إلا بملك واحد هو قيصر ، وهو نفاق ما بعده نفاق ، . . من أناس عاشوا طوال عصورهم يتمردون على الرومان وعلى كل ملك أجنبي ! ! . .

التحذيرات العديدة لبيلاطس :

ولم يترك الله بيلاطس دون تحذيرات متكررة كان من واجبه أن ينصت إليها ، ويتنبه لها . . . ولعل أولها جميعاً وجه المسيح أمامه ، . . ولعلنا

ذكرنا عند الحديث عن يهوذا الاسخريوطى ، ما قاله تشارلس لام عندما سئل عن أى شخصية تاريخية يود أن يراها ، وكان جوابه : يهوذا الاسخريوطى ،.. وعندما تعجب السائل قال : أريد أن أرى الرجل الذى أطل على وجه المسيح ومع ذلك استطاع أن يخونه !! .. ونحن بدورنا نتعجب كيف استطاع بيلاطس أن يرى الوجه الوديع الحنون الحزين الذى يقف أمامه فى صمت ، دون أن يهتز ويتأثر ! ! لا شبهة فى أن منظر المسيح هزه من الأعماق ، على ما سنرى فيما بعد . عندما حاول الهروب من مسئولية صلبه !! .. ومن الواضح أن بيلاطس رأى الفارق الرهيب بين وجه قيافا ووجه المسيح . وبين وجوه اليهود الممتلئة بالشر والخسة والغدر وحب الانتقام ، ووجه المسيح الصامت العجيب الكامل الحب والصبر والوداعة . . . ورواية الإنجيل تشجعنا على ملاحظة أن بيلاطس انفرد بالمسيح مرتين فى أثناء المحاكمة وكان بيلاطس يتمنى أن يسمع دفاع المسيح عن نفسه . ولكن صمت المسيح النبيل السامى كان أبلغ من دوى الأرض كلها ، لو زلزلت زلزالها . . على أنه لم يكن الصمت وحده أبلغ من كل كلام !! .. بل إن المسيح أخذ الرجل ليقف قليلا داخل دار الولاية ، فعندما سأله بيلاطس : هل هو ملك ،. نقله السيد إلى ما وراء ملك قيصر وروما والأرض كلها ، إلى المملكة الخالدة العظيمة التى يتربع على عرشها ، مملكة الحق ، التى ستبقى عندما تنتهى ممالك الأرض جميعاً ، . . والمرء مهما يكن إحساسه بالمنظور وبقوته المادية ، فإنه عندما يقترب من العالم الأعظم غير المنظور يفزع ويضطرب ، كما سبق لبيلشاصر وهو يرى الأصبع التى تكتب على مكلس الحائط . إزاء النبراس ،. وقد فزع بيلاطس ، وهو يقترب من هذا الشخص العجيب الذى يقف أمامه ، والذى كشف بشخصيته ومعجزاته وأعماله الخارقة ، عن ارتباطه بعالم آخر أعظم وأسمى وأجل !! .. فإذا كان هذا التأثير قد بدا أمامه كالنور

اللامع الخاطف ، . . إلا أن التحذير تضاعف وأضحى حقيقة مخيفة عندما خرجت زوجته على المألوف والعرف بعدم الاتصال بالقاضى وهو يحكم فى قضية ما ، . . ولكنها أرسلت تحذره بكلمات مرعبة مرهبة : « إياك وذلك البار . لأنى تألمت اليوم كثيراً فى حلم من أجله » (مت٢٧ : ١٩) وقد اختلف الناس فى تصوير ذلك الحلم وكيف كان ، . . فأحد المصورين صوره فى صورة أبدعها وفيها نرى المرأة تقف فى شرفة واسعة تحدق فى الفضاء البعيد ، وإذا بها ترى مواكب الأجيال المتعاقبة تسير وفى مقدمتها المسيح حاملا الصليب ، ومن ورائه الاثنا عشر تلميذاً ، فالكنيسة فى العصر الرسولى والعصور الأولى بأبطالها بوليكاربوس وترتليانوس وأثناسيوس وغريغوريوس وفم الذهب وأوغسطينوس، وخلفهم الكنيسة فى العصـــور الوسطى والصليبيون فى ملابسهم الزاهية ووراءهم كنيسة العصر الحاضر وملايين لا تعد ولا تحصى من البشر . وتحف بالجميع كوكبة هائلة من ملائكة الله ، وتندهش زوجة بيلاطس إذ ترى الصليب يتحول شيئاً فشيئاً حتى يضحى كوكباً جميلا باهراً يملأ السماء ويفيض بأنواره المتلألئة على الكون . . . على أن هناك من قال ولعله الأقرب إلى التصور أنها أبصرت الدينونة ، وقد انقلبت الأوضاع وجلس المسيح على كرسيه يدين الشعوب ، وإذا ببيلاطس يأتى أمامه مرعوباً مرتعداً مصفداً ! ! .. على أى حال لا يمكن لأى إنسان أن يحاكم المسيح . ويصلبه . قبل أن يرسل الله إليه العديد من التحذيرات ! ! ..

محاولة الهروب من الحكم :

حاول بيلاطس الهروب من مسئولية الحكم بمحاولات متعددة دون جدوى ، .. لقد ظن أنه يمكنه الهروب لو حكم بعدم الاختصاص ، . . فمع أنه كان فى خصومة وعداوة مع هيرودس ، لكنه عندما سمع عن المسيح

أنه جليلى حوله إلى هيرودس بدعوى ، أنه المختص بمحاكمته ، . . وما أكثر ما يحاول الناس الهروب من المأزق بالحكم بعدم الاختصاص ، وقد يفلح هذا الدفع فى الكثير من القضايا الأرضية ، . . ولكنه لا يفلح على الإطلاق مع يسوع المسيح . لقد ألقى بيلاطس الكرة فى مرمى هيرودس ، لكنها عادت إليه مرة أخرى ، ولم يستطع بيلاطس أو هيرودس التخلص من اللقاء الشخصى بيسوع المسيح ، . . بل من العجيب — كما قال أحدهم — إن مسرحية الصليب جمعت بين الجميع ، وكان على كل واحد أن يلعب دوره فى هذه المسرحية ، دون أن يزعم بأنه لا علاقة له بها ! ! . . « أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فها أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك » . . (مز ١٣٩ : ٧—١٠) فإذا لم يفلح الحكم بعدم الاختصاص ، فلا بأس من الحكم بعقوبة أخف ولكنها ظالمة ومن غير مبرر ، . . ليجلد البرىء جلداً قاسياً ، لعل هذا يكفى اليهود ويجعلهم يتخلون عن الحكم عليه بالموت » والعدالة لا يمكن أن تعالج بأى ظلم ، حتى ولو كان ظلماً أقل ضرراً أو فداحة من الظلم الآخر ، . . والخطأ لا يمكن أن يصحح بأى نوع من الأخطاء ، . . ولكنها الحماقة البشرية التى تتصور أنه يمكن الهروب من الشر الأقسى بشر أقل . . . فإذا لم يفلح هذا أو ذاك ، فلا بأس من المساومة على استبدال البرىء بمجرم ، . . وفى تصوره أنهم لابد سيفضلون المسيح على باراباس ، . . وحدث العكس ، وإلى اليوم ما زال يحدث ، فكم فضل الناس المجرمين والأئمة والأشرار واللصوص ، وهم يسلمون المسيح ، ويحكمون عليه بالهزء والجلد والصلب فى أسوأ مبادلة تحدث فى حياة البشر ! ! . .

الذات سر التورط فى الحكم على المسيح :

كان بيلاطس يعلم تماماً أن له سلطاناً أن يطلق المسيح أو أن يصلبه ، بحسب المفهوم البشرى ، إذ هو ممثل الامبراطور ، ويملك الحكم باسمه وتحت سلطانه ، . . لكن بيلاطس مع ذلك كان عاجزاً عن اتخاذ القرار الصحيح ، وهذا يرجع إلى ماضيه الممتلىء بالشر والعنف والشدة والفساد ، . . فقد أثار ضده اليهود فى أكثر من مناسبة . كان المقر الرسمى للرومان فى قيصرية وليس فى أورشليم ، وذلك لأن اليهود كانوا يعتبرون المدينة مقدسة ، ولايجوز أن يوضع فيها أى رسم أو شعار وثنى ، وكانت العادة أن الرومان عند دخولهم المدينة ينزعون صورة الامبراطور أو النسر الرومانى ، تجنباً لإثارة اليهود الذين كانوا يعتبرون أى شىء من هذا القبيل تدنيساً للمدينة وكسراً للوصية الثانية من الوصايا العشر ، . . على أن بيلاطس أراد كسر القاعدة ، وقد ظن أنه بالتهديد يمكن أن يبلغ مأربه ، . . ولكن ثورة عارمة قامت ، وظلت تهتف فى قيصرية خمسة أيام ضد الصور والتماثيل التى أدخلها إلى أورشليم ، وأحس بأنهم على استعداد أن يموتوا جميعاً دون أن يتراجعوا ، . . فتراجع ورفع ما أدخل إلى المدينة ، مما يكرهون !! .. وفى محاولة ثانية بنى خزاناً للمياه من أجل أورشليم ، . . ولكنه أخذ النقود من خزانة الهيكل فأثار ثائرتهم ، ولاحقوه بالشكاوى ، . .

وكان بيلاطس وهو يحاكم المسيح شديد الانزعاج بعد أن خلط دمهم بذبائحهم فى الواقعة المشار إليها سابقاً ، لئلا يرسلون سفارة وراءه إلى روما أو بعثة يمكن أن تجعله موضع المحاسبة والمحاكمة !! .. كانت خطاياه القديمة أغلالا فى عنقه تمنعه من التصرف الصحيح !! ..

على أن المأســاة تكمن فى الأسلوب السياسى الذى عالج به قضية عادلة ، . . والسياسة فى حد ذاتها يمكن أن تكون صادقة وسليمة ، لكنها

فى أغلب الحالات تتمشى مع الأهواء والنزاعات والميول التى تعطى القرار الآثم الشرير !! .. وقد تذبح العدالة تماماً على مذبح السياسة ، وترتكب أشر الجرائم تحت تبرير من مختلف الدوافع الوطنية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو ما أشبه مما امتلأت به صفحات التاريخ !! ..

بيلاطس والتخلص المزيف :

فى أواخر القرن الماضى كتب كاتب ألمـــانى رواية رائعة عن مغسل بيلاطس ، وفيها يصور أن هذا المغسل — بعد أن غسل بيلاطس يديه فيه — قد فقد . واتهم بعضهم يهوذا الاسخريوطى ، بأنه سرقه ، وباعه ، ولكن الكاتب يبرىء يهوذا الذى طرح النقود التى سلم بها المسيح فى الهيكل ، . . لكن المغسل مع ذلك ظل ينتقل من مكان إلى مكان ومن جيل إلى جيل ، فكل حاكم يدوس الحق ، فى سبيل نصرة حزبه ، والوصول إلى الحكم يغسل يديه فى هذا المغسل ، وكل مواطن يعيش عالة على بلده دون أن يفعل شيئاً لخدمة البلاد ، يغسل يديه فى مغسل بيلاطس ، . . وكل محرر يعلم الحق ، ولكنه يسكت إرضاء للجماهير ، دون أن يساعد على إظهاره ، يغسل يديه فى مغسل بيلاطس ، وكل خادم دين يغض الطرف عن الشر إرضاء لنزوة أو نزعة تأتى من غنى أو صاحب نفوذ ، إنما يغسل يديه فى المغسل العتيد . . والمعنى واضح بين يصور كل تخلص مزيف يحاول فيه الآثم أن يغسل يديه من الجريمة التى يرتكبها ، على غرار ما فعل بيلاطس البنطى وهو يسلم يسوع المسيح لمشيئة اليهود ليصلبوه ، وهو الخداع الساذج للنفس إذ ينسى أن العبرة بالتصرف ، دون التنكر أو التبرير الذى لا يصلح قط أمام الحقيقة والتاريخ اللذين أخذا بتلابيب الرجل فى كل العصور ، فكتب مقابل اسمه : « يسوع المسيح الذى حكم عليه بالموت على يد بيلاطس البنطى »

فإذا ظن الرجل أنه يستطيع أن يكتب تقريراً إلى طباريوس قيصر على ما جاء فى أقوال ترتليانوس ويوسابيوس ، بالصورة التالية :

من بيلاطس البنطى إلى طباريوس قيصر لتكثر لكم التحية : كل شيء هادىء هنا ، ومن الحق إن لى متاعبي مع هذا الشعب الجامح الذى لا يحتمل ولكنى لم أتخل قط عن السهر والحزم من جانبي ، لكن الشيء الوحيد الذى أربكنى هو تصرفى السابق مع يسوع بن داود ، . . وكم أتمنى كثيراً لو أن رجلا أكثر حكمة كان فى مكانى ، حتى يستطيع أن يعطى التقرير الأفضل عن هذه الحركة الروحية بين هذا الشعب ، فلو أن يسوع هذا كان يهودياً عادياً غيوراً أو ممن يجلبون المتاعب بأىصورة ، فإن واجبى تجاه سيدى كان يقتضى اتخاذ الاجراء الحاسم فى الحال ، غير أن يسوع هذا الذى يدعونه المسيح أفضل عندى ، وخدمة الإدارة من كتيبة مسلحة بأكملها . إذ أنه أعظم الناس جميعاً رغبة فى السلام وعدم التعدى ، وأنا أفهم ما أقول ، فلقد راقبته وراقبت تلاميذه وتلقيت عنهم التقارير فى كل مكان وزمان ، وأكثر من ذلك لقد اندسست أنا بنفسى فى وسط الناس حتى أنظر بعينى ماذا يفعل ، وسمعته يتكلم عن شيء اسمه الولادة الجديدة ، . . وعجبت كيف لايقبلونه مع ذلك ، وإذا به يتكلم أنه مرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة !! .. غير أن الشعب مع ذلك قدمه ليصلب وإذ خفت أن يحدث اضطراب أكثر لم أجد بدا من تسليمه للموت ، . . وكل ما يهمنى هو الحرص الكامل على إخضاع هذا الشعب للسيد الامبراطور !! .. وإذا سمع سيدى شيئاً غير هذا ، فلا يقبله أو يصدقه !! ..

مسكين بيلاطس ، ومسكين كل من يغسل يديه فى مغسلة أو يسير على منواله ، فيحكم على المسيح وهو يعلم تماماً أنه لا علة فيه على وجه الإطلاق ! ! .

بيلاطس والنهاية التعسة :

ارتكب بيلاطس غلطة أخرى على أثر حادثة حدثت فى السامرة ، حيث زعم أحد المحتالين أن موسى خبأ فى جبل جرزيم ، أوانى مقدسة ، ودعا الناس إلى أن يذهبوا معه إلى الجبل ليريهم هذه الأوانى ، فذهبوا مسلحين ، وارتاب بيلاطس فيهم ، فأمر بمهاجمتهم وقتل أغلبهم فى وحشية قاسية ، ورفع السامريون شكواهم إلى فيتبليوس حاكم سورية والذى كان يفوق بيلاطس فى الرتبة ، فأمره هذا بالذهاب إلى روما ليعطى جواباً أمام الامبراطور ، وفى الطريق إلى هناك مات طباريوس ، فعزله من جاء بعده ، ونفاه واختلفت الروايات ، عن مكان منفاه ، فبينما يذهب أغلبها إلى أنه ذهب إلى بلاد الغال ، حيث انتحر هناك ، تشفق عليه رواية — لا أعرف كيف تنسب إلى الكنيسة المصرية القديمة — تقول إنه مع زوجته قد تابا ، وآمنا بالمسيحية ، . . وقد نقبل الرواية عن الزوجة، ونؤمن أيضاً أنه لو تاب فإن رحمة الله على استعداد أن تقبله ، غير أن رواية الإنجيل لا تعطى شيئاً من هذا التصور ، أو تدنينا منه ! ! ..

إن السؤال الذى طرحه الرجل ما زال قائماً : «ماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح ؟ ! !..» وقد اختلفت الإجابة يوم الصليب إذ قال يهوذا الاسخريوطى أبيعه. وقد باعه بثلاثين من الفضة ، واستخف هيرودس به .. وقال باراباس : استبدل به مكانى !! .. وقالت بنات أورشليم : نبكى عليه !! .. وقال قيافا : أسلمه . . وقال بيلاطس : أغسل يدى منه !! . . وقال سمعان القيروانى : أحمل الصليب خلفه ! ! . والسؤال : ترى ماذا يكون جوابك ! ! ؟

١١٨
باراباس

« ليس هذا بل باراباس وكان باراباس لصا »
(يو ١٨ : ٤٠)

رسم أحد المصورين صورة باراباس بعد صدور قرار العفو عنه ، وهو يخرج من دار الولاية ، ضاحكاً ، وقد التف حوله جمع غفير ، يحيونه ، ويهتفون له ، ويمكن لنا تخيل الموكب ، وحديث المحيطين به ، فنهم من نسب الحادث كضربة حظ ، تأتى فى العادة إلى المحظوظين من الناس ، الذين تتبدل أوضاعهم من النقيض إلى النقيض ، فإذا كان غيرهم يواجه الموت ، فإنهم وهم أبناء الموت ، يواجهون الحياة والحرية والانطلاق على غير انتظار.. وهم سعداء لأن هذا هو الحظ وخبطته فى حياة الناس ، . . على أن آخرين ربما قالوا — على أسلوب خرافى — هذه بركة العيد التى تنقل الناس من الموت إلى الحياة ، وتعطيهم الأمل عندما ينقطع كل أمل ، ولم يبق إلا الموت ينتظرهم بين لحظة وأخرى ! وما أكثر الذين إلى اليوم يذهبون إلى المزارات

والأماكن المقدسة ، وهم ينتظرون هذه البركة التى قد تأتيهم من العيد أو القديسين أو الأولياء !! .. وربما وجد من قال شيئاً غير هذا أو ذاك ، لكن المأساة المؤلمة فى القصة كما عرضها المصور ، أن باراباس فى خروجه إلى الحياة والحرية لم يلتفت لحظة واحدة إلى « البديل » الذى أخذ مكانه فى الألم والموت !! .. وهى المأساة المحزنة التى تتكرر فى كل العصور والأجيال والتى أجملها إشعياء فى قوله : « ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولا. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا » (اش ٥٣: ٤ و٥) . . ترى هل نعلم جميعنا أننا باراباس الذى أخذ المسيح مكانه على هضبة الجلجثة !! .. يحسن أن نتأمل القصة ونحن نركز عيوننا على هذه الحقيقة فيما يلى :

باراباس فخر الأب :

إن الإسم باراباس يعنى ابن الأب ، ولقب الأب كان يستخدم فى العادة لوصف أعظم المعلمين الدينيين فى ذلك العصر ، وربما كان أبو باراباس واحداً من أولئك المعلمين ، وأطلق هذا الإسم على ابنه فخراً وأملا أن يأخذ الابن يوماً من الأيام مكان أبيه أو يحيا على منواله ونهجه ، ولعل هذا يصور لنا بيتاً قديماً من أفضل البيوت وأعظمها وأكثرها غيرة فى الحياة الدينية ، . . ويعتقد جيروم وأوريجانوس أن اسمه الكامل هو « يسوع باراباس » والإسم يسوع أو يشوع كان شائعاً فى ذلك الوقت ، وهو حلم الآباء والأمهات أن يتحقق فى الإبن صورة يشوع القديم منقذ الأمة والعابر بها لتستقر فى أرض الموعد ، . . وقد يتحقق الإسم أو العكس على خط مستقيم ، وإلى أبعد الحدود فى كلا الجانبين ، وشتان بين يسوع الذى يدعى المسيح ، ويسوع باراباس لو صح أنه كان يحمل هذا الإسم ، . . وما أبعد الفرق الأبدى بين مخلص العالم ، وبين إنسان أدخله العالم للأسف الشديد فى المقارنة مع السيد ،

مع أن السماء والجحيم لا يعدان شيئاً بجانب الفرق الأبدى بين الاثنين !! . .
من الحق ، أن كل أمرىء فى الأرض ، لم يعط فرصة لاختيار اسمه ، ونحن نأخذ أسماءنا كنبوة أو حلم ، من آبائنا ، يبغون تحقيقه ، وفى كل الأحوال نولد ومعنا الرجاء أن نكون خيراً لهذا العالم بصورة ما من الصور ، . كان يوماً مفرحاً ذلك اليوم الذى ولد فيه توم أديسون ، والذى أعطى العالم ألف اختراع ، وعلى رأسها جميعاً ذلك النور الكهربائى عندما يحل الظلام ويأتى الليل ، . . وكان يوماً مبهجاً ذلك اليوم الذى ولد فيه جون وات الذى بدأ عصر البخار فى المصانع والمعامل والقاطرات ، . . وكان يوماً عظيما ذلك اليوم الذى ولد فيه الكسندر جراهام بل مخترع التليفون ، . . فإذا صح أن يقال هذا عن الشخصيات العظيمة التى تركت آثارها البعيدة فى عالم المادة بين الناس ، فهو أصح بما لا يقاس عن أولئك الذين حولوا التيــار البشرى فى اتجاه الحق والخير والحياة والروح ، . .

فى وقت يكاد يكون متقارباً وفى أرض فلسطين ولد ولدان التقيا يوم الصليب ، وقد أطلق على كل منهما اسم « يسوع » وكان أحدهما مخلص العالم وكان الآخر للأسف اللص الذى أطلق بيلاطس البنطى سراحه فى ذلك اليوم ، ومع ذلك فالأبدية كلها لا تستطيع أن تعبر الهوة الفاصلة بين الإثنين ! ! . .

باراباس ومأساة أمه :

يعتقد الكثيرون أن باراباس كان واحداً من حزب الغيورين ، الذى نهض لمقاومة الغزاة الأجانب ، فهو إمتداد لحركة المكابيين ، وفى أيام الرومان كان الصراع مميتاً بينه وبينهم ، حتى قضى عليهم تيطس الرومانى وسحقهم بالتمام عند تدميره لأورشليم ، . . بدأ باراباس ، شأنه شأن كل وطنى متطرف بفكره ، انقاذ بلاده وشعبه ، فلما ضيق الرومان عليهم السبيل ،

تحولوا إلى السلب والنهب وأضحوا من أشر قطاع الطرق ، وكانوا سبب مأساة أمة بأكلها ! ! . . وهنا مرة أخرى نعود مع الأسف للمقابلة بين يسوع المسيح وباراباس ، . . لقد كان المسيح وجه الأمة المشرق ، وكان طريقه طريق السلام والحياة والانتصار لهذه الأمة ، . . لكنها رفضت هذا الوجه ، ولبست وجهاً آخر قبيحاً مزيفاً هو وجه باراباس ، وجه البعد عن الله ، والبحث عن وسائل بديلة للتحرر والانتصار ، . . ومن الغريب أن اليهود إلى اليوم ما زالوا يكررون التاريخ بدقة متناهية ، وما زالوا يحصدون نفس النتائج التعسة والقاسية والمريرة ، مهما امتد نفوذهم فى الأرض !! . .

لقد بدأت هذه الأمة فى أيام أبيها الأول ابراهيم تعتمد على الله ، وترى سبيل النجاة الوحيد فى الاتكال عليه ، وما دخلت معركة أو حرباً استناداً على قوتها الذاتية ، إلا وخسرتها ، وما دخلت صراعاً تستند فيه على الله ، إلا وخرجت مظفرة ، سواء كانت مسلحة أم بلا سلاح على الإطلاق ، وخروجهم من مصر ، ودخولهم أرض الموعد ، وصراعهم الطويل فى التاريخ بنجاح ، لم يكن إلا لأن الله يقف بجانبهم ويقود معاركهم !! . . وعندما جاءهم المعمدان فى الطريق أمام المسيح ، ناداهم بالرجوع إلى الله ، أساس النجاة والحياة ، . . وجاء المسيح لا ليبنى قوة عسكرية أو سياسية أو اقتصادية ، بل ليعبىء الأمة تعبئة روحية ، وكان نداؤه الوحيد : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٤ : ١٧) . . لكنهم رفضوه ، وبحثوا عن الوجه البديل الذى يعتمد على القوة والعنف والصراع المسلح ، وكان لهم ما أرادوا عندما سحقتهم فيالق الرومان تحت الأقدام ، وداستهم تحت سنابك خيلها دون أدنى رحمة بطفل أو امرأة ، . . ومن الغريب أنهم إلى اليوم يستبدلون عبادة الله ، بالعجل الذهبى ، ومنذ ذلك التاريخ الذى نشب فيه الصراع الخفى بين أبيهم يعقوب ولابان حول المال ، ما زال هذا الصراع

المادى بألوانه المتعددة فى علاقاتهم بالعالم الذى يريدون أن يحكموه بالسيطرة الاقتصادية فى كل مكان من الأرض ، . . كان باراباس قاتلا ، ولصاً ، . . وهما الصفتان القبيحتان للوجه المزيف للأمة الإسرائيلية ، عندما رفضت وجهها الصحيح يسوع المسيح !! .. كتب أحدهم أسطورة عن مولد طفل غريب الشكل كبير الرأس ثقيل الجمجمة ، وقد قال الأطباء إنه لاترجى له حياة ، إلا أنه مع ذلك رغم شذوذ تكوينه عاش ، وكان يعانى مشقة كبيرة فى سيره لاختلال توازنه ، وما أكثر ما كان يتدحرج على الأرض ، وهو يصطدم بهذا أو ذاك من أثاث البيت ،.. وعوضاً عن أن ينزف دماً ، كانت تتعلق بشعرات رأسه ذرات من ذهب ، وأخيراً تبين والداه أنه يملك دماغاً من ذهب بدلا من النخاع والأعصاب ، وعنى والده به عناية فائقة ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، كشف له والداه السر وأماطا اللثام عن الكنز الذى فيه والذى منحته إياه الأقدار ، فأبرقت أساريره ، وعلى الفور عصر بيده جمجمته وانتزع قطعة من ذهب وهبها لوالديه مكافأة لهما على عنايتهما به وحنانهما عليه ، ورعايتهما له !! .. ثم أخذ يرتاد مختلف الأماكن وهو ينتزع من رأسه الذهب فى سبيل الشهوات والمسرات ، ودارت عجلة الأيام ووقع فى حب فتاة هام بها ، فبدأ ينفق عليها بسخاء منتزعاً من رأسه الذهب حتى كاد المنجم أن ينتهى ، وفجأة توفيت فاتنته فاحتفل بجنازتها احتفالا رائعاً وأسرف غاية الاسراف ، . . وعندما فاق لحاله كان يسير كالمخبول فى الشوارع وقد ضاع منه الذهب ، وأعوزته أشياء كثيرة ولم يجد ثمناً لها ، أو بديلا عنها !! . .

هذه أسطورة ولكنها يمكن أن تكون تصويراً لليهودى صاحب الدماغ الذهبى ، ومع ذلك فهو لا يعرف راحة أو قراراً ، حتى لو جمع مال العالم كله بين يديه !! . .

ومن المناسب أن نلاحظ أن باراباس ابن أبيه أو فخر أبيه لم يصبح بين يوم وليلة قاتلا ولصاً ، ولكنها طريق الخطية ، طريق الانحدار فى القصة البشرية ، . . وعندما يبدأ الإنسان قصته مع الخطية فهو لا يعلم قط إلى أى منحدر ينتهى ! ! وجد أحدهم شاباً منهكاً متعباً ، فقال له : ما بك !؟ فأجاب : بعض الصداع . . فقال له : عندى ما يريحك ! ! ؟ وأعطاه شيئاً تناوله فاستراح !! . . وكان كل ما يحس التعب يأخذ منه ! ! . . وزادت حاجته . . وطلب منه المعطى الثمن ! . . وابتدأ الثمن يتزايد ! ! . . وعندما جاءه ذات يوم يطلب وليس معه الثمن ، قال له : أسرق أو أقتل ! ؟ والنتيجة معروفة نراها فى قصص المؤمنين أو الذين يبدأون ثم ينتهون إلى الادمان . فالخطية دائماً تنتهى بصاحبها إلى القيود والضياع !! . . وكان باراباس لصاً ! ! . .

باراباس والاختيار البشع :

لم يكن بيلاطس يتصور قط وهو يضع باراباس والمسيح فى كفتى ميزان أمام الجماهير أنها ستفضل باراباس ، إذ أن هذا التفضيل كان حسب تصوره ، وحسب تصور أى إنسان ، يخلو من كل عقل وإدراك وتفكير ومنطق، ولكن من قال إن الإنسان يعيش بالعقل والمنطق، .. قد نضحك مع اسحق نيوتن عندما كان مستغرقاً فى التفكير العميق ، وكان يجلس إلى جوار موقد أحس بحرارته المتزايدة التى تمتد إلى جسده بكيفية لا تطاق ، فدق الجرس بشدة ، فحضر الخادم سريعاً وإذ به يقول له : انقل النار بعيداً أيها الغبى قبل أن تشوينى ! ! فأجابه الخادم : ولكن يا سيدى لماذا لم تحرك كرسيك بعيداً عنها ؟ . . فابتسم الفيلسوف وقال : حقاً لم يخطر هذا على بالى ! ! . . ولكن الفلاسفة والمجانين فى الأرض يتساوون فى فقدان المنطق فى اختيار الكثير من أوضاع الحياة ! ! . . فالحروب التى تدمر الغالب والمغلوب معاً ، ما زالت هى السائدة فى منطق البشر حتى ليقال إن العالم

لم يهدأ من الحروب طوال ألفى عام أكثر من مائة وثلاثين عاماً ، كما أن إقدام الناس على إدمان المسكرات والمخدرات وهم يعلمون ضررها المؤكد على كل شيء عندهم ، شاهد على اختيارهم الأحمق غير المنطقى على الإطلاق ! ! . . فإذا وقفنا على ربى التاريخ ، وتأملنا الجنس البشرى ، وهو يختار الشر أكثر من الخير ، والرذيلة أكثر من الفضيلة ، والهدم أكثر من البناء ، والانتقام أكثر من الاحسان والمساعدة والمعونة ، عرفنا لماذا هتفوا يوم الصلب ، ليس هذا بل باراباس ، وكان باراباس لصاً ! ! . .

على أنه إذا كان الاختيار يعوزه المنطق السليم ، فإن من الواضح أن سببه الحقيقى هو الحقد الرهيب على يسوع المسيح ، الحقد الذى أصدر الحكم مسبقاً ، وذهب إلى بيلاطس لا ليناقش القضية ، بل ليتمم التنفيذ ، . . وأتعس ما فى القضاء البشرى أن يصدر الحكم ، ثم يبحث له عن الحيثيات والأسباب بعد ذلك ، لمواءمة الحكم المنطوق به وتبريره ، . . وعندما يقدم الإنسان على ذلك ، فإنه يتحول وحشاً دونه كل الوحوش ، وقد كان اليهود فى ذلك اليوم هكذا ، وجاء وصفهم الأبدى فى لغة النبوة : « أحاطت بى ثيران كثيرة . أقوياء باشان اكتنفتنى . فغروا على أفواههم كأسد مفترس مزمجر كالماء انسكبت . انفصلت كل عظامى . صار قلبى كالشمع . قد ذاب فى وسط أمعائى . يبست مثل شقفة قوتى ولصق لسانى بحنكى . . . لأنه قد أحاطت بى كلاب جماعة من الأشرار اكتنفتنى . ثقبوا يدى ورجلى . . . وهم ينظرون ويتفرسون فى . يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون . أما أنت يارب فلا تبعد . يا قوتى أسرع إلى نصرتى . أنقذ من السيف نفسى . من يد الكلب وحيدتى . خلصنى من فم الأسد ومن قرون بقر الوحش استجب لى » (مز ٢٢ : ١٢ — ٢١) . . عندما نذكر قصة الذئب والحمل على مجرى الغدير ، والذئب يتهم الحمل بتعكير الماء رغم أن الذئب فى المنطقة الأعلى

والتى يأتى من عندها الماء ، ويذكر الحمل ذلك ، على أنه إذا أفلت من هذا الاتهام ، فإن تهماً أخرى تلاحقه ، فإذا لم يكن هو المذنب ، فلابد أن أباه كان المذنب ، وما إلى ذلك من اتهامات ، مما يستحيل معه الإفلات من النية المبيتة ، نية القتل مع سبق الإصرار !! .. عندما نذكر هـــذه القصة لا ينبغى أن ننسى قط أنها حدثت على أبشع صورة فى التاريخ ، عندما وقف حمل الله أمام ذئاب اليهود فى مدينة أورشليم وهم يصيحون : ليس هذا بل باراباس وكان باراباس لصاً !!.. وهنا لاينبغى أن ننسى أن هذا الاختيار البشع يكشف إلى أبعد الحدود عن تقلب الجماهير وتبدل مواقفها ، من النقيض إلى النقيض ، .. نحن لا نستطيع أن نتهم الذين هتفوا عند الدخول الانتصارى قبل ذلك بأيام خمسة ، وهم يصيحون : أوصنا مبارك الآتى باسم الرب بأنهم هم جميعهم قد انقلبوا بين عشية وضحاها إلى الهتاف المضاد : « أصلبه » .. لكننا لا نستبعد أن بينهم من هتف فى الحالين ، وتقلب على الوضعين ، وتغير مع المتغيرين ، .. فهذه ، فى العادة طبائع الجماهير التى لا يجوز الاطمئنان إليها بحال من الأحوال ، ولقد وصفهم أمير الشعراء شوقى :

يا له من ببغـــاء عقلــه فى أذنيـــه

وقد قيل عن نابليون عندما استقبله الشعب بحماس يفوق الوصف ، وأبدى بعض الواقفين إلى جواره ذهولهم من روعة الاستقبال وعظمة التحية ! . أنه قال : تمهلوا قليلا فقد يرموننى مرة أخرى بالطين والطماطم والبيض الفاسد !! .. ومن العجيب أن السيد المسيح كان شديد الحذر من انفعال الجماهير وتقلبها فى شتى الاتجاهات ، ومن ثم قيل عنه : « ولما كان فى أورشليم فى عيد الفصح آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التى صنع لكن يسوع

لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع . ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان لأنه علم ما كان فى الإنسان (يو ٢ : ٢٣ — ٢٥) . .

ومن المحزن أن هذا الاختيار يتحدث إلى جانب هذا كله عن بشاعة الجحود البشرى ، . . نجحت طبيبة مرسلة فى إنقاذ حياة طفل وثنى أشرف على الموت ، فما كان من أبوى الصبى إلا أن انحنيا عند قدمى المرسلة ليعبداها كإله ، فأسرعت هى وأنهضتهما وقالت لهما: أنا بشر مثلكما ، اشكرا الله . فقالا لها : لابد أن تكونى إلهاً ، لأنه لا يمكن أن ينقذ ابننا هذا سوى إله . فقالت المرسلة : افترضا أنى أرسلت لكما مع خادمى هدية جميلة ! ! . . هل تشكرانني أم تشكران الخادم ، فأجابا : نشكرك أنت ولا شك . . فأجابت : هكذا مع الله ، لقد كنت أنا الخادم الذى قدم الشفاء الذى أرسله الله إلى ابنكما . . أشكرا الله ! ! . . آه لو علم اليهود أن المسيح الذى قدموه إلى بيلاطس ، لم يكن هو عبد الله وخادمه الذى حمل إليهم كل خير فى الأرض ! ! . . بل كان الله الذى أخذ صورة عبد ، وهو يصنع معهم كل إحسان . . لما قالوا : ليس هذا بل باراباس وكان باراباس لصاً ! ! . .

وهل يمكن أن يمر هذا الاختيار البشع دون أن يحصد نتيجته الرهيبة التى ما زال اليهود إلى اليوم يعانون منها فى كل أقطار الأرض ، . . كتب د.م. كرستى كتاباً عنوانه : « عندما يواجه اليهود المسيح » . . وتحدث فى الكتاب عن قصة يهودى اسمه الحاخام أفرايم ، كان يقيم فى إقليم طبرية بالقرب من بحر الجليل وكان أحد معلمى الناموس . وتزوج من ابنة كبير الحاخامين ، وكان يبغض المسيحيين أشد البغض . على أنه حدث أن طرأ على ذهنه هـــذا السؤال : لماذا سمح الله بخراب الهيكل عام ٧٠ م وتشتيت اليهود . . لم تكن الوثنية هى السبب ، كذلك لم يكن السبب نقص الغيرة على الناموس ، فقـــد كانوا متعصبين لله وللناموس . قال إنه لابد من وجود خطية فظيعة خلف هذا

الأمر ، وفى أحد الأيام حدث ، كما ذكر هو فيما بعد ، أنه سمع صوتاً واضحاً يقول له : كف عن كراهيتى ، أحبنى وأنا أعطيك السلام ، . . وأدرك أن هذا هو صوت المسيح ، .. فآمن بالمسيح ، واكتشف اليهود ارتداده عنهم ، فاضطهدوه أشد اضطهاد ، وأحاطوا به ذات مرة ، وكانوا أشبه بالوحوش الكاسرة ، وانهالوا عليه ضرباً وكادوا يمزقونه إرباً ، وفى مرة أخرى حبسوه فى غرفة قذرة دون طعام ، ومع كل الاضطهادات بقى أميناً لسيده ، وقد تعمد فى الناصرة ، وأبعد اليهود عنه زوجته وأولاده . ومرت سنوات وهو يعانى أشد الظروف وأقساها ، على أنه نجح فى ربح بعض اليهود إلى المسيح ، وبقيت غيرته معه إلى آخر حياته ، وفى الليلة التى انطلق فيها قال أحد المسيحيين العرب ممن حضروا ساعة انطلاقه : « إنى أحسست بحضور الله فى المكان » وذهب الرجل إلى سيده عن أربعة وسبعين عاماً فى أغسطس عام ١٩٣٠ . .
ترى هل يعلم الإنسان أن الاختيار بين المسيح وباراباس ما زال إلى اليوم قائماً وما يزال يحمل نتائجه البعيدة العميقة الأثر ! ! .

باراباس والبديل العظيم :

على أنه مهما تكن قصة باراباس ، ومغزى الاختيار البشع الظاهر فيها . إلا أنه لا ينبغى أن ننسى أن باراباس اللص المجرم الآثم ، وجد البديل العظيم الذى أعطاه الحرية والحياة ، من حيث لا يتوقع ! ! . . وقبل أن نرفع الأحجار لنرمى الرجل بها ، علينا أن نتأكد من أن كل واحد منا باراباس فى مواجهة المسيح ! ! . . وهل نمتاز عن اللص القديم فى شيء ؟ . . لقد جاء حمل الله الوديع ليأخذ مكاننا فى القصاص والعدالة الإلهية ، . . أولم السر ريتشارد ويتنجتون لهنرى الخامس ملك الإنجليز فى الجولد هول وليمة فاخرة لا تبارى وكان فى المكان مدافىء تتقد فيها أخشاب عطرة جداً لها أريج يفوح فى كل جوانب القصر ، ولكن ذلك الأريج ، ازداد وتلك الرائحة قويت

عندما طرح صاحب الوليمة سندات دينه على الملك ، وكانت ألوفاً كثيرة من الجنيهات الاسترلينية ، فى النار ، وقد قيل إن الملك عندما أبصر هذا المنظر بكى وهو يقبل الرجل . . . لقد محا المسيح الصك الذى كان علينا وأخـذ مكاننا كالبديل العظيم على هضبة الجلجثة ! ! . .

وفى الحقيقة لا يجوز لإنسان أو شعب أن يفتخر أمام السيد ! ! يعتقد اليابانيون أنهم أبناء السماء ، وقال سسل رودس إن أعظم شعب رآه العالم إلى اليوم هو الشعب البريطانى ، . . ووجد بين الأمريكيين من قال : إن الله بدأ من الأسفل وصنع القردة المعروفة بالغوريلا ، ثم صنع الشمبانزى ، وبعد ذلك صنع الهمجى المعروف بالهوتنوت ، وبعده المكسيكى ثم الهندى الأحمر ، فاليابانى ، وصنع من طينة أنظف الألمانى فالاسكتلندى فالإنجليزى ! ! . . وآخر الكل صنع الأمريكى ورأى أنه حسن ! ! . . والحقيقة إن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وكلهم باراباس ، حتى جاء المسيح بديلنا الأعظم الذى نغنى أمامه أغنية شارلوت اليوت العظيمة :

كما أنا آتى إلى فادى الـورى مستعجلا
إذ قلت نحو أقبـل يا حمـل الله الـوديع
يا رب إنى مجـرم فليغسلن قلبى الـدم
إنى إليـك أقـدم يا حمل الله الـوديع

١١٩
سمعان القيروانى

« فسخروا رجلا مجتازا كان آتيا من الحقل وهو سمعان القيروانى ابو الكسندرس وروفى ليحمل صليبه » (مر ١٥ : ٢١)

تقول قصة قديمة إن سمعان القيروانى عاد إلى بيتـه متعباً منهوك القوى ، فقابله ابناه الكسندرس وروفس وابتدراه بالسؤال : أين كنت يا أبى ! ! ؟ . فأجاب : لقد حملت صليباً . فصرخا : حملت صليباً يا للعار ! وكيف ارتضيت أن تحمله ! ! ؟ . . لقد سخرنى الجنود الرومان لأحمل صليب الناصرى ! ! . . وكان يمكننى الإفلات من هذه السخرة لكنى نظرت إلى الناصرى وأشفقت عليه ، فارتأيت أن أحمل عاره ، . ولست نادماً على ذلك يا بنى ! ! ؟ . ثم آوى سمعان إلى فراشه ، فإذا به يرى الناصرى فى نومه ، ولكن وجهه لم يكن وجه ذاك المحكوم عليه بالصلب ، بل كان فى بهاء الشمس فى ضيائها الكامل ، . . واقترب السيد يقبل سمعان وهو يقول له : طوبى لك يا سمعان . إن العار الذى حملته سيتحول لك فخراً أبدياً ! ! . واستيقظ سمعان ليشعر

بغبطة عظيمة لم يعرف لها مثيلا من قبل ! ! . . هذه القصة القديمة ، سواء كانت صحيحة أم موضوعة تحمل معنى واحداً ، وهو أن صليب المسيح مهما يعني من آلام ومتاعب ومعاناة وضيق ، فانه ينتهي على الدوام بالمجد الأبدى ، وسنرى اليوم قصة سمعان القيروانى وكيف سخر ليحمل الصليب خلف يسوع ، وكيف خلدته هذه السخرة على نحو لم يكن يخطر له ببال ، ومن ثم يمكن أن نتابع القصة فيما يلى :

سمعان القيروانى من هو ! ! ؟

كان سمعان القيروانى — كما هو باد من رواية الإنجيل — رجلا يهودياً ، يعيش فى القيروان (فى تونس حالياً) فى شمال أفريقيا ، ونحن لا نعلم إن كان قد ولد فى تونس من أبوين يهوديين ، أو أنه ذهب إلى هناك كما ذهب شتات اليهود إلى كل مكان فى الأرض ، . . على أى حال فمن الواضح أنه لم يكن من يهود فلسطين فى وقت المسيح ، ويعتقد أنه إلى أرض فلسطين ليعيد عيد الفصح ، وربما لم يفعل هذا سوى مرة واحدة ، فقد كانت التكاليف للسفر باهظة ، يحاول اليهودى مع ذلك أن يبذلها ولو مرة واحدة فى حياته، ويبدو أن المدينه وقد ازدحمت ازدحاماً هائلا بالوافدين، لم يجد مكاناً فيها للضيافة أو المبيت ، وكانت تقام الكثير من العشش والمساكن المؤقتة حول المدينة أو فى القرى والمدن القريبة منها ، أو فى الحقول والمزارع ولعله وجد خارج المدينة مكاناً أو عشة آوته حتى يتمكن من حضور العيد فى وقته . . ومن الواضح أن ذكر ولديه ألكسندرس وروفس يعنى أنه أضحى معروفاً فى الكنيسة ، ومن الأرجح أن بيته بأكمله أضحى بيتاً مسيحياً ، ويعتقد أن الرجل لم يصبح مسيحياً فحسب ، بل من قادة الكنيسة المسيحية ، ويربطه كثيرون بسمعان نيجر أو سمعان الأسود (أع ١٣ : ١) ويبدو أنه كان أسمر اللون ، وقد لوحته شمس أفريقيا ، ولعل هذا استرعى أنظار الجند الذين سخروه لحمل

الصليب ، باعتباره رجلا أسود اللون ، وأقرب إلى العبيد ، ومن المتصور أن الكسندرس كان ابنه الأكبر وروفس كان الأصغر ، ويبدو أن الكسندرس توفى عندما كتب بولس رسالته إلى رومية ، إذ بعث التحية إلى « روفس المختار فى الرب وعلى أمه أمى » ، (رو ١٦ : ١٣) . وبولس يكشف عن بيت متميز ، وأن أم روفس زوجة سمعان كانت أماً مثالية عظيمة ، وعلى أى حال فنحن نقف الآن أمام الواقعة التى حددت مسار الرجل وبيته فى كل التاريخ ! ! . .

سمعان ووقت السخرة :

كان سمعان القيروانى فى طريقه إلى مدينة أورشليم ، وليس فى ذهنه على الإطلاق أى علاقة بموكب المسيح ، ولو تأخر دقائق أو تقدم لما التقى بهذا الموكب ، . . ولو تأخر الموكب نفسه قليلا أو تقدم لما حدث اللقاء على الإطلاق ، . . لقد حدث ذلك على ما يقول الناس مصادفة ، لكن السؤال الصحيح ، إذا كانت هناك مصادفة على حسب المفهوم البشرى ، فهل هناك مصادفة فى الترتيب الإلهى ؟ كلا وإلى الأبد كلا ! ! . . إن الله لا يحرك العالم بالشهور والأيام والساعات ، بل بالحرى بالدقائق والثوانى ، ولقـــاء سمعان القيروانى بيسوع المسيح كان ترتيباً أزلياً مؤكداً ! ! . . فى أيام نابليون كان هناك رجل فرنسى اسمه شارنى ، وكان من المفكرين العلماء الملحدين ، وقد أغضب نابليون ، فحكم عليه بالسجن ، ووضع فى زنزانة ضيقة ، واستمر فيها وقتاً طويلا ، وإذ ضاق بحاله كتب على جدار الزنزانة : « كل شىء فى الحياة بالصدفة » ، وذات يوم أبصر فى أرض الزنزانة نبتة صغيرة تشق طريقها إلى فوق بين شقوق البلاط ، وتعجب ، لكنها وقد كانت الشىء الوحيد الذى يؤنسه ، اهتم بها وأخذ يرويها حتى كشفت عن زهرة جميلة بيضاء وزرقاء غاية فى الجمال ، . . ومن العجيب أن هذه الزهرة قادته إلى

الله ، . . فلم يعد نموها إلى جواره مجرد صدفة ، بل بترتيب إلهى حكيم ، يرسل له التعزية والرجاء ، فمحا العبارة السابقة وكتب محلها : « إن الذى صنع كل الأشياء هو الله » ، . . وكان فى الزنزانة المجاورة له سجين آخر له ابنة صغيرة تعودت أن تأتى لزيارة أبيها وقد تعرفت بشارنى ، وقد رأت الزهرة النابتة فى غرفته ، وعرفت مقدار محبته لها فقصت قصتها على إمرأة السجان وانتقلت القصة من شخص إلى آخر حتى وصلت مسامع جوزفين فقالت : إن الرجل الذى يحب زهرة لا يمكن أن يكون شريراً رديأً ، وسعت لدى نابليون حتى أفرج عنه ! ! .. وأدرك شارنى أنه لا يوجد شىء اسمه «الصدفة» عند الله ، . . تركت إحدى السيدات إلهها وكتاب طفولتها وانغمست فى ظلمات الإلحاد ، وذات يوم ، وكانت فى باخرة تعبر الأطلنطى ، سألت أحد البحارة عن المدة الباقية من الرحلة ، فقال لها : سنصل إلى ليفربول بعد أربعة عشر يوماً إن شاء الله ، فقالت السيدة بتهكم : إن شاء الله ! ! ياله من قول بعيد عن العقل . ألست تعلم أن كل الأشياء وليدة الصدفة . وبعد أيام هبت عاصفة هوجاء على السفينة ، ووقفت المرأة بجانب باب غرفتها وقد عقد الرعب لسانها وأبصرت نفس البحار فسألته : ماذا تظن ، هل تمر العاصفة بسلام ! ! ؟ فأجاب : أعتقد أنها ستستمر بعض الوقت يا سيدتى . . فصاحت : أرجو أن تصلى كى لا نهلك . . . فقال لها : وهل أصلى إلى الصدفة ! ! . . كم يغير تفسيرنا للحياة معناها ، إذا أدركنا أنه لا توجد صدفة فى المنهاج الإلهى ، بل كل شىء مرتب ومنظم على أدق الوجوه حتى تنتهى الأرض وما عليها ، . . كانت جماعات البيورتان المشهورة فى التاريخ ، لا تؤمن على الإطلاق بشىء اسمه الصدفة ، ولأجل ذلك كانوا من أشجع الناس ، وأكثرهم قوة ورحابة صدر ، وكانوا يجتازون اللهب والنيران بترنم عظيم ، إذ يحسون أنها رسالتهم التى ينبغى أن يتمموها ، وليست مأساتهم التى ساقتهم إليها الصدف المحزنة ! ! . .

سمعان وسر السخرة :

على أنه من الواجب أن نقف عند نقطة أخرى فى قصة سمعان ، ونحن نقرأ أنهم سخروه للعمل ، ونسأل ما هو السبب الذى دعاهم إلى إكراه هــذا الرجل على حمل الصليب خلف المسيح ؟ أهو منظره الأسود الذى جعله فى نظرهم أحط من البيض وأقل شأناً ؟ وربما كان يرتدى ثياباً متواضعة تكشف عن بساطة مظهره ، أوربما كان مفتول الذراع عملاقاً يسهل عليه أن يحمل الصليب ، ومن ثم فهو أولى من غيره الذين يسيرون فى الموكب ، والذين لا يجوز أن يلزموا واحداً منهم بمثل هذا العمل المهين المؤلم ! ! . . أم أن النظرة كانت بسبب بعض الاشفاق الذى أحسوا به تجاه المحكوم عليه بالصلب وقد ذاق الويلات القاسية من الجلد والتعذيب والآلام النفسية المبرحة ، فتعثر تحت صليبه مرة أو مرات ، وكان فى نبله وصمته وألمه مشجعاً لهم على اتخاذ هذه الخطوة ؟ ! على أى حال يبدو أن سمعان بغت بالأمر ، وأحس المذلة والمهانة ، وهم يلزمونه بحمل الصليب ، وربما لم يكن الدافع عند الجنود الشفقة على يسوع المسيح ، بقدر رغبتهم فى انجاز مهمتهم على وجه معجل دون إبطاء ! ! . . كان العمل فى نظرهم شيئاً صغيراً ، إذ ماذا يعنى إجبار رجل فقير أسود اللون على أن يسير حاملا الصليب مسافة قد تكون طويلة أو قصيرة ، . . ومن المعتقد أن سمعان لم يكن على علاقة سابقه بالمسيح ، ولكنه أخذ بالاشفاق عليه ، وهو يراه فى غاية الجهد والتعب والألم ، . . ولا نملك هنا إلا أن نقف أمام السر العظيم ، كيف ناء السيد بحمل الصليب ، وهو الذى وصفه كاتب الرسالة إلى العبرانيين فى مطلع رسالته : « حامل كل الأشياء بكلمة قدرته » (عب ١ : ٣) . . وقال عنه غريغوريورى النايزنزى : « لقد اشتد جوعه ولكنه أطعم الجماهير فى البرية ، وكان هو الخبز الحى النازل من السماء ، حقاً قال : أنا عطشان ، ولكنه صرخ بصوت عظيم :

إن عطش أحد فليقبل الى ويشرب . لقد تعب ولكنه نادى المتعبين والثقيلى الأحمال . لقد نام ولكنه قام ليسكت الموج ويوبخ الرياح ويدع بطرس يمشى على الماء . لئن شهدت تلك بكمال انسانيته فإن هذه تشهد بكمال لاهوته » . . سأل أحدهم ممثلا ألمانياً كان عليه أن يمثل قصة المسيح المصلوب ، وقد أمسك السائل بالصليب ، فرآه ضخماً وثقيلا جداً ، فقال للممثل : ولماذا تجهد نفسك بحمل هذا الصليب ، وأنت تمثل ، وكان من الممكن أن تحمل صليباً مهما يكن مظهره ضخماً ، لكنه يمكن أن يكون خفيفاً ، غير أن الرجل أجاب : ينبغى أن أحس آلام المسيح على حقيقتها ، حتى أستطيع أن أكون فى الوضع الصحيح وأنا أظهرها للناس ، . . نعم لقد تحول الصليب فيما بعد ذهباً يتدلى على صدور الناس ، أو زينة توضع هنا أو هناك ، . . لكنه أولا وقبل كل شىء كان ألماً رهيباً فظيعاً على قلب المسيح وجسده ! ! . . وهل يستطيع أحد أن يدرك عمق آلام السيد فى تلك اللحظة ! ! . . كانت الكنيسة اليونانية القديمة تصيح : « آلامك يارب التى لا تدرك » . . « استيقظ يا سيف على راعى وعلى رجل رفقتى » ، وقد استيقظ السيف على المسيح ليتحمل آلاماً مهولة ، . . كان يحمل جسداً ممزقاً ، ونفساً مكسورة ، ومن واجبنا أن نقف فى صمت وألم ، وهو يتعثر تحت الصليب ، قبل أن نرى سمعان يسخر لحمله معه فى ذلك اليوم الرهيب ! ! . .

سمعان وعواطفه تجاه السخرة :

من الواضح أن سمعان لم تكن له علاقة سابقة بالمسيح قبل أن يسخر لحمل صليبه ، ولا شك أن عاطفتين تملكتاه فى ذلك اليوم ، وهما الغضب ، والشفقة ، . . أما الغضب فى بادىء الأمر ، فواضح من كلمة « سخروا » وأى إنسان يسمع هذه الكلمة ، لابد يمتلىء غضباً ، فالسخرة أساساً هى إهدار لآدمية الإنسان ، واكراهه على ما لا يرغب أو يريد ، مع ما فيها من

إذلال وامتهان وإعدام لحريته ، . . وهى فى العادة عنوان لأشد أنواع العسف والطغيان . والتاريخ ملىء بالصفحات السوداء فى حياة الأفراد والعشائر والشعوب التى عانت وما زالت إلى اليوم تعانى من السخرة بشتى أنواعها الأدبية والاجتماعية . ، ويكفى أن نرى ما عانى شعب الله فى أيام الفراعنة وكيف صعد صراخهم إلى السماء من السخرة والمسخرين ، . . وكيف كان الظلم يقع رهيباً بشعاً فى أيام القضـــاة ، وويل للضعيف من استبداد الأقوياء ، . . وكان من حق سمعان القيروانى أن يغضب ويسخط ، وعلى وجه الخصوص ، لأن حمل الصليب كان عاراً دونه أى عار ! ! . . لكن عاطفة الغضب تزحزحت إلى الوراء ، عندما حلت محلها عاطفة الشفقة على المتألم الذى يحمل صليبه إلى هضبة الجلجثة ، . . عندما اعتلى نيقولا الأول قيصر الروس عرش بلاده ، زج بعدد كبير من أشراف الروس فى السجون للثورة الهائلة التى قاموا بها ضده ، ومن بين هؤلاء ، قبض على نبيل روسى كان بريئاً ، ولم يكن له ضلع فى المؤامرة ولكنه كان حاد الطبع سريع الانفعال ، فزاد السجن والظلم انفعاله وشراسته ، فكان يتحرك فى زنزانته كما يتحرك الوحش الجريح يلعن الامبراطور ويجدف على الله ، إذ كيف لا يستطيع أن يمنع الظلم ، . . وقد زاره فى السجن أحد خدام الله ، وأعطاه الكتاب المقدس ، ورجاه أن يقرأه ، ولكن النبيل قذف بالكتاب بعد أن خرج الخادم . كيف يقرأ كتاب إله يترك الطغيان يستشرى فى الأرض ! ! ؟ ولكنه بعد قليل اضطر لوحدته وعزلته أن يمسك بالكتاب ليقرأه ، لأنه لم يجد شيئاً آخر خلاف الكتاب أمامه ، وقرأ وقرأ ، وازداد رغبة فى القراءة حتى وقف أمام صليب الفادى ، ورأى أعظم قصة — فى التاريخ — فى الظلم والإهانة ، وهنا رقت نفسه وهدأت روحه إذ أدرك أنه وراء المسيح المتألم يسير ، وانجابت عن نفسه ثورة الغضب ، وحلت محلها روح الشهيد ، . .

قدم للمحاكمة وعجز عن أن يثبت براءته ، فحكم عليه بالاعدام ، . . وعندما فتح السجان باب زنزانته ذات يوم ، توقع أن يبصر رسول الموت أمامه ، ولكن لدهشته العظيمة أبصر القيصر نفسه ، وقد جاء بعد أن اكتشف وثيقة تؤكد براءته ، وقد جاءه يعتذر ويعفو ، وخرج النبيل من ظلمات سجنه إنساناً آخر ليعيش بقية حياته صديق المحزونين والتعساء والخطاة ، . . وعندما مات ترك وراءه شيئين عزيزين مستشفى كبيراً ، والكتاب العزيز الذى قذف به يوماً ما فى ركن الزنزانة ، فقد احتفظ به إلى آخر أيام حياته ، كأثمن كتاب جاء به إلى المخلص الوحيد ! . ! . لقد ضاعت آلام سمعان القيروانى ، وهو ينظر إلى المتألم الأعظم الذى اشترك معه فى حمل الصليب ! ! . . عندما أصبح دكتور فرانك جانسليوس راعياً لإحدى الكنائس الكبرى فى شيكاغو ، جاءه إلى المكتب فى يوم ما ، أحد الشمامسة ، وكانت الخدمة قد بدأت ولم يحضر الراعى ، فذهب إليه الشماس لينبهه إلى موعد الخدمة ، فرآه غارقاً فى دموعه ، وهو يطل من النافذة ، فقال الشماس : يا سيدى إن الميعاد قد جاء لبدء الخدمة . . وقال الراعى : أشكرك لأنك نبهتنى إلى ذلك ، فقد نسيت كل شىء! ! . . فقال له الشماس : ولكن لماذا تبكى ! ! ؟ . فقال الراعى : لقد كنت أنظر إلى هذه الأكواخ العديدة ، لاشك إنه شىء مفزع ومرعب أن يعيش من فيها هذه الحياة التعسة الفقيرة ! ! . فقال الشماس : هذا مؤلم حقاً ! ! . . لكن لا تقلق نفسك هكذا يا سيدى ! ! .. فبعد قليل ستتعود على هذه المناظر ! ! . فقال الراعى : أنا أعلم ذلك ، وهذا هو الذى يبكينى ! ! . ما أقسى أن ننظر إلى آلام الآخرين باستهانة وعدم تقدير ودون مبالاة! ! . . إنها المأساة التى تبرأ منها سمعان القيروانى فى يومه العظيم مع المسيح ! ! . .

سمعان وآلام السخرة :

لسنا نعلم كم من الوقت استمرت سخرة سمعان ، ومدى ما تركت فى نفسه من آلام ، . . ولكن من العجيب أن علاقة سمعان بالمسيح بدأت بألم السخرة ، وما أكثر ما تبدأ حياتنا مع السيد ، من نقطة الألم والتعب والدموع والأحزان ! ! . . وضع أحد الشبان كل ما له فى زراعة الخوخ ، وبدأت الأشجار تبشر بمحصول جيد ، ، ولكن الصقيع جاء وأتلف كل الثمر ، . . وقد تغيب الشاب بعد ذلك عن الاجتماعات عدة آحاد ، وذهب القسيس يسأل عنه ، وثار الشاب فى القسيس وقال : إنه لا علاقة له بالإله الذى يتلف بستانه بالصقيع ، . . وصمت القسيس فترة ثم قال : الله يحبك أكثر من الخوخ . فإنه يعلم أن الخوخ قد يكون أفضل بدون الصقيع ، ولكنه يعلم أيضاً أنك قد تكون أفضل بالصقيع ! ! . . فشل شاب من ولاية الينوى فى أمريكا فى عمله ، وفى السنة الثانية سعى إلى المجلس التشريعى ولكنه هزم . ثم فشل فى العمل مرة ثانية . ولما كان عمره تسعة وعشرين عاماً حدث له انهيار عصبى ، ثم هزم فى انتخابات مجلس الولاية ، ولم ينجح فى مجلس الشيوخ ، وبعد سنة هزم فى معركة ترشيح لنيابة الرئيس ، وسعى مرة أخرى إلى مجلس الشيوخ وفشل ، وفى سنة ١٨٦٠ انتخب رئيساً للولايات المتحدة وهو ابراهام لنكولن ، الرجل العظيم الذى صنعه الفشل والألم ! ! . . طلب أحد الشباب من هنرى ورد بيتشر أن يشير عليه بعمل سهل ينتهجه فى الحياة دون تعب وألم ، وكتب إليه بيتشر يقول : « أيها الشاب لا تقدر أن تكون كاتباً ، ولا تحاول أن تكون حقوقياً ، ولا تفكر فى القسوسية ، ودع كل السفن وأشغال التجارة جانباً ، وامتنع عن السياسة ودروبها ، ولا تدرس فن الطب ، ولا تكن فلاحاً أو ملاحاً ، ولا تدرس ولا تفكر لأنه ولا أمر من هذه سهل عمله والقيام به . إنى آسف عليك يا إبنى لأنك أتيت إلى عالم كل ما فيه صعب

وشاق ، وإنى لا أعرف إلا مكاناً واحداً ، الحياة فيه سهلة — القبر — ! ! . . وهذه حقيقة لو أن نهاية الحياة هى القبر ، دون ارتباطها بالجزاء الأبدى الذى لابد أن يكون ! ! . .

على أى حال لقد بدأت قصة سمعان مع المسيح عندما سار كلاهما فى طريق الآلام ، وعندما فقد الرجل حريته وألزم بالسخرة المؤلمة التى حمل فيها الصليب . وكل مسيحى لابد أن يسير فى طريق الآلام مع هذا اليقين المرتبط بكل ألم مسيحى ، إن الآلام حقيقة ، والآلام وقتية ، . . أما أنها حقيقة فثابت من ارتباطها بصليب لا فكاك من حمله ، والصليب فى ذلك الوقت كان عاراً لا يحتمل ، وألماً لا يطاق ، والمسيحية تعلن على الدوام أنها دين غير رخيص وأنها عندما أرادت غزو العالم ، فعلت ذلك وهى تخوض بحاراً من دم الشهداء الذين لم يقبلوا الألم مسرورين فحسب ، بل دفعوا كل شيء من ذات حياتهم وهم يغنون ببهجة ، لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه ، على أن هذه الآلام إلى جانب ذلك وقتية ، « لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا أكثر ثقل مجد أبدياً » (٢ كو ٤ : ١٧) .

سمعان ومجد السخرة :

وهذا يأتى بنا آخر الأمر إلى مجد هذه السخرة الخالد ، . . لست أعلم كم خطوة خطاها سمعان ، وهو يحمل الصليب ، ولكن هل أدرك سمعان فى تلك اللحظة أنه يخطو إلى الخلود ، وأن الطريق دائماً مفتوح للخلود لكل من يحمل الصليب خلف المسيح ، وأن أعظم الملوك والأبطال الذين ظهروا على الأرض فيما بعد ، حسدوا سمعان ، وتمنوا لو أتيح لهم الشرف الذى ظفر به القيروانى القديم ! ! . . أجل ! لقد حسب موسى عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر ، وخسر بولس كل الأشياء وهو يحسبها نفاية من أجل المسيح ،

والجراح التى أصيب بها فى معارك الصليب أضحت أوسمته الخالدة التى يضمحل ازاءها أعظم الأوسمة على هامات الرؤوس أو صدور الأبطال فى التاريخ ! ! . . بعد أن قبض النازيون على دكتور مارتن نيوملر ، ذهب دكتور ترنز وهو قسيس أمريكى إلى زيارة والديه ، وقال الأب عند توديع الزائر : عندما تذهب إلى أمريكا لا تتأثر على والد ووالدة مارتن نيوملر . يمكنك أن تشفق على أى تابع للمسيح لا يعرف عظمة الفرح الموضوع أمام الذين يحتملون الصليب محتقرين العار . نعم إنه أمر مروع أن يكون لنا ابن فى المعتقل ونحن ندرك ذلك . ولكن كان يمكن أن يكون هناك شيء أشر من ذلك . لو أن الله طلب شهيداً ورفض ابننا مارتن أن يكون ذلك الشهيد ! ! . .

لقد أصبح سمعان القيروانى مع التاريخ نموذجاً ومثالا رائعاً لكل من يتحمل الألم من أجل المسيح ! ! . . ولقد قيل إن واحداً من مشاهير خدام الله ، ضاق بالاضطهاد والظلم اللذين أطبقا عليه من كل جانب ، وكان يقرأ ذات يوم الكتاب المقدس ، وإذا به يتوقف ويصرخ : يارب أرجوك أن تعطينى تشجيعاً أو وعداً يملأ قلبى بالراحة والسلام . . وأغلق الكتاب ثم عاد ليقرأ فإذا بعينيه تقعان على القول : « فسخروا رجلا مجتازاً كان آتياً من الحقل وهو سمعان القيروانى » . . وصرخ الرجل أمام الله وهو يقول : هذا كثير يارب ولست أستحق أن أكون سمعان القيروانى الذى يحمل الصليب خلف يسوع ! ! . .

نال سمعان بركة عظيمة من تلك اللحظة ، . . وعندما أراحه الجند الرومان من حمل الصليب عند هضبة الجلجثة ، كان شيئاً عجيباً أن الرجل ارتبط بالصليب بعد ذلك ، وعاش ليحمله ، وفى مدينة أنطاكية كان على الأغلب واحداً من القادة الخمسة للكنيسة هناك : « وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ولوكيوس القيروانى

ومناين الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع وشاول » (أع ١٣ : ١) . . وفى رومية وفى تحية بولس للكثيرين فيها تأتى هذه التحية العظيمة : « سلموا على روفس المختار فى الرب وعلى أمه أمى » (رو ١٦ : ١٣) . . ويرجع أنها تحية لزوجة سمعان وابنه روفس اللذين كانا على قيد الحياة ، ومن بين المسيحيين البارزين بعد موت سمعان والكسندرس ، ومن المعتقد أن البيت كله لم يتحول للمسيح فحسب ، بل أصبح أكثر من ذلك واحداً من البيوت العظيمة التى أدت أعظم الخدمات للمسيح وانجيله المبارك ! ! . .

جاء الكسندرس وروفس ذات يوم إلى أبيهما وصاحا : يا أبانا لقد عشنا نغبطك على فعلك العظيم ، عندما حملت الصليب وراء المسيح ، وكدنا نحسدك . . ولكننا لا نفعل اليوم لأن السيد دعانا إلى صليبه ، ولبينا النداء مثلك إذ قال : « إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى » (مت ١٦ : ٢٤) . . واحتضن سمعان وزوجته الولدين وغنى الجميع أغنية الصليب ، والتى يتغنى بمثلها ملايين الناس على هذه الأرض ! ! .

قابلا حمل صليبى اتبع الفادى الأمين
راضياً إنكار نفسى وارتدا العار المهين
فهو لى أسنى نصيب وهو مولاى القريب
إن جفانى الناس طرا فهو لى أسنى نصيب

١٢٠
اللص التائب

فقال له يســوع الحق اقول لك انك اليوم تكون معى فى الفردوس » (لو ٢٣ : ٤٣)

لست أظن أن هناك وصفاً أقسى وألذع من وصف برنارد شو لجلسة ودرو ولسون فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وعلى جانبيه كليمنصو الفرنسى واللورد لويد الانجليزى عند توقيع معاهدة الصلح مع ألمانيا ، إذ قال عن الثلاثة : لقد جلس المسيح بين لصين ، . . ومهما يكن من قسوة الكاتب الساخر فى التعبير ، فإنه لم يخرج عن دائرة الصواب ، إذ كان ولسون باعتباره رجلا مسيحياً يريد أن يعيش العالم بالمبادىء المسيحية الصحيحة يجاهد ما وسعه الجهد لكى يكبح جماح الانجليز والفرنسيين وهم يريدون الانتقام من الألمان ، ووضعوا بذلك — عندما عجز عن كبح جماحهم — الأساس للحرب العالمية الثانية ! ! . . ولعله مما تجدر ملاحظته كثرة ظهور اللصوص فى مسرحية الصليب ، فهناك اللص الذى ارتدى ثياب الدين ،

والذى حول بيت الله إلى مغارة لصوص ، ولم يكن قيافا أو حنان أو رجال الدين الذين قادوا الأمة فى ذلك الوقت إلا اللصوص الذين اتخذوا من الدين ستاراً لأبشع السرقات وأحطها ، . . وهناك باراباس الوطنى الذى تحول لصاً ، وأخذ المسيح مكانه يوم الصليب ، وهناك اللذان صلبا عن يمين المسيح وعلى يساره ، . . وفى الحقيقة إن الصليب دائماً يعرى الناس ويمزق عنهم ثيابهم ، ويظهرهم على حقيقتهم ، وإن شئنا الدقة ، فجميع الناس أمام المسيح لصوص سلبوا الله حقه والفرق بين لص وآخر ، هو الفرق بين لص يتوب وآخر يستمر فى إثمه وشره للحظة الأخيرة ! ! . . وإذا كان هناك مثل يقول : « هناك طريق إلى الجحيم من باب السماء ، لمن يرتد عن الإيمان ، . . فإن العكس أيضاً صحيح فهناك طريق إلى السماء من باب الجحيم ، وقد شاء الله فى إرادته العظيمة العالية أن يجعل قصة اللص التائب نموذجها الخالد على مدى الأجيال ، ويحسن لذلك أن نتابع القصة فيما يلى :

اللص وحيـــاته :

ومن هو هذا اللص ! ! ؟ . أهو اللص الذى كان عن يمين المسيح أم عن يساره ؟ لسنا نعلم ، لأن الكتاب لم يحدد ما يذهب إليه التقليد من أنه اللص الذى كان عن اليمين ، وربما جنح التقليد إلى ذلك على اعتبار أن السيد سيقيم الخراف المباركين عن اليمين ، والجداء الملعونين عن اليسار ، . . ولسنا نعلم أسمه ديسماس أم غير ديسماس ، كما تقول التقاليد ، وإن كنا نعلم بالتأكيد أن التعبير الذى استعمله متى ومرقس عن اللصين ، يفيد أنهما كانا قاطعى طريق . . والكلمة التى استعملها لوقا تعنى « المجرم » ويشجع هذا على الظن بأنه كان من الحزب الثورى المعروف بحزب الغيورين ، وربما كان باراباس من أبرز قواده ، ومن المرجح أن اللصين اللذين صلبا كانا من أظهر معاونيه ومساعديه ، وقد ذكرنا عند دراستنا عن باراباس ، بأن هذا الحزب قد

قام لمناهضة السلطة الرومانية ، وأن تيطس الرومانى قد قضى عليه قضاء نهائياً عند تدمير أورشليم ، . . كان القانون الرومانى صار ما فى معاقبتهم ، فهربوا إلى الجبال ، وعاشوا فى المغاير وقد دفعهم الجوع إلى السطو والنهب ، وهكذا هووا إلى اللصوصية والإجرام ، وأصبح السلب والقتل حرفتهم ، والفساد طبيعتهم ، ومن الثابت أنه كان على علم ودرايه بحياة المسيح لأنه يقول : « أما هذا فلم يفعل شيئاً ليس فى محله » (لو ٢٣ : ٤١) . . ولا يمكن أن يقول مثل هذا القول إلا من كان على دراية تامة بأعمال سيدنا ، . . وقد تصور البعض أن حزب الغيورين ، الذى كان يهمه أن يتعرف على أخبار السيد واتجاهاته ، كان يرسله لمعرفة موقفه ، حتى إذا بدأت الثورة على الطغيان الرومانى ، سارعوا إلى الوقوف إلى جواره ، والسير فى ركابه ، . . والبعض يعتقد أن اللص ربما كان ينتمى إلى بيت متدين ، وهناك تقليد قديم يقول إنه كان شاباً فى أوائل شبابه ، عندما تعرضت عائلة يسوع الطفل وهى فى طريقها إلى مصر لمجموعة من اللصوص كان واحداً منهم ، ولكن منظر الطفل يسوع وجماله وبراءته أثرت فيه فإذا به يقول : « أيها الطفل المبارك إذا جاء يوم تظهر فيه رحمتك لى فاذكرنى ولا تنسى ما عملته معك » . . وواضح أن هذا التقليد ليس له من سند يرتكز عليه ، . . وإنما هو فى واقع الحال الصدى أو الملامح المنعكسة عن الرواية الانجيلية عنه ! ! . .

اللص وآلامـه :

ليس من السهل على الإطلاق أن نتحدث عن آلام اللص التى لا شك كانت من أهم العوامل فى تغيير حياته ، والإتيان به إلى السيد فى اللحظة الأخيرة وقد يظن البعض أن آلام الصلب ، هى كل آلام الرجل وتعاساته ، . . لكنها فى الواقع كانت أعمق الآلام ، ونهاية مجرى النهر الطويل من المتاعب والأحزان التى عناها ، وها هو الآن وشمس حياته تسرع فى الأغوار إلى الغروب ،

وقطرات الدم النازفة منه لا تكويه فحسب ، بل تعد له العد التنازلى للساعات الباقية له على الأرض ! ! . . ها هو يستعرض تاريخه بأكمله الذى يبدو كشريط متلاحق أمام عينيه ، ممتلىء بالتعاسة والشقاء ! ! . . ترى ماذا كانت آلامه التى اجترها وهو فوق الصليب ! ! ؟ . . كانت آلام الذكرى الطفولة البريئة التى عاشها فى حياته ، قبل أن يخطو خطواته المتتابعة نحو الجريمة والشر ! ! ؟ . وما أكثر الذين تمنوا أن يرجعوا إلى مهد امهاتهم ، ليبدأوا القصة على نحو مغاير لما عاشوه ، ومع أن طلبة اللص الآخر كانت العودة إلى الأرض ، والتخلص من الصليب ، لو أمكن ذلك وهو يجدف على المسيح ، إلا أن اللص التائب لم يطلب مثل هذا الطلب ، وإن كان من المتصور أنه غرق فى آهاته وآلامه ، وهو يذكر سنواته الأولى صبياً صغيراً يشق طريقه فى هدوء وأمن وسلام ووداعة بين الناس ! ! ؟ . هل كانت الآلام هى آلام المخدوع الذى دخل الشباب بمثل عليا استهوته ، وظن فيها الإنقاذ لوطنه وشعبه ، وكان يحمل فى مطلع الأمر ، المبادىء والقيم التى ظنها ستحكمه إلى النهاية ، فإذا به كالسابح فى المياه القوية يجرفه التيار إلى ما لم يكن يخطر له على بال ! ! . . وكم من شاب بدأ بأعلى المثل وأسماها ، لينتهى على النقيض تماماً مما بدأ به ، . . أم هو التورط فى الآثام والجرائم التى يجعلها قط فى حسابه ، ولكنه مع ذلك وجد نفسه فى قلبها ، وقد غاص فى مستنقعها إلى الهامة وهو لا يدرى ! ! ؟ أم هى الحياة التى أدرك آخر الأمر أنها ضاعت وهى مقيدة بالمسامير فى ساعاتها الأخيرة على هذه الأرض ! ! ؟. أم هو العذاب الذى يشوبه شيأ بالعقوبة الرهيبة التى جعلته على الصليب معلقاً بين السماء والأرض ! ! . . قد تكون واحدة من هذه أو جميعها هى التى نهضت أمام ذهنه فى تلك اللحظة الدقيقة الحاسمة من حياته الأرضية ! ! . . على أنه أيا كان نوع الألم الذى سيطر على الرجل وهو فوق الصليب ، إلا أنه

من اللازم الإشارة إلى أن الألم وحده : كان من المستحيل أن يحكم الرجل أو يوجه أفكاره تجاه الحق الذى فى المسيح يسوع ، إذ أن هذا الألم كان مصحوباً بما هو أعظم وأهم ، ونعنى به النعمة ! ! . . أليس من الغريب أن شيئاً واحداً يحدث لاثنين على وجه كامل من المشابهة ، ومع ذلك فإن الأثرين الناتجين فى كليهما يبعد أحدهما عن الآخر بعد السماء عن الأرض ! ! . . فالنار تذيب الشمع ، ولكنها تحول الطين ليصبح قطعة من الأجر القاسى الشديد الصلابة ، . . سار اللصان فى الحياة على نهج واحد تقريباً ، وعاشا حياة اختلطت فيها الكثير من الأوضاع والأساليب والظروف : ومع ذلك فالألم الذى صعد بأحدهما إلى السماء ، هوى بالآخر إلى الجحيم ! ! . . قد نقول إن هذا هو اللغز العجيب ! ! . ولكنه مهما يكن منعماً بالأسرار الإلهية . إلا أنها النعمة ولا شك التى لا يستطيع الذهن البشرى أن يدرك عمقها وكنهها فى حياة الناس . وتشكيل قصة الحياة والموت على النحو المثير الذى نراه فى الفارق الأبدى بين اللص التائب واللص الهالك ، . . فإذا كان الظاهر فى القصة أن الألم هو الذى قاد اللص إلى المسيح ، فإن الحقيقة الخفية هى أنها النعمة المتفاضلة التى ربطت مصيره بنهر الحياة الأبدى ، على نحو ليس من السهل كشفه فى العالم الحاضر ، ولعلنا نجد فى الأبدية التفسير الكامل لما فاتنا فهمه فى الحياة الدنيا ، فإذا كان لنا أن نقنع الآن بالفحص الظاهرى ، فمن المحقق أن الألم هو الدافع الكبير الذى دفعه إلى التأمل والرؤية فى قصة حياته بأكملها ، وتقييمها دون زيف أو تصنع ، . . ألم يفعل ذلك منسى الملك القديم الذى عاث فى الأرض فساداً وملأ أورشليم دماً ، وكان الألم هو الوسيلة العظمى التى استخدمها الله فى إرجاعه إليه فقال الكتاب عنه :

فلما تضايق طلب وجه الرب إلهه » (٢ أخ ٣٣ : ١٢) . . وهل رجع يونان إلى الله ، وهو يملك حريته فى الهروب إلى ترشيش ، ألم يرجع إلى

السيد بعد صلاته فى بطن الحوت : « دعوت من ضيق الرب فاستجابنى صرخت من جوف الهاوية فسمعت صوتى لأنك طرحتنى فى العمق فى قلب البحار . فأحاط بى نهر . جازت فوقى جميع تياراتك ولججك . فقلت قد طردت من أمام عينيك . ولكننى أعود أنظر إلى هيكل قدسك . قد اكتنفتنى مياه إلى النفس . أحاط بى غمر . التف عشب البحر برأسى . نزلت إلى أسافل الجبال . مغاليق الأرض على إلى الأبد . ثم أصعدت من الوهدة حياتى أيها الرب إلهى. حين أعيت فى نفسى ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتى إلى هيكل قدسك . الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم . أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفى بما نذرته للرب الخلاص » (يونان ٢ : ١ — ٩) . . عندما تمزقت يدا اللص وقدماه صاح فى عمق الألم : « أذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك » (لو ٢٣ : ٤٢) . .

اللص وإيمانه :

كان إيمان اللص من أروع ما ارتقت إليه النفس المؤمنة فى كل التاريخ . ولعله من الواجب التعمق فى دراسة هذا الإيمان الذى لمع فى قلب الظلام . كما تلمع الدرة الفريدة فى أعماق الليل . . . لقد كان أول كل شيء هو الإيمان الحقيقى بالله ، إذ يقول لزميله الآخر : « أولا أنت تخاف الله » . . . وربما لم يكن اللص قبل ذلك ملحداً ، وعلى وجه الخصوص إذا كان من الحزب الثورى الذى كان يريد أن يطرد الغزاة ، وهو ممتلىء بروح التعصب للوطن وللشريعة . . . ولكن من الجائز أن إيمانه كان كإيمان الكثيرين الذين لا يزيد الله فى حياتهم عن اسم يرددونه أو يقسمون به فى الحق والباطل دون أن يكون له أدنى أثر فى حياتهم أو تصرفاتهم ، فهم لصوص . ومع ذلك يؤمنون بالله ، ولا بأس من النطق باسمه حتى وهم ينهبون أو يسرقون ! . فى الحقيقة . إن الإحساس بشخص الله شيء يختلف تماماً عن مجرد الإيمان

بوجوده . كل الناس يؤمنون أن الجمال الطبيعى موجود ولكن بعض الناس فقط هم الذين يحسون به بقوة ويفرحون له من قلوبهم ، بينما الآخرون لا يتحركون له بالمرة ، . . وما أكثر الناس الذين لا ينكرون وجود الله ، ومع ذلك يفقدون الشعور العميق المقنع بأنهم يتعاملون معه ، ويتصلون به ، . . تقدم رجل من متجر ولم يجد صاحب المتجر ولكنه وجد الموظف المختص بالبيع وعندئذ قال له : جونى زود الميزان قليلا فإن سيدك غير موجود الآن ! . . ونظر جونى إلى الرجل معاتباً وهو يقول : « إن سيدى موجود دائماً . كان سيد جونى هو الله الحاضر فى كل مكان ! ! . . وقد آمن به اللص وأحس بالخوف والرهبة أمامه وهو على الصليب . .

ثم إلى جانب ذلك كان له الإيمان العميق بالخطية . . لقد عاش سنوات طويلة فى حياة الفساد والشر والاثم والإجرام وهو يكاد يفكر أن هناك شيئاً اسمه خطيه ، أو أن هناك عقاباً يلحق بالخطاة والأثمة والفجار ، .. ولكنه الآن يدرك هذه الحقيقة ، وعلى وعلى وجه الخصوص وهو يقارن بين بر المسيح وشره الظاهر : « أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس فى محله » . . لقد أخذ الرجل حقيقة بالوجه البرىء المجروح إلى جواره بالسمو المرتفع تجاه شرور الآخرين الذين كانوا أشبه بالذئاب العاوية ، وعاد هو ليرى خطاياه البشعة التى سودت صفحات حياته ، وكان رائعاً وعظيما فى الاعتراف بالذنب دون أوفى لف أو دوران وهو يقبل عقوبة الله العادلة له . . .

ثم كان أيضاً الإيمان الحقيقى برحمة الله ، . . لقد بدأ هو وزميله فى تعيير المسيح ، واشترك مع الجماهير الآثمة فى لهوها المزرى وسخريتها بالمصلوب . فإذا به يسمع الصلاة : « يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » (لو ٢٣ : ٣٤) . . ولعله هنا انكسر قلبه وذاب ، عندما رأى الرقة تواجه

القسوة ، والحب يواجه البغض ، والسلام يواجه فيض الحقد والشر والحماقة والضغينة ! ! . . وهنا تحول الرجل من النقيض إلى النقيض ، وآمن برحمة الله وإحسانه وجوده وغفرانه ، . . وأدرك أنه مهما كان شره عظيما نحو السيد فإن غفران المسيح أعلى وأعظم ، ومن ثم لم يتردد فى الاتجاه إليه بالتجاوز عما فرط منه منذ دقائق خلت ! ! . .

على أن هذا الإيمان بلغ السمت والذروة وهو يؤمن بملك المسيح الأبدى ، وهو معلق على الصليب ، ولست أريد أن أقارنه بكل إيمان آخر كما فعل الكسندر هوايت ، وهو يعتقد أنه تفوق على الجميع بما فيهم ابراهيم أبى المؤمنين ، والتلاميذ جميعاً ، وسائر صحاب المسيح وأتباعه فى ذلك اليوم الرهيب . . لقد كان اللص الآخر على استعداد أن يؤمن بالمسيح إذا أنزله عن الصليب وخلص نفسه وإياهما ، كما أن التلاميذ جميعاً تبعثر إيمانهم ، ولم يستطيعوا أن يسترجعوه إلا بالصعوبة البالغة بعد القيامة ، ألم يقل تلميذاً عمواس : « كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل » (لو ٢٤ : ٢١) وألم يربط توما يقينه بوضع يديه فى أثر المسمير قبل أن يصبح « ربى وإلهى »! . لكن هذا اللص آمن بالمسيح رباً وملكاً وهو فوق الصليب وفى قلب الإهانة والعار ! ! . . لقد آمن أنه سيقوم يوماً ما ، وآمن أن المسيح المصلوب إلى جواره رب وملك،وسوف يسود ملكه الأبدى! ! . .وهو لا يريد أن يرجع كاللص الآخر إلى الحياة القديمة بالنزول من فوق الصليب ، ولكنه يأمل فى رحمة تعطيه مكاناً فى ملك المسيا الأبدى ، عندما يحكم ويسود ، وتنتهى المباذل والمفاسد من الأرض ! ! . . لقد آمن الرجل بالمسيح والأبدية ، وأعطاه الله أن ينطق بهذا الإيمان بلغة لم يرتفع إليها بشرى فى قلب الإهانة والعار ، كما فاه بها اللص التائب وهو معلق على صليبه إلى جوار المسيح المتألم المهان ، على نحو هيهات أن يتكرر مرة أخرى فى تاريخ الأجيال والعصور ! ! . .

اللص وخلاصـــه :

حقاً هناك طريق إلى السماء من باب الجحيم ، أو كما قال أوغسطينوس : « هناك حياة فى نظرة واحدة إلى المصلوب » . . ولابد أن المسيح فى انقاذ الرجل من الجحيم لم يجعله استثناء من القاعدة ، بل نموذجاً ومثالا لحقائق ثابتة لا يمكن أن تسقط أو تضيع .

الخلاص الـــكامل :

ومن الواضح أن هذا الخلاص شامل كامل ، وإذا كانت كلمة الكفارة تعنى الغطاء أو الستر ، . . فإن صليب المسيح قد غطى جميع خطاياه الأصلية والفعلية الموروثة والتى اقترفها طوال حياته على الأرض ، ولست أعلم إن كان الرجل قد قرأ أو سمع المزمور الثانى والثلاثين لداود ، إلا أننى أعتقد أن الرجل الذى تجسد المزمور فيه ، يمكن من فوق الصليب أن يغنيه لجميع الخطاة والأئمة والأشرار فى كل الأرض : « طوبى للذى غفر اثمه وسترت خطيته ، طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية ولا فى روحه غش » (مز ٣٢ : ١و٢) .

ولعله من المثير أن نلاحظ مع كامبل مورجان أن هذا الخلاص تم بدون فرائض أو معمودية أو أعمال على الإطلاق وبدون وساطة بشرية بين الخاطىء ومخلصه ، . . وهذا يقضى قضاء كاملا على الزعم بأن دخول السماء لايستطاع تحقيقه ، لمن تتح لهم فرصة المعمودية ، حتى ولو كانوا أطفالا صغاراً ماتوا عقب ولادتهم أو فى صغرهم قبل أن تلحقهم هذه المعمودية ، ولعل هذا يبدد ارتباط الإيمان بالأعمال ، إذ أن اللص سمرت يداه عن كل عمل يمكن أن يقوم به ، وقدماه عن كل سعى يمكن أن تسعيا إليه ، لقد كان الإيمان بالقلب ، والاعتراف بالفم ، هما كل ما كان يملك الرجل أن يقدمه ، وهما

الافصاح الحقيقى ظن الحياة المجددة المتغيرة التى أختبرها فى اللحظة الأخيرة ! .
لقد ولد الرجل الولادة الثانية فى يومه الأخير بل فى لحظاته الأخيرة ! ! . .
وكانت هذه الولادة هى الشرط الوحيد لدخول الملكوت والمجد : « الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أى يرى ملكوت الله » (يو٣ : ٣) .

الخلاص فى لحظـــة :

على أن الأمر أبلغ وأعمق ، متى أدركنا أن خلاص اللص تم فى لحظة واحدة . والخلاص فى الأساس لقاء النفس مع المسيح وتسليم الحياة له . ولم يعلق السيد نفس اللص لحظات من الزمن طالت أو قصرت ، بل أكد له أن اليوم لن ينقضى حتى يلتقى كلاهما فى الفردوس . ولا حاجة إلى القول بأن المسيح لم يورد هنا أدنى إشارة إلى المطهر أو مكان راحة تستقر فيه النفس إلى يوم القيامة ، . . وهنا لابد أن نشجب بقوة مزاعم السبتيين أو شهود يهوه الذين يزعمون أن النفس تنام إلى يوم القيامة ، ثم تنهض ليبقى المؤمنون ويتلاشى الأشرار ، . . إن كلمة اليوم تقف فى مواجهة هذه الضلالة وتقتلها قتلا ! ..
ولا يمكن أن تذهب النفس إلى مكان للتطهير . وتحتاج إلى الصلوات أو الشفاعات الكنسية أو ما أشبه . لكى تطير بعد ذلك إلى الفردوس ، فقصة اللص التائب تقف فى وجه هذا التفسير بكل قوة وضوح ! ! .

والخلاص فى لحظة هو التبرير الكامل للمذنب الآثم الذى حل المسيح محله ، وأخذ مكانه فى الموت والعقوبة ، ومن المعروف أن المسيح مات على الصليب قبل اللصين ، ولأجل ذلك لم تكسر ساقاه كما كسرت سيقان اللصين ، . . وانتظر المسيح فى الفردوس ، اللص التائب الآتى إليه ، . .

وتم كل هذا فى لحظة عجيبة مذهلة دون أدنى شبهة أو تردد ، وإذا كان هناك من فارق بين اللص وغيره من المؤمنين الذين يعيشون فى صراع الحياة على الأرض ، فهو أن التبرير والتقديس والتمجيد تمت جميعها فى لحظة واحدة ، . . أما فى سائر المؤمنين فإن التبرير يتم فى الحال بقبول السيد ، ويصبح المؤمن بلمسة الحياة من المسيح ، ابناً ووارثاً للحياة الأبدية ، . . ومتمتعاً بالخلاص ، ومضموناً فى السيد ، إلى أن ينتهى إلى المجد ! ! . . يقول الرسول يوحنا فى مطلع انجيله : « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله » (يو ١ : ١٢و١٣) . . ولعله من الطريف أن نذكر هنا أن أحد القسوس تعود أن يلتقى بضابط فى فى جيش الخلاص ، فى سفرهما فى عربة السكة الحديدية ، وقد تعود الضابط أن يقول للقسيس : « هل أنت مخلص ! ! ؟ . وصار الرجل ماذا يقول . . وسأل الأسقف مول : ماذا يكون جوابه لو كان فى محله ، وأجاب الأسقف وكان عالماً متضلعاً ، وقديساً عظيماً ، : يمكن أن أسأله ماذا تقصد بكلمة مخلص ؟ أهى الكلمة « Sotheis » « سوزيس » والتى تشير إلى الماضى وتعنى التبرير الذى تم دفعة واحدة بالولادة الجديدة ، أم تقصد Sozomenos « سوزومنيس » وتشير إلى الحاضر فى مكافحة الخطية والشر ، . . أم تقصد الكلمة Sesosmenos سوزوسمينس » وتشير إلى المستقبل عندما يعبر المؤمن إلى الأبدية سالماً مضموناً لن تعود تحيط به التجارب والمتاعب والآثام مرة أخرى ! ! . . لقد عبر اللص فى يوم واحد ، وفى لحظة واحدة إلى حياة التبرير والتقديس والتمجيد ! ! . .

صلى أحد القديسين لله وهو يقول إن النعمة التى أعطيتها للرسول بطرس أعظم منى ، والإحسان الذى قدمته للرسول بولس أعلى من أن أصل إليه ، . .

وكل ما أرجوه أن تمنحنى الرحمة التى أعطيتها للص التائب ! ! . . وقال آخر : عندما تذهبون إلى السماء وتبحثون عن مكانى ، فإن أقرب الناس الى ليس بطرس أو بولس أو واحد من تلاميذ المسيح ! ! . . إن المكان الذى ستجدونني فيه هناك بجوار اللص الذى اتسع له غفران المسيح ، وهو يصيح : اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك » وجاءه الجواب العظيم « الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس » ! ! . .

لقد نفذت الطبعة الأولى بعد صدورها بوقت وجيز . فهذا الكتاب دراسة تتناول أربعين رجلاً من رجال العهد القديم . نقدمها للقارىء العربى . وهو بقلم كاتب عرف بدقة البحث وبأسلوبه المشوق الجذاب .

وهو فى غنى عن كل حديث .

الدراسة تصدر فى أربعة أجزاء وتتناول مئة وستين رجلاً من رجال الكتاب المقدس

دار الثقافة